٤٨٢٥٩

مأساة لبنان

في الشعر العربي

الدكتور

محمد سالمان

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٨١١.١١٩ سالمان ، محمد .
س . م

مأساة لبنان في الشعر العربي / د.محمد سالمان .- ط١.- دسوق: العلم والإيمان للنشر والتوزيع ،٢٠١١.

٥٠٦ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : 4-339- 308 – 977 – 978

١. الشعر العربي – تاريخ ونقد أ - العنوان .

رقم الإيداع : ٣٢٣٢.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحـذيـر:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2011

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى الأشلاء العربية

المـ ت ن ا ث ر ة

من الخليج ..

.. إلى المحيط.

محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، نور الأنوار، وسر الأسرار، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم... وبعد؛

فتحتل لبنان مكانة جغرافية مهمة؛ فهي إحدى البوابتين اللتين تربطنا بالجانب الأوربي، وهي إحدى المداخل الآسيوية للبحر المتوسط، وهي أيضًا مصدر الأمان لبيت المقدس من الناحية الشمالية، وهي أيضًا إحدى الدول التي تضم عددًا من الطوائف العقائدية المختلفة، فضلاً عن تعدد الأحزاب السياسية وما لها من رؤى مختلفة، الأمر الذي يجعلها دولة فريدة من نوعها، فهي تضم مسلمين ونصارى، وملل وطوائف أخرى.

وقد تعرضت لبنان منذ القديم لحملات غازية؛ لمكانتها الجغرافية المتميزة، كما أن العديد من الدول الاستعمارية لها أنصار ومؤيدون داخل القطر اللبناني، الأمر الذي يدعو هذه الدول لفرض سيطرتها على لبنان.

ونظرًا لجغرافية المكان، فقد فُرضت عليها عدة معارك مع الجانب الإسرائيلي، وما زالت هذه المناوشات حتى الآن.

وحينما أصدرت كتابي «فلسطين في الشعر المصري» الذي تناول طبيعة الصراع العربي - الإسرائيلي، وكيف عبَّر الشعراء المصريون عن هذا الصراع، وقد لاقى الكتاب قبولاً واستحسانًا على الجانبين الأدبي والنقدي، الأمر الذي جعلني أردف هذه الحلقة، بحلقة أخرى توضح طبيعة الصراع العربي - الإسرائيلي، وقد وقع اختياري هذه المرة على الدور اللبناني، لما ارتكبه الإسرائيليون فيها من مذابح يندى لها جبين الإنسانية، كمذبحتي صبرا وشاتيلا ومجزرتي تل الزعتر، وقانا.

هذا وقد بحثت كثيرًا في مكتبات مختلفة ببلدان عربية كثيرة عن دراسات تقترب من هذه الدائرة، وباءت كل محـاولاتي بالفشل، وكان ذلك دافعًا آخر لمواصلة الدراسة، فقطعت فيها شوطًا كبيرًا .. ولكني - بمحض الصدفة - وجدت كتابًا للدكتور إبراهيم الوحش بعنوان «مأساة بيروت في الشعر العربي المعاصر.. دراسة تحليلية نقدية»، والكتاب طُبع على نفقة المؤلف عام ١٩٩٢م بمدينة دبي بالإمارات العربية المتحدة. والحقُّ أن المؤلف قدْ بذل جهدًا كبيرًا في كتابه، ورجع لكثير من المصادر والمراجع، واستقى بعض معلوماته من مصادر شفاهية من إناس شاهدوا الأحداث وعاصروها، الأمر الذي جعلني - بداية - أتراجع عمّا شرعت فيه، وألملم مسوَّدات أوراقي، ولكن بُعْد المسافة الزمنية لطبع الكتاب، وهي حوالي عشرين عامًا، استُجدت خلالها أحداث كثيرة كحرب الأيام السبعة ١٩٩٣م، ثم العدوان الإسرائيلي على لبنان في إبريل ١٩٩٦م، وحرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦م وغيرها .. كما أن طبع الكتاب على نفقة المؤلف يعطي مؤشرًا بمحدودية الطباعة، إضافة إلى إغفال عدد من الدول العربية لم تشر إليها الدراسة مطلقًا كالمغرب والجماهيرية الليبية وموريتانيا وعُمان، فضلاً عن أن الكتاب لم يضع الشعر داخل إطار الدراسة الفنية وما فيه من استلهامات تراثية، إضافة إلى عدم وجود مقدمة توضح الطوائف والملل المتناحرة داخل القطر اللبناني وأثر ذلك في الحروب الأهلية.

كانت هذه دوافعي لاستكمال دراستي، فأضيف على الدراسة السابقة ما استجد من أحداث، وأكمل ما غفل عنه من دول، إضافة إلى دراسة هذه الأشعار دراسة فنية والتقاط ما بها من ظواهر فنية.

ليس معنى هذا أنني وضعت هذا الكتاب أرفف مكتبتي وأعرضت عنه، ولم أرجع إليه، فالحقُّ أنني رجعت إليه كثيرًا وضمَّنت كثيرًا من محتوياته داخل هذا الكتاب، إضافة إلى تقسيماته الداخلية، التي كانت بمثابة الخطا التي سرت عليها في كتابي، فله الشكر والمنة، ويكفيه - فخرًا - أنه أول من ألقى بدلوه في هذا الجُبِّ الإبداعي، في الوقت الذي أغفل فيه الكثيرون قضايانا القومية وأثرها في الدرس الأدبي.

وقد قسَّمت كتابي إلى أربعة أبواب:

فأما **الباب الأول**، وهو بعنوان «لبنان بين التاريخ والسياسة والصراعات الإسرائيلية»، وقد انقسم إلى ثلاثة فصول، وهي:

الفصل الأول: ويدرس لبنان من الناحية التاريخية والتنظيم السياسي بها.

الفصل الثاني: وهو بعنوان «الموقف اللبناني من القضية الفلسطينية».

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:

أ - لبنان والمقاومة الفلسطينية.

ب - دخول المقاومة بيروت.

المبحث الثاني:

أ - الحرب الأهلية.

ب - مجزرة تل الزعتر.

جـ - اجتياح إسرائيل للجنوب اللبناني عام ١٩٧٨م.

المبحث الثالث:

أ - احتلال الجنوب اللبناني وبيروت ١٩٨٢م.

ب - حصار بيروت.

جـ - مذابح صبرا - شاتيلا.

أما **الفصل الثالث:** وفيه مبحثان:

المبحث الأول: خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت.

المبحث الثاني: أحداث ما بعد الخروج إلى حرب تموز ٢٠٠٦م.

أما **الباب الثاني:** بعنوان «تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين».

وينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين في لبنان.

الفصل الثاني: تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين في الأرض المحتلة.

الفصل الثالث: تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة.

أما **الباب الثالث:** وهو بعنوان «مواقف الشعراء العرب تجاه المأساة»، وينقسم إلى فصلين:

الفصل الأول: مواقف الشعراء العرب في الجناح العربي الآسيوي.

الفصل الثاني: مواقف الشعراء العرب في الجناح العربي الإفريقي.

أما **الباب الرابع:** دراسة فنية، وينقسم إلى فصلين:

الفصل الأول: اتجاهات الشعر الفنية حول المأساة.

الفصل الثاني: استلهام التراث في شعر المأساة، والظواهر الفنية فيه.

وبعد، فهذه محاولة صادقة، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن كانت الأخرى فمني الخطأ والتقصير، والله أسأل التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. محمد علوان سالمان

القاهرة في: ١٦ مارس ٢٠١٠م

الباب الأول

لبنان بين التاريخ والسياسة والصراعات الإسرائيلية

الفصل الأول

لبنان من الناحية التاريخية والتنظيم السياسي بها

تقول رواية شعبية موغلة في القدم: إن لبنان جزء من أرض الميعاد، منذ دعا الله إبراهيم من وطنه إلى هذه الأرض ليجعله أبًا لشعب عظيم في أرض جيدة. وعده إجمالاً بجميع أرض كنعان، قال له:

«انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك.. لنسلك أعطى هذه الأرض... ارفع طرفك وانظر من الموضع الذي أنت شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا. إن جميع الأرض التي تراها لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (سفر التكوين، الإصحاح ١٢، ١٣).

لبنان الحقيقي، هو سلسلة الجبال الغربية، وعرفت هذه البقعة باسم لبنان منذ العهد الروماني، على حين كان يطلق على السلسلة الشرقية اسم أنتي لبانوس Antilibanos، أي لبنان المقابل، والسلسلتان كانتا فيما مضى من العصور الجيولوجية سلسلة جبال واحدة، تبدأ من جبل اللكام في سورية، وتنتهي جنوبًا بجبال سيناء المرتفعة في مصر، يجيء لبنان - واقعًا - في وسط هذه السلسلة، وهو أعلى جزء فيها، وأكثرها نتوءًا ووعورة، وأروعها منظرًا، وأطرفها بلدًا، ويحمل خصائص سكان الجبل بكل ما فيه من معنى، فيتصف أهله بالشموخ والتعالي والاعتزاز والاستقلالية وشدة الإحساس.

هذه السلسلة الغربية التي حملت اسم لبنان أشبه بهيكل عظمي تكسوه سهول هنا ومنخفضات هناك، وهو أول حاجز يقف في سبيل الاتصال بين البحر المتوسط والبلدان الشرقية الواقعة وراءه، وتمثل حاجزًا قويًا قل أن تجد فيه ثغرة أو معبرًا يسهل اجتيازه، وقممها العالية مغطاة بالثلوج، وكانت - وما زالت - مصدر إلهام للشعراء والكتاب، ومعاقلها معتكف روحي للنساك والعباد.

تعود هذه التسمية إلى أربعة آلاف عام تقريبًا، والكلمة مشتقة من أصل سامي مشترك بين كل اللغات التي انحدرت عن السامية، وهي: العربية والسريانية والآرامية والعبرية واليمنية الجنوبية والحبشية القديمة (الجعزية)، وأصل الكلمة: (ل ب ن)، أي اللبن، وأريد من الكلمة لازمها وهو البياض، وأخذ من تكلل هامة جباله بالثلج الدائم، رغم ما للشمس من حرارة في مثل موقعه، فهو يغطي قممها قرابة ستة شهور في العام.

وهناك من يرى أن الصخور الكلسية البيضاء التي تغطي أعالي جبالها دائمًا هي التي أوحت بهذه التسمية، ولكني أميل إلى التعليل الأول؛ لأن الكثير من الصور الجمالية التي تفيض بها التوراة تتكئ على جبال لبنان، ويرد اسمه في العهد القديم من التوراة مرات كثيرة، وفي أسفار متعددة، وقد يتكرر ذكره في الإصحاح الواحد، ولنأخذ مثلاً من سفر، نشيد الإنشاد، الإصحاح الرابع، الآيات من ٨ إلى ١٥:

«هلمي معي من لبنان يا عروس، معي من لبنان.. قد سبيت قلبي بإحدى عينيك بقلادة واحدة من عنقك. ما أحسن حبك يا أختي العروس، كم محبتك أطيب من الخمر، وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب. شفتاك يا عروس تقطران شهدا. تحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان. أختي العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم، أغراسك فردوس رمان مع أثمار نفيسة... وعود مع كل أنفس الأطياب، ينبوع جنات، بئر مياه حية وسيول من لبنان.

وفي سفر أرميا، الإصحاح الثامن عشر، الآية ١٤:

«هل يخلو صخر حقلي من ثلج لبنان؟ أو هل تنشف المياه المتفجرة الباردة؟».

وقد ضبط ياقوت الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ) في كتابه معجم البلدان لُبنان بضم اللام، وأورد لنا شعرًا فيه لابن الخراساني الطرابلسي يقول:[1]

ولا تعتبوني إذا خرجت مغاضبا

فمن بعض ما في ساحل الشام يغضب

وكيف التذاذي ماء دجلة معرقا

وأمواه لبنان ألذ وأعذب؟

ونلتقي بالكلمة بالضبط نفسه في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ)، وذكر أن ابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ)، وهو من أوائل اللغويين قال: قال رجل من العرب لرجل آخر:

لي إليك حويجة، قال: لا أقضها حتى تكون لبنانية، أي: عظيمة.

ولكن أيًا من اللغويين أو أصحاب المعاجم، لم يشر إلى معنى الكلمة، أو إلى الأصل الذي اشتقت منه.

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان: ٥/ ١١، والخراساني الطرابلسي: أحمد بن الحسين بن حيدرة.

بقي أن أشير إلى أن طائفة من اللبنانيين تنطقها بكسر اللام «لِبنان»، وأحسب أن هذا النطق لهجة ضاربة في القدم[1]؛ وليس خطأ؛ لأنها لا تقف عند لفظ لبنان وحده، وإنما توجد في مجمل الأسماء التي تبدأ بحرف مضموم، فهم يقولون مثلاً:

لِبنان كِله، بكسر اللام والكاف.

وهي لهجة قديمة يمكن أن تختفي مع شيوع الثقافة[2].

* *

أولاً: موجز تاريخ لبنان:

كانت لبنان قبل أن تدخلها المسيحية بلدًا فينيقيًا بمعنى أن الفينيقيين كانوا بها في العصور السابقة للتاريخ المسيحي، وقد استقر الفينيقيون في منطقة الساحل المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن لهم حكومة موحدة، وإنما كانت كل مدينة تؤلف دويلة مستقلة تنشر سلطانها على المدن والقرى القريبة منها، وقد أدى هذا التفرق والتنافس بين المدن في المجال السياسي والديني إلى الحيلولة دون تأسيس دولة فينيقية واحدة تستطيع أن تجابه العدوان، وكان دين الفينيقيين هو الدين الوثني.

وقد انتقل إلى لبنان دين آخر - غير الوثني - عبر إليه من أرض فلسطين وهو التوحيد، وقد حافظ العبرانيون على عنصريتهم واستقلالهم عن باقي السكان وتكتلهم الطائفي وعدائهم المستمر للسكان اللبنانيين الوثنيين مما جعلهم يلاقون الاضطهاد من جانب المواطنين الوثنيين، إلا أن هذه الصورة قد أخذت صورة العداء اليهودي - الوثني في لبنان، وهذا العداء قد توقف نوعًا ما في القرن الميلادي الأول على أثر انتشار المسيحية في لبنان لوقوف الوثنيين واليهود صفًا واحدًا أمام الدين الجديد.

ثم دخل الإسلام لبنان على مراحل وفترات متعددة **ابتداءً من عهد الأمويين**، إلا أن الطابع العام في لبنان ظل حتى القرن الثالث عشر مسيحيًا، ولم يصبح للمسلمين كيان واضح في لبنان، إلا حين دخلت الجيوش الصليبية الشرق الأوسط غازية، فأرسل

---

(١) د. الطاهر أحمد مكي: مجلة الهلال، سبتمبر ٢٠٠٦م القاهرة.

(٢) وجدت قبائل عربية تكسر الحرف الأول، خاصة إذا كان حرف مضارعة، كما يصنع المصريون، وربما كسر الأول في لبنان يمتد إلى جذور بعيدة لهذه اللهجات، انظر: اللهجات العربية في التراث، د. أحمد علم الدين الجندي: ١/ ٣٨٨ وما بعدها.

المماليك قواتهم المسلحة لتحاربهم وتحول دون اتصال مسيحيي لبنان بهم؛ لأن مسيحيي لبنان كانوا يمدون يد العون للصليبيين.

«وقد تأثر سكان لبنان المسيحيون بهذه الحروب، التي قامت تحت راية الصليب وباسم حماية الأرض المقدسة، وقد كانت النتيجة انحياز المسيحية في لبنان - وخاصة الموارنة - إلى صف الصليبيين أثناء هجومهم على سوريا، ثم أثناء إقامتهم فيها وحتى انسحابهم منها، في حين أن المسلمين في لبنان أظهروا العداء للصليبيين منذ وصولهم، بل شنوا عليهم الغارات واعتصموا داخل لبنان ضد الصليبيين»[1].

ثم انتقل لبنان إلى الحكم العثماني، إلا أن طائفة الدروز (المحمديين)، وطائفة الموارنة (المسيحيين) ظلت تتحكم في أمور البلاد طوال حكم العثمانيين.

وفي عام ١٨٣١م استولى إبراهيم باشا - ابن محمد علي باشا الكبير حاكم مصر - على لبنان، ومنذ ذلك التاريخ ولبنان يخضع للحكم المصري مباشرة، وقد أبرم حاكم لبنان في ذلك الوقت الأمير بشير تحالفًا مع إبراهيم باشا، ولكن سكان لبنان رفضوا هذا التحالف وأعلنوا الحرب عليه. وخرج الجيش المصري من لبنان عندما تدخلت الدول الأوروبية في السياسة العثمانية، وانتهى الأمر بمعاهدة لندن عام ١٨٤٠م، ومنذ هذا التاريخ بدأ التدخل الأجنبي المباشر في لبنان، ولم يكن هذا التدخل وقفًا على دولة دون الأخرى، ففرنسا وجدت في الطائفة المارونية ذريعة للتدخل، وإنجلترا تذرعت بحماية تجارتها وتدخلت في شئون لبنان، ثم استطاعت بسياستها أن تكسب صداقة الطائفة الدرزية، وروسيا أيضًا تحججت بأنها مسئولة عن حماية الأرثوذكسية في الدولة العثمانية.... إلخ.

وقد خلق خروج الجيش المصري من لبنان فراغًا كبيرًا استغله الكثيرون للتدخل في لبنان بحجة فض النزاع بين الطوائف اللبنانية المختلفة، إلا أن السلطان التركي كان يعرف أهداف الدول الأجنبية في لبنان فقرر تنصيب والي عثماني واحد على جميع الأراضي، وكان ذلك عام ١٨٤١م، واحتجت الدول الأجنبية على قرار السلطان العثماني، فرضخ خوفًا من تدخل هذه الدول في سياسة لبنان ووافق في عام ١٨٤٢م على منح «جبل لبنان» بعض الامتيازات ووافق على أن يكون للوالي العثماني نائبان أحدهما درزي،

---

(١) أنيس صايغ: لبنان الطائفي، بيروت ١٩٥٥م، ص ٧٣.

والآخر ماروني، وكل منهما يرعى شئون الطائفة التي ينتمي إليها.

وفي عام ١٨٥٣م أرسل قيصر روسيا يطلب من السلطان العثماني الاعتراف بحق روسيا الشرعي في حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ورفض السلطان هذا الطلب، ولكنه أمام ضغط روسيا وافق على منحها حق الإشراف على الأرثوذكس في الدولة العثمانية تنفيذًا لمعاهدة «كينارجي»[١].

إلا أن مآسي الفتن الطائفية عادت عام ١٨٥٧م تطل برأسها مرة أخرى على لبنان، وانتهت بوقوع المذبحة الفاصلة التي يطلق عليها مذبحة ١٨٦٠م والمشهورة «بمذابح دير القمر».

«ووجدت دول أوربا فرصتها في هذه الفترة فعقدت في الثالث من أغسطس عام ١٨٦٠م مؤتمرًا في باريس حضرته كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا، ثم انضمت إليه تركيا، وقرر المؤتمر شرعية التدخل الأجنبي في شئون لبنان، وعهد إلى كل من فرنسا وإنجلترا بالتدخل العسكري لإحباط الفتنة القائمة، وفعلاً نزل الجيش الفرنسي في نفس الشهر مدينة بيروت، وفي أوائل أكتوبر من نفس العام عقد مجلس دولي في بيروت يضم قناصل الدول ذاتها - التي اجتمعت من قبل في باريس - للبحث في قضية لبنان، غير أن تضارب المصالح السياسية المختلفة للدول المؤتمرة حالت دون اتفاقهم على مشروع موحد. وكانت النتيجة وضع مشروع جديد وافق عليه الجميع، يعرف باسم «بروتوكول لبنان»[٢].

وقد اشتمل بروتوكول لبنان على نقاط مهمة هي:

١ - منح جبل لبنان استقلالاً إداريًا على أن يديره حاكم مسيحي من غير أهل لبنان، ويكون تعيينه بناء على اقتراح الدولة العثمانية، وتوافق عليه الدول الكبرى، ومدة ولايته خمس سنوات.

٢ - أصبح لبنان إقليمًا واحدًا ولم يصبح منطقتين إحداهما للدروز، والأخرى للموارنة، ولكن قُسِّم إلى خمس مديريات، وإلى عدد من «القائمقاميات».

وكان نتيجة هذا البروتوكول سلخ بعض الأجزاء عن لبنان ومعظمها مناطق إسلامية

(١) فطين أحمد فريد: حروب لبنان، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م، ص ١٦.

(٢) دكتور حمدي الطاهري: سياسة الحكم في لبنان، القاهرة ، ط١، ١٩٧٦م، ص ٤٩.

مثل صيدا وطرابلس وبيروت. وانحصر لبنان الجديد في ثلاثة أخماس لبنان القديم، وأطلق عليه اسم «لبنان الصغير»، وقد كان الهدف من ذلك أن يكون وجه لبنان الغالب مسيحيًا، حتى يسهل لهذه الدول السيطرة عليه!

وظل لبنان يتمتع عقب توقيع هذا البروتوكول بالاستقرار والحكم الذاتي حتى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، ودخلت تركيا الحرب بجانب ألمانيا وسارع القائد التركي جمال باشا إلى احتلال لبنان وإلغاء استقلاله الفعلي وإلغاء الامتيازات الأجنبية.

إلا أن ذلك لم يمنع فرنسا من أن توثق علاقاتها يومًا بعد يوم بلبنان حتى تم وضعها تحت الانتداب الفرنسي المباشر بعد الحرب العالمية الأولى.

وكان إعلان انتهاء الحرب العالمية الأولى بمثابة تحرير البلاد العربية في آسيا من الحكم العثماني، إلا أن قوات الحلفاء التي قضت على حكم العثمانيين وجدت أنها أحق باحتلال هذه البلاد والاستفادة بخيراتها، وكانت اتفاقية «سايكس بيكو» من أكبر العوامل التي شجعت فرنسا بالتمسك بسوريا ولبنان.

وفي ذلك الوقت أبدى الموارنة رغبتهم في أن تمنح فرنسا حق الإشراف على لبنان، أو أن يوضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي في حين أن غالبية العرب في سوريا كانت تكن العداء لفرنسا، وكان من رأيهم أنه إذا كان لا مفر من وضع بلادهم تحت إشراف دولة أجنبية، فلتكن هذه الدولة إنجلترا أو أمريكا.

وفي نوفمبر عام ١٩١٨م وجهت الحكومة البريطانية الدعوة للأمير فيصل للتباحث معها رسميًا في مستقبل سوريا والبلاد العربية، وهناك أوضح له الساسة البريطانيون بصراحة أن إنجلترا رغم عطفها على أماني العرب فإنها غير مستعدة للدخول في نزاع مع فرنسا بشأن موضوع سوريا.

وفي مطلع عام ١٩١٩م عقد «مؤتمر فرساي»، وناقش الموضوعات المترتبة على انتهاء الحرب وما حدث من تغيير في خريطة العالم نتيجة لذلك، وكان من موضوعات البحث موضوع الإمبراطورية العثمانية.

وفي ٣٠ من يناير صدر قرار عن المؤتمر يقضي بفصل جميع المناطق العربية عن الإمبراطورية العثمانية ووضعها تحت نظام جديد في ظل إشراف عالمي، وأطلق على هذا النظام «نظام الانتداب».

وفي هذا المؤتمر طالب الأمير فيصل الحلفاء بتنفيذ وعودهم، إلا أن بعض المندوبين اللبنانيين ذوي الميول الفرنسية الذين حضروا المؤتمر دون أن يكون لهم أية صفة تمثيلية طالبوا باستقلال لبنان ووضعه تحت الانتداب الفرنسي.

أما الصهاينة فقد أوفدوا مندوبين عنهم أمام المؤتمر لأخذ تصديق على وعد بلفور - الذي صدر عام ١٩١٧م - على أن توضع فلسطين تحت الانتداب الإنجليزي... إلا أن المؤتمر لم يتخذ أي قرار في هذا الشأن.

وفي ٢٠ من مارس عام ١٩١٩م أعلنت فرنسا في «مؤتمر السلام» أن سوريا ستعامل على أساس أنها وحدة لا تتجزأ، وأنها ستوضع تحت الانتداب الفرنسي، وأما بالنسبة لفلسطين فقد اقترح أن تخصص لها إدارة دولية نظرًا لوضعها الخاص. وهكذا انتهى مؤتمر فرساي دون الوصول إلى اتفاق بشأن مستقبل البلاد العربية[1].

ولذلك تطورت الأمور بعد هذا المؤتمر الذي لم يحقق العرب ما كانوا يصبون إليه وحاول القوميون العرب تحدي الدول الكبرى، لكنهم فشلوا في ذلك، ثم عقد مؤتمر «سان ريمو» في ٢٦ من أبريل ١٩٢٠م لتقرير مصير أراضي الإمبراطورية العثمانية، وتقرر أن توضع المناطق الشمالية في سوريا تحت الانتداب الفرنسي والمناطق الجنوبية تحت الانتداب الإنجليزي بما في ذلك الالتزام بتنفيذ وعد بلفور، وردًا على ذلك أعلن الأمير فيصل أنه يرفض الاعتراف بأي نوع من الحكم الأجنبي على أراضي سوريا وفلسطين، وكان ذلك بداية التحدي.

ونتج على هذا التحدي دفع فرنسا بقواتها الموجودة في لبنان تجاه دمشق لاحتلالها ووقعت معركة «ميسلون» الشهيرة وقضي على القوات السورية ودخلت القوات الفرنسية مدينة دمشق في ٢٥ من يوليو ١٩٢٠م، وهرب فيصل، وثبتت فرنسا أقدامها.

وقد اعترفت تركيا في معاهدة «سيفر» عام ١٩٢٠م بالأمر الواقع.

وفي عام ١٩٢٢م اجتمعت عصبة الأمم المتحدة في لندن وبحثت موضوع الأراضي التي كانت واقعة تحت الحكم التركي وأمنت فرنسا وإنجلترا على حقهما في وضع يدهما في تلك المنطقة متجاهلة المبادئ الرئيسية الموضوعة أمامها، وخاصة تلك التي تنص على حق تقرير المصير.

---

(١) حروب لبنان، مصدر سابق: ص ١٨.

وكانت معاهدة «لوزان» التي عقدت بسويسرا عام ١٩٢٤م خاتمة المطاف في تأكيد حق فرنسا الشرعي والدولي في إدارة سوريا ولبنان، ومنذ ذلك الحين عملت فرنسا على توسيع رقعة لبنان على حساب الأراضي السورية، وكان قد ظهر لأول مرة لبنان الكبير، حيث أعلن الجنرال «جورو» باسم فرنسا قيام لبنان الكبرى، فانضمت إليه معظم المدن الكبرى حاليًا، وهي: بيروت وصيدا وطرابلس وسهل البقاع وبعلبك وراشيا ومرجعيون.

وقامت فرنسا بحكم لبنان حكمًا مباشرًا إلى أن أعلنت عام ١٩٢٦م بناء على رغبة الوطنيين اللبنانيين قيام جمهورية لبنان، وكان علم الدولة هو علم فرنسا مضافًا إليه شجرة الأرز، وصدر الدستور اللبناني الأول في العام نفسه، ورغم صدور الدستور فإن وضع فرنسا لم يتغير من الناحية الواقعية فقد ظلت صاحبة اليد الطولى في كل شيء. كل ما تغير هو أنها أصبحت تحكم من خلال واجهة لبنانية.

وفي عام ١٩٣٩م قامت الحرب العالمية الثانية، وأعلن المفوض السامي الفرنسي في سبتمبر الأحكام العرفية، وأوقف العمل بالدستور، وحل المجلس النيابي، وحد من سلطات رئيس الجمهورية.

وفي يوليو عام ١٩٤٠م احتل الألمان باريس بعد دخول إيطاليا الحرب بجانب ألمانيا، وقامت حكومة «فيشي» الموالية لألمانيا، وبالرغم من المحنة التي واجهتها فرنسا فإنها أعلنت على لسان الجنرال «منتل هوزر» بأنه لن يحدث أي تغيير في وضع الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي، وأن فرنسا ستستمر في تأدية رسالتها في سوريا ولبنان.

وفي ١٨ من أبريل عام ١٩٤١م أعلنت حكومة «فيشي» انسحابها من عصبة الأمم، وبذلك فقدت فرنسا حقها الشرعي في أن تكون دولة منتدبة على سوريا ولبنان، وبدأ الوعي الشعبي في هذه البلاد يطالب بالاستقلال والحرية.

وفي ٢١ من سبتمبر عام ١٩٤٣م تم لأول مرة في ظل الحكم الفرنسي انتخاب رئيس جمهورية للبنان[1] بواسطة المجلس النيابي المنتخب. وفي أواخر عام ١٩٤٣م تمكن لبنان من الحصول على استقلاله السياسي.

---

(١) كان أول رئيس لجمهورية لبنان هو الشيخ بشارة الخوري.

ومرت الشهور وما زالت القوات الفرنسية في لبنان حتى اضطرت فرنسا إلى عقد اتفاقيتين مع لبنان - الأولى في ٢٢ من ديسمبر عام ١٩٤٣م، والثانية في الخامس من يناير عام ١٩٤٤م - تم بموجبها نقل السلطات من الإدارة الفرنسية إلى الحكومة اللبنانية. وفي عام ١٩٤٥م دخلت لبنان جامعة الدول العربية، وفي نهاية ديسمبر عام ١٩٤٦م أصبح لبنان دولة كاملة السيادة له حرية التصرف داخل حدوده دون أن يقيد هذا الحق أي تدخل أجنبي مباشر.

ثانيًا - التنظيم السياسي في لبنان:

كان التنظيم السياسي في لبنان منذ أن اتخذت الترتيبات لإجراء اتحاد سوري يضم كلاً من دول دمشق وحلب ودولة العلويين، وحتى استقلال لبنان النهائي. فالاتحاد السوري قد استبعد منه دولتا لبنان وجبل الدروز، وقد أعطيت للاتحاد سلطات تشريعية واسعة تمارس عن طريق مجلس اتحادي يتكون من مندوبين تختارهم المجالس التمثيلية التي كانت قد أنشئت داخل الدول الأعضاء في الاتحاد، إلا أن هذا الاتحاد لم يدم طويلاً، إذ أعلن انتهاؤه في ديسمبر عام ١٩٢٤م على يد الجنرال «فيجوند».

وفي يناير عام ١٩٢٥م تم اتحاد دولتا دمشق وحلب داخل إطار دولة واحدة أطلق عليها «دولة سوريا» عاصمتها دمشق، وينضم إليها لواء الإسكندرونة، وظلت دولة العلويين باقية دون أن يربطها بالدولة الجديدة أي رابطة.

ويمكن القول بأن التنظيم السياسي للمنطقة قد تطور، وانتهى بعد عدة تجارب إلى أن الأراضي الخاضعة للانتداب الفرنسي قد تفتتت إلى أربع وحدات سياسية مختلفة ابتداء من عام ١٩٢٥م، وهي:[١]

١ - دولة لبنان الكبرى.

٢ - دولة سوريا.

٣ - دولة العلويين.

٤ - حكومة جبل الدروز.

وظل هذا النظام قائمًا دون أن يطرأ عليه أي تعديل حتى عام ١٩٣٦م، حيث ألحقت

---

(١) أبحاث في التنظيم الإداري - الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية، ١٩٥٩م.

في ذلك العام كل من دولتي العلويين وحكومة جبل الدروز بالدولة السورية. وفي عام ١٩٣٩م أعيد لكل دولة استقلالها التام مرة أخرى. وفي عام ١٩٤٢م عادت المجموعة مرة ثانية للدخول في رحاب الدولة السورية[١].

* * *

الطوائف في لبنان

تتعدد الطوائف داخل المجتمع اللبناني، وترجع معظم المشاكل الموجودة بلبنان ليس إلى وضعه الطائفي، بل إلى نظرة الشك والحذر التي تنظر بها كل طائفة إلى الأخرى، وما يعتمل داخل كل طائفة من صراع، فقسم من سكان لبنان يؤمن بالعروبة وتجذبه القومية العربية، وقسم آخر يؤمن بالحضارة الغربية ويتجه إليها ويخشى أن يذوب لبنان في مجموعة عربية كبيرة ذوبانًا يفقده استقلاله وكيانه وطابعه الخاص[٢].

ونظام الحكم حائر بين هذا الشد والجذب، يصفه البعض بالعجز، ويتهمه الآخرون بالتقصير، ويطالب المعتدلون بإجراءات حاسمة لتعديله محافظة على الكيان اللبناني... وكل حركة من فريق يصفها الآخرون بأنها تعرض الكيان اللبناني للخطر... مما جعل الآراء تكثر وتتفاوت حول طبيعة هذا الكيان.

«فالبعض يرى أن الكيان من صنع اللبنانيين أنفسهم، ويرى الآخرون أن فرنسا هي التي خلقت هذا الكيان، وآخرون يرون أن خلق الكيان لم يكن من أهداف السياسة الفرنسية التي استطاعت أن تحقق أطماعها فسيطرت على لبنان سيطرة كاملة واستطاعت أن تفصل المنطقة الساحلية من سوريا بعيدًا عن حكم الدولة العربية الفيصلية، واتجهت فرنسا عقب ذلك إلى إنشاء حكومة طائفية بلبنان، وبدأت تغرس في النفوس الخوف على الكيان من مطامع الجيران»[٣].

وللكيان مفهوم لدى رجال السياسة يخالفهم فيه رجال القانون... فرجال السياسة

---

(١) كمال جنبلاط: في مجرى السياسة اللبنانية، بيروت، ط١، ١٩٥٩م.

(٢) حمدي الطاهري: سياسة الحكم في لبنان، ص ٣٢.

(٣) كاظم الصلح: مجلة الخواطر، العدد ١٩ في ١٩/ ٥/ ١٩٦١م.

يرون أن الكيان اللبناني لم يكن بعيدًا عن التصميمات الاستعمارية والدليل على ذلك محاولة الاستعمار، تقطيع أوصال الدولة العربية الواحدة إلى عدة دول، وقد أكد ذلك موقف فرنسا عندما خلقت أول حكومة في لبنان، ثم اتبعتها بإنشاء حكومة علوية، وحكومة درزية، وحكومة سنية في سوريا[1]، أما رجال القانون فيعتبرون أن الكيان اللبناني من أبرز الأمثلة في تاريخ الشعوب على تكوين مجتمع من جماعات مختلفة تركت أوطانها، وتركت ما تملك من روابط معنوية ومادية، وأتت إليه لاجئة طلبًا للحماية من غادر طامع أو طمعًا بمستوى أفضل في الحياة الهانئة. فنشأ من لقائها ومن وحدة أهدافها على ما كان بينها من تباين في المنبت والدين والميول مصالح واحدة ضمها نطاق واحد ولدت منه شعورًا واحدًا بأنه لا غنى لبعضها عن البعض الآخر في تأمين هذه المصالح، وأنه لا مفر لهم من ضم الجهود وتنسيقها لتحقق الهدف الجامع من المجيء وهو الحفاظ على الحياة والأعراض وتحقيق سبيل العيش الراغد والدفاع عنها في وجه الطامعين[2]... وبولادة هذه الفكرة الأصيلة الواحدة التي ربطت الجماعات اللبنانية وجد المجتمع في لبنان ونشأ عنه الكيان اللبناني، وهو يختلف عما عداه من الكيانات من حيث تكوين المجتمع الذي تتآلف فيه، ومن حيث الأهداف التي تعتمل وتتفاعل في جماعاته.

أما الأهداف فهناك تناقض واضح بين الجناحين اللذين يتألف منهما لبنان، هناك فئة لا تريد استقلالاً وتبرر موقفها بأن بقاء استقلال لبنان ومحافظته على طابعه الخاص هو عقبة في سبيل الوحدة العربية، وإذا بقى لبنان على استقلاله كان ممرًا للاستعمار وأن الكيان اللبناني وجد لكي يجمع الأقلية المسيحية في الشرق، وهذا أمر لا يستوجب إنشاء دولة في لبنان ما دامت دول الشرق الإسلامية تؤمن للأقلية فيها ممارسة شعائرها الدينية وتضمن لها حرية الإقامة والتملك وغيرها من الحريات[3].

ورد الفريق الآخر على ذلك أن استقلال لبنان ليس عائقًا في سبيل وحدة عربية، ولكن ما يحول دون تحقيقها إنما هو عقبات محلية وخلافات تاريخية واعتبارات

---

(١) حمدي الطاهري: سياسة الحكم في لبنان، ص ٣٣.

(٢) عبده عويدات: النظم الدستورية، بيروت، ط١، ص ٤٣٠.

(٣) حمدي الطاهري: مصدر سابق، ص ٣٤.

جغرافية ومصالح دولية وسياسات عالمية[1].

«وكان نتيجة الانقسام في الرأي أنه أصبح في الواقع فريق كبير يعيش في لبنان على الازدواجية في التفكير والشعور بالولاء للوطن.

فريق يضمر الولاء للبنان، وللغرب، أي لمصدر وباعث القضية الطائفية السياسية في لبنان، وفريق آخر يتوجه بالولاء للبنان وللعروبة التي لا يمكن أن تنفصل واقعًا وتاريخًا عن قضية وكيان واستقلال لبنان»[2].

وأما عن أثر الانتداب الفرنسي على الكيان اللبناني فيظهر في محاولات بناء وطن قومي مسيحي في الشرق منذ مطلع القرن الثاني عشر عندما أراد الغرب أن ينفذ هذه الخطة فجرد حملاته الصليبية المعروفة، فلما فشل حينذاك عاد من جديد في نهاية القرن الثامن عشر تحت قيادة نابليون، رغم أن هذه الحملة كانت عسكرية، فإنها تركت آثارًا فكرية ودينية ترتب عليها إنشاء فرنسا مؤسسات تبشيرية ومعاهد ثقافية ودور للطباعة والصحافة، مما أدى إلى إيجاد وعي شعبي طائفي في البلاد[3].

«ومنذ مطلع القرن العشرين أتاحت الظروف لشغل لبنان أن يكون بعيدًا عن صراع الحياة والمصير فقد وجد الكيان فجأة بين يديه مع تحقيق أهدافه في الحصول على استقلال إداري نسبي في عهد الانتداب وكانت معركة الاستقلال عام ١٩٤٣م نزهة صغيرة لم يعقها إلا شيء قليل من الصعاب وكانت المعركة تقوم في الواقع بين إنجلترا وفرنسا، وجاء الانقلاب الأبيض عام ١٩٥٢م، فلم يتجشم فيه اللبنانيون إلا شيئًا ضئيلاً من المشاق وفي الخارج كان اشتراك لبنان في حرب فلسطين رمزيًا لا أكثر، ولم يحظ لبنان بمواجهة المحنة الشديدة في الداخل أو الحرب القاسية الضروس في الخارج لكي يفعل في أبنائه سحر التوحيد والانصهار من ذهنية التفرقة ومن التوقف عند صراعات الحياة وعوارضها»[4].

وكان للانتداب أثر كبير في التفرقة بين اللبنانيين انعكس على الكيان نفسه، مما جعل البعض يشكون في حقيقة وجود كيان مستقل لبلدهم إذ كان يتملق المسيحيين أكثر

(١) يوسف السودة: بين الوطنية والطائفية، بيروت، ط١، (د. ت).

(٢) كمال جنبلاط: في مجرى السياسة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٥٠.

من المسلمين وكان يأتمن المسيحيين أكثر من المسلمين وكان يفضل المسيحيين في تبوء المراكز الحكومية العالية وكان إنجيله في الحكم «فرق تسد» فأذكى روح البغضاء بين جناحي لبنان. وكانت النتيجة أن دخل في أذهان جهلاء المسيحيين أن لبنان بلد مسيحي الطابع، ويجب أن يبقى هكذا، ولو كان نصف سكانه غير مسيحيين!! ودخل في أذهان جهلاء المسلمين أن طابع لبنان مسيحي هو تحد للعروبة والإسلام فشهروا عداءهم على فرنسا وعلى لبنان[1].

ونتيجة لهذا التناقض في التفكير نجد أن بعض اللبنانيين لا يعترفون بأن لبنان تشكل دولة كاملة، على أساس ما تنقصه لكي تكون دولة هو الشيء الأساسي الذي يجمع بين كل مجتمعات الأرض حتى البدائية منها وهو الرغبة المشتركة في التعاون لما فيه خير المجموع والانسجام بين كل الفئات للوصول إلى هدف واحد مشترك[2].

ويتساءل المخلصون من أبناء لبنان عن كيفية بناء وطن في الوقت الذي فشلت فيه كل المساعي لتوحيد المجتمع اللبناني. ولا تزال هناك بحوث وبحوث تتعلق بالكيان والاستقلال، فإذا كان لا يزال هناك خوف بين فريق وآخر، وخوف مشترك على لبنان وخوف على امتيازات البعض فيه، وخوف من انتشار التعليم أو انتشار ثقافة من نوع معين... إلخ، فإن مصير مثل هذا المجتمع مهما طال الأمد هو الانهيار والتفكك. فالشعور الوطني المشترك هو الذي يحفظ الكيان من الهزات المتوالية.

ومع أن هناك شبه إجماع على أن الاستعمار هو الذي شجع على تركيز الطائفية، وأن الطائفية هي سبب علة لبنان، وأن العلاج ليس إلا في التخلص منها، فإننا نجد أصواتًا تعارض هذا الرأي بحجة أن إلغاء الطائفية في لبنان يجر معه إلغاء الكيان السياسي الراهن؛ لأن هذا الكيان بشكله الحالي هو الذي يكفل لرجل الدين مزاولة حرياته بشكل استقلالي تام... بالإضافة إلى ذلك فهم يعتبرون إلغاء الطائفية خديعة، بل هي مؤامرة على لبنان[3].

وبعد هذا العرض السريع للكيان اللبناني وأثر الانتداب عليه سوف أتناول الطوائف في لبنان، على النحو التالي:

---

(١) دكتور جورج حنا: العقدة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٧م، ص ١٥.

(٢) حروب لبنان: مصدر سابق، ص ٢٥.

(٣) كمال يوسف الحاج: فلسفة الميثاق الوطني، بيروت، ١٩٦١م، ص ١٩٦.

(أ) الطوائف المسيحية.

(ب) الطوائف الإسلامية.

ويتفرع عن كل طائفة من هاتين الطائفتين مذاهب مختلفة سوف نوضحها كالآتي:

(أ) الطوائف المسيحية:

الطوائف المسيحية في لبنان عبارة عن الموارنة وهم يشكلون الغالبية المسيحية، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والأرمن، والأقليات، وهي عبارة عن طائفة البروتستانت، والطائفة الإنجيلية، والعلويين، والأشوريين، ويمكن أن يُضم إليهم اليهود، على الرغم من التباين العقائدي بينهم.

١ - الموارنة:[1]

الطائفة المارونية في لبنان تشكل غالبية مسيحية، ومنها يُنتخب رئيس الجمهورية، وقد كان للبعثات التبشيرية والفرنسية منها بوجه خاص أثر مهم في ثقافة الموارنة، وازداد هذا الأثر رسوخًا بعد أن أعلنت فرنسا أنها حامية «الكثلكة» في الشرق، وبعد أن دخلت جيوشها لبنان في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين.

ونتيجة للقوة التي منحت للطائفة المارونية نجد أنها ممثلة في مجلس النواب بثلاثين نائبًا في حين أن العدد الكلي للمجلس تسعة وتسعون نائبًا، ويتجلى نفوذ الطائفة في منطقة جبل لبنان، حيث جرى العرف بأن يكون رئيس الجمهورية من بين أبنائه، وكذلك معظم الوزراء من الموارنة، كما أن قيادة الأحزاب السياسية المارونية المختلفة في يد محافظة جبل لبنان.

والشعور السائد لدى الطائفة المارونية هو أن لبنان الذي قام كيانه على أكتافهم يجب أن يبقى لهم فيه نصيب الأسد، وهم يرون أن لبنان «لبناني» لا عربي ولا غربي.

---

(١) اختلفت الآراء حول أصل الطائفة المارونية، فقيل: إنها نسبة إلى رهبان دير القديس مارون الواقع على ضفاف نهر العاصي، وقيل: إنهم أتباع الراهب مارون، وكان يسكن ديرًا على مقربة من حماه في القرن السابع الميلادي. وأيًا ما كان الأمر فإن الآراء متفقة على أن الموارنة شعب مسيحي كاثوليكي العقيدة، وقد اشتق اسم الموارنة من القديس الراعي للطائفة (مارون). انظر: مرفت أسعد عطا الله. العلاقات بين مصر ولبنان في عهد محمد علي - سلسلة تاريخ المصريين (٢٥٥)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ط١، ص ١٤٦ وما بعدها.

فيه من الشرق سماحته وروحانيته، وفيه من الغرب مدنيته وثقافته، ويستنكرون أن يلصق بعض الناس «العروبة» بلبنان.

٢ - الروم الأرثوذكس:

الروم الأرثوذكس عرب في أنسابهم، فهم ينتمون إلى الغساسنة الذين كانوا في سوريا عند الفتح العربي وساعدوا الفاتحين العرب ضد الروم، وتغلب عنصريتهم على دينهم فأسلم قسم منهم، وبقي قسم آخر على دينه القديم مع اندماج الجميع اندماجًا كليًا في المجتمع الإسلامي، وبذلك تجد أن أوضاع الروم الأرثوذكس تختلف في لبنان عن أوضاع الموارنة اختلافًا كليًا.

«وحينما أعلنت فرنسا أنها حامية «الكثلكة» في الشرق، أعلنت روسيا أنها حامية للأرثوذكسية في نفس المنطقة، فلما قامت الثورة الشيوعية وتنكرت للدين لم يجد الأرثوذكس دولة أوربية يتجهون إليها كما اتجه غيرهم، إذ إن اليونان أكبر الدول الأرثوذكسية كانت ضعيفة، فصرفوا النظر عن طلب الحماية الأجنبية وفضلوا العمل كمواطنين تهمهم مصلحة بلادهم. ولما كان مقر كرسي البطريرك الأرثوذكسي في دمشق فإن أبناء الطائفة في لبنان اضطروا إلى مسايرة خطة إخوانهم في سوريا»[١].

ويمثل الطائفة الأرثوذكسية في المجلس النيابي أحد عشر عضوًا، ولهم في الوزارة مناصب معينة.

٣ - الروم الكاثوليك:

كان أفراد هذه الطائفة ينتمون أصلاً إلى الكنيسة الأرثوذكسية، ثم انشقوا عنها واعتنقوا «الكثلكة»، واحتفظوا باسمهم القديم «الروم» واستبدلوا لفظ الكاثوليكية بالأرثوذكسية ولهم بطريرك مقره بيروت، وأهمية الطائفة ليست في كثرة عددها، إنما يتميز معظم أفرادها بالثراء الفاحش واحتلال المراكز الحساسة. ويمثل هذه الطائفة في المجلس النيابي ستة نواب، ويمثلها عادة في الوزارة وزير واحد، هو وزير الخارجية، وذلك منذ عام ١٩٦٠م[٢].

---

١) جورج حنا: العقدة اللبنانية، مصدر سابق.

٢) حمدي الطاهري: مصدر سابق.

٤ - الأرمن:

ينقسم الأرمن إلى طائفتين: الأرمن الأرثوذكسي ولهم أربعة مقاعد بالمجلس النيابي، والأرمن الكاثوليك ولهم مقعد واحد.

والأرمن طائفة منظمة متضامنة، مما جعل لها كيانًا قويًا يؤثر في السياسة الداخلية في لبنان ولو بصورة غير مباشرة.

وقد طالب الأرمن عام ١٩٥٥م بأن يكون لهم مقعد في الوزارة وقد تحقق لهم ذلك في عام ١٩٦٠م.

وتضم طائفة الأرمن عددًا كبيرًا من كبار الأطباء، والصيادلة، ورجال الأعمال، كما أن أعمال الصيرفة تكاد تكون محصورة فيهم إلا أن الأكثرية الساحقة تعيش في فقر مدقع، وما تزال تقيم في أكواخ صغيرة في ضواحي بيروت، ويمارسون مهنًا متواضعة.

٥ - الأقليات:

وقد خصص لها القانون اللبناني مقعدًا واحدًا في البرلمان، واتفق على أن يكون مقر الترشيح له مدينة بيروت ويمكن أن يرشح له أي فرد من أفراد هذه الأقليات دون تخصيص.

والأقليات في لبنان هي: الطائفة البروتستانت، الطائفة الإنجيلية، العلويين، الأشوريين، اليهود.

وفيما عدا اليهود فليس لهذه الطوائف تأثير واضح أو نفوذ في السياسة اللبنانية داخليًا أو خارجيًا، وقد ازداد عدد اليهود في لبنان عقب حرب فلسطين وهجرة بعض يهود سوريا إلى بيروت.

(ب) الطوائف الإسلامية:

يشكل المسلمون بطوائفهم الثلاث: السنة، والشيعة، والدروز[1] ما يزيد على نصف سكان لبنان، ولهذا سوف نتناول هذه الطوائف كالآتي:

---

(١) هذا لو اعتبرنا الدروز ضمن الفرق الإسلامية، مع أن بعض الأئمة من السُّنَّة يعتبرونهم غير مسلمين.

أ - السنة:

من المعروف أن المسلمين يتركزون في لبنان في مدينتي بيروت وطرابلس، ويمثل الطائفة في جميع أنحاء لبنان عشرون نائبًا في المجلس النيابي، تنفرد بيروت وحدها بربع عدد النواب، وهناك بعض وجوه الاختلاف بين وضع كل من مسلمي بيروت وطرابلس. مسلمو بيروت أغلبهم من أهل السنة في طليعة المسلمين اللبنانيين، بين أيديهم تتركز قوة المسلمين وهيبتهم وهم بطبيعتهم يعملون بالتجارة منذ قديم الزمان. هذا وقد ظلت مدينة بيروت تستأثر بمعظم وظائف الدولة من رئاسة وزراء أو وزراء سنيين.

أما عن مسلمي طرابلس من أهل السنة وموقفهم بالنسبة للكيان اللبناني يختلف اختلافًا كليًا عن موقف مسلمي بيروت، وهذا يرجع أولاً وأخيرًا إلى الوضع الجغرافي لطرابلس الذي يربطها ربطًا محكمًا بسوريا.

٢ - الشيعة:

المسلمون الشيعة في لبنان أقل من المسلمين السنة من حيث العدد، ويقيم معظم أبناء الطائفة الشيعية في جنوب لبنان وفي بعلبك والهرمل، كما يقيم فريق منهم في مدينة بيروت.

ويمثل الشيعة في مجلس النواب تسعة عشر نائبًا، وقد أصبح تقليدًا أن يكون رئيس مجلس النواب شيعيًا، كما يمثل الشيعة في الوزارة عادة بوزيرين.

والطائفة الشيعية ليس لها أحزاب سياسية متعددة، فإن بعضهم ينتظم في أحزاب الطوائف الأخرى، وينتظم عدد كبير من الشيعة في صفوف حزب الكتائب الماروني، ويقدر عدد المنتمين منهم إلى الحزب بحوالي أكثر من ثلاثة آلاف شخص، إضافة إلى حزب الله في الجنوب اللبناني، وهو يضم عشرات الآلاف.

٣ - الدروز:[1]

يمثل الدروز في لبنان طائفة مستقلة، بالرغم من أنهم في الأصل إحدى الفرق

(١) اختلف المؤرخون في لفظة درزي، وهي بضم الدال وسكون الراء أم بفتح الدال والراء كليهما، ذلك أن هناك شخصين ارتبط كل منهما بالدروز سلبًا وإيجابًا، فهناك محمد بن إسماعيل الدرزي الفارسي الأصل وهو أحد الداعين لتأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي، وقد بشر بمذهبه في =

الدينية المتفرعة عن الشيعة، خاصة «الإسماعيلية»، وكانت بدايتها عام ١٠١٨م تقريبًا في عهد الحاكم بأمر الله، فإنها أصبحت طائفة مستقلة بنفسها لها عقائدها وكيانها.

والدروز في الواقع من الطوائف الباطنية والمذاهب السرية التي ظهرت في الإسلام، والتي ظلت عقائدها مجهولة حتى بين أبناء الطائفة نفسها.

وتتركز قوة الدروز في محافظة جبل لبنان جنبًا إلى جنب مع أبناء الطائفة المارونية ويتركزون في منطقة الشوف، كما يقيم جزء منهم في منطقة راشيا على أن الجزء الأكبر منهم يقيم بجبل الدروز بسوريا، ويوجد عدد قليل منهم يقيم بإسرائيل بالقرب من الحدود اللبنانية الإسرائيلية[1].

ويمثل الدروز في البرلمان ستة نواب، من بينهم خمسة عن الدروز المقيمين في جبل لبنان، ويمثلهم في الحكم عادة وزيران.

وتنقسم قبائل الدروز سياسيًا إلى قسمين: آل أرسلان، وال جنبلاط.

* * *

الأحزاب السياسية في لبنان

الواقع الحزبي في لبنان هو انعكاس للواقع الاجتماعي والفكري والسياسي، ومن الطبيعي جدًا أن يبدو نشاط لبنان الحزبي مضطربًا متناقض المواقف، سطحي النظرات والأغراض؛ لأن أصحاب هذا النشاط أكثريتهم الساحقة لم يستطيعوا أن يتفوقوا على الواقع اللبناني، كما أن لبنان محروم من رأي عام تتمسك به أطراف الشعب فإن الحزبية اللبنانية محرومة من رأي عام لبناني يتجاوز وحداته الطائفية تلك

= وادي التيم الموطن الأول للدروز، وهو المعروف باسم نشتكين الدرزي.

وهناك أبو منصور أنو شتكين الدرزي، وهو أحد قواد الحاكم بأمر الله، ويقال: إن الطائفة تُنسب إلى هذا الأخير، وما زال الدروز حتى اليوم يلعنون نشتكين، ويجلون أنو شتكين، ومن هنا ذهب بعض المؤرخين إلى أن الدرزية نسبة عسكرية، أما الاسم العقائدي فهو الموحدون.

هذا وقد أشيع عن الدروز أنهم من أصل فارسي أو آرامي أو فرنسي أو إنجليزي فعلى سبيل المثال أشيع أنهم ينتسبون إلى القائد الفرنسي الصليبي دروز، ولكن المعنيين بالأمر يقولون: إنهم عرب خُلّص من بني لخم وتنوخ. انظر: العلاقات بين مصر ولبنان - مصدر سابق. ص ١٤١.

(١) انظر: محفوظ عبد العال: الدروز في إسرائيل، ص ١٧، وما بعدها.

التي تعكس تفككه الاجتماعي والفكري والسياسي.

هذا وسوف أعرض فيما يلي الأحزاب اللبنانية القائمة، وسوف أتعرض بصورة سريعة لبعض الأحزاب غير المرخص لها بالعمل قانونًا مثل: «حزب البعث العربي»، أو الأحزاب التي حلت وفقدت وجودها القانوني مثل «الحزب القومي الاجتماعي»، والسبب في التعرض لها هو أنه رغم عدم وجودها القانوني، فإن أثرها ونفوذها موجود وواضح في معظم المناطق اللبنانية بشكل أقوى مما تتمتع به الأحزاب الشرعية.

الأحزاب في لبنان:

تعددت الأحزاب في لبنان، ويمكننا تصنيفهم كالتالي:

أحزاب طائفية، وأخرى عقائدية، وثالثة أحزاب تقليدية، وأخيرًا أحزاب ذات طابع خاص.

(أ) الأحزاب الطائفية:

١ - حزب الكتائب.

٢ - حزب النجادة.

١ - حزب الكتائب:

تأسست الكتائب اللبنانية في عهد الانتداب الفرنسي عام ١٩٣٦م، وكان مؤسس هذا الحزب هو الشيخ بطرس الجميل. ولم يعترف بالحزب قانونيًا إلا في ديسمبر عام ١٩٤٣م عقب استقلال لبنان، وكان اهتمامه بالغًا بتقليد العسكريين من تدريبات للأعضاء وارتدائهم لأزياء شبه عسكرية.

هذا وقد حل الحزب في يوليو عام ١٩٤٣م باعتباره منظمة شبه عسكرية، إلا أنه بعد ذلك لم يدم سوى ثلاثة أيام فاضطرت الحكومة بعدها إلى التراجع عن موقفها تحت ضغط أعضاء الحزب.

وحزب الكتائب في غالبيته يضم معظم أبناء الطائفة المارونية، ودستور الحزب لا يمنع من انضمام أبناء الطوائف الأخرى لعضويته، وعلى هذا الأساس انضم إليه بعض الشيعة.

دستور الحزب:

يحتوي دستور الحزب على عدة مبادئ من أهمها مبدأ فكرة القومية اللبنانية، والعمل على إبرازها، وهذا المبدأ يحتضنه الحزب ويجند كل قوته من أجله. وعلى هذا الأساس فإن الحزب يرى أن لبنان وطن مستقل بحدوده المبينة في الدستور المعلن في مايو عام ١٩٢٦م، واللبنانيون من مقيمين ومغتربين أمة ذات قومية مميزة تجمعهم إرادة في الحياة مشتركة وتاريخ مشترك ومصلحة اقتصادية واحدة، ولغة وثقافة وأهداف وطنية وإنسانية مشتركة. وينادي الحزب بقومية تقدمية تسهل للمواطن إمكانيات التحرر المعنوي والمادي بتيسير جميع الوسائل.

ويطالب الحزب بأن تكون هذه القومية علمانية تحترم جميع الأديان والمعتقدات، وتأبى أن يكون للدولة دين أو معتقد خاص بها.

وشعار الحزب هو «الله، الوطن، العائلة»... ويصدر الحزب صحيفة تنطق باسمه هي جريدة «العمل»[1].

٢ - حزب النجادة:

أنشئ عام ١٩٣٧م على النمط العسكري كحزب الكتائب.

ويضم حزب النجادة في مجموعه بعض المسلمين من طائفة السنة، وقانونه مفتوح للجميع، فلا يمنع من انضمام أي فرد من باقي الطوائف الأخرى لعضويته؛ لأن الحزب يرى أن الدين مسألة شخصية ليس من حق الفرد التدخل فيها، ولكن نادرًا ما ينضم إليه عضو مسيحي، وللحزب صحيفة تنطق باسمه هي «صوت العروبة».

وإذا كان حزب الكتائب يمثل العنصر الطائفي للموارنة، فالنجادة يمثل العنصر الطائفي للسنية، ولهذا الحزب مواقف معينة خاصة بالنسبة للميثاق الوطني والمطالبة بإحصاء السكان والمطالبة بأن تكون رئاسة الجمهورية دورية بين المسلمين والمسيحيين...

دستور الحزب:

نص القانون الأساسي للحزب على أن العرب من كانت لغتهم العربية أو يقطنون البلاد العربية، وليس لهم في الحالتين أية عصبية تمنعهم من الاندماج في القومية

---

(١) جورج سكاف: حقائق لبنانية، بيروت ١٩٦٠م، ص ٢٨.

العربية، وأنهم متساوون في الحقوق والواجبات.

ويهدف دستور حزب النجادة إلى جمع الشباب اللبناني وتوحيدهم وربطهم باتحاد مع بقية الدول العربية. ويعتبر الحزب أنه حزب قومي عربي ديمقراطي اشتراكي تعاوني هدفه نشر رسالته في ضوء مفاهيم أهمها: أن العرب أمة واحدة، والوطن العربي وحدة طبيعية يحده المحيط الأطلسي غربيًا، والخليج العربي شرقًا، وجبال طوروس شمالاً، والصحراء الإفريقية الكبرى والمحيط الهندي جنوبًا، وأن القومية العربية فوق كل عصبية.

(ب) الأحزاب العقائدية:

١ – الحزب القومي الاجتماعي (أو الحزب القومي السوري).

٢ – الحزب الشيوعي.

٣ – الحزب التقدمي الاشتراكي.

٤ – حزب البعث العربي الاشتراكي.

١ - الحزب القومي الاجتماعي (أو الحزب القومي السوري):

ظهر هذا الحزب في لبنان عام ١٩٣٣م، وقد أنشأه «أنطون سعادة» وهو أرثوذكسي، وكان لمذهبه أثر كبير في انتشار مبادئ حزبه، إذ أن معظم معتنقي مبادئه من المسيحيين من طائفة الروم الأرثوذكس، وذلك بالرغم من مناداة الحزب بمحاربة الطائفية، ويضم الحزب عددًا كبيرًا من المسلمين والدروز.

مبادئ الحزب:

تتخلص مبادئ الحزب فيما يلي:

١ – ينادي الحزب بأن سوريا للسوريين، والسوريون أمة واحدة.

٢ – القضية السورية هي قضية قومية قائمة بنفسها، مستقلة كل الاستقلال عن أية قضية أخرى، وهي قضية الأمة السورية والوطن السوري.

٣ – الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية، وهي ذات حدود جغرافية تميزها عما سواها وتمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب شاملة

شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة. ومن البحر السوري في الغرب (البحر الأبيض المتوسط) شاملة جزيرة قبرص إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم من الشرق، ويعبر عن هذا كله باصطلاح «الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص»[1].

هذا وقد طورد الحزب مطاردة عنيفة، واعتقل رئيسه، وأعدم في عهد رئيس الجمهورية الأسبق «بشارة الخوري»، إلا أنه في عهد الرئيس «كميل شمعون» ازدهر الحزب ازدهارًا كبيرًا، وأصدر صحيفة تحمل شعاره وتنطق بلسانه، إلا أن الحزب قد انهار عقب قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م.

٢ - الحزب الشيوعي:

تعود نشأة الحركة الشيوعية في لبنان وسوريا إلى عام ١٩٢٥م على أثر الثورة السورية التي قامت ضد فرنسا في ذلك العام.

وطوال فترة الانتداب الفرنسي ظل الحزب الشيوعي في لبنان مرتبطًا بقيادة الحزب في سوريا، وفي عام ١٩٤٣م اجتمع قاد الحزب في البلدين وقرروا استقلال كل حزب بشخصيته وموارده على أن يظل التعاون والتوجيه من حق الرئاسة في سوريا، إلا أن واقع الأمر أن أية توجيهات ترد للحزبين كانت تأتي من المقر المركزي لقيادة الحزب الشيوعي في الخارج.

الحزب غير معترف به رسميًا في لبنان، إلا أن ذلك لم يمنعه من ممارسة نشاطه على نطاق واسع، وتوجد علاقة وثيقة بين الحزب الشيوعي في لبنان وحزب الهانشاق الأرمني.

هذا وقد أبرز دستور الحزب ضرورة تأمين الانسجام والتعاون بينه وبين الأحزاب الشيوعية في جميع أنحاء العالم.

٣ - الحزب التقدمي الاشتراكي:

هذا الحزب هو الحزب الوحيد في لبنان الذي يتبنى سياسة اشتراكية، ويتميز هذا

---

(١) مخطوطة لأسد الأشقر - نائب رئيس الحزب في محفوظاته التي أذاعتها المحكمة العسكرية اللبنانية عام ١٩٦٢م.

الحزب أيضًا بأنه يجمع بين نقيضين، شخصية رئيس الحزب ومؤسسه، وهو السيد «كمال جنبلاط»، وبين المبادئ التي يتبناها، فرئيس الحزب ينتسب إلى عائلة من أعرق العائلات الدرزية، ولم يُعرف عنها الميول الاشتراكية.

دستور الحزب:

الحزب التقدمي الاشتراكي هو حزب العمال والفلاحين والمزارعين وأرباب الحرف ورجال الفكر والمهن الحرة والعناصر الواعية والمخلصة من البورجوازية الوطنية، ويعمل الحزب على الجمع بين النقيضين: بين النظام والحرية، بين الأخلاق والقانون، بين الفردية الشخصية والاجتماعية، بين العمل والتأمل، بين الشرق والغرب، بين القديم والحديث، أي ديمقراطية شعبية منظمة.

٤ - حزب البعث العربي الاشتراكي:

ينسب هذا الحزب إلى سوريا، فسوريا كانت مهد الحزب منذ نشأته، وفي عام ١٩٥٣م اتخذ شكله الحالي نتيجة دمج حزب البعث الذي أسس عام ١٩٤٠م، والحزب العربي الاشتراكي الذي أسس عام ١٩٥١م.

ولحزب البعث عامة قيادة قومية تضم جميع الأقطار العربية، وكان مركزها دمشق قبل الوحدة بين مصر وسوريا.

وأهداف الحزب تؤكد أن نشاطه في لبنان يهدف إلى التركيز على علمانية الدولة والإصرار على الناحية الاشتراكية، واتباع الوسائل الديمقراطية في جعل الوحدة العربية مطلبًا شعبيًا عامًا لكل الفئات.

والحزب يرى أن العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعي في أن تحيا في دولة واحدة، وأن تكون حرة في توجيه مقدراتها، ولهذا فإنه يعدّ الوطن العربي وحدة سياسية اقتصادية لا تتجزأ.

(ج) الأحزاب التقليدية:

١ - حزب الكتلة الوطنية.

٢ - حزب الاتحاد الدستوري (الكتلة الدستوري).

٣ - حزب النداء القومي.

٤ - حزب الوطنيين الأحرار.

١ - حزب الكتلة الوطنية:

يُعدُّ هذا الحزب من الأحزاب الشخصية التي أنشأها مجموعة من الأشخاص تربطهم ببعضهم مصالح انتخابية وعائلية.

وقد أسس هذا الحزب عام ١٩٣٥م، ومعظم أعضاؤه من المسيحيين.

دستور الحزب:

حزب الكتلة الوطنية يرى أن تكون سياسته الخارجية تهدف إلى صيانة مصلحة الشعب اللبناني، ثم توثيق التعاون بين الدول العربية جميعًا على أساس المساواة في السيادة بين جميع الدول المتعاونة ضمن ميثاق الأمم المتحدة وميثاق الجامعة العربية.

أما عن السياسة الداخلية فيرى أتباع سياسة إنعاش اجتماعي واقتصادي تقضي إلى رفع مستوى معيشة المواطن اللبناني والعمل بكل الطرق على تمكين الوحدة الوطنية بين اللبنانيين من مقيمين ومغتربين.

٢ - حزب الاتحاد الدستوري (الكتلة الدستوري):

قام هذا الحزب على أنقاض الكتلة الدستورية التي أنشئت عام ١٩٣٤م، وتعتبر أقدم حزب في لبنان، وقد أسسها الشيخ بشارة الخوري رئيس لبنان الأسبق.

وقد ضعفت الكتلة عندما أصبح رئيسها رئيسًا للجمهورية، وأصبحت في حكم العدم خلال فترة رئاسته؛ لأنها اعتبرت أنها قد أدت الغرض من قيامها، إلا أن الحياة دبت فيها بعد استقالة الرئيس من منصبه، فأعيد تنظيمها وأطلق عليها اسم «حزب الاتحاد الدستوري»، وأصبح بشارة رئيسًا روحيًا له، وانتخب له من بين الأعضاء رئيسًا إداريًا.

دستور الحزب:

يؤكد الحزب ضرورة المحافظة على الميثاق الوطني وتنمية الروح الوطنية عند اللبنانيين، وإلغاء الطائفية تدريجيًا، وجعل الكفاءة وحدها أساسًا للتوظيف.

وينادي الحزب بالمحافظة على استقلال لبنان وسيادته على حدوده الحاضرة، على ألا يكون هناك امتياز في لبنان لدولة على أخرى، إلا أنه يرغب في التعاون الوثيق مع الدول العربية في نطاق ميثاق جامعتها العربية.

٣ - حزب النداء القومي:

أسس عام ١٩٤٥م، والحزب يرى نفسه نتاج أخوة مثمرة بمقدار ما هو مسلك وطني أو فكرة قومية ضد العصبية الطائفية الدينية والمذهبية في الوطن، وضد العصبية الإقليمية والقبلية والطبقية في الهيئة الاجتماعية.

ويؤمن الحزب بضرورة وجود كيان لبناني موحد مستقل ذي سيادة وطنية وقومية داخل حدوده التي تقررت نهائيًا عام ١٩٤٣م.

٤ - حزب الوطنيين الأحرار:

أنشئ حزب الوطنيين الأحرار عام ١٩٥٨م عقب الثورة الدامية في لبنان وانتهاء عهد الرئيس الأسبق كميل شمعون. وهو الذي أنشأ هذا الحزب حتى يكون سندًا له في استمرار نضاله السياسي مستقبلاً.. ويضم الحزب الأصدقاء الشخصيين للرئيس كميل شمعون.

واستطاع الحزب الحصول على مقعدين في مجلس النواب عام ١٩٦٠م، ودستور الحزب مثل دستور الأحزاب التقليدية لا يختلف عنها.

(د) أحزاب من نوع خاص:

طائفة الأرمن في لبنان رغم صغرها، فإنها أصبحت تشكل عنصرًا له أهميته في سياسة لبنان الداخلية ولو بصورة غير مباشرة، ويمثلهم في مجلس النواب خمسة نواب أربعة منهم من الأرمن الأرثوذكس، والخامس من الأرمن الكاثوليك.

والأرمن في لبنان ينقسمون إلى حزبين سياسيين هما:

١ - حزب الهانشاق.

٢ - حزب الطاشناق.

١ - حزب الهانشاق:

كلمة «هانشاق» تعني بالعربية «الجرس»، وقد أنشئ الحزب في عام ١٨٨٨م في سويسرا، وكان مؤسسوه جميعًا من المتأثرين بمبادئ «كارل ماركس»، مما جعل هذا التأثير ينعكس على مبادئ الحزب وأهدافه.

مبادئ الحزب:

لقد عمل الحزب منذ نشأته عام ١٨٨٨م على تجنيد كل قواه للنهوض بالأرمن وتخليصهم من السيطرة التركية والقضاء على كل العقبات التي تعوق تقدمهم الثقافي والاقتصادي.

وكان الحزب يرى أنه لا فرق بين تكوين الدولة البورجوازي، وتكوينها الإقطاعي؛ لأن كلاً من الوضعين يتجاهل مصالح العمال، ولا يسعى إلى تحسين حالتهم لذلك فإن الاشتراكية هي خير طريق للعمال.

وتبنى الحزب سياسة الارتباط بالاتحاد السوفيتي.

٢ - حزب الطاشناق:

تعني كلمة «طاشناق» في اللغة العربية «الشرف»... وقد أنشئ هذا الحزب عام ١٨٩٠م عقب إنشاء حزب الهانشاق بعامين.

أهداف الحزب:

جاء في مقدمة البيان الذي أعلن بموجبه إنشاء الحزب: «أنه مكون من أشخاص ينتمون إلى مختلف الطبقات، وهدفهم الوحيد هدف وطني ولا يوافقون على النظرية الاشتراكية التي يتبناها الآخرون... وأن الحزب يضم أبناء الطبقة الأرستقراطية، كما يضم أبناء العمال والفلاحين، والهدف الرئيسي الذي جمع هؤلاء هو تحرير أرمنيا من الحكم التركي»[1].

وقد أعلن الحزب أنه ضد استخدام القوة في حل المشكلة، بل إن سياسته هي أن يتركها للتطور الطبيعي مع العمل على إثارة هذه المشكلة على الصعيد الدولي.

هذا وأحب أن أضيف إلى «الأحزاب من نوع خاص» الحركات اللبنانية؛ لأنها نمط من التفكير السياسي في لبنان ظهر منذ أكثر من خمسين عامًا، والواقع أن تنظيم هذه الحركات وأهدافها ووسائلها لا يختلف في شيء عن واقع الأحزاب اللبنانية المتباينة.. سنعرض لها فيما يلي:

---

(١) حمدي الطاهري: سياسة الحكم في لبنان، ص ٢٩٩.

١ - **حركة القوميين العرب:**

ظهرت فكرة تكوين هذه الحركة عام ١٩٣٨م بين أعضاء «نادي العروة الوثقى» الذي كان موجودًا بالجامعة الأمريكية ببيروت، وكان الداعي إلى إنشائها هو التباين في نظرة خريجي الجامعة القوميين إلى مفهوم القومية العربية، وكانت القومية تتخذ معان مختلفة في أذهان الشباب القومي العربي من كافة البلاد العربية.

وتتلخص مبادئ الحركة في تحقيق الوحدة بين سوريا والعراق والأردن؛ لأن الوحدة من وجهة نظرهم هي سبيل التحرر، هذا وقد فرح القوميون العرب للوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م، واعتبروها هي النواة للوحدة العربية الشاملة.

والحركة تطالب بمحاربة الصهيونية والشيوعية باعتبارهما أشد خطرين على الوطن العربي.

٢ - **مؤتمر الخريجين الدائم:**

انبعثت فكرة المؤتمر عقب نكسة فلسطين عام ١٩٤٨م، لذلك نشأت الحاجة إلى قيام جماعة تدرس القضايا العربية على نحو علمي ومنطقي وتتوصل إلى نتائج تصلح أن تكون أساسًا للسياسة العربية وللتوجيه الشعبي.

وكان الاجتماع الأول للجنة التحضيرية للمؤتمر في مايو عام ١٩٥٤م، واجتمع المؤتمر في الشهر التالي في بيروت وضم ممثلين عن السودان ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق والكويت والسعودية.

وكان أهم قرار اتخذه المؤتمر هو تأليف لجنة خاصة لوضع دستور مفصل لدولة اتحادية لبحثه في دورته التالية وعرضه على الأمة العربية للتصويت عليه من أجل الوحدة الشاملة.

إلا أن هذا المؤتمر لم يستمر طويلاً.

٣ - **حركة التقدم الوطني:**

في ٣٠ من نوفمبر عام ١٩٦٠م تألفت جبهة نيابية تضم أحد عشر نائبًا هم «أميل البستاني - شارل سعد - فؤاد بطرس - جميل لحود - خالد شهاب - إبراهيم العبد الله - علي بزي - رفيق نجا - بشير الأعور - فضل الله تلحوق - إميل مكرزل، وقد انتخب السيد فؤاد بطرس أمينًا عامًا للجبهة».. وقد أطلقت على نفسها «الجبهة

النيابية المستقلة»، إلا أن هذه الجبهة لم ينضم إليها نواب جدد، لذلك أعلنت في أبريل عام ١٩٦١م عن تأسيس «حركة التقدم الوطني» في لبنان، وجاء في بيانها الأول شرحًا لمفهومها على الوجه التالي: «أن حركة التقدم الوطني هي استجابة جماعية لنداء شعب أخذ يتيقظ ضميره التاريخي، وأنها حركة الأجيال الجديدة التي قاست من عيوب الماضي وأوزاره، وأنها ترفض وتقاوم جميع الأساليب والأسس الرجعية القديمة التي لا تزال تستند إليها جميع مظاهر الحياة العامة في لبنان، إنها حركة جميع اللبنانيين واللبنانيات على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم ومستوياتهم الاجتماعية والفكرية، إذ أنها تناضل من أجل انصهارهم في مجتمع موحد تقدمي يعيشون فيه أحرارًا متساوين[1]».

ومن الأحزاب الحديثة المؤثرة سياسيًا الآن:

حزب الله:

وهو من الأحزاب المؤثرة في النواحي السياسية في الفترة الأخيرة، وقد أنشئ هذا الحزب عام ١٩٨٢م، ولكن قد سبقه تكوين فكري لمحمد حسين فضل الله من خلال نشاطه العلمي والسياسي، وكان قيام الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩م، دافعًا قويًا لنمو الحزب، وذلك للارتباط المذهبي والسياسي بين الطرفين.

وقد جاء في بيان صادر عن الحزب في ١٦ من فبراير (شباط) ١٩٨٥م أن الحزب «ملتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسد في ولاية الفقيه، وتتجسد في روح الله آية الله الخميني...».

ومعظم أفراد الحزب من اللبنانيين الشيعة المرتبطين بإيران، وقد تشكل الحزب في ظروف يغلب عليه الطابع العسكري «المقاومة» للاحتلال الإسرائيلي الذي اجتاح لبنان ١٩٨٢م، فالحزب يبني أيديولوجيته السياسية على أساس مقاومة الاحتلال، وكانت أولى العمليات التي قام بها الحزب وأكسبته شهرة قيامه بنسف مقر القوات الأمريكية والفرنسية في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٣م، وقد أسفر عن مقتل ٣٠٠ جندي أمريكي وفرنسي.

هذا وقد قام الحزب بديلاً عن حركة أمل الشيعية «أفواج المقاومة اللبنانية»، وذلك بعد أن سحق الحزب الحركة في ١٩٨٨م، وتحول أكثر من ٩٠٪ من أفراد حركة أمل إلى الحزب تحت القيادة الإيرانية، وما زال الحزب مؤثرًا على الساحة السياسية إلى الآن.

---

(١) حروب لبنان، مصدر سابق: ص ٤٣.

الفصل الثاني

الموقف اللبناني من القضية الفلسطينية

لم يختلف الموقف اللبناني عن غيره من مواقف الدول العربية بالنسبة للقضية الفلسطينية، فقد اشترك في الحرب ضد إسرائيل منذ عام ١٩٤٨م، ولكن بشكل بسيط وجزئي، حيث احتلت إسرائيل ١٢ - ١٩ قرية لبنانية، وانسحبت من القرى اللبنانية بموجب هدنة، ولكن لبنان عانى من تاريخ الحروب، ولا سيما بعد حرب حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧م.

وفي عام ١٩٥٠م قصفت طائرة عسكرية إسرائيلية طائرة مدنية لبنانية كانت تحلق فوق الأرض اللبنانية، وكانت حصيلة القصف سقوط قتيلين وثماني جرحى من بين سبع وعشرين راكبًا[١].

وفي عام ١٩٥٩م أُجْبِرت طائرة لبنانية ولثلاث مرات على الهبوط في إسرائيل، وفي ١٣ من نيسان/ إبريل ١٩٦٠م دارت اشتباكات بين الجيش اللبناني، والجيش الإسرائيلي على الحدود، وتم أسر ٤ جنود إسرائيليين أطلق سراحهم فيما بعد[٢].

وفي ٢٧ من آب/ أغسطس ١٩٦٥م، وخلال دخول إسرائيل إلى الأراضي اللبنانية، قتلت امرأة، وتم تدمير منزلين وثلاثة جسور[٣].

وأدت حرب حزيران/ يونيو، واحتلال إسرائيل لأراض عربية جديدة إلى تغيير الوضع على الحدود اللبنانية وفلسطين المحتلة من قبل العدو الصهيوني، حيث قامت عمليات عسكرية من قبل منظمة التحرير الفلسطينية ضد إسرائيل ردت عليها بهجمات على لبنان مستهدفة جنوب لبنان، ففي ١٤ من حزيران ١٩٦٨م قصفت قرية لبنانية «ميس الجبل» بالمدفعية الإسرائيلية، وأسفر عن سقوط ٥٦ جريحًا[٤].

هذا وقد وفد إلى لبنان نتيجة حرب ١٩٤٨م نحو ١٠٠ ألف فلسطيني معظمهم من

---

(١) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، حقائق وأرقام، وزارة الإعلام اللبنانية، ص ٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٤.

(٤) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، حقائق وأرقام، وزارة الإعلام اللبنانية، ص ٤.

سكان مدن وقرى شمال فلسطين، وتوزّعوا على مخيمات صور وصيدا والراشدية، وعين الحلوة في الجنوب اللبناني، ومخيم صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة، ومخيم نهر البارد في بيروت وطرابلس، ورحب اللبنانيون بالشعب الفلسطيني الذي شرد من أرضه، ولكنهم فرضوا عليهم ما يشبه بالحكم العسكري على التجمعات الفلسطينية، وتقييد نشاطهم في مجالات ضيقة للغاية[1]. وحذت لبنان حذو سوريا في أنها حجبت عنهم الجنسية من أجل الاحتفاظ بالهوية الفلسطينية التي يسعى اليهود إلى طمسها بشتى الوسائل، واختلط الشعب الفلسطيني بالشعب اللبناني، وعاش الشعبان على أرضية مليئة بالأحزاب السياسية، والمذاهب الدينية المختلفة، وقد نشطت حركة المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل بزرع الألغام وإلقاء المتفجرات، مما أدى إلى الرد العنيف من جانب سلطات الاحتلال، وذلك بشن الغارات على مخيمات اللاجئين في لبنان وتدمير البيوت وقتل الأطفال والنساء.

ومع تزايد الوجود الفلسطيني في الجنوب اللبناني، ونمو العلاقة الطيبة بين الشعبين اللبناني والفلسطيني أرادت إسرائيل أن تبذر بذرة الخلاف بينهما، وذلك بالغارات الجوية المتكررة على قرى جنوب لبنان، ونجحت إسرائيل في ذلك حيث قامت أحزاب لبنانية تطالب بخروج المقاومة الفلسطينية، وإلقاء السلاح ووقفت بعض الجهات اللبنانية مع إسرائيل في حربها ضد سكان المخيمات الفلسطينية!!

وفي عام ١٩٧٠م كان أول اجتياح للجنوب اللبناني، وخاصة لمنطقة العرقوب، وكانت حصيلة الاجتياح تدمير المنازل، وقتل الأبرياء العزل من الأطفال والنساء والشيوخ، ولكن انسحبت إسرائيل من العرقوب بعد قرار مجلس الأمن رقم ٢٧٨[2].

وتوالت غارات إسرائيلية على جنوب لبنان وبيروت، ففي ١٥ من كانون الثاني عام ١٩٧١م هاجم الصهاينة قرية الصرفند الساحلية، وبعدها الخيّام، ما بين ٣١ من كانون الثاني وشباط، كذلك اجتاحت إسرائيل للمرة الثانية العرقوب خلال ٢٥ – ٢٨ من

---

(١) فلسطين تاريخها وقضيتها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٨٣م، نيقوسيا – قبرص، ص ١٤٤.

(٢) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م – ١٩٨٦م، حقائق وأرقام، مصدر سابق، ص ٤.

شباط ١٩٧١م، وفي عام ١٩٧٢م قامت إسرائيل بهجوم على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في نهر البارد بشمال لبنان، وهاجمت مخيمي نهر البارد والبداوي بالطائرات بهدف قتل الفدائيين[١].

ومن هنا يتضح لنا أن إسرائيل تريد أن تجعل الشعب اللبناني يحقد على الشعب الفلسطيني وتبث الفرقة، وتشعل نار الفتنة بين الشعبين اللذين قدما الكثير من أجل كرامة الأمة العربية، بأرواحهم، وبكل ما لديهم من وسائل لمقاومة الصهيونية والإمبريالية العالمية، والموقف اللبناني من اللاجئين الفلسطينيين لم يكن إلا لصالح الشعب الفلسطيني في بداية الأمر، ولكن إسرائيل بقيت تعمل حتى استطاعت أن تشرخ الشعب اللبناني وتقسمه إلى طوائف بعضها يعمل لحساب إسرائيل وينفذ ما تريده، إذ نجد أن الحكومة اللبنانية بدأت تضيق الخناق على الشعب الفلسطيني، ونشطت الأحزاب اللبنانية، منها المؤيد، ومنها المعارض لوجود المقاومة الفلسطينية على أراضيها.

وفي عام ١٩٧٣م هاجمت إسرائيل بطائراتها بيروت العاصمة اللبنانية، ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وتل الزعتر، والحي الشعبي في الأوزاعي، وكانت حصيلة العمليات مقتل وجرح ٤٠ فلسطينيًا، بينما قتل أربعة لبنانيين وجرح تسع وعشرون[٢]، وهذا يعني ضرب السيادة، والاستقلال اللبنانيين بعصا الطائفية الغليظة التي عمل العدو، على تغذيتها والتمكين لها، بل نسف لبنان المستقل بتفجرات الطائفية من الأساس[٣].

ولابد من القول بأن الطائفية في لبنان موجودة منذ زمن بعيد، أي في ١٨٤١م (ومرورًا بما حدث بعدها من فتن ومذابح: عام ١٨٦٠م و١٩٢٤م و١٩٢٥م، ثم ١٩٥٨م، و١٩٧٤م، وما تلاها من سنين)[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م – ١٩٨٦م، حقائق وأرقام، مصدر سابق، ص ٤.

(٣) الزعيم الديغولي: بيير روندو، الطوائف في الدولة اللبنانية، تقديم: إلياس عبود، ط١، ١٩٨٤م، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ص ٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١١.

لقد شوّهت الطائفية لبنان، وعملت فيه هدمًا وتخريبًا؛ لأنها سهلت مهمة العدو الصهيوني، وساعدت على تنفيذ مخططاته وأهدافه، وأصبح الموت يهدد كل كائن في لبنان؛ لأن إسرائيل سلمت الخنجر المسموم الذي بقرت به بطون النساء والأطفال في دير ياسين إلى جماعات عميلة نفذت الجرائم في النساء والأطفال بنفس الخنجر المسموم!!

ويمكننا دراسة ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

أ - لبنان والمقاومة الفلسطينية

ب - دخول المقاومة بيروت

(أ) لبنان والمقاومة الفلسطينية:

توجه عدد كبير من الفلسطينيين بعد نكبة عام ١٩٤٨م إلى لبنان، وسكنوا في مخيمات في جنوب لبنان، وحول بيروت، وشمالي لبنان، ولقد واجه الفلسطينيون أقسى أنواع التشرد والعذاب، وهم يتنقلون من مكان لآخر، حيث فرضت الحكومة اللبنانية عليهم قوانين صارمة وحرمت عليهم التجمعات داخل المخيمات، وفرضت الضرائب على أبناء المخيمات مما أثقل كاهل اللاجئ الفلسطيني.

وبدأت المقاومة من لبنان منذ النكبة على شكل حرب عصابات، مما أدى إلى قيام إسرائيل بهجمات متكررة على جنوب لبنان وبيروت، وقصف المدن والقرى اللبنانية، مما أدى إلى زعزعة الثقة بين الشعبين اللبناني والفلسطيني، وابتدأت الغارات الإسرائيلية على لبنان منذ عام ١٩٦٥م، أي منذ انطلاقة الثورة الفلسطينية، وكانت تمهيدًا للحرب الأهلية التي خرَّبت الكثير.

لقد كان لوجود المخيمات الفلسطينية الأثر الكبير في نمو الثورة بين الجماهير الفلسطينية واللبنانية وتصاعدها، فكانت بيروت العاصمة تجمع خليطًا من السكان ومن مختلف الجنسيات.

وكان هذا بحكم نكبة عام ١٩٤٨م، وهجرة الكثير من الشعب الفلسطيني إلى لبنان، وبوجود المخيمات الفلسطينية في بيروت عمل توازنًا للجانب الإسلامي، إذ نجد أن المسيحيين كانوا يسيطرون على معظم لبنان، وبيروت خاصة، ولكن قويت حال المسلمين بوجود المشردين من أبناء الشعب الفلسطيني.

وازداد القمع في لبنان بالنسبة للمخيمات الفلسطينية، وكانت الرقابة صارمة، وذلك تبعًا لتزايد النشاط الفلسطيني، حيث كانت هذه الرقابة، وهذا النشاط يستجيبان بصورة عكسية لنفس المجموعة من التغيرات الجارية على الساحة العربية، ولكن صرامة القمع لعبت دورها في خلق استعداد ثوري لدى الجماهير الفلسطينية[1].

---

(١) روز ماري صايغ، الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، ترجمة: خالد عايد، تقديم: د. إبراهيم أبو لغد، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

والحقيقة أن الطبقة الحاكمة في لبنان تخشى أن تؤدي القوى القائلة بالوحدة العربية وبالوحدة الإسلامية التي عُبّئت بفضل انطلاقة الناصرية، وحزب البعث إلى إثارة الاضطراب في الميزان الطائفي الهش للبلاد[1].

وتزايد خوف الطائفة الحاكمة في لبنان من أن إسرائيل سترد بهجمات انتقامية على عمليات الفدائيين الفلسطينيين، وهذا يحتم على وجود جيش قوي بدلاً من الجيش الصغير الذي تختاره الطائفة الحاكمة، والذي يستطيع الموارنة من خلاله إدامة سيطرتهم على البلاد[2].

ونشطت حركة المقاومة الفلسطينية، فأقيمت معسكرات للتدريب ضمت الكثير من الشباب الفلسطيني والعربي من أجل تدريبهم على مختلف أنواع الأسلحة، وتخريجهم مقاتلين أقوياء، وفعلاً كانت الأفواج الشابة تتخرج من معسكرات في سوريا والجزائر ومصر، وأصبح هؤلاء نواة للنضال الفلسطيني، ولقد أثار هذا العمل الحكومة اللبنانية حيث فرضت قرارًا بمنع مغادرة أي فلسطيني بقصد التدريب العسكري من العودة مجددًا إلى بيروت.

كانت بيروت تحكمها طوائف متعددة وكثيرة، وعدد الطوائف الموجودة في لبنان أكثر من سبع عشرة طائفة، وعلى نحو ما مرَّ ذكره سابقًا.

ومن خلال ذلك ترى أن وضع المقاومة في بيروت كان صعبًا، وذلك لتعصب هذه الطوائف وتحكمها في لبنان، وتقليد أبنائها مقاليد الحكم والوظائف الرسمية.

هذا بالإضافة إلى وجود المسلمين السنة الذين يشكلون نسبة ٢١٪ من عدد السكان أيضًا، كان هناك الشيعة ويشكلون نسبة ٢٤٪ هذا إضافة للدروز ونسبتهم ٦٪[3].

ومن خلال هذه النسبة نجد أن الطوائف غير المسلمة أكبر نسبة من عدد المسلمين السنة، فالموارنة - مثلاً - لا يشكلون إلا ٢٣٪ من السكان يتمتعون بمزايا كثيرة من حيث

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٢) د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٠م.

(٣) الزعيم الديغولي: بيير روندو، مصدر سابق، ص ٣١، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

الحكم وتولي المناصب المهمة في الدولة.

ومما سبق يتضح أن المقاومة مرت بطرق صعبة، وجابهت المضايقات من أجل وأدها في مهدها، ولكن الشعب اللبناني في جنوبي لبنان وقف بجانب الثورة الفلسطينية؛ لأن الفدائي الفلسطيني يدافع عن أرض لبنان، ويطالب بحق له سلب منه، ولكن أصحاب النفوس المريضة وعملاء إسرائيل لم يهدأ لهم بال، ولم يغمض لهم جفن، وبقوا على اتصال مع قوات العدو الصهيوني من داخل لبنان، ومن الخارج عن طريق فرنسا وأمريكا من أجل القضاء على هذا الشعب الذي يدافع عن كرامة الأمة العربية إن كان هناك وجه بقي لهذه الأمة؟!!

* * *

(ب) دخول المقاومة بيروت

لقد دخلت المقاومة إلى بيروت عام ١٩٦٩م عبر سلسلة طويلة من المجابهات بين النظام اللبناني من جهة وبين الفدائيين في الجنوب اللبناني المدعومين من قبل جزء من سكان الريف اللبناني، والفلسطينيين المقيمين في المخيمات، وقسم كبير من سكان المدن الساحلية (الأحزاب الوطنية والتقدمية، والطلاب والجماهير الإسلامية) من جهة أخرى[١].

والتحمت الجماهير الفلسطينية بالثورة، وقويت عرى الصداقة بينها وبين القوى المحلية وجرى إقامة أولى القواعد الفدائية في الجنوب اللبناني بجباله ذات الكهوف والشجيرات الكثيفة، ولقد ساعدت طبيعة المنطقة على حرب العصابات، إذ كان المقاتلون ينطلقون إلى فلسطين المحتلة، وينفذون العمليات العسكرية، ويعودون إلى قواعدهم التي لا تظهر من بين الأشجار الملتفة الكثيرة والجبال الوعرة المسالك، وشكَّل الجنوب اللبناني قاعدة أساسية لانطلاق المقاومة، وذلك بسبب الفقر والإهمال الذي يعاني منه سكان الجنوب اللبناني وأغلبهم من الشيعة.

ولهذا قدم الجنوب لحركة المقاومة بعضًا من الظروف الجغرافية والسياسية التي كانت تحتاج إليها[٢].

ولابد من القول بأن المقاومة كانت بدائية في الفترة ١٩٦٨ - ١٩٦٩م، وذلك للطابع الارتجالي لعملها في أوساط جماهير المخيمات، وأيضًا كانت حركة المقاومة عبارة عن كتل من المجموعات السرية الصغيرة المبعثرة التي انطلقت إلى العلن قبل أن تكتمل محاولات توحيدها[٣].

وينبغي القول بأن هناك أعباء كثيرة وقعت على أكتاف المقاومة منها:

أولاً: الحفاظ على استمرارية النضال المسلح ضد إسرائيل.

ثانيًا: الإبقاء على ميزان قوي داخل المحيط العربي من شأنه أن يعطي حركة المقاومة الفلسطينية حدًا أدنى من الاستقلال.

---

(١) روز ماري صايغ، مصدر سابق، ص ١٩٢.

(٢، ٣) المصدر السابق، ص ١٩٢.

ثالثاً: التحول إلى حكومة تسهر على شؤون الجماهير التي عانت من القمع والإهمال[1] زاد نشاط المقاومة الفلسطينية حين دخلت المنظمات الفلسطينية إلى لبنان بعد أحداث أيلول/ سبتمبر عام ١٩٧٠م، فدعمت الأفواج الجديدة - المطرودة من الأردن - حركة المقاومة في لبنان، وفي الجنوب اللبناني، حيث أقيمت القواعد، وتمتع العمل الفدائي بدعم «شعبي» واسع في الجنوب.

ولم يقتصر الأمر على الدعم فقط، بل إن العديد من شباب جنوب لبنان التحقوا بالعمل الفدائي كمقاتلين.

خاصة بعد الغارات على بيروت، والمخيمات الفلسطينية في جنوب لبنان على أثر احتجاز رهائن إسرائيليين على أيدي الفلسطينيين أثناء دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ، حيث ردت إسرائيل على ذلك بغارات على المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين، واستخدمت الغاز السام والقنابل الفوسفورية[2].

ولم تكن العلاقة بين الجيش اللبناني والفدائيين علاقة مواجهة كاملة، بل كانت من خلال ذرائع قانونية كالادعاء أن الفدائيين يحملون أسلحة بلا رخصة، أو أنهم يدخلون مناطق ممنوعة، وذلك بهدف إزعاج العمل الفدائي وكبح جماحه، وإثارة قطاعات من الشعب ضده، أكثر من محاولة القضاء عليه تماماً[3].

قامت إسرائيل بعمليات عسكرية ضد المخيمات الفلسطينية في جنوبي لبنان وارتكبت جريمة ذات تأثير كبير، حيث قتلت ثلاثة قياديين من منظمة التحرير الفلسطينية في شارع فردان، هم «كمال ناصر»، «محمد يوسف النجار وزوجته» و«كمال عدوان»[4]، وبعدها أعلن عن هدنة في الجنوب، انتهت مع إعلان الحرب الرابعة العربية - الإسرائيلية حرب أكتوبر (رمضان) عام ١٩٧٣م، رغم أن لبنان لم يشترك في الحرب، فإنه لم يسمح لإسرائيل بمهاجمة سوريا عبر أراضيه.

بعد ذلك قامت إسرائيل بهجمات تركزت على جنوبي لبنان «فقصفت قرية راشيا

---

(١) روز ماري صايغ، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

(٢) روز ماري صايغ، مصدر سابق، ص ١٩٣.

(٣) فلسطين المحتلة، العدد ٣٢١، ٣٢٢، ١/ ١/ ١٩٨٢م.

(٤) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، حقائق وأرقام، وزارة الإعلام اللبنانية، ص ٥.

الخفار بالقنابل الفوسفورية، بالإضافة إلى اختراق المنطقة الحدودية لملاحقة الفدائيين، وصبت قذائف على قريتي حاصبيا وشبعا[1].

واستمرت إسرائيل بقصف الجنوب مدنه وقراه من أجل ضرب التحالف بين «الشعبين» الفلسطيني واللبناني، فقصفت مدينة صور ودمرت البيوت وقتلت الأبرياء حتى البحر قصفته وقطعت الأشجار بحثًا عن الفدائيين الذين يقلقون راحة إسرائيل، فمدينة صور الباسلة تتحدى يوميًا الاعتداءات المتكررة وتبقى شاهدة على آلات الدمار الحديثة التي زودت بها الإمبريالية الأمريكية، الكيان الصهيوني فمدينة صور هي معقل الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية[2] فسقط مئات الشهداء من أبناء مدن الجنوب وقراه، بل الآلاف، وقام الإسرائيليون بهجمات يومية كثيرة حيث قصفت مخيمات عين الحلوة والنبطية جوًا وبرًا وبحرًا، وسقط أكثر من ٣٠٠ قتيل وجريح، وكذلك أغار الإسرائيليون مرة ثانية على مخيمي عين الحلوة والراشدية مؤديًا إلى سقوط ما يزيد عن ١٠٠ قتيل و٢٠٠ جريح، وحين قام الفلسطينيون عبر رجال ضفادعهم بعملية نهاريا شمالي فلسطين المحتلة في ٢٤ من حزيران/ يونيو ١٩٧٣م، حيث أدت هذه العملية إلى مقتل ثلاثة إسرائيليين، شنت حكومة تل أبيب غارة جوية على صور وصيدا والصرفند[3].

وفي عام ١٩٧٤م قامت إسرائيل بهجوم جوي وبري وبحري على مخيم النبطية ومسحته طائراتها من الوجود تمامًا.

وفي آب/ أغسطس عام ١٩٧٤م بدأت تل أبيب سياسة الضربات الوقائية التي لم توافق عليها رسميًا الحكومة الإسرائيلية إلا في عام ١٩٧٩م، وأصبحت الهجمات على القرى الحدودية والقواعد الفلسطينية والمخيمات شبه يومية.

بعد تدهور الوضع خلال الأسبوع الأول من كانون الثاني/ يناير عام ١٩٧٥م، دخل الصهاينة قريتي عيترون ويارين وقصفوا النبطية والطيبة، حيث قتل ستة مدنيين وعسكري لبناني، وجندي إسرائيلي، وجرح سبعة أشخاص.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦.

(٢) فلسطين المحتلة، العدد ٢٨٠ - ٢ من آذار ١٩٨١م، ص ٧.

(٣) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، حقائق وأرقام، وزارة الإعلام اللبنانية، ص ٦.

ولم تختف الهجمات الإسرائيلية، إذ وجدنا غارات استهدفت بشكل رئيسي كفر شوبا، فنزوح أهل القرية المدمرة خلال هدنة القوات الدولية وقدمت شكاوى جديدة لمنظمة الأمم المتحدة في ٢٣ من شباط/ فبراير ١٩٧٥م[1]، ولقد ادعت إسرائيل دائمًا أن تدخلاتها العسكرية في لبنان لم يكن هدفها سوى الرد على عمليات منظمة التحرير الفلسطينية المنطلقة من الأرض اللبنانية، بينما أكد لبنان أن التواجد الفلسطيني المسلح لم يكن سوى حجة للقادة الإسرائيليين لتحقيق أهدافهم المتمثلة في إقامة دولة ذات طابع طائفي وضم الأراضي الغنية بالمياه والواقعة جنوب نهر الليطاني.

إضافة إلى إضعاف حركة المقاومة الفلسطينية وشل يد المساعدة التي تقدم العون وتتمثل في الشعب اللبناني، وخاصة أهالي القرى الحدودية، فأخذت تبث الرعب بين الناس بغاراتهم المتكررة وألبت بعض النفوس، المريضة وخاصة الكتائب ضد التجمعات الفلسطينية مما أدى إلى وجود عناصر تعمل لحساب إسرائيل داخل لبنان.

وتعدّت هجمات إسرائيل داخل لبنان فوصلت قلب العاصمة بيروت، حيث تعرض مركز منظمة التحرير الفلسطينية، ومركز الأبحاث الفلسطينية ومكاتب المنظمات لهجمات منظمة، مما أسفر عن جرح ستة أشخاص، وقصف الطيران الإسرائيلي مخيم صبرا في بيروت، مما أدى إلى قتل الأبرياء من نساء وشيوخ وأطفال[2]، وكانت الحكومة اللبنانية تتحرش بسكان المخيمات لأتفه الأسباب، فمرة تقول بأن النار أطلقت على قوات الأمن من داخل المخيمات أو تتحيَّن فرصة الشغب والفوضى من خلال مظاهرة طلابية، فتتدخل قوات الأمن بإطلاق النار على الجمهور بدلاً من تهدئة الوضع بالطرق السلمية.

والغريب أن الجيش اللبناني طالب بهدم مكتب «فتح» داخل مخيم نهر البارد وتسليم الفدائيين إلى السلطات[3].

ولقد ضيقت السلطات اللبنانية الخناق على المخيمات الفلسطينية في جنوب لبنان، حيث حوصرت المخيمات من قبل الجيش اللبناني، وسقطت جميع المخيمات تحت سيطرة الجيش بعد سقوط مخيم الراشيدية، وبعد ذلك بدأت عمليات القمع والتعذيب، وانسحبوا من المخيمات خوفًا من قدوم الثورة.

(١، ٢) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٧.

(٣) روز ماري صايغ، مصدر سابق، ص ١٩٨.

«أما المخيمات في بيروت فكانت شدة الطوق عليها أخف منها في المخيمات الريفية الأكثر انعزالاً باستثناء برج البراجنة الذي تحيط به تلال رملية من ثلاثة جوانب - كما أن مخيمات صبرا وشاتيلا ومار إلياس كانت ملتحمة مع مناطق لبنانية إسلامية كثيفة السكان مما جعل الهجوم عليها غير سهل، ومع أن السلاح كان قليلاً حين وقعت الصدامات، فإن الحالة النفسية للجماهير الفلسطينية واللبنانية بلغت مستوى عال من الثقة»[1].

إذن دخول المقاومة بيروت لم يكن بالسهل، بل مرّ بصعوبات وعقوبات وقدم الشهداء أرواحهم قرباناً للوجود على الأرض اللبنانية، فإسرائيل تعمل على عرقلة الوفاق الفلسطيني اللبناني بالتعاون مع أذنابها في كل مكان.

وما يؤكد هذا ما قاله موشى شاريت أنه في ٢٧ من شباط/ فبراير ١٩٥٤م طلب منه بن غوريون خلال اجتماع معه دفع الموارنة إلى «إعلان الدولة المسيحية في لبنان»، فأجبته حينها أن هذا غير منطقي؛ لأن على لبنان المسيحي التخلي عن صور وطرابلس والبقاع.. وسيخسر طابعه الاقتصادي»[2]، واستطاعت إسرائيل أن تحقق أهدافها من خلال العمليات الإرهابية على لبنان جنوبه وشماله وبيروت العاصمة، ومن خلال الاتصالات بينها وبين قادة الموارنة في بيروت الشرقية، فكانت أول إنجازات هذا الاتصال أن حقق الطرفان أكبر مجزرة ضد شعب أعزل يعيش في مخيم صغير يعمل أهله ليل نهار من أجل العيش، وهو مخيم «تل الزعتر»[3]، وهذا ما سنعالجه بالتفصيل؛ لأنه بداية المأساة الحقيقية...

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٢) الجنوب اللبناني ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٥٧.

(٣) إبراهيم الوحش، مأساة بيروت في الشعر العربي المعاصر، المطبعة الاقتصادية، دبي، ط١، ١٩٩٢م، ص ٦٨.

المبحث الثاني

أ - الحرب الأهلية

ب - مجزرة تل الزعتر

جـ - اجتياح إسرائيل للجنوب اللبناني عام ١٩٧٨م

(أ) الحرب الأهلية:

كان الصراع الدامي في لبنان إحدى نتائج هذه الحرب، وخاصة بعد خروج مصر من المعركة مع العدو الإسرائيلي، بعد زيارة «السادات» لإسرائيل وعقد معاهدة «كامب ديفيد».

وبعد الاعتداءات الإسرائيلية المتواصلة على الجنوب اللبناني، وعلى المخيمات الفلسطينية في مختلف أنحاء لبنان خلال عام ١٩٧٤م، وأوائل عام ١٩٧٥م، وما أدت إليه من نزوح واسع عن المناطق التي تعرضت للقصف، واجه لبنان انقسامًا خطيرًا بين القوى المؤيدة للنشاط الفدائي عبر الأراضي اللبنانية من جهة، وبين القوى المعارضة لهذا النشاط من جهة أخرى[١].

لذا رأى الجانب المعارض في لبنان بأن العمل الفدائي في الجنوب اللبناني وما يتبعه من مداخلات، وضغوط عربية، يؤديان إلى فرض حل للصراع العربي الإسرائيلي وذلك بتوطين الفلسطينيين في لبنان، الأمر الذي ترفضه القوى المعارضة للعمل الفدائي؛ لأنه يخل بالتوازن الطائفي داخل لبنان، وكانت هناك بعض التجاوزات من قبل بعض عناصر المقاومة الفلسطينية أسهمت في تعميق حدة الانقسام وشدة الكره من بين القوى المعارضة للعمل الفدائي.

بدأ الانقسام يأخذ شكل الحرب الأهلية، بعد مقتل الزعيم الوطني في صيدا «معروف سعد»، في ٢٦ من فبراير ١٩٧٥م وبعد حادثة اغتيال ٢٦ فلسطينيًا في «باص» كان يمر في منطقة عين الرمانة، بضواحي بيروت.

«إذن انفجرت الحرب الأهلية بتاريخ ١٣ من إبريل عام ١٩٧٥م، بين القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من جهة، وبين الميليشيات اللبنانية اليمينية بقيادة حزبي الكتائب والأحرار من جهة أخرى»[٢].

---

(١) فلسطين.. تاريخها وقضيتها، مصدر سابق، ص ٢١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٤.

والحقيقة أن المذابح والحرب الأهلية لها جذور بعيدة تبدأ منذ عام ١٨٤١م وما تبعها من فتن ومذابح، هذا لوجود مجموعة كبيرة من الطوائف مختلفة المذاهب، وعلى رأس هذه الطوائف الموارنة الذين ينتمون إلى حزب الكتائب.

إذن قصة الحرب في لبنان قصة قديمة، وبقيت الثغرة كبيرة بين الطبقات في المجتمع تاركة للإقطاع أن يبرز في أشكال جديدة وتنظيمات مستحدثة مختلفة.

وقد استمر الحاجز الطائفي قائمًا في نفوس أبناء الوطن الواحد دون العمل على إزالته، اللهم إلا في بعض المناسبات الوطنية المستحدثة حين تكسو الوجوه أقنعة الرياء، والمداهنة.

وبدأت الطوائف اللبنانية، وخاصة الكتائب تدرب ميليشيات على القتال وتلقنهم دروسًا ضد الشعب الفلسطيني.

«كانت الحرب الأهلية في مراحلها الأولى، ولم يع اللبنانيون إلى أين هم ذاهبون وصوت الطلقات المدوية يتردد في ضواحي بيروت في الليل، وكان الناس يتساءلون لماذا كل هذا؟!»[١].

وكثيرًا ما كانت الاشتباكات تجري في الضواحي، وخاصة عين الرمانة والشياح وسن الفيل والدكوانة وتل الزعتر، وكل مكان تواجدت فيه الفئات الثورية والفئات اللبنانية.

ازدات الاشتباكات بعد حادثة الأتوبيس، ومقتل مجموعة من الفلسطينيين على أيدي حزب الكتائب بعدها ظهرت الأسلحة في الشوارع، يحملها مقاتلون يرتدون ألبسة متنوعة مثيرة منها القبعات الكبيرة، وألبسة الصيد والريش والإشارات التي تدل على انتماءاتهم الحزبية أو الطائفية، وكانت الأحوال تتردى وتتأزم بسبب التعديات على الحريات الشخصية والخطف والقتل والانفجارات.

والأزمة التي عاشها الشعبان الفلسطيني واللبناني خلال سنوات الحرب.. أبرزت عدة حقائق كانت غائبة عن أذهان كثير من الشعوب الإسلامية منها[٢].

---

(١) مقتطفات من الصحف اللبنانية والعالمية، الحرب اللبنانية في صور، المكتبة الأدبية، بيروت، ص ٢٢٢.

(٢) مجلة الإصلاح، دبي، العدد ٥٤، ذو القعدة ١٤٠٢هـ، ص ٤.

أولاً: إن الدعوات التي كانت تستغل القضية الفلسطينية لم تكن سوى سوق للمتاجرة برقاب الفلسطينيين واللبنانيين.. فأين ذهب أدعياء التحرير والتقدم وإعطاء الشعوب حقوقها.. لماذا صمتوا صمت القبور عما جرى في لبنان.. لماذا سلموا رقاب النساء والأطفال للسكين الإسرائيلي.

ثانيًا: لقد كشفت الحرب حقيقة الصراع بين العرب واليهود، وهو أنه صراع عقائدي تصرح به إسرائيل ليلاً ونهارًا، لقد تعاونت الصليبية ممثلة في القوى الكتائبية وأنصارها مع العدو اليهودي في القضاء على المسلمين والفلسطينيين.

ثالثًا: سقوط الشعارات الجوفاء مثل الوحدة العربية.. التضامن العربي[1]. وحقيقة الأمر أن إسرائيل لا تفرق بين مسلم فلسطيني، ومسلم لبناني فهي تعامل الكل على أنهم أعداء، يجب التخلص منهم!!

وشهدت هذه الحروب البشعة محاولات دؤوبة من جهات مختلفة للتركيز على طابعها الطائفي المذهبي، أو على كونها صراعًا لبنانيًا فلسطينيًا[2].

واستمرت الحرب الأهلية في لبنان عنيفة طوال عامي ١٩٧٥م - ١٩٧٦م، وكان هدف هذه الحرب التي أشعلها وزير خارجية أمريكا الأسبق «هنري كيسنجر» اليهودي الأصل، هو إشعال المنطقة بحروب محلية صغيرة؛ لتجنب مواجهة مدمرة بين القوتين العظميين - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي - واستنزاف طاقات الدول والقوى العربية... وإلهائها عن متابعة نضالها ضد العدو الصهيوني وحليفته الولايات المتحدة، وأيضًا تقسيم منطقة الشرق الأوسط إلى دويلات طائفية، وإضعاف الروح الوطنية عند العرب وترسيخ قدم إسرائيل في المنطقة[3]، وبالتالي تمرير تسويات استسلامية كما حدث في كامب ديفيد، وتشجيع أطراف أخرى على اللحاق بركبها والانضمام إلى نهج الاستسلام مع العدو الصهيوني.

كل محاولات إسرائيل التي كانت تهدف إلى ضرب المقاومة الفلسطينية باءت بالفشل، وذلك بفضل التفاف الجماهير الفلسطينية واللبنانية داخل الأرض المحتلة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢) فلسطين تاريخها وقضيتها، ص ٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

وخارجها حول المقاومة.

واشتدت الحرب الأهلية في لبنان، وخاصة في بيروت، وقامت مظاهرات ضد هذه الحرب التي لا تخدم إلا مصلحة إسرائيل، ثم تداعى الوضع تمامًا بعد معركتين كبيرتين، حين مشط حزت الكتائب وحلفائه منطقة «الكارنتينا» واحتل الفلسطينيون واليسار المسلم مدينة «الدامور» وبلدة «الجية»[1]، واشتدت الأزمة السياسية وازداد الانشقاق فتدخلت شخصيات دينية لخدمة لبنان وإنقاذه، ولكن هيهات!!

وباءت كل محاولات الإصلاح بالفشل، فحمل الرجال السلاح، حتى المرأة اشتركت في الحرب الأهلية، وامتدت الحروب من بيروت الشرقية إلى بيروت الغربية، حيث الدمار والخراب غلّفا وجه بيروت!

وقامت محاولات كثيرة للتوسط وللإحاطة بالأزمة والقضاء عليها من قبل كبار السياسيين اللبنانيين والسوريين، ومبعوث الفاتيكان، وبعض مشايخ المسلمين، ولكن دون جدوى.

وقد ترأس مجموعة من قادة الكتائب هذه الحرب الأهلية وزادوا في اشتعالها بشعاراتهم العدائية، فمثلاً «بشير الجميل» الكتائبي يقول في كلمة له: المعركة لم تنته ويجب تحرير لبنان كله، لن نسلم أسلحتنا لأحد، ومن السخف أن نتكلم عن جمع الأسلحة وتسليمها، ولن نسلم قطعة سلاح واحدة قبل أن تسلم آخر قطعة سلاح عند الغرباء[2]، وقال سعيد عقل: إن الفلسطيني الذي عجز أن يثور ضد الذين اغتصبوا أرضه ووطنه، حاول اغتصاب أرض غيره ووطن غيره، ولم يبق لهم شبر من أرض يكتبون عليه «هنا ترقد المرحومة فلسطين»... وختم سعيد عقل كلمته بقوله: «لا تصدقوا أن السلام قد حصل، ومثل ما قلت للرئيس سركيس: لا سلام على أرضنا ما دام على أرضنا فلسطيني»[3].

---

(١) مقتطفات من الصحف اللبنانية والعالمية، الحرب اللبنانية في صور، مصدر سابق، ص ٥٠.

(٢) الحملة على الشعب الفلسطيني في تصريحات وأعلام الجبهة اللبنانية، بعد مؤتمري الرياض والقاهرة، منظمة التحرير الفلسطينية، جهاز أمن الثورة الموحد، قسم المعلومات ٢٤/ ١١/ ١٩٧٦م، ص ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠.

ولم تكن المارونية وحدها في الساحة فهناك حزب الأحرار والأرز، وأتباع «كميل شمعون»، و«سليمان فرنجية»، وهناك طائفة الشيعة، والتي تلعب دورًا كبيرًا في الجنوب اللبناني.

بالإضافة إلى الحركات التقدمية، والوطنية اللبنانية الموجودة على الساحة اللبنانية مثل المرابطين بقيادة «إبراهيم قليلات»، والسنة بقيادة «الوزان».

ونلاحظ أن هناك تماثلاً في الشعارات والممارسات بين زمرة «سعد حداد» في الشريط الحدودي اللبناني المحتل، والأخرى الغاشية الرئيسة في وسط لبنان بقيادة حزب الكتائب، والخلاف الوحيد هو الهامش بين الارتماء المباشر في أحضان العدو، والتعامل معه»[1].

فشعار الطرفين هو «تحرير لبنان من الغرباء» والاتجاه لبناء الدولة ذات الصفة الغاشية بأداة مارونية في مواجهة الأطراف اللبنانية الأخرى ذات الصفة الإسلامية الوطنية، ثم تقسيم الشعب والوطن لأجل هدفهما المشترك.

المشكلة إذن لا تنحصر في الفارق بينهما، بل في اتفاق الطرفين على الشعارات الجوهرية، وفي صلاتهما فيما بينهما وصلاتهما معًا بإسرائيل.

ولقد قال ياسر عرفات - رئيس منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك - في كلمة له: «إن هناك محاولة، وهي أن تتكرر إسرائيل أخرى في لبنان، ولكن أقول لهم: إن هذه الثورة لا أحد يقدر أن يهددها، نحن نُهدّد ولا نهدّد، نخيف ولا نخاف، وأنا أقول: إن لبنان ممرًا وليس مستقرًا، ولن نرضى بديلاً عن فلسطين وطنًا»[2].

ونلاحظ أن الطائفة المارونية بالتعاون مع إسرائيل استطاعت أن تعين «بشير الجميل» رئيسًا للبنان، رغم أن الوضع كان متأزمًا.

ويمكن القول: إن الصراع على هذه الساحة العربية يختصر مجمل الصراع في الشرق الأوسط، بل مجمل الصراع بين قوى السيطرة الاستعمارية وقوى التحرر والتقدم في العالم، حيث إن قادة المارونية العنصرية يريدون انتزاع دولتهم الجديدة في قمة

---

(١) فلسطين الثورة، العدد ٣٧٣، ١١ من آيار ١٩٨١م، السنة التاسعة، المجلة المركزية، (م. ت. ف)، ص ٢٩.

(٢) فلسطين الثورة، العدد ٣٦١، ١٦ من شباط ١٩٨١م، السنة التاسعة، ص ٦.

الصراع بين قوى التحرر والتقدم وقوى الإمبريالية والصهيونية، تمامًا كإسرائيل التي قامت على جماجم البشر الذين ذبحوا في مجازر دامية[1].

واستمرت عاصفة الحرب الأهلية مدوية مدمرة مخلفة الدمار، فكان فتيل العاصفة هو عين الرمانة، وامتد اللهب حتى التهمت.. لبنان كاملة.

زاد القصف الإسرائيلي لجنوب لبنان مع استمرار الحرب الأهلية بشكل رئيسي، وقامت إسرائيل بعمليات هجومية ضد قرى الجنوب، وقصف جوي وبري على مخيمات اللاجئين، وقامت بغارات على مخيمي نهر البارد والبداوي في شمالي لبنان إلى جانب هذه العمليات العسكرية توجهت إسرائيل إلى مساعدة الميليشيات على الحدود اللبنانية، والمشاركة بتشكيل قوة حدودية بقيادة ضباط لبنانيين منشقين أبرزهم «سعد حداد»، و«سامي شدياق»[2]، وساعدت إسرائيل هذه الزمرة الخائنة، حيث أصبحت أداة لتدمير الجنوب بجانب إسرائيل، وهذا ما جعل الأمر يتفاقم بتفريخ الأحزاب وتناثر الجيش اللبناني.

عدد الأحزاب اللبنانية كان كبيرًا، مما أدى إلى اتساع هوة الحرب الأهلية بلبنان فمثلاً كان عدد الأحزاب والحركات الإسلامية ستة عشر حزبًا منها: حركة «أمل» الشيعية، حزب الله، حركة التوحيد الإسلامي، حركة أمل الإسلامية، منظمة سيف الإسلام، التجمع الشيعي المستقل، جماعة عباد الرحمن، اتحاد العلماء المسلمين، الجماعة الإسلامية، التجمع الشيعي المستقل، حركة التجمع الإسلامي[3]، وغير ذلك من الجماعات، ولكن باقي الأحزاب اللبنانية يفوق الحصر لكثرة العدد، مما أدى إلى اشتعال الفتنة التي تزعمها حزب الكتائب «المموارنة» فعدد الأحزاب اللبنانية من طائفية متطرفة إلى أحزاب سياسية يعادل ٤٧ حزبًا منها:

حزب الاتحاد اللبناني، الجمعية الوطنية، عصبة العمل القومي، حزب النداء القومي حزب الكتائب اللبنانية، الحزب التقدمي الاشتراكي، حركة الوعي اللبنانية، الحزب السوري القومي، حزب التضامن البيروتي، الحزب الجمهوري، منظمة البعث العربي التابع لسوريا، التنظيم الشعبي الناصري، المرابطون، وغير ذلك من الأحزاب التي لا حصر لها،

---

(١) الأزمنة العربية، العدد ١١٤، ١٩٨١م، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ص ٢٥.

(٢) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م – ١٩٨٦م، وزارة الإعلام اللبنانية، ص ١٤.

(٣) جريدة الخليج، العدد ٢٨٢٠، ص ١٦.

إذ نجد أن حزب الكتائب فرّخ جماعات حوله، فكانت أحزاب الجبهة اللبنانية «الساحة المسيحية»، والتي يتزعمها حزب الكتائب اللبنانية والقوات اللبنانية، وحزب الوطنيين الأحرار، وحراس الأرز، وقوات الدامور ولواء المردة، وحركة التضامن المسيحي، وكذلك هناك أحزاب أرمنية مثل الهانشاق، الطاشناق، الرامنغفار[1]، بالإضافة إلى الدروز.

هذا مثال بسيط عن الأحزاب اللبنانية التي كانت تعج بها الساحة اللبنانية، مما أدى إلى اشتعال الفتنة، ونتيجة حتمية لتعدد الأحزاب تعددت المطارات، فأصبح لكل حزب مطار معين، وكذلك تعددت المرافئ، وانقسم الجيش شيعًا وأحزابًا، فعصفت الفتنة بالبلاد، مما أدى إلى احتلال إسرائيل لجنوب لبنان، بل كل لبنان حتى وصولهم العاصمة بيروت.

وأثناء هذه الأحداث على الساحة اللبنانية، تكالبت القوى المسيحية التي يتزعمها حزب الكتائب على القوات التقدمية اللبنانية والقوات الفلسطينية، مما أدى إلى وقوع الكثير من الضحايا من جرّاء استعمال شتى أنواع الأسلحة الصاروخية والقذائف والمدفعية، وتدمير البيوت وتشويه الأرض اللبنانية من قبل مجموعة تعمل لحساب إسرائيل، فكانت المأساة الفاجعة التي جعلت الأم تفقد ابنها وزوجها، وربما تفقد العائلة كاملة فأصبح الجميع في خط، حتى الحيوانات قتلت في لبنان على أيدي إسرائيل وعملائهم الكتائب والأحزاب الأخرى الموجودة في الجنوب اللبناني، والتي تعمل قتلاً وإجرامًا بكل طفل أو امرأة، أو شيخ كبير.

وكان من نتائج هذه الحرب مجزرة «تل الزعتر»، وهي التي تكشف لنا عن حقد اليهود في لبنان وفي كل مكان!!!

ويصوِّر ذلك الشاعر رشاد يوسف بقوله:

لبنان تسبح في الدماء جريحة	ويعيث في أرجائها الأضداد
وتبيت تندب من بنيها عصبة	خلعوا هوية قومهم أو كادوا
وتظل تجتاح الخطوب ربوعنا	وتظل ظلمة ليلنا تزداد
يا أمة الإسلام صيحة شاعر	قد ملّها التكرار والترداد[2]

(١) جريدة الخليج، العدد ٢٨٢٠، ص ١٣.

(٢) رشاد يوسف: ديوان وإسلاماه (مخطوط).

ب - مجزرة تل الزعتر:

من خلال كلمة مجزرة نحن بصدد ملحمة فعلية لشعب شُرِّد من وطنه، هذه المجزرة وجهت ضد كل مسلم في تل الزعتر وليس التلُّ بالمدينة أو بالدولة، بل هو مخيم صغير يضم بين أزقته مجموعة من الفقراء العاملين من لبنانيين وفلسطينيين ينامون تحت أكواخ من الصفيح، ويلتحفون العراء.

لمحة تاريخية عن التل:

أنشئ مخيم تل الزعتر عام ١٩٥٠م[1]، وهو يقع في المنطقة الشرقية الشمالية من ضواحي بيروت، تعدُّ المنطقة التي تحيط بالمخيم من أهم المناطق الصناعية في لبنان، فهي كانت تضم عام ١٩٦٨م، ٢٩٪ من عدد المعامل في لبنان، و٢٢٪ من عدد العمال، و٢٣٪ من رأس المال الصناعي اللبناني.

تبلغ مساحة المخيم الإجمالي ٢٩٥ دونما، فهو عبارة عن واد طوله ٣كم، وعرضه كيلو متر واحد، بلغ عدد سكان المخيم عام ١٩٧٢م، حوالي ١٤ ألف فلسطيني، وعام ١٩٧٦م حوالي ١٧ ألف فلسطيني، وهو يضم عددًا كبيرًا من اللبنانيين حوالي ١٣ ألف لبناني.

ينتمي معظم أهالي المخيم من حيث أصولهم الاجتماعية في فلسطين إلى سكان القرى، وكان المخيم مكتظًا بالسكان، ومعظم سكانه يعيشون في «براكسات» التنك والتخاشيب أو من الباطون المسقوف بألواح «الزينكو»[2].

وطرقات المخيم الداخلية ضيقة جدًا، وغير معبدة مليئة بالحفر والأوحال والأوساخ، قبل ظهور الثورة الفلسطينية في لبنان عام ١٩٦٩م، كان محظورًا على الفلسطينيين القيام بأي ترميم أو إصلاح للمساكن إلا بعد الحصول على موافقة رسمية من السلطات المختصة، وكان أهالي المخيمات يعانون من تعسف السلطات، فقد كان محظورًا عليهم ممارسة أي نشاط سياسي أو ثقافي، وكانوا معرضين للملاحقة والاعتقال والمضايقات المتكررة، بدأ الحصار الفعلي لمخيم تل الزعتر يوم ١٢ من آذار (مارس) عام ١٩٧٦م إثر اشتداد الحرب في أعقاب حركة «عزيز الأحدب» الانقلابية، فقد أخذ تل الزعتر يعاني

---

(١) هاني مندس: العمل والعمال في المخيم الفلسطيني، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٧٤م، ١١٦ - ١١٨، بحث ميداني عن تل الزعتر.

(٢) إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، مصدر سابق، ص ٧٩.

حصارًا تموينيًا وعسكريًا قاسيًا منذ ذلك اليوم[1].

بدأ الهجوم العسكري على المخيم صباح يوم ٢٢ من حزيران (يونيو) ١٩٧٦م، وكان القتال يتصاعد على جميع الجبهات في بيروت والضواحي، وحصار تل الزعتر امتد إلى مخيم جسر الباشا ومخيم ضبية، والجيّة وغيرهما.

ولقد سقط على المخيم حسب التقديرات ما يقارب ستين ألف قذيفة[2] من مختلف أنواع الأسلحة، دمرت معظم المنازل التنكية الهشة للمخيم في الأيام الأولى من الهجوم الشامل، وذلك بفعل القصف، ولجأ معظم الأهالي إلى البنايات المجاورة في منطقة الدكوانة المحاذية للمخيم ومن بقي على قيد الحياة انتقل إلى الدامور.

هناك أسباب كثيرة للحرب في لبنان على رأي قادة الكتائب الانعزاليين وأهمها:

الوجود الفلسطيني المسلح على الأرض اللبنانية، ومن ثم فيجب تدمير الفلسطينيين وطردهم من لبنان كافة، ولذا كانت شعارات الكتائب.

أولاً: لا فلسطيني على الأرض اللبنانية.

ثانيًا: تدمير من بقي منهم في لبنان.

ثالثًا: على كل لبناني أن يقتل فلسطينيًا، وعندها لن يكون وجود لهم في لبنان ويجب أن نصفي الصغار قبل الكبار؛ لأن الأطفال سيكبرون.

لقد سقط الشهداء الأبرياء في تل الزعتر، وهدم تل الزعتر، وسُوِّيَ هدمًا وخرابًا من قبل الأحزاب اليمينية، وعلى رأسها حزب الكتائب وحزب الأحرار.

لقد تعلم الفلسطينيون من تل الزعتر درسًا لن ينسوه، تعلموا أن ميليشيات الكتائب تكرههم وتحقد عليهم أكثر من اليهود، ففي مذبحة تل الزعتر أظهر الكتائبيون وحشية وقسوة، تفوقوا بها على الإسرائيليين، وإن ما ارتكبه الكتائبيون في تل الزعتر يفوق من بعض جوانبه ما اقترفه الإسرائيليون فيما بعد في مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا[3].

---

(١) هاني مندس: طريق تل الزعتر، مركز الأبحاث الفلسطيني، الإعلام الموحد، ص ١١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٣) توني كليفتون وكاترين ليروي، من تل الزعتر إلى صبرا وشاتيلا، ترجمة: رشيد أبو غيدا، الدار العربية للتوزيع والنشر الأردن، عمان، ص ١١١.

لقد مثَّل الكتائبيون بسكان تل الزعتر أشنع تمثيل، فقد وضعوا الشيوخ والنساء تحت الشاحنات يسحقونهم تحت عجلاتها إضافة إلى بقر بطون النساء الحوامل، وقتل الشباب بالبلطات، وشقَّ الإنسان نصفين بواسطة السيارات، حيث يربطون الشاب بسيارتين متجهتين اتجاهين عكسيين، فيقسموه إلى نصفين!!

اغتصبت النساء، ووضعت العصى في مناطق حساسة للفتيات على مرآي من أهاليهم...(!!)

لقد تعرَّض المخيم إلي اثنين وسبعين هجومًا عسكريًا، مما أدى إلى إخلاء المخيم في ١٢/ ٨/ ١٩٧٦م قهرًا وذلاً!!

وقد صمد المخيم، لمدة اثنين وخمسين يومًا متواصلاً.. راح ضحية المجزرة أكثر من ١٠٠٠ شهيد من المدنيين العُزَّل، وأكثر من ٥٠٠ شهيد من المقاتلين، في الوقت الذي كنا بحاجة لجهودهم في مجابهة عدو متربِّص بنا على الحدود وما زال!!

وفرضت دمشق وقف إطلاق النار، بعد أن دمر التل وقتل أطفاله، وفي تاريخ ١/٢٥ بدأت قوات الميليشيا بالانسحاب من شوارع بيروت، ورفع الحصار عن تل الزعتر «ورافق ذلك إعلان «بيير الجميل» بأن اللاجئين الفلسطينيين في لبنان يجب أن يتوزعوا على العالم العربي»[1].

* * *

(١) الحرب اللبنانية في صور، مقتطفات من الصحف اللبنانية والأوربية، مصدر سابق، ص ٢٨٥.

(ج) اجتياح إسرائيل للجنوب اللبناني عام ١٩٧٨م

لقد مهدت إسرائيل لاحتياج الجنوب اللبناني، وذلك من خلال عدة محاور سلكتها منها:

أولاً: تطبيق سياسة ما يدعى بالجدار الطيب، مسهلة المرور بين لبنان وإسرائيل، خاصة من رميش، وتل نحاس في الأراضي اللبنانية.

ثانيًا: تدريب الكثير من اللبنانيين تدريبًا عسكريًا داخل معسكرات اليهود، وبث روح التفرقة والطائفية في نفوسهم.

ثالثًا: ساعدت إسرائيل على تكوين الميليشيات الحدودية في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٧٧م، بهجوم واسع النطاق ضد القوات المشتركة مما مكن لميليشيات «سعد حداد» من احتلال الطيبة.

رابعًا: تأليف لجنة فرعية لقضايا لبنان الجنوبي من قبل لجنة الشؤون الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي[1].

رمت إسرائيل من وراء ضغطها العسكري والسياسي المتمادي في لبنان، إلى ضرب الثورة الفلسطينية وتصفية مواقعها، وهدف إسرائيل كان السيطرة على لبنان من أجل تحقيق أطماعها بعد معاهدة صلح بينهما، ومن المعروف أن غزو الجنوب في ١٤ من آذار/ مارس عام ١٩٧٨م تم على أساس خطة قديمة، وضعت وصممت من قبل.

ولم تكن عملية «كمال عدوان» سوى مبرر لتنفيذ الخطة المرسومة سلفًا، والتي نفذها رئيس الأركان الإسرائيلية «موردخائي نمور» قبل أن يفسح في المجال «لرفائيل إيتان» لتولي منصب رئاسة الأركان الصهيونية[2].

كشفت إسرائيل الهجمات على جنوب لبنان، وخاصة على النبطية وعلى الخيام من خلال حصار بحري من قبل البحرية الإسرائيلية لمنع وصول الأسلحة إلى القوات المشتركة، وقصف مدفعي للقرى الجنوبية.

ورغم أن إسرائيل لم تأت على ذكر أي شيء حول تدخلها في لبنان، طلبت بيروت

---

(١) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٩.

(٢) فلسطين الثورة، العدد ٣٦٤، المجلة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨١م، ص ٩.

وساطة واشنطن لكي توقف تل أبيب عملياتها على الأراضي اللبنانية، ولكن إسرائيل - كعادتها - لم تلزم بوقف العميات العسكرية.

وفي مطلع عام ١٩٧٨م، تفجر الموقف من جديد وبشكل أوسع وأشمل، وذلك بعودة المعارك بين ميليشيات القرى الحدودية في مرجعيون وقليا، بقيادة «سعد حداد» الذي يدعمه الإسرائيليون وبين القوات المشتركة[١].

اجتاحت إسرائيل جنوبي لبنان، وذلك على أثر تكرار هجوم فلسطيني على جنوب حيفا - تل أبيب أسفر عن سبعة وثلاثين قتيلاً وثمانين جريحًا، ولقد كان هدف الاجتياح هو تصفية القواعد الفدائية على طول الحدود.

ودخلت إسرائيل بقواتها التي تقدر بين ٣٠ - ٣٥ ألف جندي - إلى الأراضي اللبنانية عبر عدة محاور هي[٢]:

محور في المنطقة الغربية: الناقورة، رأس البياضة.

محور في منطقة الوسط: مارون الرأس، وبنت جبيل.

محور في المنطقة الشرقية: المطلة على فلسطين المحتلة، عديسة والطيبة - مرجعيون الخيام - كفر شوبًا - راشيًا الفخار.

وهدف إسرائيل السيطرة على أكبر مساحة من الأراضي اللبنانية - وقد صرح وزير الدفاع الإسرائيلي بأن هذه ليست سوى عملية محدودة - ولكن الهدف هو إقامة حزام أمني على طول الحدود اللبنانية.

تصدت القوات المشتركة لهذا الهجوم وأوقفته عن التقدم، ولكن إسرائيل كثفت هجومها مرة أخرى وتوجهت نحو مدينة صور على أربعة محاور، وتمكن الإسرائيليون من احتلال المنطقة الواقعة جنوب نهر الليطاني ضواحي صور ومناطق مجاورة، ولقد استخدم الطيران الإسرائيلي منذ بدء العدوان قنابل انشطارية. ولقد بلغت مساحة الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل حوالي ١١٠٠كم٢ متضمنة كافة قضاء بنت جبيل ومرجعيون وغيرهما.

---

(١) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢.

أفسدت الإدارة الوطنية الفلسطينية واللبنانية هدف العدو، وواجهت جحافل قواته المتقدمة، واستطاعت أن تتصدى له، وتحقق الكثير من خلال المعارك التي استمرت ثمانية أيام.

استخدمت إسرائيل عدة أساليب في تنفيذ خطتها العسكرية منها:

أولاً: حشد قوى عسكرية كبيرة.

ثانيًا: استخدم كافة أنواع الأسلحة، بحرية، دبابات، صواريخ، طيران، بما فيه طائرات (ف ١٥) و«الكفير».

ثالثًا: التركيز على كثافة النيران وتعدد محاور الهجوم[1].

رابعًا: القتال في جميع الأوقات ليلاً ونهارًا.

خامسًا: استهداف المدنيين، حيث دمرت قرى بأكملها وإصابة الكثيرين بهدف إجبارهم على الهجرة، واستطاعت القوات المشتركة أن تكبد إسرائيل خسائر في المعدات والأرواح، باتباعها حرب العصابات، من حيث مرونة الحركة والالتفاف خلف الخطوط، وقتل أكبر عدد من صفوف الجيش الإسرائيلي.

مع ملاحظة التلاحم النضالي بين المقاتل الفلسطيني واللبناني مع الجماهير في الجنوب اللبناني، والذي أدى إلى الثبات والثقة بالنصر.

لقد قال العميد «سعد صايل» عن حرب الجنوب - حيث كان يشرف على سير العمليات العسكرية «هذا الدرس هو واحد من الدروس المستفادة من حرب الجنوب حيث تظهر أهمية المعنويات والروح المعنوية لدى المقاتلين، والتي تؤدي أولاً إلى تعويض الفارق في الأسلحة والمعدات»[2].

في حين فشلت إسرائيل في تنفيذ خطتها، وهو ما عبرت عنه عضو الكنيست الإسرائيلي (مايكة جروسمان) يوم ١٥/ ٥/ ١٩٧٨م منتقدة حكومة «بيجن» بقولها:

«لقد امتنعنا عن انتقاد العملية في جنوبي لبنان التي كانت فاشلة في تخطيطها

---

(١) فلسطين المحتلة، العدد ٢٨٢، مصدر سابق، ص ١٣.

(٢) مجلة شؤون فلسطينية عدد ٧٧ نيسان ٧٨، مقابلة مع العميد الركن سعد صايل.

وتنفيذها وفيما ترمي إليه»[1].

وأكد هذا الأمر أيضًا «ياسر عرفات» القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، ردًا على سؤال حول حرب الجنوب في صحيفة (لوفيجارو) الفرنسية، تم نشره يوم ١٣ من نيسان/ إبريل ١٩٧٨م في باريس، حيث قال:

«عملية جنوب لبنان فشلت فشلاً ذريعًا لإسرائيل، وحققت نجاحًا كبيرًا لمنظمة التحرير الفلسطينية والعرب، وأن عدة دول قدمت السلاح والعتاد لمنظمة التحرير الفلسطينية وزادت الدعم للمنظمة، وأن أكثر من ٣٠٠٠ متطوع انضموا إلى صفوف المنظمة منذ بداية الهجوم»[2].

قدرت خسائر المقاومة الفلسطينية واللبنانية بعد اجتياح الجنوب ب ١١٦٨ قتيلاً معظمهم من المدنيين، هذا بالإضافة إلى الخسائر المادية من جراء القصف للمدن والقرى الجنوبية، ولكن خسائر إسرائيل كانت تفوق الرقم المذكور بكثير.

لقد سطر المقاتلون أروع صور للبطولة الحية النادرة، لوقوفهم في وجه العدو، واستبسلت مدن الجنوب في الدفاع والصمود، فمدينة صور الباسلة تتحدى يوميًا الاعتداءات الصهيونية وتبقى شاهدة على آلات الدمار الحديثة.

بعد اجتياح جنوبي لبنان في مارس عام ١٩٧٨م من قبل الجيش الإسرائيلي وانسحابه في يونيو من نفس العام، تميز الوضع على الحدود اللبنانية وفلسطين المحتلة من قبل إسرائيل بما يلي:[3]

أولاً: تكريس دور الحارس على الحزام الأمني الإسرائيلي الذي تمارسه الميليشيات الحدودية بقيادة ضابطين لبنانيين عميلين لإسرائيل هما: «سعد حداد»، و«سامي شدياق».

ثانيًا: الحفاظ على الجدار الطيب «نقاط المرور التي أقامتها إسرائيل على الحدود مع لبنان»، والذي يستخدم لإيصال المساعدات العسكرية الإسرائيلية للميليشيات الحدودية.

---

(١) فلسطين المحتلة، العدد ٢٨٢، يصدرها مكتب الأرض المحتلة، بيروت ١٩٨١م، ص ١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ١٤.

ثالثًا: الحفاظ على القوات العسكرية التابعة للقوات المشتركة في مناطق بقيت تحت سيطرتها تضم مناطق: صور، والنبطية، وحاصبيا.

رابعًا: انتشار القوات الدولية، المكلفة بتثبيت السلام والأمن ومساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها الفعلية في المنطقة[1].

ورغم ذلك بقيت الثورة صامدة، يدها على الزناد جاهزة لأي أمر طارئ؛ لأنها آمنت بأن لها حقًا مغتصبًا، والتف شعبها حولها، مما أدى إلى انتصار لشعبنا العربي الفلسطيني، وهذا بطبيعته يجسد الحقائق التالية:[2]

أولاً: وضوح الهدف، وهو تحرير فلسطين.

ثانيًا: لقد عرف الشعب الفلسطيني طريقه ولن تثنيه أية صعوبات عن تحقيق هدفه.

ثالثًا: الثورة والأرض وحّدت الشعب، وخلقت منه قوة كبيرة قادرة على قلب حسابات الأعداء، وذلك بالتعبئة الجماهيرية على كل الساحات العربية من أجل تحرير فلسطين.

قامت إسرائيل باجتياح آخر عام ١٩٨٠م على جنوب لبنان لا يقل خطورة عن اجتياح ١٩٧٨م، بل يزيد عنه شراسة، وخاصة بعد تشكيل ما يسمي بدولة لبنان الحر عام ١٩٧٩م، حيث تم إرسال الجيش اللبناني إلى الجنوب من أجل السيطرة عليه، ولكن الميليشيات العميلة والمتعاونة مع إسرائيل كانت تمهد لكل عدوان على جنوب لبنان، فكانت تمثل الساعد القوي لإسرائيل؛ لأن الأخيرة أصرّت على أن يكون سعد حداد هو المسؤول الأول والأخير عن الحزام الأمني وقائد الميليشيات الحدودية التي أغدقت عليها إسرائيل بالأموال والأسلحة، فباعوا ضمائرهم.

وتتركز الأهداف الرئيسة لعدوان ١٩٨٠م، والذي يعدُّ من أكبر العمليات الإسرائيلية بعد اجتياح ١٩٧٨م في الأمور التالية:[3]

أولاً: شل القدرة القتالية الفلسطينية من خلال الانقضاض، وضرب أهم مواقعها

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٢) صوت فلسطين، العدد ١٥٧، تصدر عن إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي لجيش التحرير الفلسطيني، دمشق ١٩٨١م، ص ٣.

(٣) فلسطين المحتلة، العدد ٢٥٤، يصدرها مكتب الأرض المحتلة، بيروت ١٩٨٠م، ص ١٠ - ١٣.

العسكرية في مناطق الجنوب اللبناني.

ثانيًا: نقل الحرب الفلسطينية – لإسرائيل – من داخل الأرض المحتلة إلى خارجها.

ثالثًا: رفع الروح المعنوية المنهارة في الجيش الصهيوني، والتي وصلت إلى تدن ملموس.

رابعًا: توجيه ضربة عسكرية سريعة للثورة الفلسطينية من أجل إضعاف قدرتها السياسية على الحركة.

خامسًا: محاولة ضرب التلاحم الفلسطيني – اللبناني عبر معاناة الجماهير في القرى والمخيمات الجنوبية وتهجيرها من مناطق تواجدها.

لقد أفشل صمود ثوارنا وتصديهم الرائع محاولة العدو للوصول إلى قلعة أرنون، أي الشقيف، وسيطروا على الموقف تمامًا، وذلك بمحاصرة لقوات العدو، فكانت هذه العملية بمثابة مجزرة لجنوده وقواته على أيدي القوات الفلسطينية والقوات المشتركة في جنوبي لبنان، مما أذهل قادة العدو الصهيوني وعلى رأسهم مناحيم بيجن وإيتان.

إذن الجنوب اللبناني يواجه التحديات بكل القوة والثبات، وحطم الفدائيون أسطورة «سايكس بيكو»، وقرار الغزاة، وامتزج دم الفلسطيني بدم اللبناني.

عمدت إسرائيل على تكريس وجودها في جنوبي لبنان من خلال عملياتها العسكرية المتكررة، وتكوين الميليشيات الحدودية، فعقب اجتياح ٧٨ و٨٠ كان هناك اجتياح في أغسطس عام ١٩٨١م، حيث أقامت إسرائيل عدة مواقع عسكرية لها في جنوب لبنان واستنادًا إلى هذه المعطيات، وجه لبنان شكوى إلى منظمة الأمم المتحدة، ولكن هذه الخطوة لم تؤد إلى نتيجة.

إلى جانب أزمة الصواريخ التي بدأت في نيسان/ إبريل عام ١٩٨١م بين إسرائيل وسوريا تكثفت الاعتداءات الإسرائيلية في لبنان، وكانت العمليات الرئيسة في شهر نيسان/ إبريل من إنزال مظلي في السعديات، وغارات جوية على الجنوب اللبناني وقلعة الشقيف، وقد تلا ذلك معركة جوية سورية – إسرائيلية فأصيبت طائرة سورية، وأسقطت طائرتان إسرائيليتان، كما قالت دمشق ونفت تل أبيب[(١)].

---

(١) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م – ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٢٥.

كما أغارت إسرائيل بطائراتها الحربية على مدينة بيروت، فألقت بالقنابل الحارقة على المنشآت والمكاتب الفلسطينية، في منطقة الفاكهاني، وبلغ مجموع الضحايا حوالي ٣٠٠ قتيل و٨٠٠ جريح معظمهم من المدنيين[1].

ردت المقاومة الفلسطينية على غارات إسرائيلية بقصف الحدود الشمالية من فلسطين المحتلة، مما أدى إلى وقوع تسعة قتلى إسرائيليين، وقد أعلن بيجن تجاه ذلك أن جيش الدفاع الإسرائيلي سيقوم بضرب التجمعات الفلسطينية سكنية كانت أم عسكرية دون تمييز، واستمر نهر الدم الفلسطيني - اللبناني حتى كان اجتياح عام ١٩٨٢م.

* * *

(١) المصدر السابق: ن. ص، د، وانظر - أيضًا - إبراهيم الوحش، مأساة بيروت، مصدر سابق، ص١٠٢.

المبحث الثالث

أولاً - احتلال الجنوب اللبناني وبيروت عام ١٩٨٢م.

ثانيًا - حصار بيروت.

ثالثًا - المذابح - صبرا وشاتيلا.

أولاً: احتلال الجنوب اللبناني وبيروت عام ١٩٨٢م:

كان اجتياح لبنان عام ١٩٨٢م مخططًا له منذ السابق من خلال العمليات العسكرية التي سبقت الاجتياح، حيث الحرب الإسرائيلية الثالثة - الحرب الأولى هي ما يسمى بعملية الليطاني في مارس ١٩٧٨م، والحرب الثانية هي حرب الأربعة عشر يومًا عام ١٩٨١م - فبعد أن تواصلت الحرب وامتد زمانها واتسع مداها خلافًا لكل التقديرات التي وضعها العسكريون الإسرائيليون وحلفاؤهم في البنتاجون، وكان هدفهم هو الوصول إلى بيروت وتدمير الجسم العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتوهموا أن المدة الكافية لتحقيق ذلك هي أربعة أيام في الغالب، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، إذ استمرت الحرب ثمانين يومًا أي من ٤ من يونيو إلى ٢١ من أغسطس ١٩٨٢م، وكانت نزهة الجيش الإسرائيلي التي خطط لها قادته مقبرة لهم. وشكلت جرحًا لم يتوقف نزيفه[1].

بدأ التوتر على الحدود اللبنانية والحدود الفلسطينية المحتلة من قبل إسرائيل جليًا منذ عام ١٩٨٢م، وبلغ الذروة، عندما أصيب السفير الإسرائيلي في لندن «شلوما أرغون»، بجروح بليغة من جراء تعرضه لإطلاق نار في ليل ٣ - ٤ من يونيو، اتهمت إسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية، رغم أن هذه الأخيرة أنكرت الاعتداء وأدانته، وقامت إسرائيل على الفور بهجوم واسع على لبنان[2].

في ٤ من يونيو حصلت غارات جوية كثيفة استهدفت المخيمات ومواقع الفلسطينيين في بيروت الغربية، وفي الجنوب مسفرة عن ستين قتيلاً و٢٧٠ جريحًا، فيما رد الفدائيون بقصف الجليل الأعلى[3]، واستمر القصف الإسرائيلي لمواقع الفلسطينيين والمخيمات في الجنوب اللبناني حتى كان يوم ٦ من يونيو حين اجتاحت إسرائيل جنوبي

---

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، مصدر سابق، ص ١٠٥.

(٢) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨.

لبنان، وكان هدفها المعلن.

«وضع جميع سكان الجليل بعيدًا عن مرمى الفدائيين الذين ركزوا مواقعهم في لبنان».

وأُعطى للعملية اسم «سلامة الجليل» فيما حدَّد رئيس الوزراء الإسرائيلي، مناحيم بيجن منذ البداية حدود العملية، لقد تلقى الجيش الإسرائيلي أمرًا بطرد القوات الفلسطينية نحو ٤٠ كم جهة الشمال «إلا أن هذا الإطار الواسع تم تجاوزه مسافة أبعد بكثير، مما غيّر على نحو مفاجئ الأهداف السياسية للعملية»[١].

والواضح أن تخطيط قادة العدو الإسرائيلي جرى من أجل القضاء على الفدائيين وقواعدهم في جنوب لبنان، وهناك معطيات ومبادئ رئيسة اتفق عليها من قبل «إرييل شارون» - وزير الدفاع - و«رفائيل إيتان» - رئيس الأركان ومجلس الوزراء - وهي:[٢]

أولاً: الجيش الإسرائيلي سيدخل إلى لبنان في ثلاثة محاور رئيسة، المحور الغربي على طول الشاطئ باتجاه صيدا، والمحور الأوسط إلى قلعة شقيف، وهضبة النبطية، والمحور الشرقي باتجاه حاصبيًا.

ثانيًا: ستبذل إسرائيل كل ما بوسعها لتحاشي المجابهة العسكرية مع السوريين.

ثالثًا: مدى العملية: حوالي ٤٠ كم من الحدود الإسرائيلية، وذلك لإبعاد المستوطنات الشمالية عن مدى مدفعية الفدائيين.

رابعًا: سيكون وقت العملية من ٢٤ - ٤٨ ساعة فقط.

خامسًا: بيروت وضواحيها لا تقع ضمن أهداف العملية[٣].

وقد اقترح بعض الوزراء في إسرائيل توجيه إنذار لسوريا، بأن تقوم بطرد الفدائيين من سهل البقاع، ولم ينقطع المد الأمريكي لإسرائيل طيلة مدة الغزو للبنان، بل شاركت أمريكا بالمال والسلاح والقنابل العنقودية والفسفورية، وتفننت إسرائيل في قتل الأطفال

---

(١) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٢٨.

(٢) غازي السعدي: الحرب الفلسطينية - الإسرائيلية في لبنان ٤ أهداف لم تتحقق، ط١، ١٩٨٤م، ص ٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٥.

والشيوخ والنساء في مدن وقرى جنوبي لبنان[١].

«وما يحزن أن الأنظمة العربية لم تتفق حتى على مجرد اللقاء لمواجهة العدو الصهيوني، ولكنها سرعان ما اجتمعت بعد خروج المقاومة من بيروت، واتفقت على التعايش مع العدو وفق حدود آمنة ومعترف بها»[٢].

وضحت صورة الهدف الذي تريده إسرائيل من وراء عملية «سلامة الجليل»، وهو إقامة دولة مارونية في لبنان يتسلم قيادتها اليمين اللبناني، وهذا ما ورد في صحيفة «معاريف» الإسرائيلية الصادرة بتاريخ ٣/ ٦/ ١٩٨٣م[٣].

وبعد عشرة أيام احتلت إسرائيل الجنوب اللبناني ووصلت إلى العاصمة بيروت، ووضعت العالم بأسره أمام حقيقة جديدة مرة، ولم تعبر الدول العربية إلا عن سخطها المكبوت الذي لم تأبه له الإدارة الأمريكية قط!!

وفي ١١ من يونيو أعلنت إسرائيل التي احتلت حوالي ٢٨٠٠ كم٢، أي أكثر من ربع الأراضي اللبنانية - وقفًا لإطلاق النار من جانب واحد عن سوريا، أما منظمة التحرير فهي غير معنية، إذ استمر القصف الإسرائيلي لبيروت الغربية بالتعاون مع الكتائب العملاء في بيروت الشرقية[٤].

وتقدمت القوات الإسرائيلية حتى وصلت إلى القصر الجمهوري في بَعَبْدا.

«وفي الحقيقة إن إسرائيل اجتاحت الجنوب اللبناني، بل لبنان كله، وحاصروا بيروت وارتكبوا المجازر، وأحرقوا المزروعات، ودمروا القرى، والمخيمات، والمدن، وقتلوا وجرحوا عشرات الآلاف وشردوا مئات الآلاف وارتكبوا بحق الإنسان جرائم لا يمكن لعقل بشري أن يستوعبها أو يقبل بها»[٥].

حين فشلت إسرائيل في تحقيق أهدافها العسكرية، وخاصة القضاء على البنية

---

(١) د. إبراهيم الوحش: مصدر سابق، ص ١٠٨.

(٢) نزيه أبو نضال: في مواجهة عقلية التسوية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص ٧٤.

(٣) غازي السعدي: الحرب الفلسطينية - الإسرائيلية في لبنان، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٤) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٣٠.

(٥) والجراح تشهد، مذكرات طبيب في الحصار، دمشق الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين (تقديم جورج حبش)، ط١، ١٩٨٣م، ص ٧، ٨.

التحتية لمنظمة التحرير، صبت جام غضبها على المدنيين الأبرياء، وزجت بهم داخل غياهب السجون الإسرائيلية، خاصة سجن «أنصار» الشهير.

وقد أعربت منظمة العفو الدولية عن قلقها لقيام الجيش الإسرائيلي بالقبض على أكثر من ١٢ ألف شخص من الفلسطينيين واللبنانيين، بينهم مدنيون تم احتجازهم في سجن «الأنصار» في جنوب لبنان[١].

ولقد تم إطلاق صراح المعتقلين في «أنصار» عام ١٩٨٣م، وذلك في عملية تبادل الأسرى بين منظمة التحرير وإسرائيل، حيث أفرجت إسرائيل عن ٤٥٠٠ معتقل مقابل ستة جنود صهاينة، وتعتبر عملية تبادل الأسرى هذه أكبر عملية تبادل في الشرق الأوسط، ولكن كانت هناك أسباب لعملية الإفراج عن المعتقلين وهي:

أولاً: وصول الممارسات في الجنوب إلى ذروتها بعد إقفال معابر الجنوب وحملات الاعتقال الجماعية فتأتي عملية إطلاق سراح المعتقلين محاولة فاشلة لتجميل صورة إسرائيل أمام العالم.

ثانيًا: عجز إسرائيل عن وضع حد للانتفاضات اليومية في المعتقل، بحيث تضطر لحشد جزء كبير من قواتها في معتقل أنصار لمواجهة تمردات الأسرى.

ثالثًا: لقد كلف إقامة المعتقل - تجهيزات واسعة وأطعمة وألبسة - ملايين الدولارات لإسرائيل، وهي تعاني من أزمة اقتصادية خانقة.

رابعًا: تصاعد المقاومة الوطنية المسلحة والمدنية في الجنوب لدرجة أن كل الاعتصامات والتظاهرات التي عمت قرى الجنوب ومدنه كان شعار الإفراج عن معتقلي «أنصار» فيها يتصدر كل الشعارات[٢].

بالإضافة إلى كل هذا فعندما يصبح الجنوب اللبناني كله معتقل «أنصار»، فما الفائدة من المعتقلات الصغيرة؟ فصمود المعتقلين الأسطوري حوّل المعتقل إلى ساحة ملتهبة لمواجهة الاحتلال. وهو الذي فرض على العدو إطلاق سراحهم.

---

(١) د. حسن جوني: جرائم إسرائيل بحق الأسرى والمعتقلين، منشورات وزارة الإعلام اللبنانية، ٢٠٠١م، ص ٨.

(٢) سعدون حسين: أنصار ٣٣، مؤسسة الرؤى للطباعة والتوزيع، لبنان، ط١، ١٩٨٤م، ص ١٥٥، ١٥٦.

استشهد في المعتقل الكثير من الأطفال الذين عبّدوا لنا الطريق بدمائهم الطاهرة التي ستنور أقحوانا وزهرا أبيض اللون، ينير لنا الدرب لنسير على هدي هؤلاء الشهداء الأبطال الذين سبقونا إلى جنة الخلد، وتلك وصية لأحد الشهداء واسمه عباس بليطة يقول فيها:

أماه.. ديني قد دعاني للجهاد والفدا

أمـــاه.. إني زاحف للخـــالدين لن أترددا

أماه.. لا تبكي عليّ إذا سقطت ممددا

فالموت ليس يخيفني، ومناي أن أستشهدا[1]

* * *

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ١٢٥.

ثانيًا: حصار بيروت:

تقدم الجيش الإسرائيلي نحو مدينة بيروت العاصمة لاحتلالها بعد أن احتل جنوب لبنان بأكمله، ولكن بيروت لم تكن سهلة أمام جيش العدو الإسرائيلي، بل قاومت بيروت مقاومة عنيفة، وخاضت قوات الثورة الفلسطينية معارك قاسية حول مدينة الفقراء.

«دخلت القوات الإسرائيلية بقيادة وزير الدفاع «أرييل شارون» إلى بعبدا مقر الرئاسة اللبنانية، وفي الوقت نفسه تعرضت بيروت الغربية وضاحيتها الجنوبية لغارات جوية إسرائيلية وقصفت خلدة والأوزاعي من البر والبحر، ودارت هناك معارك عنيفة بين القوات الإسرائيلية، والقوات المشتركة ومقاتلي حركة أمل، والوحدات السورية التابعة لقوات الردع العربية من جهة أخرى»[1].

في الثالث عشر من يونيو عام ١٩٨٢م، اجتاحت إسرائيل رأس الناقورة وصولاً إلى رأس السلطة الشرعية في بعبدا، واستمر التقدم الإسرائيلي حتى منطقة الحدث، وتم تطويق العاصمة بيروت في اليوم السابع والعشرين من الشهر نفسه حين ألقت الطائرات الإسرائيلية منشورات فوق بيروت الغربية تدعو المدنيين إلى ترك المنطقة.

وقد فرض الاحتلال أمورًا قهرية، حيث قطع الكهرباء والماء عن المدينة المحاصرة، ومنع دخول التموين والعلاج إليها.

«كانت الحياة في بيروت خلال الحصار صاخبة وقذرة وخطرة ومتفجرة.. كانت فترة مخيفة من الجوع والعطش اللذين يرافقهما القصف الإسرائيلي ومحاولة إخضاع حوالي أربعمائة ألف نسمة من أجل تحقيق استسلام عشرة آلاف مقاتل بينهم.. ومع الأيام وجد سكان بيروت الغربية التي كانت من الغريب لا تزال تضم عددًا كبيرًا من المسيحيين - وجدوا أنفسهم ينحازون أكثر فأكثر إلى الفلسطينيين والمدافعين عن المدينة. فالحقيقة هي أن هؤلاء الرجال الطويلي اللحية السيئي الملابس كانوا يدافعون عن المدينة ويحققون ما لم يفعله أي جيش عربي إطلاقًا»[2].

قام الإسرائيليون بالغارات الجوية والبحرية على بيروت الغربية وعلى ضاحيتها الجنوبية، وقصف الطيران المواقع السورية في المتن الأعلى، والبقاع، هذا وقد وصل

---

(١) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٣٠، ٣١.

(٢) جون بولوك: مضاعفات الغزو الإسرائيلي، جريدة الخليج، ٢٨/ ١١/ ١٩٨٥م، ، ص ١٧.

العنف أوجه في الثاني عشر من أغسطس بقيام الإسرائيليين بغارات جوية لمدة إحدى عشرة ساعة على بيروت الغربية، مما أدى إلى سقوط أكثر من ٥٠٠ قتيل وتدمير حوالي ٨٠٠ منزل[(١)].

لقد واجه الإسرائيليون أشد المعارك وأعنفها على مثلث خلدة، حيث قدمت القوات الفلسطينية واللبنانية أروع البطولات والتضحيات، ففي خلدة وقعت معركة كبيرة بين القوات الإسرائيلية، والقوات المشتركة، معركة خلدة وقعت في منطقة لا تتجاوز رقعة القتال مئات الأمتار المربعة، وحيث لا توجد تحصينات طبيعية أو غير طبيعية على الإطلاق، وحيث كان القصف البحري والجوي والبري لا يترك شبرًا من تلك المنطقة إلا ويحرقها، تمكن المقاتلون اللبنانيون والفلسطينيون والسوريون من الصمود أكثر من سبعة أيام، كان يمكن لها أن تمتد لأسابيع، لولا المفاجأة بالتفاف جيش الاحتلال على هؤلاء المقاتلين من الخلف، حيث استشهد قائد الموقع الشهيد البطل «عبد الله صيام»، وهو يحمل الآر. بي. جي. في يده برصاص رشاش ثقيل أطلق عليه من الوراء[(٢)].

لقد صمم «شارون» على تدمير بيروت على أهلها جميعًا، فبدأت قوات إسرائيل بقصف مدفعي ضخم في منطقتين هما المزرعة، الفاكهاني من جهة والمركز التجاري في بيروت الذي دمرته الحرب الأهلية، وأصبح غير مأهول سوى من بعض وحدات جيش التحرير الفلسطيني[(٣)].

ورغم الحصار فإن المقاومة لم تتوقف، بل أخذت أشكالاً مختلفة فكان نسف قصر القيادة الإسرائيلية في بيروت، ونسف السفارة الأمريكية بها بعد رحيل المقاومة.

قاتلت جميع القوى الوطنية الموجودة في بيروت بفاعلية وشجاعة وقدمت الشهداء والجرحى، كل القوى الوطنية، القوات الفلسطينية، وحركة أمل في السابق، والحركة الوطنية اللبنانية، وجيش التحرير الفلسطيني، والقوات السورية المتواجدة في نفس المكان.

---

(١) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م – ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) معن بشور: بيروت من الحصار إلى الانتفاضة، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص ٣٢.

(٣) جون بولوك: مضاعفات الغزو الإسرائيلي، جريدة الخليج، ص ١٧، ١٤/ ١٢/ ١٩٨٥م.

وقد توقف القتال بين الطرفين، وكانت النتيجة خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت.. وكانت المأساة.. «بعد أسبوع على وقف إطلاق النار، عرض الموفد الرئاسي الأمريكي «فيليب حبيب» مشروعًا متعلقًا من جهة بإجلاء المقاتلين الفلسطينيين عن بيروت الغربية، وكذلك القوات السورية التابعة لقوات الردع العربية، ووافقت السلطات اللبنانية والإسرائيلية على المشروع[1].

أطلقت القوات الفلسطينية سراح طيار وجندي إسرائيليين كانت قد أسرتهما في جنوب لبنان أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٧٨م، بالإضافة إلى تسع جثث لجنود إسرائيليين.

لقد كان لخروج المقاومة الفلسطينية من بيروت إلى قبرص، ومنها إلى الأردن الأثر الكبير؛ لأنها خلفت فراغًا ثوريًا وصمودًا لم تشهده بيروت، خرجت الثورة الفلسطينية رافعة الرأس من بيروت؛ لأنها كانت تقاتل عن شرف الأمة العربية إن كان هناك ثمة شرف قد بقي أو نقطة حياء في جبينها؟!

وبعد الخروج كانت الكارثة التي لا يقبلها ضمير حي.. جريمة العصر التي ارتكبها الإسرائيليون وعملاؤهم من الكتائب ضد شعب أعزل من السلاح.. ضد الأطفال والنساء بعد خروج الأبطال الذين حرموهم من دخول بيروت.. كانت مجزرة «صبرا وشاتيلا» التي أذهلت العالم وبَيّنَت الحقد اليهودي ضد كل مسلم وكل عربي يحب دينه ووطنه ويدافع عنه ببسالة وشرف.

* * *

(١) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٢٣.

ثالثاً: المذابح/ صبرا وشاتيلا:

في ١٠ من أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢م بدأ انسحاب القوات المتعددة الجنسيات، والمفترض أن يبدأ في ٢٢ من أيلول، وانتهى الانسحاب في ١٣ من الشهر نفسه، وفي اليوم التالي، قتل في انفجار في مقر حزب الكتائب في الأشرفية قائد القوات اللبنانية «بشير الجميل»، الذي كان قد انتخب رئيسًا للجمهورية بمساعدة إسرائيلية.. وبعد انتخابه بساعات قليلة دخل الجيش الإسرائيلي بيروت الغربية بهدف الحفاظ على الأمن كما يدَّعون في تل أبيب.

«وكان الرئيس بشير الجميل رافضًا السماح لأي فلسطيني بالبقاء في لبنان، فقد تخوَّف من إقامتهم إقامة مستديمة، وخاصة بعد انسحاب إسرائيل وسوريا»[١].

اتفق الكتائب مع الجيش الإسرائيلي على تنظيف بيروت الغربية، وكان كل ذلك يجري في سرية تامة، إذ إن الجيش الإسرائيلي احتل المخيمات وتمركز على أسطح المنازل، وكان القتل والتمشيط هي مهمة ألقيت على عاتق قوات الكتائب وسعد حداد وعملاء إسرائيل.

ومجزرة صبرا وشاتيلا كانت الفاجعة، ولم تقتصر على قتل الأطفال والشيوخ، بل تعدت ذلك إلى اغتصاب جماعي للنساء، حيث يتعاقب خمسة جنود على اغتصابها، وبعد ذلك تقتل المرأة!!

«وقعت عدة أحداث في أيام المجزرة الرهيبة: نساء وأطفال أتوا إلى قرب جامع عبد الناصر على كورنيش المزرعة، وطلبوا من رجال الاستخبارات دخول جيش الدفاع الإسرائيلي منطقتي صبرا وشاتيلا لحمايتهم، صبيّة شهدت أمام المحقق أنها شاهدت بأم عينها كتائبيًا يقتل أمًا وأطفالها داخل المخيم، مئات من النسوة الغاضبات خرجن مولولات جماعة «سعد حداد» آتون لقتلنا»[٢].

«وفي يوم الخميس دخلت الوحدات الأولى من الميليشيات الكتائبية إلى مخيمي صبرا وشاتيلا من الشويفات، كما أقامت رئاسة لها قرب الجامعة العربية، لكن الكثير

---

(١) زئيف شيف، أهود يعاري، يعقوب تيمدمان: لبنان آخر وأطول حروب إسرائيل، ترجمة: علي حداد، ط١، شركة المطبوعات الشرقية، دار المروج ١٩٨٥م، ص ١٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

من الرجال الذين كان لهم ضلع فيما حصل بعد ذلك جاءوا من الدامور، بينما كان الآخرون من فرقة الأمن الخاص في ميليشيات الكتائب بقيادة «إيلي حبيقة» الذي كان حلقة الصلة بين الكتائب وموساد المخابرات الإسرائيلية، ومن القادة المسيحيين الذين اشتركوا في المذبحة «جوزيف إدّة» قائد قوة الميليشيا في الجنوب، و«ديب أنطاس» - رئيس الشرطة العسكرية في الكتائب - و«ميشيل زوين» الذي قاد الهجوم عام ١٩٨٠م ضد قوات «شمعون»، و«مارون ميشيلاني»[١].

كان مجموعة رجال الميلشيا المسيحية الذين دخلوا المخيمين ما بين ثلاثمائة وأربعمائة رجل، بالإضافة إلى ذلك رجال سعد حداد، ولم يجدوا مقاومة لأنهم جاءوا بعد خروج الرجال المقاتلين من بيروت، ومن قاوم قتل داخل المخيم.

ساعد الإسرائيليون الكتائبين في عملية اقتحام مخيمي صبرا وشاتيلا وتنفيذ مهمتهم بنجاح، وذلك بإطلاق الأضواء الكاشفة في الليل، واستمر الكتائبيون في قتل الأطفال والنساء، أما الرجال فقد صفوهم في صفوف وأطلقوا النار عليهم جميعًا!!

«وفي اليوم الثالث لم يبذل أحد جهدًا لإخفاء ما كان يجري في المخيمين، وأطلقت الكشافات ثانية، ودوى صوت الرصاص، وعويل النساء وصراخ الأطفال عندما استمرت عمليات القتل، ولقد أخفقت القوات الإسرائيلية في وقف المذابح، وفي ذلك اليوم دخلت الجرافات لتدفن الجثث في قبور جماعية، بينما جاءت ميليشيات جديدة لتريح السابقة من عمليات القتل وتباشر دورها»[٢].

شهادات من قلب المخيم تصف لنا هول المنظر وقسوة القلوب وجريان الدم في كل بيت واغتصاب الفتيات الصغار.. فتاة تروي قصتها، فتقول:

(جاء أحد المسلحين الكتائب، وقال لأخي الصغير «بعدك هون يا أخو الكلب». أخرجونا من البيت، اثنان من إخوتي الصغار ظلوا في الحمام، خافوا ولم يخرجوا أنا وأبي وأختي وأربعة من إخوتي، ثم أمرونا أن ندخل إلى البيت، صفونا إلى الجدران و«درزونا» بالرصاص. أربعة من إخوتي ماتوا.. اثنان منهم طلع مخهم. أختي أصيبت في كتفها، أبي في ظهره وصدره وأنا في رأسي وظهري وكتفي.. المسلحون الذين رأيتهم

---

(١) مضاعفات الغزو الإسرائيلي للبنان، جون بولوك، جريدة الخليج، ٣/ ١/ ١٩٨٦م، ص ١٧.

(٢) المصدر السابق: ن. ص.

كانوا يرتدون ملابس عسكرية فاتحة، ويضعون عليها شارة «القوات اللبنانية»، لهجتهم لبنانية، وبالأخص بيروتية»[1].

أثارت مجازر صبرا وشاتيلا ردود فعل وصفها الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران» بـ «الاشمئزاز»، وهي موحية حسب قول الرئيس الأمريكي «ريجان» بـ «شعور عام بالغضب والاستهجان» هذه الشهادات ترافقت مع إدانة جماعية، شاركت فيها قوى إسرائيلية، حيث قامت في ١٩ من الشهر نفسه تظاهرة احتجاج ضمت ممثلي أحزاب المعارضة الرئيسية مع أعضاء من الكنيست أمام منزل رئيس الوزراء مناحم بيجن في القدس»[2].

لكن الغريب أن هذه المجزرة لم تحدث أي ردة فعل من الأمة العربية من المحيط إلى الخليج إلا من سكان الأرض المحتلة الذين نددوا بالمجزرة ومرتكبيها، بينما صمت الآخرون، وقد طال صمتهم!!

كان للعامل الإسرائيلي أكبر الدور في الأزمة اللبنانية، وفي ارتكاب مثل هذه المجازر «لأنه أراد احتلال أكبر جزء من الأراضي اللبنانية، وتمزيق لبنان إلى دويلات طائفية لتكون إسرائيل هي الدولة الأقوى في المنطقة، وشل فاعلية الثورة الفلسطينية على الصعيدين العسكري والسياسي، وأرادت إسرائيل أن تخلق قضية بديلة عن القضية الفلسطينية، بحيث تصبح الأزمة اللبنانية عبئًا على الوضع العربي، ومن ثم ننسى القضية الأم (فلسطين)!!!»[3].

كما أن هدف إسرائيل لم يكن الفلسطينيين ولا اللبنانيين، إذ أنها دمرت نصف لبنان، وقتلت ٢٥ ألف مدني لبناني، بالمقابل مصرع ستمائة جندي إسرائيلي، ولكن الحرب اللبنانية لم تكن إلا ستارًا وتمويهًا لهدف مناحيم بيجن، وهو ضم الضفة الغربية وجعلها جزءًا لا يتجزأ من إسرائيل، وستارًا لبناء أكبر عدد من المستوطنات الصهيونية في فلسطين المحتلة.

---

(١) شؤون فلسطينية، العدد ١٣٢، ١٣٣، ١٩٨٢م، ص ٤٢.

(٢) الجنوب اللبناني حقائق وأرقام، ١٩٤٨م - ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص ٣٥.

(٣) فلسطين المحتلة، العدد ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، تصدر عن مكتب الأرض المحتلة، فتح، بيروت، ص ٨٢ - ٨٤.

«وأصبح في لبنان ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف إنسان بلا مأوى، معظمهم من الفلسطينيين بعد أن سويت مخيماتهم بالأرض، أما المبالغ اللازمة لإصلاح ما دمره الغزو الإسرائيلي فيقول الرئيس «أمين الجميل»: بأن المبلغ حوالي ثمانية بلايين دولار، منها ثلاثة بلايين لإعمار بيروت الغربية فقط»[1].

لقد كشف ياسر عرفات - رئيس منظمة التحرير الفلسطينية آنذاك - أسرار الخديعة التي أدت إلى المجزرة، حيث أكد بأنه طلب ضمانًا لحماية المخيمات بعد خروج المقاومة، ووجه ذلك الطلب إلى «فيليب حبيب».. يقول: «لقد كنت في روما وفاتحت المسؤولين الإيطاليين بذلك الطلب فصارحوني بأن هناك خطأ حدث بالفعل.. وكانت خديعة حقًا.. انسحبت القوات المتعددة الجنسيات يوم ١٢ من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢م قبل موعدها المحدَّد.. واغتيل الرئيس المنتخب «بشير الجميل» على أيدي الإسرائيليين في يوم ١٤ من أيلول (سبتمبر) بوساطة ضباط من حزبه تدربوا في إسرائيل.. ويوم ١٥ من أيلول (سبتمبر)، قامت قوات العدو باقتحام بيروت الغربية وحاصرت المخيمات الفلسطينية، ومنعت عنها الدخول والخروج، وفي ذلك اليوم وصلت وحدات الكوماندوس الإسرائيلية إلى مطار بيروت، وبعد ذلك وفي يومي ١٦، ١٧ من أيلول (سبتمبر)، نفذت المجزرة على أيدي هاتين الكتيبتين اللتين ضمتا بعض الجنود والضباط من ميليشيات سعد حداد»[2].

ويضيف «عرفات» قائلاً: «إن إسرائيل تدعي بأن ميلشيات سعد حداد هي التي نفذت المجزرة، وأنا أقول: وهذا ما رواه لي شهود عيان كانوا في المخيم وأدلوا لي بشهاداتهم، أقول: إنه كان هناك بالفعل بعض الضباط من ميليشيات سعد حداد، لكن هؤلاء كانوا يعملون فقط كمرشدين وأدلاء للقوات الإسرائيلية، لقد ارتكبت إسرائيل هذه المجزرة التي ذهب ضحيتها ما يقارب ثلاثة آلاف ومئتين وسبعة وتسعين شهيدًا من النساء والأطفال والشيوخ»[3].

وقيل: إن عدد القتلى وصل نحو ٣٥٠٠ قتيلاً!

وتحدث مراسلوا الصحف عن مشاهدتهم داخل مخيمي صبرا وشاتيلا بأحاديث،

---

(١) توني كليغتون وكاترين ليروي، من تل الزعتر إلى صبرا، مصدر سابق، ص١٨.

(٢) المستقبل، السنة السادسة، العدد ٢٩٢، في ٢٥ من أيلول (سبتمبر) ١٩٨٢م، ص ٣٠.

(٣) المصدر السابق: ن. ص.

وضحت الصورة المذهلة التي عاشها سكان المخيمين، مما جعلهم يضطرون لأكل لحوم الحيوانات من قطط وفئران، بل راحوا يستفتون في أكل لحوم الجثث البشرية!!

ويصوّر ذلك الشاعر رشاد يوسف بقوله في قصيدة «فتوى»:

يا رفاق الجرح والأهوال والأسر المهين

أي فتوى تمنح اللقمة أو تمحو الأنين؟

حلّل الجوع لكم أكل رفاق السابقين!

اخرجوا جثة من شئتم فلستم آثمين!

وكلوا الجيفة والميت وأوراق الغصون!

وفي نهاية قصيدته يقول:

يا رفاق الجرح والأهوال ماذا ترهبون؟

اصرخوا في مسمع الأيام: لسنا لاجئين

اشعلوا الأرض ضرامًا فوق رأس الغادرين

وكلوا الأموات إن شئتم، وموتوا واقفين[1].

ويقول مراسل إحدى الصحف العالمية: «شاهدت في المخيمات متناقضات غريبة.. عائلة تفترش حصيرًا بلاستيكيًا بالقرب مما اعتقدت بأنه حديقة، ثم تبين لي أنه قبر جماعي لحوالي مائتي قتيل من ضحايا المذبحة.. وكان هناك علمًا فلسطينيًا مغروسًا في التربة الحمراء، واقتربت من العلم، فإذا بعبارات قد كتبت عليه «إن مذابح صبرا وشاتيلا يا شارون ستجعلنا أكثر تصميمًا»، ثم «إننا نعاهد شهداءنا الأبرار على الاستمرار في القتال حتى النصر، وإقامة وطن فلسطيني مستقل»[2].

وقال جاك ريدن مراسل وكالة يونايتد برس الأمريكية: «إن مئات الرجال والنساء والأطفال ذبحوا في مخيمي صبرا وشاتيلا على أيدي الميليشيات اليمينية المتحالفة مع إسرائيل في حفلة قتل جماعية ماجنة انتهت صباح السبت ١٧/ ٩/ ١٩٨٢م، ونقل ريدن

---

(١) ديوان وا إسلاماه (مخطوط).

(٢) توني كليفتون وكاترين ليروي: من تل الزعتر إلى صبرا وشاتيلا، مصدر سابق، ص ١٣٦.

عن صحفي نرويجي لم يذكر اسمه..... قال: «لقد شاهدت رافعات شوكية تجرف الجثث مع الأنقاض ليلاً، بينما كانت القوات الإسرائيلية تطلق القنابل الضوئية فوق المخيمين من مواقعها الغربية، وتسمع زخات رصاص كثيفة في المخيمين، ولقد نجا أطباء أمريكيون وغربيون يعملون في المخيمين من الموت بأعجوبة، وقالوا: إن عمليات القتل استمرت حتى وقت مبكر من صباح السبت، وأن المخيمين أصبحا في الساعة التاسعة من صباح السبت صامتين تمامًا، وأن الأعلام البيضاء كانت ترفرف فوق المنازل التي لم يصبها الدمار، لكنه لم يكن هناك أحياء على الإطلاق[1]».

كان القتل جماعيًا والجثث ملتوية ومكدسة، والذباب يحول حول الجثث؛ لأنها تعفنت ولا تسمع إلا أصوات الذباب حول جثث الأبرياء، وقد تجد عائلات كاملة قتلت ودفنت في قبر جماعي، إن مجزرة صبرا وشاتيلا فيها من القول والفاجعة ما يعجز الإنسان عن وصفها.

«١٧٠ ألف قذيفة صبَّت حممها على بيروت في يوم واحد.. دمار وحرائق.. عدد الضحايا من القتلى والجرحى استعصى على الإحصاء والتقدير، الجوع والعطش وصرخات الأطفال تسود المدينة بحثًا عن جرعة حليب بعد أن جفت أثداء الأمهات المشردات والجائعات.. الجرحى والمرضى تنهار من فوقهم المستشفيات بعد أن خلت من كل ضرورات العلاج، ومنهم من يدعو ربه لأن يأخذ روحه ويريحه من ويل العذاب»[2].

والغريب أن الإسرائيليين يتبرأون مما حدث، كما لو أن هناك من سيعاقبهم، هذا مع العلم أنهم قتلوا في غاراتهم المتعدِّدة أكثر من خمسة وعشرين ألف فلسطيني[3].

هذا وقد قدَّر الخبراء أن عدد ضحايا الحروب في لبنان بلغ نحو ١٤٤,٢٤٠ قتيلاً، و١٩٧,٥٠٦ جريحًا، و١٧,٤١٥ مفقودًا، كما بلغ عدد المهاجرين اللبنانيين إلى الخارج نحو ٦٢,٠٠٠ مهاجر سنويًا، وقدَّر عدد المهاجرين في الفترة من ١٩٧٥/ ١٩٩٠م نحو ٩٣٣,٠٠٠ مهاجر، أي يقرب من مليون مهاجر[4]!!!! هذه الإحصاءات قبل أن ندرك الألفية الثالثة، والتي وقعت فيها حرب تموز ٢٠٠٦م.

---

(١) التقرير السياسي، مركز الخليج للدراسات العربية، جريدة الخليج، السنة الثالثة، العدد ٢، ص ١٦.

(٢) النازيون الجدد ولبنان، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع، مركز الدراسات العربية والدولية، أبو ظبي ١٩٨٢م، ص ٧.

(٣) توني كليفتون وكاترين ليروي: من تل الزعتر إلى صبرا وشاتيلا، مصدر سابق، ص ١٦٣.

(٤) د. فردريك معتوق: معجم الحروب، جروس برس، بيروت ١٩٩٦م، ص ١٧٨.

الفصل الثالث

خروج المقاومة الفلسطينية وأثرها على لبنان

المبحث الأول

خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت

خرجت المقاومة الفلسطينية من بيروت، بعد محاولات كثيرة من قبل أعداء الأمة العربية، وهي محاولات تهدف إلى إجهاض الثورة الفلسطينية وتدميرها، ولكن رجال المقاومة خرجوا مرفوعي الرءوس، لما قدموه من أجل الأمة، وخرجوا من أجل المحافظة على المدينة.

كان الرحيل بمثابة قصم الظهر للمقاومة وللشعب الفلسطيني في مخيمات لبنان وخارج لبنان، فبعد الرحيل حدثت أحداث يقشعر لها البدن، قتل وتدمير لأبناء الشعب الفلسطيني في المخيمات في بيروت وجنوب لبنان.

دليل ذلك مذابح صبرا وشاتيلا، التي وقعت بعد خروج رجال المقاومة عن بيروت، وكذلك حصار المخيمات.

وقد سبق خروج المقاومة مجموعة إرهاصات ساعدت على خروجها وتفرُّقها في عدة دول عربية كتونس، والأردن، ومصر.

تجمعت القوى المتحالفة ضد المقاومة الفلسطينية، وذلك لإخراجها من لبنان، وكان على رأس هذه القوى أمريكا ثم إسرائيل ومجموعة من العملاء في لبنان وغيرها من الدول الأخرى. "لقد غادرت أول قافلة فلسطينية بيروت الغربية في الحادي والعشرين من آب/ أغسطس عام ١٩٨٢م، انطلاقًا من ميناء بيروت، حيث اتخذت الوحدة الفرنسية التابعة للقوات المتعددة الجنسيات موقعا لها في اليوم نفسه. واستمرت عملية الإجلاء بالبحر دون توقف حتى أول أيلول/ سبتمبر.

في الوقت نفسه أجلى قسم المقاتلين الفلسطينيين عبر طريق بيروت - دمشق الدولي، وفي ٢٧، ٢٩ أغسطس رحل جيش التحرير الفلسطيني، وفي ٣٠ و٣١ من الشهر نفسه رحلت الوحدات السورية التابعة لقوات الردع العربي، وبالنتيجة رحل ١٠٨٧٦

فلسطينيًا، ٨٢٤٥ من منظمة التحرير الفلسطينية، و٢٦٣١ من جيش التحرير الفلسطيني، و٢٧٠٠ سوريا عن بيروت الغربية"[١].

وبعد الرحيل مباشرة كان انفجار مقر حزب الكتائب في بيروت الشرقية، الذي أودى بحياة قائد القوات اللبنانية "بشير الجميل"، الذي انتخب رئيسًا للجمهورية في ٢٣ أغسطس ١٩٨٢م؛ مما أدى إلى وقوع مجزرة صبرا وشاتيلا بتاريخ ١٦، ١٧، ١٨، ١٩ سبتمبر، التي ذهب الآلاف من سكان المخيمين... ضحايا أبرياء نتيجة هجوم الكتائب، وجيش الدفاع الإسرائيلي على سكان المخيمين. بعد أن خرج الرجال الذين كانوا يدافعون عن المخيمات، ولم يبق إلا الأهالي العُزَّل من السلاح.

والإسرائيليون قرروا عدم اجتياح مدينة بيروت، وذلك خوفًا من سقوط آلاف القتلى منهم، ولذلك فكروا بتسوية بيروت بالأرض وإبادة من فيها. بعد حصار دام ثلاثة أشهر، إذ قطعوا عن المدينة وأهلها الماء، والكهرباء، والتموين، والإمدادات الطبية، ولقد قال صائب سلام – رئيس وزراء لبنان الأسبق –: "أخشى ألا ينسحب الإسرائيليون إلا بصعوبة بالغة، وأعتقد أن قادة إسرائيل يخططون لتدمير بيروت. إنهم يهدفون لتقسيم لبنان، أو ذوبانه حتى يسهل لهم السيطرة، وأنا لا أعتقد أنهم يستهدفون الفلسطينيين فقط"، ثم يضيف قائلاً: "إنني أتألم من صميم قلبي لبيروت، فلقد كانت من أجمل مدن الشرق الأوسط وأكثرها ازدهارًا، وها هي الآن تتحول إلى مدينة أشباح[٢].

الفلسطينيون الذين غادروا بيروت كان معظمهم يفضل البقاء فيها، والقتال حتى آخر قطرة دم، لأنهم لم يعرفوا الهزيمة في حياتهم، ولقد هزموا الإسرائيليين في حرب الليطاني عام ١٩٧٨م، وبيروت كما قال ياسر عرفات – الرئيس الفلسطيني – مدينة لبنانية وإذا بقينا فيها فسوف تهدم وتسوى بالأرض، لذا فالخروج بشرف من المدينة هو الأفضل، وقال: "إننا مدينون كثيرا للشعب اللبناني الذي حارب معنا وتحمل الكثير لأجلنا وبالتالي فإن أفضل ما نرد به الجميل للبنانيين هو أن نغادر بيروت قبل أن يدمرها الإسرائيليون"[٣] خلال تسعين يومًا من القتال والحصار، ورغم أن العدو الصهيوني مارس خلال هذه الفترة أبشع أشكال القصف والتدمير وعمليات القتل

(١) الجنوب اللبناني... حقائق وأرقام ١٩٤٨ – ١٩٨٦م، مصدر سابق، ص: ٣٣.

(٢) توني كليفتون ليروي: من تل الزعتر إلى صبرا وشاتيلا، مصدر سابق، ص: ١٤٨ .

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٥٠ .

الجماعية، ورغم أن العدو قد احتل معظم لبنان. فإن القمة العربية لم تعقد مع العلم أن أكثر من دعوة أطلقت آنذاك بضرورة عقدها ولكن بعد خروج المقاومة من بيروت اتفقوا على عقد قمتهم الهزيلة»[١].

«نزلت أول مجموعة فلسطينية غادرت بيروت إلى ميناء لارنكا في اليوم التالي، تحمل أعلامها الفلسطينية، وترفع رءوسها عاليًا لكاميرات التليفزيون، وصعدوا الطائرات التي أقلتهم إلى الأردن والعراق، فوصلت غالبيتهم إلى قاعدة المفرق الجوية الأردنية، وهناك كان الملك حسين العاهل الأردني في استقبالهم، وتوجه الفدائيون إلى الأردن، وتونس، والعراق، وسوريا، واليمن الشمالية واليمن الجنوبي، بينما نقل الجرحى إلى قبرص وسوريا واليونان ومصر[٢].

أما الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات فقد ظل لمدة أسبوع بعد بدء الرحيل ليودع رسميًا السياسيين اللبنانيين الذين تفاوضوا نيابة عنه لفترة طويلة، وأخيرًا غادر بيروت بحرًا إلى اليونان وقال: "إنني أترك هذه المدينة ولكن قلبي سيظل دائمًا في بيروت[٣].

خرجت المقاومة الفلسطينية على دفعات، وكان المقاتلون يشعرون أنهم قد لا يعودون إلى بيروت، أما عائلاتهم فكانوا يشعرون بالخوف إذا ما عادوا إلى المخيمات وقد غاب المدافعون عنها.

في البدء كان عرفات يحاول إطالة أمد المفاوضات إلى أطول فترة ممكنة، فقد رفض الخروج بحرًا، وحين سئل قال: "يخشى أن يصاب جنوده بدوار البحر"، ولكن بشير الجميل طلب منه مغادرة بيروت وقال له: إن بيروت ليست ستالينغراد، فاذهب إلى بلادك، واختر المكان الذي تريده، واجعله ستالينغراد"[٤].

ومع رحيل منظمة التحرير الفلسطينية، وتشتت قواها في دول عربية ثمان، انتهت مرحلة تاريخية كاملة من مراحل وجود هذه المنظمة، وتميزت الفترة الاستراتيجية

---

(١) نزيه أبو نضال: في مواجهة عقلية التسوية، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دار الجليل، ط١، ١٩٨٢، ص: ٧٥ .

(٢) جون بولوك: مضاعفات الغزو الإسرائيلي للبنان، جريدة الخليج، ص: ١٧، الجمعة بتاريخ ٣ يناير ١٩٨٦م.

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٧ .

(٤) لبنان آخر وأطول حروب إسرائيل، مصدر سابق، ص ١٦٢.

للمنظمة بأمور مهمة منها:

أولاً: كانت الاستراتيجية العسكرية الفلسطينية قبل الحرب دفاعية بمجملها، وتهدف إلى مواجهة ذلك النوع من العمليات العسكرية الذي قامت به إسرائيل ضد أهداف فلسطينية منذ سنة ١٩٧٨م، كالغارات الجوية وغارات الكوماندوس، والهجمات العسكرية بحجم سرية أو كتيبة.

ثانياً: إن التبعثر في قوات المنظمة بسبب الفصائل المختلفة التي تتألف منها، بالإضافة إلى الحركة الوطنية اللبنانية، أدى إلى عدم نشوء استراتيجية عسكرية موحدة.

ثالثاً: وعلى الصعيد التكتيكي لم يكن هناك قدر ضئيل جداً من التوحد في المقاييس بين الفصائل الفلسطينية، وجرى استيعاب عدة دروس، إيجابية وسلبية، من خلال الأداء على المستوى العملياتي(١).

وبعد خروج المقاومة الفلسطينية استمرت حرب الاستنزاف في جنوب لبنان، فالعمليات الفدائية الفلسطينية – اللبنانية ضد أهداف عسكرية إسرائيلية داخل لبنان، حيث تفجر القنابل والعبوات ضد قوات الاحتلال في أي مكان، وتفجير مقر قوات المارينز الأمريكية، وكم من شهيد قدم روحه فداءً للوطن مثل "سناء محيدلي" – عروس الجنوب اللبناني، و"ابتسام حرب"، وغيرهما من الشهداء الذين سطروا الملاحم النضالية.

إذن الحركة الوطنية اللبنانية لعبت دوراً كبيراً في طرد المحتل من الجنوب اللبناني، وما زالت الحركة الوطنية اللبنانية والفلسطينية تعملان ضد إسرائيل في لبنان، رغم أن هناك الكثير من عملاء إسرائيل يحاصرون مخيمات الجنوب اللبناني، ويقابلهم سكان المخيمات بالصمود والتحدي، وأدى حصار المخيمات في جنوب لبنان إلى انتشار الأمراض بين الأطفال، ومات الكثير منهم، وهم يجمعون الأعشاب حول المخيم، بسبب الجوع الذي حدث من جراء الحصار التمويني للمخيمات، وأدى الحصار إلى تهجير ٣٠ ألف فلسطيني، وتدمير ٤٠٠ مسكن، ونهب ١٢ ألف منزل(٢).

---

(١) الاجتياح الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢، دراسات سياسية وعسكرية – مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٨٤، بيروت، ص: ٨٨ .

(٢) جريدة الخليج، العدد ٢٨٧٨، الشارقة، الاثنين ٩/ ٣/ ١٩٨٧، ص١١.

كل هذه الأمور من حصار ومذابح وتشريد بعد خروج المقاومة الفلسطينية، وحصار مخيم «برج البراجنة» في بيروت الغربية على يد ميليشيات «أمل» أدى بسكان المخيم إلى أكل لحوم الفئران، والاستفتاء لأكل لحوم البشر!

والحقُّ أن خروج المقاومة كان له تأثير كبير على الساحة العربية؛ إذ أصبحت إسرائيل تصول وتجول ولا تجد من يقف في طريقها، إلا أن الحركة الوطنية اللبنانية بالتعاون مع الثورة الفلسطينية، استطاعت أن تحقق النصر على قوات الاحتلال الصهيوني في لبنان، وخاصة جنوبه.

ومن الإنصاف أن نقول: لقد كانت خسائر اجتياح إسرائيل للبنان، عام ١٩٨٢م، كبيرة، وخاصة في الأرواح والمباني، بالإضافة إلى الخسائر الاقتصادية، حيث تضررت المزروعات من جراء القصف، وتشريد السكان في الجنوب؛ مما أدى إلى انخفاض الإنتاج الزراعي والصناعي، ولكن إسرائيل استخدمت سياسة القبضة الحديدية لمواجهة المقاومة الوطنية اللبنانية في عام ١٩٨٥م، حيث اتخذت إجراءات قمع مشددة ضد سكان جنوب لبنان؛ مما أدى إلى تكثيف عمليات المقاومة في الجنوب ضد إسرائيل وإرغامها على الانسحاب من الجنوب، وتكبيدهم خسائر بشرية ترتفع باستمرار، وأيضًا أصبحت الحرب تكلف إسرائيل حوالي مليون دولار يوميًا.

تزايدت ممارسات القمع الإسرائيلية في الأراضي اللبنانية المحتلة تباعًا لتبلغ أوجها مع اعتماد السياسة المسماة "القبضة الحديدية" في ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٨٥م، ولقد اتخذ هذا القمع أشكالاً مختلفة[1].

* * *

---

(١) إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، مصدر سابق، ص ٢٥٨.

المبحث الثاني

أحداث ما بعد الخروج إلى حرب تموز ٢٠٠٦م

ظلت الآلة العسكرية الإسرائيلية من فترة لأخرى تضرب الجنوب اللبناني، وتوقع بعض الخسائرالطفيفة، حتى جاء يوم ٢٥ من تموز/ يوليو ١٩٩٣م، وفيه بدأت إسرائيل عملية عسكرية شملت مناطق لبنانية عديدة في الجنوب، والبقاع، والشمال، وأطراف بيروت، واستخدمت فيها مختلف أنواع الأسلحة، واتبعت فيها الأسلوب التدميري، واستمرت العملية أسبوعًا كاملاً (من ٢٥ - حتى ٣١/ ٧/ ١٩٩٣) وأُطلق عليها اسم "تسوية الحسابات" أو "تصفية الحسابات".

لم تكن العملية مفاجئة على الأرجح إلا لسكان القرى والبلدات التي تعرضت للقصف، إذ يبدو أن أطرافًا عديدة كانت تعلم بأن إسرائيل ستقدم على عمل عسكري[1].

ويبدو أن «حزب الله» تحسَّب لاحتمالات العدوان، فأخلى مواقعه، وبدَّل انتشاره قبل ثلاثة أسابيع من بدء العملية[2].

أما أسباب هذه العملية، فقد رأى الجانب الإسرائيلي أن المقاومة في لبنان اكتسبت تطورًا مهمًا، فقد نجح المقاومون في التخطيط لعمليات تم فيها الدمج بين زرع عبوات ناسفة متطورة، وبين نصب كمين قرب مكان العبوة.

كذلك شروع "حزب الله" في استخدام صواريخ مضادة للدبابات من طراز "ساغر"، وحسَّن مقاتلوه من أساليب قتالهم، وهو ما عبَّر عنه المعلق العسكري "زئيف شيف" بقوله: "إن الفجوة في خسائر كل من الجيش الإسرائيلي، وحزب الله آخذة في التقلص، كانت الفجوة سنة ١٩٩٠ ما نسبته قتيل واحد في صفوفنا في مقابل ٥,٢ في صفوف الحزب، وفي سنة ١٩٩١ تقلصت الفجوة إلى واحد في مقابل اثنين من صفوف الحزب،

---

(١) جريدة الحياة ١٩٩٣/٨/٤ "ذكرت أن المسؤولين اللبنانيين جميعًا أُبلغوا من الجانب الأمريكي معلومات عن العدوان".

(٢) le monde بتاريخ ٣١/ ٧/ ١٩٩٣م. نقلاً عن "حرب الأيام السبعة - المقدمة - مؤسسة الدراسات الفلسطينية..

وفي سنة ١٩٩٣ واصلت الفجوة تقلصها فأصبحت ١ : ١,٧، ... ولذا يجب ليُّ ذراع حزب في منطقة الحزام الأمني"[١]

أما حصيلة العدوان الإسرائيلي على الجنوب خلال الأيام السبعة، فهي:

عدد القتلى	١٣٢
عدد الجرحى	٥٠٠
عدد المنازل المدمرة	١٠,٠٠٠
عدد المنازل المصابة بأضرار	٢٠,٠٠٠
عدد القرى المصابة	١٢٠ قرية[٢]
عدد النازحين من القرى	٣٠٠,٠٠٠ نازح[٣]
عدد المدارس المصابة	١٥٤ مدرسة[٤]

وأطلقت إسرائيل على جنوب لبنان نحو ٢٢,٠٠٠ قذيفة، وألف صاروخ.

بينما أطلقت حركة المقاومة في الجنوب نحو ٢٣٥ صاروخ كاتيوشا[٥].

وظلت الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان من حين لآخر حتى وقعت مجزرة "قانا" في ١٨ نيسان/ إبريل ١٩٩٦م، ليتوج بها العدو جرائمه، فقد ذهب ضحيتها نحو "١٧٦" من الشهداء معظمهم من الأطفال والنساء، كانوا يختبئون في مركز تابع لقوات الأمم المتحدة، يرفرف عليه علمها المهان!![٧]

وهذا ما جعل الشاعر المصري سعد دعبيس يقول[٧]:

---

(١) هآرتس: ٢٣/ ٨/ ١٩٩٣م.

(٢) النهار: ١٤/ ٨/ ١٩٩٣م.

(٣) الحياة: ٣/٨/١٩٩٣م.

(٤) الحياة: ١٢/٨/١٩٩٣م.

(٥) النهار: ٣٠/٧/١٩٩٣م.

(٦) لمعرفة المزيد من ذلك انظر: النازيون الجدد، يوميات العدوان الإسرائيلي على لبنان (١١/ ٤ - ٢٦/ ٤/ ١٩٩٦م)، إعداد: طارق الكركيت، مركز يافا للدراسات والأبحاث - القاهرة. ط١٩٩٦م، ص١٥٢ وما بعدها.

(٧) الأهرام: ١٧/ ٨/ ٢٠٠٦م.

لا تبك يومًا.. لأسرانا وقتلانا بل.. فابك نفسك واحفر قبرك الآنا!!
وارقب دماءك تجري لست تبصرها ولست تدرك.. أن قد صرت جثمانا!
وانظر بقاياك للجلاد ضارعة ترجوه.. أن يقبل الأشلاء قربانا!
....
لو كنت تعرف أن الموت ليس سوى أن تشتري بدم الأحرار تيجانا!
وأن العمر أرقامًا وأرصدة ولو غدا العمر.. أشلاء.. وأكفانا!
وأن يصير دم الأطفال في "قانا" كؤوس خمر.. وأفراحًا وألحانا!

والشاعر يستلهم نصًا عربيًا قديمًا لقريط بن أنيف الذي قال ساخرًا من قبيلته، وهي كثيرة العدد والعدة، ولكنها استكانت لأعدائها، فقال:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة.. من ذهل بن شيبانا[1]

وظلت المناورات على لبنان حتى جاءت حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦

• حرب (تموز) يوليو ٢٠٠٦م

في ١٢ يوليو ٢٠٠٦م دخلت عناصر مقاتلة من «حزب الله» الحدود اللبنانية الإسرائيلية ونفذت عملية "الوعد الصادق" والتي كانت تهدف إلى أسر عدد من الجنود الإسرائيليين لمبادلتهم بأسرى لبنانيين وعرب داخل السجون الإسرائيلية، وقد أدَّت العملية إلى أسر جنديين إسرائيليين، ومقتل ثمانية آخرين، الأمر الذي دعا إسرائيل إلى اجتياح الحدود اللبنانية، ومحاولة التوغل في جنوب لبنان، وقد شنت حربًا شعواء على لبنان، استمرت نحو ٣٣ يومًا كان من أهم أهدافها ما سمته بـ"سحق حزب الله" والقضاء على ترسانة الحزب العسكرية، وخاصة الصاروخية منها، التي تشكل تهديدًا أمنيًا لإسرائيل من جهة الشمال، وكذلك استعادة جنديها الأسيرين بالقوة العسكرية من دون تفاوض.

وقد جندت إسرائيل نحو ١٠,٠٠٠ جندي في بداية القتال، ووصل إلى ٣٠,٠٠٠ في أواخره.

---

(١) سنعود إلى ذلك في ثنايا الدراسة الفنية بالباب الأخير من هذا الكتاب.

بينما حشد حزب الله نحو ٦,٠٠٠ جندي عند بدء القتال، ووصل إلى ١٠,٠٠٠ مسلح في أواخره!!.

وقد وصل عدد الغارات الجوية الإسرائيلية بـ (٧٠٠٠) غارة، ونحو (٢٥٠٠) عملية قصف، وألقي نحو (٢٣٧٠٠٠) قذيفة، وتم تدمير نحو ٨٠ جسرًا، و٥٠ مدرسة، و١٥٠٠٠ منزل، وقد زرعت إسرائيل أثناء هذه الحرب ٤٥٠ حقلاً ألغاميًا عدد مجموعها نحو مليون ومائتين ألف لغم عنقودي(١).

هذا وقامت الآلة العسكرية الإسرائيلية باجتياح الحدود اللبنانية، وأحدثت عدة مذابح قدِّرت بـ ٥٧ مجزرة بشرية، نذكر منها:

* مجزرة "صريفا" في مساء الثلاثاء ٢٠٠٦/٧/١٩م راح ضحيتها نحو ٢٧ شهيدًا، وأكثر من ٣٠ جريحًا.

* مجزرة "عيناتا" في الأربعاء ٢٠٠٦/٧/٢٠م ضحيتها: خمسة قتلى، وتسعة جرحى.

* مجزرة "عيناتا" الثانية في ٢٠٠٦/٧/٢٤م، ضحيتها: ١٨ قتيلاً، ومن بينهم سبعة أطفال.

* مجزرة "سلعا" (صور) في ٢٠٠٦/٧/٢٠م، ضحيتها: عشرة قتلى وخمسين جريحًا، إضافة إلى مجازر أخر منها مجزرة "معربون" في ٢٠٠٦/٧/٢٠، مجزرة "النبطية" في ٢٠٠٦/٧/١٩، مجزرة "الحوش" في ٢٠٠٦/٧/٢٠، مجزرة "النبي شيث (بعلبك)" في ٢٠٠٦/٧/١٩، مجزرة "عيترون" في ٢٠٠٦/٧/٢٠، مجزرة "زبقين" في ٢٠٠٦/٧/٢٠، مجزرة "مفرق العباسية" في ١٦/ ٧/ ٢٠٠٦، مجزرة "عبا النبطية" في ٢٠٠٦/٧/١٦، مجزرة "الشميس شحيم" في ٢٥/ ٢٠٠٦/٧، مجزرة "برج الشمالي (صور)" في ٢٠٠٦/٧/٢٥، وكذلك مجزرة "ياطر" في اليوم نفسه، ومجزرة "الدوير" ومجزرة "بافلاي"، مجزرة "مروحين"، ومجزرة "النبطية" الثانية، ومجزرة "حداثا"، ومجزرة "كفر جوز"..... وغيرها(٢).

وعلى الرغم من هذه المجازر والمذابح والتي راح ضحيتها نحو "١٠٠٠" شهيد، ونحو

(١) تقرير صادر عن الجمعية اللبنانية لحقوق الإنسان، ٢٠٠٦م.

(٢) انظر: صحف: البلد، السفير، النهار، في الفترة من ١٦/ ٧ حتى ١٥/ ٨/ ٢٠٠٦م.

"٢٠,٠٠٠" جريح، ودُمِّرت البنية التحتية للبنان والأمر الذي جعلها تحتاج إلى عشرات المليارات من الدولارات لإعادة بنائها.. وعلى الرغم من هذه الأرقام المفزعة فإن إسرائيل لم تحقق أهدافها العسكرية وباءت محاولاتها بالفشل، وأُجْبِر الإسرائيليون على الانسحاب من الجنوب اللبناني وعقد صفقات مع حزب الله لتبادل الأسرى وهكذا مُنِيَ الجيش الإسرائيلي بهزيمة من حزب الله ولم يحقق أيًّا من أهدافه، بل أدت الحرب إلى مقتل نحو ١١٩ جندي إسرائيلي، ونحو ٤٤ مدنيًا، وجرح ما بين ٤٠٠ - ٤٥٠ ما بين مدني وعسكري، فضلاً عن أسر جنديين إسرائيليين، إضافة إلى مئات الملايين من الدولارات.

الأمر الذي جعل الشعراء العرب يسجلون هذا بأحاسيسهم ومشاعرهم.

وقد عمقت المأساء... وسقوط القنابل الفسفورية والعنقودية على الأطفال والنساء، وتشريد الأبرياء وهدم البيوت وابتلاع الأراضي.. كل هذا فجر طاقة شعرية عند الكثير من الشعراء الذين غنوا بشعرهم للمقاومة الفلسطينية واللبنانية.. ورثوا الأبطال الشهداء.. ووصفوا خسة العدو الصهيوني، وقتله الأطفال، أبطال الآربي جي في مخيمات الصمود في جنوب لبنان وبيروت، ولم يقتصر قول الشعر في لبنان على مجموعة معينة من الشعراء، بل كان عدد الشعراء الذين كتبوا عن مأساء لبنان يفوق الحصر، ومن مختلف أرجاء الوطن العربي، وأول ما نبدأ به هو تأثير المأساة وخروج المقاتلين والحرب على شعراء فلسطين المحتلة في كل مكان من العالم؛ لأنهم أكثر من تأثر من أحداث لبنان.. من حيث القتل والتشريد والاعتقال وحصار المخيمات والمذابح التي ارتكبت ضد الأبرياء العزل في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في بيروت وجنوبي لبنان.

* * *

الباب الثاني

تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينين[1] في:

أ- لبنان.

ب- الأرض المحتلة

ج- خارج الأرض المحتلة.

(١) ينبغي القول أن تقسيم الشعراء الفلسطينيين في لبنان أو في الأرض المحتلة أو في خارجها، هو تقسيم تقريبي، فالشعراء الفلسطينيون كثيرو التنقل، ولذا يصعب الفصل بينهم من الناحية المكانية، ولكننا نأخذ بغالبية الإقامة.

الفصل الأول

تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين في لبنان

حرب لبنان، وحصار المخيمات، وقتل الأطفال وتشريد الآلاف من بيوتهم، كان له أكبر الأثر على شعراء فلسطين الذين عاشوا المحنة منذ بدايتها، هناك الكثير من الشعراء الفلسطينيين كتبوا عن مأساة لبنان في الداخل، من وسط الحصار، ومن خارج لبنان ومن هؤلاء الشعراء محمود درويش حيث كتب عن المأساة من داخل بيروت ناقلاً صورة كاملة للمرارة والألم اللذين حلا بالشعبين اللبناني والفلسطيني. ونأخذ مثالاً من قصائده وهي قصيدة «بيروت»، هي ملحمة شعرية صادقة تنبع عن نفس معذبة محرومة، وفيها يقول درويش واصفًا مدينة بيروت بالعروس، التفاحة.. الأمان.. الخيمة معرِّجًا على تدمير هذه المدينة الجميلة، فيقول:

تفاحة للبحر.. نرجسة الرخام

فراشة حجرية.. بيروت.. شكل الروح في المرآة

وصف المرآة الأولى، ورائحة الغمام.

بيروت من تعب ومن ذهب، وأندلس وشام

فضة، زبد، وصايا الأرض في ريش الحمام

وفاة سنبلة، تشرُّدُ نجمة بيني وبين حبيبتي بيروت

لم أسمع دمي من قبل ينطق باسم عاشقة تنام على دمي.. وتنام.

من مطر على البحر اكتشفنا الاسم، من طعم الخريف

وبرتقال القادمين من الجنوب، كأننا أسلافنا نأتي إلى بيروت

كي نأتي إلى بيروت

من مطر بنينا كوخنا، والريح لا تجري فلا نجري، كأن الريح

مسمار على الصلصال تحفر قبونا فننام مثل النمل في القبو الصغير

كأننا كنا نغني خلسة:

بيروت خيمتنا

بيروت نجمتنا[1]

نلاحظ كثيرًا من جمل المقطع التي تكثِّف الفجيعة ومرارتها "رائحة الغمام" "بيروت من تعب" "زَبَد" "وصايا الأرض" "وفاة سنبلة" "تشرد نجمة" ثم انظر إلى الأمل الذي سرعان ما تبخر مع الريح في قوله: "من مطر بنينا كوخنا"، أو قوله «نغني خلسة».

يتابع الشاعر محمود درويش قصيدته بوصف دقيق للحالة السيئة التي أصبحنا نعيشها بعد في بيروت:

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو

أسلمنا الغزاة إلى أهالينا

فما كدنا نَعض الأرض حتى انقض حامينا

على الأعراس والذكرى

فوزعنا أغانينا على الحراس

من ملكٍ على عرشٍ

إلى ملكٍ على نعشٍ

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو

لم نعثر على شَبَهٍ نهائي سوى دمنا

ولم نعثر على ما يجعل السلطان شعبيًا

ولم نعثر على ما يجعل السجَّان وديًا

ولم نعثر على شيء يدل على هويتنا

سوى دمنا الذي يتسلق الجدران

ننشد خلسة:

بيروت خيمتنا

بيروت نجمتنا

---

(١) محمود درويش/ حصار لمدائح البحر، دار العودة - بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص٨٩ .

لاحظ حجم المأساة التي صورها الشاعر، من خلال جمل "سبايا نحن"، "الزمن الرخو"، "أسلمنا الغزاة"، وتأتي المفارقة بأن التسليم ليس لعدو، ولكن "إلى أهالينا"!! لاحظ مرارة المأساة من خلال جمل "نعض الأرض" "دمنا الذي يتسلق الجدران"، ثم لاحظ التوازي الصوتي والاختلاف الدلالي بين ملك على عرش/ ملك على نعش.. فيكون السؤال هل يتساوى العرش مع النعش، ربما يتساويان في بعض المواقف وما أكثرها!!

ثم يجأر درويش بالمأساة، معرِّضًا بالعرب ونفطه الزائل، فيقول:

عنقودًا من القتلى بلا سبب..

وجئنا من بلاد لا بلاد لها

وجئنا من يد الفصحى ومن تعبِ

خراب هذه الأرض التي تمتد من قصر الأمير إلى زنازننا

ومن أحلامنا الأولى إلى.. حطبِ

فأعطينا جدارًا واحدًا لنصيح يا بيروت

أعطينا جدارًا كي نرى أفقًا ونافذة من اللهب

وأعطينا جدارًا كي نعلق فوقه سدوم

التي انقسمت إلى عشرين مملكة

لبيع النفط.. والعربي

وأعطينا جدارًا واحدًا

لنصيح في شبه الجزيرة:

بيروت خيمتنا الأخيرة

بيروت نجمتنا الأخيرة

ولا شك أن بيروت كانت خيمة تأوي أولئك الذين نذروا أنفسهم للجهاد من أجل تحرير بلادهم، وهنا نلمح حزن الشاعر، بل بكاءه على فراق بيروت الأم.. الحبيبة، النجمة الخيمة، يبكي الشاعر على التشتت الذي حدث للشعب الفلسطيني بعد حصار المدينة.. إن بيروت حزينة تبكي.. مثلما نبكي على فراقها.. فها هي بيروت الآن أصبحت

بين المخالب الحاقدة، ولا مدافع عنها إلا من أحبها كما أحب القدس!!

أفق رصاصي تناثر في الأفق

طُرق من الصدف المجوف.. لا طُرق

ومن المحيط إلى الجحيم

من الجحيم إلى الخليج

ومن اليمين إلى اليمين إلى الوسط

شاهدتُ مشنقة فقط

شاهدتُ مشنقة بحبل واحد

من أجل مليوني عنق!!

لاحظ أن الشاعر في المقطع السابق، أورد كلمة «الجحيم» مرتين مكررتين، وهما في منطقة وسطى بين «المحيط» و«الخليج»، بمعنى أن الجحيم يمكث بمخالبه وحوافره في منطقتنا العربية، خاصة وسطها، وهو يرمز بذلك لـ «فلسطين» و«لبنان».

ثم يذكّر الشاعر الأمة العربية بما حدث للمسلمين في الأندلس:

بيروت! من أين الطريق إلى نوافذ قرطبه

أنا لا أهاجر مرتين

ولا أحبك مرتين

ولا أرى في البحر غير البحر

لكني أحوِّم حول أحلامي

وأدعو الأرض جمجمة لروحي المتعبة

وأريد أن أمشي..

لأمشي

ثم أسقط في الطريق.. إلى نوافذ قرطبه

ثم يصف الهم والحزن اللذين حلا به حين غادر بيروت في لحظة قصيرة.. كل

الذكريات انتهت في لمحة بسيطة.. ويتذكر الشاعر كل شيء في بيروت من خراب ودمار، يذكر نفسه وهو بين موت وحياة، بين يأس ورجاء.. ولكن..

بيروت شاهدة على قلبي

وأرحل عن شوارعها وعني

عالقًا بقصيدة لا تنتهي

وأقول: ناري لا تموت

على البنايات الحمام

على بقاياها السلام

أطوي المدينة مثلما أطوي الكتاب

وأحمل الأرض الصغيرة مثل كيس من سحاب

أصحو وأبحث في ملابس جثتي عني

فتضحك: نحن ما زلنا على قيد الحياة
وسائر الحكَّام

شكرًا للجريدة لم تقل أني سقطت هناك سهوا

أفتح الطرق الصغيرة للهواء وخطوتي والأصدقاء العابرين

وتاجر الخبز الخبيث، وصورة البحر الجديدة

شكرًا لبيروت الضباب..

شكرًا لبيروت الخراب..

تكسرت روحي، سأرمي جثتي لتصيبني الغزوات ثانيةً

ويسلمني الغزاة إلى القصيدة..

أحمل اللغة المطيعة كالسحابة

فوق أرصفة القراءة والكتابة:

"إن هذا البحر يترك عندنا آذانه وعيونه"

ويعود نحو البحر بحريًا

لاحظ مرارة الشاعر من خلال جمل كثيرة نذكر منها: «أرحل عن شوارعها، وعني»، «أصحو وأبحث في ملابس جثتي عني»، «ما زلنا على قيد الحياة»، «الطرق الصغيرة للهواء»، «بيروت الضباب»، «بيروت الخراب»، «تكسرت روحي».... إلخ.

ينتقل الشاعر إلى تذكر أرض فلسطين، ويوضح لنا بأن التشرد يطارد الإنسان الفلسطيني، إذ طرد من أرضه فلسطين إلى المنافي المختلفة، وهو يطرد الآن من بيروت إلى منفًى آخر وهكذا، لكن الشاعر يؤكد بأن الحق لا يضيع وأن هذا الإنسان سوف يعود إلى وطنه ما دام تصميمه موجودًا.

ترك الشاعر بيروت إلى مدينة جديدة.. يترك السيف والحرب ليذهب إلى السلام، ويأسف الشاعر على هذه الأمة التي لا تستقبل محاربيها كما يحدث عند الغرب حين يتوج الفاتحون، ونرى سخط الشاعر على هذه الأمة اللاهية في الملذات حتى أذنيها.. بل يمقتها؛ لأنها أمة نائمة ذليلة، لا تحرك ساكنًا ولا توقف قاعدًا.

وهذه المدن العربية الهشة لِمَ لمْ تقدم لبيروت العون والمساعدة؟! الحجر قاتل والشجر حمَلَ البندقية وقاوم، كل ذرة قاومت.. والأمة العربية في غيابة الجبِّ تغمض عينيها خوفًا على خزائنها.. وتعلق المشانق لأبطالها، إن جأروا بمجرد الصراخ يقول:

وداعًا للذي سنراه

للفجر الذي سيشقنا عما قليل

لمدينة ستعيدنا لمدينة

لتطول رحلتنا وحكمتنا

وداعًا للسيوف وللنخيل

لحمامة ستطير من قلبين محروقين بالماضي

إلى سقف من القرميد..

هل مر المحارب من هنا

كقذيفة في الحرب؟

هل كسرت شظاياه كؤوس الشاي في المقهى؟

أرى مدنًا من الورق المسلح بالملوك وبدلة الكاكي،

أرى مدنًا تتوّج فاتحيها

والشرق عكس الغرب أحيانًا

وشرق الغرب أحيانًا

وصورته وسلعته..

أرى مدنًا تتوّج فاتحيها

وتصدِّر الشهداء كي تستورد الويسكي

وأحدث منجزات الجنس والتعذيب

هل مرَّ المحارب من هنا

كقذيفة في الحرب؟

هل كسرت شظاياه كؤوس الشاي في المقهى؟

أرى مدنًا تعلّق عاشقيها

فوق أغصان الحديد

وتشرِّد الأسماء عند الفجر..

عند الفجر يأتي سادن الصنم الوحيد

ماذا نودع غير هذا السجن؟

ماذا يخسر السجناء؟

نمشي نحو أغنية بعيدة

نمشي إلى الحرية الأولى

فنلمس فتنة الدنيا لأول مرة في العمر..

بوركت الحياة

وبورك الأحياء

فوق الأرض

لا تحت الطغاة

تحيا الحياة!!

تحيا الحياة!!

ويتابع محمود درويش قصيدته الملحمية الرائعة قائلاً:

فسِّر ما يلي:

بيروت "بحر - حرب - حبر - ريح"

يبدأ درويش في شرح كيف هي بيروت، بحر، وكيف هي حرب وكيف هي حبر، وريح، فيقول:

البحر: أبيض أو رصاصي، وفي إبريل أخضر،

أزرق، لكنه يحمرُّ في كل الشهور إذا غضبْ

والبحر مال على دمي

ليكون صورة من أُحبْ

واستفسار الشاعر عن بيروت له دلالة، فهي في نظره البحر الهادئ الموج الدافئ، وهي أيضًا الموج الغاضب الهادر في ساعات الغضب، بل يصبح لونه أخضرَ في شهر إبريل.. يتلون البحر بعدة ألوان، وهذه بيروت البيضاء الجميلة، السوداء الحزينة من جراء القصف العشوائي.. فهي أغنية الغربة.. والضياع.. والتشرد.. بفقدان بيروت فقدنا الأم التي عطفت علينا بعد فلسطين.. والحرب في نظر الشاعر هي الهاجس الذي يهدد كيان كل فرد.. ولكن الفلسطيني اعتاد على حمل السلاح ومواجهة الحروب، فأصبح معرضًا لها أينما ذهب..

الحرب: تهدم مسرحيتنا لنلعب دون نص أو كتاب

والحرب: ذاكرة البدائيين والمتحضرين.

والحرب: أولها دماء

والحرب: آخرها هواء

والحرب: تثقب ظلنا لتمر من باب لباب

إذن الحرب هدم وتدمير، وشريعة الغاب، وهي قانون البدائيين، وهي أيضًا - للأسف - راسخة في ذاكرة المتحضرين، الحرب دماء وصراخ، يظن المتحاربون أنها - الحرب - سبب الحرية، ولكنه ظن خاطئ، ورغم باطل.

أما الحبر في رأي الشاعر فهو للأغاني وللمتفرجين وللمستسلمين من العرب:

الحبر: للفصحى، وللضباط، والمتفرجين على أغانينا

وللمستسلمين لمنظر البحر الحزين

الحبر: نمل أسود، أو سيِّدٌ..

والحبر: برزخنا الأمين

أما الريح فهو المشرد لنا.. وبيروت فيها التجارة الواسعة منذ زمن قديم.. وأثناء الحرب أصبح الاستغلال للسلع ظاهرة واقعية يعاني منها الإنسان في بيروت، فالريح استغلال وهو وجه قبيح آخر للحرب وما تخلفه لنا من مساوئ، فيقول:

والريح: مشتق من الحرب التي لا تنتهي

منذ ارتدت أجسادنا المحراث

منذ الرحلة الأولى إلى صيد الظباء

حتى بزوغ الاشتراكيين في آسيا وفي أفريقيا!!

والريح: يحكمنا..

يُشرِّدنا عن الأدوات والكلمات

يسرق لحمنا

ويبيعه

لاحظ أن كلمات (بحر - حرب - حبر - ربح) التي وصف الشاعر بيروت بها، هي

في حقيقتها كلمة واحدة مكونة من ثلاثة أحرف (ب - ح - ر)، ولكن شاعرنا بدَّل الحروف، وغيَّر مواضعها فكانت هذه الاشتقاقات متغيرة الدلالة، ومن ثم كان قصد الشاعر أن بيروت مدينة تغيرت أحوالها وتبدَّلت.

ويتابع محمود درويش وصفه لمدينة بيروت وحصارها وخروج المقاتلين الفلسطينيين منها بأسلوب مليء بالحزن والحسرة والنقمة على الغازي.. فيقول:

أحرقنا مراكبنا . وعلَّقنا كواكبنا على الأسوار

نحن الواقفين على خطوط النار نعلن ما يلي:

بيروت تفاحه

والقلب لا يضحك

وحصارنا واحه

في عالم يهلك

سنرقِّص الساحه

ونزوِّج الليلك

أحرقنا مراكبنا .. وعلقنا كواكبنا على الأسوار

لم نبحث عن الأجداد في شجر الخرائط

لم نسافر خارج الخبز النقي وثوبنا الطيني

لم نرسل إلى صدف البحيرات القديمة صورة الآباء

لم نولد لنسأل: كيف تم الانتقال الفذ مما ليس عضويًا إلى العضوي؟

لم نولد لنسأل..

قد ولدنا كيفما اتفق

انتشرنا كالنمال على الحصيرة

ثم أصبحنا خيولاً تسحب العربات..

نحن الواقفين على خطوط النار

أحرقنا زوارقنا، وعانقنا بنادقنا

سنوقظ هذه الأرض التي استندت إلى دمنا

سنوقظها، ونُخرج من خلاياها ضحايانا

سنغسل شعرهم بدموعنا البيضاء

نسكب فوق أيديهم حليب الروح كي يستيقظوا

ونرش فوق جفونهم أصواتنا:

قوموا ارجعوا للبيت يا أحبابنا

عودوا إلى الريح التي اقتلعت جنوب الأرض من أضلاعنا

عودوا إلى البحر الذي لا يذكر الموتى ولا الأحياء

عودوا مرة أخرى

فلم نذهب وراء خطاكمُ عبثًا

مراكبنا هنا احترقت

لاحظ أن التكرار في المقطع السابق، وقد ورد بأشكال كثيرة، أفاد معنى لتحقيق الهدف، كما أفاد معنى التحدي للعدو.

وللشاعر قصيدة أخرى تحت عنوان: «مديح الظل العالي» يصور فيها مأساة لبنان منذ احتلال الجيش الإسرائيلي لجنوبه وحتى خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت إلى منافي الدول العربية الصديقة والشقيقة.

ومحمود درويش يخبرنا في هذه القصيدة الطويلة بكل مجريات الحرب والحصار، والدم، والقتل. ونجده يصف أيام حصار بيروت وكل ما حدث أثناء اليوم، صباحًا، ومساءً، كان يتابع ما يجري يوميًا في المدينة الصامدة بأهلها وبأبطالها.. صامدة بحجارتها التي أصبحت رصاصًا في وجوه قوات الاحتلال التي كانت تقصف بيروت الغربية من الشطر الشرقي للمدينة نفسها.

وصف درويش الأقدام الهمجية التي داست على كرامة الأمة العربية ولم تجد من يقف في طريقها إلا نفر قليل من الرجال الأبطال الذين تعاونوا مع أبطال المقاومة في

بيروت، ويقول الشاعر، واصفًا الحالة التي مرَّ بها سكان بيروت أثناء الحصار من قتل وتجويع وتشريد!

خذ بقاياك، اتخذني ساعدا في حضرة الأطلال، خذ قاموس ناري

وانتصر

في وردة ترمي عليك من الدموع

ومن رغيف يابس، جاف، وعار

وانتصر في آخر التاريخ

لا تاريخ إلا ما يؤرخه رحيلك في انهياري

قلنا لبيروت القصيدة كلها، قلنا لمنتصف النهار

بيروت قلعتنا

بيروت دمعتنا

ومفتاح لهذا البحر، كنا نقطة التكوين(١)

الشاعر يورد حقيقة أن الفلسطيني قاتل وحده في بيروت وغيرها، ويقول مخاطبًا الفلسطيني: لقد قدمت جسمك مقابل أن تحصل على حبة زيتون.. صمودك من أجل عودتك يكلفك الكثير وربما حياتك، قاومت بكل شجاعة في منفى جديد خارج أرضك وزيتونك،فأنت السيد وأنت ابن الهواء الصلب.. أنت الإعصار.. لا أحد يستطيع أن يقيدنا أو يحطمنا، وإذا استطاع قتلنا فسيأتي من يحمل الأمانة ويتابع المسيرة حتى النصر المؤزر والعودة للقدس الحبيبة:

كم كنت وحدك، يا بن أمي،

يابن أكثر من أب،

كم كنت وحدك

القمح مرٌّ في حقول الآخرين

والماء مالح

(١) محمود درويش: مديح الظل العالي، دار العودة - بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٥ - ٨ .

والغيم فولاذ، وهذا النجم جارح

وعليك أن تحيا، وأن نحيا

وأن تعطي مقابل حبة الزيتون جلدك

كم كنت وحدك

لا شيء يكسرنا، فلا تغرق تمامًا

فيما تبقى من دم فينا..

لنذهب داخل الروح المحاصر بالتشابه واليتامى

يابن الهواء الصلب، يابن اللفظة الأولى على الجزر القديمة

يابن سيدة البحيرات البعيدة، يابن من يحمي القدامى،

من خطيئتهم، ويطبع فوق وجه الصخر برقًا أو حماما

الشاعر يقدم لنا صورة مأساوية للإنسان المحاصر داخل أسوار بيروت، وداخل مخيمات لبنان، صورة لجسم هذا الإنسان الذي أصبح يُقطَّع، ويرمى في كل مكان.. هذا الجسم الآدمي أين قيمته في الحياة؟! أليس للإنسان قيمة؟ نعم إن هذا الإنسان أصبح صيدًا لليهود وللعملاء في كل جهة، ولكن ألم يعلموا أن هذا اللحم الآدمي.. مر المذاق صعب المنال.. هذا لحم الإنسان الصامد الشريف، ومهما حدث فإن العذاب والضياع والغربة عنوان كل فلسطيني يعيش على هذه الأرض، ولا شك أن الشاعر في هذه القصيدة الطويلة قدَّم لنا وصفًا حيًا عن حرب لبنان.. بتفاصيلها الدقيقة حصار بيروت.. خروج المقاتلين الفلسطينيين إلى منافي الصحاري العربية، وأزقة العواصم العربية المهانة!

ومحمود درويش يستخدم الرمز في شعره كما لاحظنا في المقاطع السابقة، والرمز الشعري يستخدمه الشعراء في العصر الحديث، "فالرمز الذي يؤدي وظيفة نفطن إليها، ونعترف بها، يشخِّص خبرة عامة يتردد صداها من ضمير إلى ضمير أثناء أزمان متطاولة، ولن يقوى على ذلك ما لم يرتفع على ما هو شخصي أو موضوعي، ويصبح عاملاً من عوامل الاتصال المنتجة"[1]، أو هو ما عبَّر عنه إزرا باوند في قوله: «الكلمة

---

(١) الدكتور مصطفى ناصف الصورة الأدبية، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٨م، ط١، ص ١٨٢، وانظر تفاصيل ذلك في الدراسة الفنية لهذا الشعر بالباب الرابع من هذه الدراسة.

مشحونة بالمعنى»[1]، فللكلمة طاقة تعبيرية قوية.

يقول درويش:

لحمي على الحيطان لحمُك يابن أمي

جسد لأضراب الظلال

وعليك أن تمشي بلا طرق

وراءً، أو أمامًا، أو جنوبًا أو شمال

وتحرك الخطوات بالميزان

حين يشاء من وهبوك قيدك

ليزينوك، ويأخذوك إلى المعارض كي يرى الزوار مجدك

كم كنت وحدك

لقد ردد الشاعر عبارة "كنت وحدك" في هذه القصيدة كثيرًا، خاصة عندما تحدث عن حصار بيروت والمقاومة الفلسطينية التي كانت تدافع وحدها عن المدينة، وأيضًا نجد الشاعر يحذر الفلسطيني ممن حوله، لأنهم خذلوه وكسروه في المعركة، وتتفجر عواطف الشاعر في هذه المقاطع وكأنها قنبلة موقوتة لزمن محدد، في وجه من أنكر الوجود الفلسطيني، وساعد على ترحيل المقاتلين الفلسطينيين منها، يقول: درويش في مرارة:

كسروك كم كسروك كي يقفوا على ساقيك عرشا

وتقاسموك وأنكروك وخبّأوك وأنشأوا ليديك جيشا

حطوك في حجر.. وقالوا لا تُسَلِّم

ورموك في بئر.. وقالوا لا تسلِّم

وأطلت حربك، يابن أمي،

---

(١) أرشيبالد مكليش. الشعر والتجربة، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ١٨.

ألف عام، ألف عام، ألف عام، في النهار

فأنكروك لأنهم لا يعرفون سوى الخطابة والفرار

هم يسرقون الآن جلدك

فاحذر ملامحهم.. وغمدك

كم كنت وحدك، يابن أمي

يابن أكثر من أبي،

كم كنت وحدك

يلاحظ نبرات الحزن والأسى في المقطع السابق، ثم يلاحظ استعمال الضمير/ الغائب في كثير من الكلمات: «كسروك، تقاسموك، أنكروك،....؛ لأنهم، هم يسرقون» استعمال الشاعر هذا الضمير بكثرة على هذا النحو يوحي بأنه لا يريد مجرد ذكر اسمهم، فمجرد ذكر اسمهم يشعر بالغصة، لذا لجأ إلى الضمير الغائب، في مقابل استعمال ضمير المخاطب هؤلاء الأبطال الذين يستعذب الشاعر ذكرهم.

في المقاطع السابقة يذكر الشاعر بأن هناك من طلب من المقاومة الفلسطينية القتال وعدم الاستسلام حتى الموت دون أن يقدم أي مساعدة، ونلاحظ أن كلمة "كم" تتكرر كثيرًا لأنها تدلُّ على التكثير والأخبار، ويخبرنا الشاعر بأن هؤلاء لا يجيدون إلا إلقاء الخطب الرنانة، والفرار من المعارك والاختباء في دهاليز ومواخير الصمت والاستكانة!!

ويلاحظ – أيضًا – قوله بصيغة الجمع «حطوك/ قالوا/ رموك/ أنكروك/ لأنهم/ يعرفون/ هم/....». ودلالة الخطاب الجمعي تشير إلى أمة بكاملها لم تجرؤ حتى على الاستنكار!!

ثم يتابع درويش قوله:

والآن والأشياء سيدة، وهذا الصمت عال كالذبابه

هل ندرك المجهول فينا؟ هل تغني مثلما كنا نغني؟

سقطت قلاع قبل هذا اليوم، لكن الهواء حامض

وحدي أدافع عن جدار ليس لي

وحدي على سطح المدينة واقف..

أيوب مات، وماتت العنقاء، وانصرف الصحابه

وحدي أراود نفسي الثكلى فتأبى أن تساعدني على نفسي

ووحدي، كنت وحدي

عندما قاومت وحدي

وحدة الروح الأخيره..

لاحظ استلهام الشخصية التراثية من خلال «أيوب» مضرب الأمثال بالصبر والمقاومة، وعدم الاستكانة، والتشبث بالأمل، ولاحظ استلهام الأسطورة من خلال «العنقاء»، ذلك الطائر الخرافي الذي يولد من رماد احتراقه، كلما احترق، وهو يوحي بتوالد الأمل في الحياة، ولاحظ - أيضًا - النبرة الصوتية العالية المترددة خلال تكرار كلمة «وحدي» الدالة على التحدي والصمود.

ثم إن درويش يستلهم النص الديني الإسلامي، مؤازرًا الفدائي بشحنة معنوية دفاقة تجبره على الصمود والمقاومة، فيقول:

الله أكبر

هذه آياتنا، فاقرأ

باسم الفدائي والذي خلقا

من حزمه أفقا

باسم الفدائي الذي يرحل

من وقتكم.. لندائه الأول

الأول الأول

سندمر الهيكل

باسم الفدائي الذي يبدأ

اقرأ

بيروت - صورتنا

بيروت - صورتنا

بيروت - لا[1]

والشاعر يتحدث لابنته/ الأمل القادم الصامد تحت التهديد والاغتيال، فيقول:

نامي قليلاً، يا ابنتي نامي قليلا

الطائرات تعضني.. وتعض ما في القلب من عسل

فنامي في طريق النحل نامي

قبل أن أصحو قتيلا...

نامي قليلاً

الطائرات تطير، والأشجار تهوي

والمباني تخبر السكان، فاختبئي بأغنيتي الأخيرة،

أو بطلقتي الأخيرة، يا ابنتي

ويتحدث الشاعر عن مأساة الفلسطيني في لبنان مبينًا عمقها من خلال أمثلة أوردها، فالأشلاء الآدمية في كل زاوية وشارع، وتدمير المنازل، والقتل والقصف، وتجسدت المأساة في وقوف العرب مكتوفي الأيدي لا يحركون ساكنًا، وهو هنا يميط اللثام عن صمتهم المريب، متحدثًا لأخيه الفدائي الرابض بجواره في الخندق:

أشلاؤنا أسماؤنا .. لا.. لا مفر

سقط القناعُ عن القناع عن القناع

سقط القناع

لا أخوة لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاع

---

(١) اقرأ تحليل هذا النص في مجلة إبداع العدد ٧، ٨، القاهرة ٢٠٠٨م، د. محمد سالمان «استلهام النص الديني عند محمود درويش»، وانظر أيضًا الدراسة الفنية بالباب الثاني من هذا الكتاب.

لا الماء عندك، لا الدواء، ولا السماء، ولا الدماء، ولا الشراع

ولا الأمام، ولا الوراء

حاصر حصارك.. لا مفر

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوك.. لا مفر

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي.. فأنت الآن حر

حرّ.. حرّ

قتلاك، أو جرحاك فيك ذخيرة

فاضرب بها، اضرب عدوك.. لا مفر

لاحظ كثرة التكرار بالمقطع، فالشاعر يلح على فكرته ويريد ترسيخها في ذهن الفدائي، فكان تكرار "لا"، "سقط القناع"، "اضرب"، "حر"، وعلى الرغم من غنائية المقطع ومباشرته فإن به توهج شعري مؤثر نتج عن التكرار، فضلاً عن العاطفة الصادقة.

ويعود الشاعر إلى تفصيل مأساة بيروت، بالحديث عنها أيام الحرب في الفجر، ووقت الظهيرة، وحين يهدهدها الليل المظلم المضيء بقنابل الجيش الإسرائيلي، ويستخدم الشاعر الرمز بشكل كبير في قصيدته؛ لأن الشاعر أحس بالمرارة، ومرَّ بالتجربة، ويجب على الشاعر أن يكون في مقدوره أن يحس بالتيار الرئيسي الذي يسري عبر الأجيال والعصور السابقة، يحتاج الشاعر المعاصر إلى أن يدرك أن العقل العربي، وهو أهم بكثير من عقله، يتغير في تطور لا يغفل فيه القديم من أجل الجديد، وليس الحاضر المتيقظ إلا وعيًا للماضي في شكل جديد[1].

يقول درويش في "بيروت فجرًا" يبين فيها ما حدث لبيروت أثناء الحصار من تدمير وهتك للأعراض وقتل للأطفال، مبينًا بطريقة «السرد» حال المدينة، مصوِّرًا تفاصيل الحياة اليومية.

---

(١) د. مصطفى ناصف: مصدر سابق، ص ٢٦٢.

بيروت/ فجراً:

يطلق البحر الرصاص على النوافذ، يفتح العصفور أغنية

مبكرة. يطير جارنا رف الحمام إلى الدخان يموت من لا

يستطيع الركض في الطرقات.. قلبي قطعة من برتقال

يابس.. أهدي إلي جاري الجريدة كي يفتش عن أقاربه

أعزيه غداً، أمشي لأبحث عن كنوز الماء في قبو البناية

أشتهي جسداً يضيء البار والغابات.. يا "جيم" اقتليني

واقتليني واقتليني.

يدخل الطيران أفكاري ويقصفها..

فيقتل تسع عشرة طفلة

يتوقف العصفور عن إنشاده

عادية ساعاتنا.. عادية،

لولا صهيل الجنس في ساقيك يا "جيم" الجنون

والموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري والبحري

ألف قذيفة أخرى ولا يتقدم الأعداء شبراً واحداً

يا فجر بيروت الطويلا

عجّل قليلا

عجّل لأعرف جيداً:

إن كنت حيّاً أم قتيلا[1]

كان هذا فجر بيروت، ثم يأتي وقت الظهيرة فيها فيحدثنا الشاعر عما جرى للمدينة ساعة الظهيرة موضحاً موقف العرب تجاهها، وموقف أمريكا الحاقد على الأمة العربية ممثلة بقنابلها الحارقة وتخطيطها الحاقد..

---

(١) محمود درويش/ مديح الظل العالي، مصدر سابق، ص ٥٤ وما بعدها.

بيروت/ ظهراً،

يستمر الفجر منذ الفجر

تتكسر السماء على رغيف الخبز

ينكسر الهواء على رؤوس الناس من عبء الدخان، ولا جديد

لدى العروبة

بعد شهر يلتقي كل الملوك، بكل أنواع الملوك من العقيد

إلى الشهيد، ليبحثوا خطر اليهود على وجود الله[1].

أما الآن فالأحوال هادئة تماماً مثلما كانت،

وأن الموت يأتينا بكل سلاحه الجوي والبري والبحري.

مليون انفجار في المدينة

....

عرايا نحن، لا أفق يغطينا، ولا قبر يوارينا

ويا.. يا يوم بيروت المكسّر في الظهيره

عجِّل قليلا

عجِّل لنعرف أين صرختنا الأخيره

أما بيروت وقت العصر فيحدثنا محمود درويش عن المأساة في هذه اللحظات قائلاً:

بيروت/ عصراً،

تكثر الحشرات

تزداد الرطوبة

ترتخي العضلات

---

(١) على الرغم من الدلالة الواضحة على خطر اليهود، فما كان يليق بالشاعر أن يكتب هذا السطر الشعري على هذا النحو. وقد ورد أيضاً في القصيدة قوله: «من أدمي جبين الله»!!!

نشعر أن للأرض احتقانًا في مفاصلنا

فنصرخ: أيها البطل انكسر فينا

ويصور الشاعر حالة بيروت في المساء طوال أيام الحصار، فيقول:

مساء/ فوق بيروت:

الرخام

ينز دمًا، ويذبحني الحمامُ

إلى من أرفع الكلمات سقفًا

وهذي الأرض يحملها الغمام؟

ويرحل، حين يرحل، نحو تيهي

أحدق في المسدس، وهو ملقى

على طرف السرير، وأشتهيه.

وينقذني، وينقذني الكلام

ظلام كل ما حولي.. ظلام

لاحظ السطر الأخير تجد أن «الظلام» يمثل طرفي الخيط، فهو البدء وإليه المنتهى، فالظلام ممتدٌ طوال الأربع والعشرين ساعة!

وبيروت ليلاً وفجرًا وظهرًا وعصرًا يقدمها لنا الشاعر في قصيدته "مديح الظل العالي" وكأنها مسرحية تمثَّل على خشبة المسرح، والشخوص يقومون بدورهم على أكمل وجه، الظلام في كل مكان.. القتل وبريق الدم يضيء المسرح.. النجدة.. الاستغاثة.. جمع غفير من المتفرجين الحضور.. يشربون ويأكلون.. يهرجون يقهقهون[1].

ومحمود درويش يذكِّر بالمذابح السابقة.. ويبين بأن هذا الحبل الدموي وهذا الجرح النازف هو تتمة لما حدث في كفر قاسم، ودير ياسين، وبحر البقر، وصبرا، وشاتيلا، وقانا، و.... إلخ، فيقول:

---

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، مصدر سابق، ص ٢٩٢ .

سرقت دموعنا يا ذئب

تقتلني وتدخل جثتي وتبيعها

اخرج قليلاً من دمي حتى يراك الليل أكثر حلكة

واخرج لكي نمشي لمائدة التفاوض، واضحين،

كما الحقيقة

قاتلاً يدلي بسكين

وقتلي

يدلون بالأسماء

«صبرا»

«كفر قاسم»

«دير ياسين»

«شاتيلا»

ويقول درويش أيضًا موضحًا قسوة وصلافة جنود الاحتلال، ومدى حقدهم حتى على الأموات في قبورهم.. يريدون أن يقتلعوا الجذور من الأرض، ولكن جذورنا قوية راسخة في باطن الأرض الطيبة التي تنبت الشهداء على الدوام.

بيروت/ ليلاً:

يقصفون مقابر الشهداء، يدثرون بالفولاذ، يضجعون مع فتياتهم، يتزوجون، يطلقون، يسافرون، ويولدون،

ويعملون، ويقطعون العمر في دبابة..

أهلاً وسهلا.

يخرج الشهداء من أشجارهم، يتفقدون صغارهم، يتجولون على السواحل

يرصدون الحلم والرؤيا، يغطون السماء بفائض الألوان،

يفترشون موقعهم،

يسمون الجزيرة، يغسلون الماء، ثم يطرزون حصارنا

قططًا ونخلا

درويش يذكرنا بالوحدة في كل مقطع من مقاطع قصيدته.. فأبناء بيروت قاتلوا وحدهم.. نعم، ولا شك أن الشاعر يبكي من خلال أبياته بكاء مرًا .. وكيف لا يبكي وهو يرى الأهل يُقتلون، والأطفال يُذبحون، والنساء تُهتك أعراضهن!!.. الكل يرى ويسمع ولا يبدي حراكًا بل يبتسم ابتسامة صفراء دلالة الذل.. ويتابع الشاعر قوله:

بيروت/ فجرا

بيروت/ ظهرا

بيروت/ ليلا

يخرج الفاشي من جسد الضحيه

يرتدي فصلاً من التلمود: اقتل - كي تكون

عشرين قرنًا كان ينتظر الجنون

عشرين قرنًا كان سفاحًا معمَّم

عشرين قرنًا كان يبكي.. كان يبكي

كان يخفي سيفه في دمعته

أو كان يحشو بالدموع البندقيه

عشرين قرنًا كان ينتظر الفلسطيني في طرف المخيم

عشرين قرنًا كان يعلم

أن البكاء سلاحه.

هكذا عاد الشاعر إلى نصوص التلمود التي تحث على القتل، كما عاد إلى التاريخ من خلال عشرين قرنًا من الزمان التي تفضح أفعالهم وجرائمهم، هذا وقد أبدع الشاعر في أبياته الشعرية حول صبرا، التي شبهها بالفتاة، إذ نجد أنه قدم لنا شرحًا مفصلاً عن صبرا وعن رحيل المقاتلين.. ووصف منظر الوداع حين ودعتهم صبرا .. وهي تسألهم.. هل ترجعون؟.. بكت صبرا .. ذرفت الدم والدموع.. بقيت صبرا واقفة

صامدة.. تنظر إلى الأبطال الراحلين، اسودت الدنيا في عينيها.. وسافرت معهم بكل جوارحها.. ولكنها استيقظت على صوت يضربها يقطع ثدييها.. يأكل لحمها.. ينهش بمخالبه جسدها الطاهر.. يرمي عظامها لجوارح الطير، وكل ذي مخلب، ولكن صبرا ستبقى هوية لكل فلسطيني. يقول:

صبرا - فتاة نائمة

رحل الرجال إلى الرحيل

والحرب نامت ليلتين صغيرتين

وقدمت بيروت طاعتها، وصارت عاصمة

ليل طويل

يرصد الأحلام في صبرا،

وصبرا - نائمة

صبرا - بقايا الكف في جسد قتيل

ودَّعت فرسانها وزمانها

واستسلمت للنوم من تعب، ومن عرب رموها خلفهم

صبرا - وما ينس الجنود الراحلون من الجليل

لا تشتري وتبيع إلا صمتها

من أجل ورد للضفيرة

صبرا - تغني نصفها المفقود بين البحر والحرب الأخيرة

لِمَ ترحلون؟!

وتتركون نساءكم في بطن ليل من جديد؟!

لِمَ ترحلون؟!

وتعلقون مساءكم

فوق المخيم والنشيد

صبرا - تغطي صدرها العاري بأغنية الوداع

وتعدُّ كفيها وتخطئ

حين لا تجد الذراع

كم مرة ستسافرون؟!

ولأي حلم

وإذا رجعتم ذات يوم

فلأي منفى ترجعون،

لأي منفى ترجعون؟

صبرا - تمزق صدرها المكشوف

كم مرة

تتفتح الزهرة

كم مرة

ستسافر الثورة؟

صبرا - تخاف الليل تسنده لركبتها

تغطيه بكحل عيونها، تبكي لتلهيه:

رحلوا وما قالوا

شيئًا عن العودة

ذبلوا وما مالوا

عن جمرة الوردة!

عادوا وما عادوا

لبداية الرحلة

والعمر أولاد

هربوا من القُبلة

لا، ليس لي منفى

لأقول لي وطن

الله، يا زمن!

صبرا تنام، وخنجر الفاشي يصحو

صبرا تنادي - من تنادي

كل هذا الليل لي، والليل ملح

يقطع الفاشي ثدييها - يقل الليل

يرقص حول خنجره، ويلعقه، يغني لانتصار الأرز موالا،

ويمحو

في هدوء.. في هدوء لحمها عن عظمها

ويمدد الأعضاء فوق الطاولة

ويواصل الفاشي رقصته ويضحك للعيون المائلة

ويجن من فرح، وصبرا لم تعد جسدا.

ويأتي الشاعر إلى نهاية قصيدته الطويلة، والتي تعدُّ من درر الشعر الحديث، ونجده يودع بيروت وأهل لبنان، ويذكر مواقفهم الطيبة مع من رحلوا عن بيروت، هذا النص المليء بالقضايا السياسية، والملون بالصور البلاغية والتشابيه الرائعة، فضلاً عن الرموز الموحية.

يا أهل لبنان.. الوداعا

شكرًا لكل شجيرة حملت دمي

لتضيء للفقراء عيد الخبز

أو لتضيء للمحتل وجهي، كي يرى وجهي

ويرتدي الخداعا

نلاحظ في هذا المقطع النفس الملتاعة على فراق بيروت، ونشم فيه رائحة التحدي والصمود.

وهكذا قدم لنا الشاعر محمود درويش وثيقة تاريخية سياسية أدبية في قصيدة "مديح الظل العالي" لتعطينا صورة واضحة وحقيقية عن مجريات الحرب عام ١٩٨٢ في بيروت، وحصارها المرير حيث تلقي هذه المطولة الشعرية الضوء على الأحداث السياسية، والأوضاع المتردية في الوطن العربي وجعلنا نشاهد ملحمة البطولة والصمود في بيروت وكأننا نعيش مأساتها، وبالفعل كانت أبيات القصيدة مؤثرة موجعة بصورها وألفاظها؛ لأنها تعالج وضعًا حزينًا لشعب بطل لا يهزم وبلغت القصيدة شأوًا عاليًا من الجودة؛ لأنها تصدر عن إنسان عاش الحصار، وتكبَّد معاناته وآلامه، وكان أحد الذين عاشوا في بيروت طيلة أيام الحصار وأحد المغادرين منها في رحلة العذاب التي لا تنتهي، وقد استخدم الشاعر الرمز والإيحاء في كثير من المواضع، ونبه مباشرة على الأخطار المحدقة بالوطن العربي ودعا إلى الصحوة من الكابوس، وإلا سيسحقنا من لا يرحم!

كتب محمود درويش قصيدة رائعة تدور حول الخروج الفلسطيني الكبير من بيروت البطولة إلى أزمنة التشتت في العالم، هذا الجرح الكبير الذي حل بجسد الثورة الفلسطينية، يصفه في قصيدته "بقايا كلام على مقعدين" ولا شك في أن هذه السطور تحمل عناوين مختلفة تمثل الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون في بيروت وفي كل مكان، ووصف دقيق للمأساة.. نحيب وبكاء.. صراخ وعويل.. صواريخ وقنابل.. حصار وإراقة دماء.. خروج وفرقة، وامعتصماه، ولكن أين هو الآن منا، وأين نحن الآن منه يقول:

سنخرج

قلنا: سنخرج

قلنا لكم: سوف نخرج منا قليلا، سنخرج منا

إلى هامش أبيض نتأمل معنى الدخول ومعنى الخروج

سنخرج للتو.. آب أبونا الذي كان فينا إلى أمه الكلمة

وقلنا:

سنخرج فلتفتحوا خطوة لدم فاض عنا

وغطى مدافعكم، أوقفوا الطائرات المغيرة خمس دقائق أخرى

وكفوا عن القصف، برا وبحرا، ثلاث دقائق أخرى

لكي يخرج الخارجون، وكي يدخل الداخلون

سنخرج.. قلنا: سنخرج

فلتتركوا حيّزًا للوداع الأخير، سلام علينا، سلام علينا

سنجمع أعضاءنا في الحقائب، فلتوقفوا القصف خمس دقائق

سنخرج

قلنا: سنخرج منا قليلا.. سنخرج منا

رمينا على حافة البحر ساحل أجسادنا، وانكسرنا

كعاصفة النخل، حين انتصرنا عليكم، وحين انتصرنا علينا

وزدنا الشوارع ظلاً يسمي المدينة شكلاً لمعنى

مهما رحلنا، ومهما ابتعدنا[1]

يلاحظ تداخل الضمائر في المقطع في جمل كثيرة «سوف نخرج منا»، «آب أبونا الذي كان فينا»، «سلام علينا»، «سنجمع أعضاءنا»، كما يلاحظ الإلحاح والتكرار في قوله: «سنخرج»، والتي يشتم منها رائحة التحدي والصمود.

ويؤكد الشاعر بأن المقاومة ستخرج إن كان هذا يريحكم ويريح كل خائن وعميل، ولكنه يطلب فرصة صغيرة ولمدة دقائق معدودة، حتى تحزم الأمتعة، وتهاجر الموجات المقاتلة عن بيروت، وتدخل قوات التدخل السريع والمارينز.. يخرج الأهل والأحبة والمسلمون، ويدخل مكانهم العملاء والخائنون، والمارقون ويضيف قائلاً:

سنخرج، قلنا: سنخرج

---

(١) المجلة - العدد ٢٦٩/ ٣- ٩ إبريل "نيسان" ١٩٨٥، رجب ١٤٠٥هـ - ص ٨٣ هي أغنية محمود درويش - ص ٧- ٨، دار الكلمةللنشر - بيروت ١٩٨٦ ط٢.

فلتدخلوا في أريحا الجديدة سبع ليال قصار فقط

فلن تجدوا طفلة تسرقون ضفيرتها، أو فتى تسرقون فراشاته

ولن تجدوا حائطًا تكتبون عليه أوامر تنهي عن الزنزلخت وعنا

ولن تجدوا جثة تحفرون عليها مزامير رحلتكم في الخرافة

ولن تجدوا شرفة كي تطلوا على الأبيض المتوسط فينا

ولن تجدوا شارعًا للحراسة

ولن تجدوا ما يدل عليكم، ولن تجدوا ما يدل علينا،

خرجنا قبيل الخروج، فلا ترفعوا شارة النصر فوق الجثث

هنا نحن، نحن هناك، ولسنا هناك، ولسنا هنا.

هنا نحن تحت العناصر، نحن دم كامن في الهواء الذي تذبحونه

سنخرج

قلنا: سنخرج فلتقصفوا ظلنا.. ظلنا

خذوه أسيرًا إلى أمه الأرض أو علقوه على شجر الكستنا

تكونون أو لا نكون، ادخلوا وهمكم، واحرثوا وهمنا

سنخرج من كل بيت رآنا ندمّر دبابه قربه أو علينا

سنخرج من كل متر، ومن كل يوم، كما يخر البدو منا

سنخرج

قلنا سنخرج منا قليلاً إلينا، سنخرج منا

إلى بقعة البحر - أبيض أزرق - كنا هناك، وكنا هنا

يدل علينا الغياب الحديدي - بيروت كانت هناك وكانت هنا

تسيطر على نفسية الشاعر الأحاسيس الحزينة اليائسة من الأمة العربية التي لا تحرك ساكنًا، فنراه ساخطًا ناقمًا على أصحاب الخطب والحفلات والقصائد الجوفاء، وهم في داخلهم يتمنون خروج المقاومة سعداء بتشتتهم في الفيافي العربية!!

ولمحمود درويش قصائد تحكي لحظة بلحظة مأساة الفلسطينيين في لبنان نذكر من تلك القصائد، ذلك الوصف الرائع لتل الزعتر من خلال قصيدته "أحمد الزعتر"، والتي يرسم فيها صورة للمناضل الفلسطيني مهما اشتد الحصار عليه وتكالبت عليه كلاب البحر وأعداء العروبة، فهو يمثل الصمود والثورية النموذجية في المقاومة، وفي هذه القصيدة نرى تجسيدًا للنضال الفلسطيني في الأرض المحتلة وفي أي مكان.

وهنا نجد التزامًا من الشاعر تجاه وطنه بكل ما فيه من أبعاد قومية وإنسانية، والشاعر حين يقول أحمد العربي/ أحمد الزعتر فهو وجه من وجوه الأمة العربية وإن شئت قل من وجوه الأمة الإسلامية عامة، وأن الرمز "أحمد" يشير ضمن ما يشير إليه إلى النبي (ﷺ)، فأحمد اسم من أسمائه الشريفة، ومن ثم ترمز القصيدة للأمة الإسلامية، ممثلة في تخيُّر درويش للاسم.

وأحمد الزعتر هو كل عربي شريف مطعون في ظهره من أولئك الذين تهاونوا وتخاذلوا عن نصرته، بل وقفوا مشجعين قتله والتمثيل به، وهو رغم كل ذلك صامد يتحدى؛ لأنه ليس وحيدًا.. فهو يحب الأرض والوطن.. ومن يحلم بالوطن لا يكون وحيدًا.. يقول محمود درويش في قصيدته "أحمد الزعتر" والتي يصف فيها مأساة تل الزعتر، المخيم الذي سُوِّي بالأرض، وقتل جميع من فيه على أيدي كتائب الموارنة كما سبق أن ذكرنا.

ليدين من حجر وزعتر

هذا النشيد.. لأحمد المنسي بين فراشتين

مضت الغيوم وشرَّدتني

ورمت معطفها الجبال وخبَّأتني

نازلاً من نخلة الجرح القديم إلى تفاصيل البلاد

وكانت السنة انفصال البحر عن مدن الرماد

وكنت وحدي

ثم وحدي[1]

(١) محمود درويش – الديوان – المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٧م، ص ٤٦٩- ٤٧٠ .

نلاحظ هنا أن الشاعر يبين لنا أن أحمد الزعتر يتألم لأنه وحيد، ولذا فقط كان التوجع:

آه يا وحدي؟ وأحمد

كان اغتراب البحر بين رصاصتين

مخيمًا ينمو، وينجب زعترًا ومقاتلين

وساعدًا يشتد في النسيان

ذاكرة تجيء من القطارات التي تمضي

وأرصفة بلا مستقبلين وياسمين

كان اكتشاف الذات في العربات

أو في المشهد البحري

في ليل الزنازين الشقيقة

في العلاقات السريعة

والسؤال عن الحقيقة

في كل شيء كان أحمد يلتقي بنقيضه

عشرين عامًا كان يسأل

عشرين عامًا كان يرحل

عشرين عامًا لم تلده أمه إلا دقائق في أناء الموز

وانسحبت

لاحظ الاستعارة في جملة «اغتراب البحر» في مطلع المقطع وما تحمله من دلالة أن البحر سيصبح مغتربًا عندما يحمل المهاجرين.

الشاعر مشبع بنبرة غنائية حالمة، يمكن أن نعتبره صوت الشاعر، لكن هديره يعلوا أحيانًا، وهو يحدد مدى عنف الضياع الفلسطيني وعمقه، فيجمع التفاصيل الدالة على ذلك (مخيمًا ينمو - ساعدًا يشتد في النسيان - ذاكرة تجيء - قطارات تمضي -

زنازين شقيقة تأسر) هذه التفاصيل بكثافتها وتوترها وتقاطعها وتشابكها تتجه نحو مؤشر ينبئ بحدث محدد، وهو ولادة مسيح الرحلة "أحمد الزعتر" أو نبيها الجديد، ومن خلال اختلاف الأزمنة (الماضي/ الحالي/ المستقبل) يولد "أحمد" مطموس الملامح: لا أب له، لا وطن له ولا هوية إنه رمز الفلسطيني الذي سيأتي من النسيان، ويطلع من أزمنة القهر بلا وطن يأويه.

ثم ترى الأم التي ولدت ثم انسحبت، تُرى هل هي فلسطين أم الأمة العربية؟ تُرى عما كان يسأل، وهل وجد جوابًا؟

صور الشاعر الإنسان الفلسطيني تائهًا في كل مكان.. وعلى وجهه تساؤلات متى ينتهي هذا الترحال؟ متى العودة إلى الوطن؟ لماذا يقف الناس متفرجين؟ وأين براميل النفط العربي؟

يبحث هذا الشاب عن هوية.. وطن.. أرض.. بيت

يريد هوية فيصاب بالبركان

سافرت الغيوم وشردتني

ورمت معاطفها الجبال وخبأتني

أنا أحمد العربي- قال

أنا الرصاصُ البرتقالُ الذكرياتُ

وجدتُ نفسي قرب نفسي

فابتعدت عن الندى والمشهد البحري

تل الزعتر الخيمة

وأنا البلاد، وقد أتت

وتقمصتني

وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد

وجدت نفسي ملء نفسي

راح أحمد يلتقي بضلوعه ويديه

كان الخطوة – النجمة

ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط

كانوا يُعدُّون الرماح

وأحمد العربي يصعد كي يرى حيفا

ويقفز

أحمد الآن الرهينة

تركت شوارعَها المدينة

وأتت إليه لتقتله!

ومن الخليج إلى المحيط، من المحيط إلى الخليج

كانوا يُعدُّون الجنازة

وانتخاب المقصلة

الشاعر يوضح الدور المتخاذل للأمة العربية.. إذ وقفت مكتوفة الأيدي وهي ترى مخيم الزعتر يدمر يقتل فيه من الأبرياء.. من أطفال وشيوخ ونساء!!

يلاحظ في المقطع السابق أن ولادة "أحمد الزعتر" / الفلسطيني/ مجهول الهوية، بدأت تكتسب لونًا من ألوان التعريف لكنه تعريف باهت ضبابي وغير واضح.

* أنا أحمد العربي – قال –

ماضي البطل: هو ماضي الصراعات والعنف داخل أرض البرتقال/ فلسطين.

* أنا الرصاص البرتقال الذكريات

حاضره: مؤلم يتلخص في اللجوء المصيري المحتوم

* أنا البلاد وقد أتت وتقمصتني

مستقبله: لحظات الطموح والعمل على حسم التناقض،أي اغتراب الأنا عن الوطن/ الأم.

* أنا الذهاب المستمر إلى البلاد

لاحظ جدل العلاقة بين ذاكرة (الماضي)، والرؤيا (المستقبل).

ثم لاحظ في نهاية المقطع الاتجاه العكسي من كل العرب تجاه البطل/ أحمد

* من الخليج إلى المحيط. من المحيط إلى الخليج

ماذا يفعل أهل هذه البلاد؟ إنهم «كانوا يعدون الرماح»

يتابع درويش قصيدته إذ يقول:

أنا أحمد العربي.. فليأت الحصار

جسدي هو الأسوار.. فليأت الحصار

وأنا حدود النار.. فليأت الحصار

وأنا أحاصركم..

أحاصركم

وصدري باب كل الناس.. فليأت الحصار

لم تأت أغنيتي لترسم أحمد الكحليَّ في الخندق

الذكريات وراء ظهري، وهو يوم الشمس والزنبق

تلمح في الأسطر السابقة التحدي والإصرار على الاستمرار في النضال والمقاومة، آية ذلك تكرار مفردة "الحصار" لأكثر من مرة.. والشاعر يبين لنا أن مخيم تل الزعتر هو الأصل والشرف ما دام الجميع غير مبالين، ويكشف عن مخزون التفاصيل، ويوضح الخيانات المتتالية:

يا أيها الولد الموزَّع بين نافذتين

لا تتبادلان رسائلي

قاوم

إن التشابه للرمال.. وأنت للأزرق

وأعدُّ أضلاعي فيهرب من يدي بردي

وتتركني ضفاف النيل مبتعدًا

وأبحث عن حدود أصابعي

فأرى العواصم كلها زَبَدًا..

كل المدن والعواصم العربية أصبحت هباء لا فائدة منها، فالنيل/ مصر، يبتعد، والعواصم (رمز السلطة) هي الأخرى زبَدًا لا فائدة منها، ولاحظ صيغة الجمع، والزعتر يقاتل وحده.. يجلس في الخندق وحيدًا.. قطع الأمل من كل أولئك الناس الذين خيبوا ظنه، يتابع الشاعر قوله:

وأحمد الزعتر يفرك الساعات في الخندق

لم تأت أغنيتي لترسم أحمد المحروق بالأزرق

هو أحمد الكونيُّ في هذا الصفيح الضيق

المتمزق الحالم

وهو الرصاص البرتقالي.. البنفسجية الرصاصية

وهو اندلاع ظهيرة حاسم

في يوم حرية

يا أيها الولد المكرَّس للندى

قاوم

يا أيها البلد - المسدس في دمي

قاوم

الآن أُكمل فيك أغنيتي

وأذهب في حصارك

والآن أكمل أسئلتي

وأولد من غبارك

فاذهب إلى قلبي تجد شعبي

شعوبًا في انفجارك.

يا أحمد العربي؟

لم يكذب عليَّ الحب

لكن كلما جاء المساء

امتصني جرسٌ بعيدٌ

والتجأت إلى نزيفي كي أُحدِّد صورتي

يا أحمد العربي

لم أغسل دمي من خبز أعدائي

ولكن كلما مرت خطاي على طريق

فرَّت الطرق البعيدة والقريبة

هذه القصيدة ترسم لنا كل ما جرى في تل الزعتر.. وهي تتحدث من داخل المخيم.. الذي أصبح مثالاً يحتذى في كل مكان للجبروت الإنساني والقهر، والذل العربي.. فالزعتر ظاهرة يندرج عليها عدة ظواهر.. مذبحة تبعتها عدة مذابح لأحمد الزعتر رمز الصمود النضالي من جانب، ورمز القهر والخيانة من جانب آخر، يقول درويش:

كلما آخيت عاصمة رمتني بالحقيبة

فالتجأت إلى رصيف الحلم والأشعار

كم أمشي إلى حلمي فتسبقني الخناجر

لاحظ في الأسطر السابقة أن كل الأفعال منبثقة من الذات؛ تهدف لفعل، لكنها – للأسف – موجهة إليها!!! كما تشير هذه الأسطر إلى دواخل الذات، فهي أشبه ما تكون بمحاورة داخلية، فهي تؤكد على عنف الصراع الداخلي، وتكشف (غربة) البطل وانشطاره بين الذات/ الوطن (وأنا البلاد وقد أتت وتقمصتني)، ويبدو أنه لا حسم إلا "بالمقاومة"، وهي في الوقت نفسه تفضح فعل الطغاة وتاريخهم السلطوي القمعي «كم أمشي إلى حلمي فتسبقني الخناجر – كانوا يعدون الرماح، وانتخاب المقصلة».

ويستأنف درويش ملحمته النضالية، فيقول:

آه من حلمي ومن روما

جميل أنت في المنفى

قتيل أنت في روما

وحيفا من هنا بدأت

وأحمد سلَّم الكرمل

وبسملة الندى والزعتر البلدي والمنزل

لا تسرقوه من السنونو

لا تأخذوه من الندى

كتبت مراثيها العيون

وتركت قلبي للصدى

لا تسرقوه من الأبد

وتبعثروه على الصليب

فهو الخريطة والجسد

لا تأخذوه من الحمام

لا ترسلوه إلى الوظيفه

لا ترسموا دمه وسامْ

فهو البنفسج في قذيفه

صاعدًا نحو التئام الحلم

تتخذ التفاصيل الرديئة شكل كُمثرى

وتنفصل البلاد عن المكاتب

والخيول عن الحقائب

للحصى عَرَقٌ

أقبّل صمت هذا الملح

أعطي خطبة الليمون لليمون

أوقد شمعتي من جرحي المفتوح للأزهار

والسمك المجفف..

للحصى عَرَق ومرآة

ويمضي الشاعر واصفًا بطولة مخيم تل الزعتر من خلال الهموم الذاتية التي تقتحم القصيدة في شكل ومضات أو تجليات، وتفجرات تنبع من مخزون الذاكرة، ومن الذاتي خلال قوله: (زوجة تقطع البصل)، والجمعي (مطاردات رجال الأمن)، تكتسب الكلمات شاعريتها ويصبح الشعر موجودًا في كل شيء:

وللحطاب قلب يمامة

أنساكِ أحيانًا لينساني رجال الأمن

يا امرأتي الجميلة تقطعين القلب والبصلّ

الطريَّ وتذهبين إلى البنفسج

فاذكريني قبل أن أنسى يديّ

وصاعدًا نحو التئام الحلم

تتكمش المقاعد تحت أشجاري وظلّك..

يختفي المتسلقون على جراحك كالذباب الموسميّ

ويختفي المتفرجون على جراحك

فاذكريني قبل أن أنسى يديّ!

وللفراشات اجتهادي

والصخور رسائلي في الأرض

لا طروادة بيتي

ولا مسّادة وقتي

وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادر

من حصان ضاع في درب المطار

ومن هواء البحر أصعد

من شظايا أدمنَت جسدي

وأصعد من عيون القادمين إلى غروب السهلِ

أصعد من صناديق الخضار

وقوة الأشياء أصعدُ

أنتمي لسمائي الأولى وللفقراء في كل الأزقة

ينشدون.. صامدون

وصامدون.. وصامدون

والمخيم كله أحمد.. دمشق.. الحجاز.. كل المدن العربية هي أحمد العربي.

كان المخيم جسم أحمد

كانت دمشق جفون أحمد

كان الحجاز ظلال أحمد

صار الحصار مرور أحمد فوق أفئدة الملايين

الأسيرة

صار الحصار هجوم أحمد

والبحر طلقته الأخيرة!

ويا خُضرُ كلّ الريح

يا أسبوع سُكّرْ!

يا اسم العيون ويا رخاميّ الصدى

يا أحمد المولود من حجر وزعتر

ستقول: لا

ستقول: لا

جلدي عباءة كل فلاح سيأتي من حقول التبغ

كي يلغي العواصم

وتقول: لا

جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفة

وتردد.. والملاحم

نحو اقتحام المرحله

وتقول: لا..

ويدي تحيّاتُ الزهور وقنبله

مرفوعة كالواجب اليومي ضد المرحله

وتقول: لا..

يا أيها الجسد المضرج بالسفوح

وبالشمس المقبله

وتقول: لا.. يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج

فوق المقصله..

يتابع درويش قصيدته أحمد الزعتر وهي من روائع قصائده الملحمية؛ لأنه بأسلوبه الشعري وضح لنا صورة أحمد الزعتر من حيث القهر والحصار والخيانات العربية.. ثم المقاومة والصمود للفدائيين.

ومن الشعراء الذين أثرت فيهم مأساة لبنان حتى الموت، الشاعر الشهيد علي فودة هذا الفلسطيني الذي كتب بالدم عن بيروت وظل يناضل فيها حتى الموت لقد حفرت المأساة أعماقه، منذ رحل من بلدته حيفا متنقلاً بين المدن العربية حتى حل على مدينة بيروت ضيفًا، هذا المكافح العنيد لم ينس بلدته وعاداته، بل بقي يتذكر كل شيء حتى

الخبز الذي كان يأكله في بلدته، ظل يقاتل بقلمه حتى استشهد في بيروت برصاص حاقد مسموم، ومن شعره قصيدة بعنوان "أنت الجرح وأنت السكين، وأنا القاتل والمقتول!!"، لاحظ تركيب العنوان "فالجرح هو السكين" ، و"القاتل هو نفسه المقتول"، وهو بهذا يشير إلى المعارك (العربية/ العربية) على الأراضي اللبنانية فيقول:

متأخرًا جئت..

مساء كان الوقت، وموعدنا كان قبيل طلوع الفجر

وداعًا، لمن سوف يأتون من وقتنا صامتين،

ومن دمنا واقفين، لندخل[1]

أما قصيدته "آن للشاعر أن يقتل نفسه" فيقول فيها:

آن للشاعر أن يقتل نفسه

لا لشيء، بل لكي يقتل نفسه

قال: لن أسمح للنحلة أن تمتصني

قال: لن أسمح للمرأة أن تتركني حيًا على ركبتها

من ثلاثين سنة

يكتب الشعر وينساني..

وقعنا عن جميع الأحصنة

ووجدنا الملح في حبة قمح، وهو ينساني، خسرنا الأمكنه

وهو ينساني. أنا الآخر فيه

آن للشاعر أن يخرج للأبد

ليس قلبي من ورق

آن لي أن أفترق

عن مراياي، وعن شعب الورق

(١) الخليج الثقافي - ملحق العدد ٢٣٢ - الملحق الثقافي - ٢٣ أغسطس ١٩٨٢م.

آن للنحلة أن تخرج من وردتها نحو الشفق

آن للوردة أن تخرج من شوكتها كي تحترق[1]

لاحظ الاستعارة في «شعب الورق» الشاعر يتمنى أن يفترق عن الشعوب العربية التي أصابها الصمت تمامًا كأوراق القمم العربية، وقد طال صمتها!!

ويتابع علي فودة أبياته مصورًا حالة التشرد والمأساة التي يمر بها الإنسان الفلسطيني وهنا يُرمز له بالعصفور الذي يهرب من البرد إلى مكان دافئ، ولكنه لا يجد إلا الثلج، فالقتل يطارده ولا مفر له سوى الصمود أو العودة إلى الأمطار والحرب.

وعلي فودة يخاطب بيروت وكل المدن المصابة، وكأنها امرأة، وحواره مع سيدة الماء حوار جميل، بل نجد أن الصور البلاغية "الاستعارات والكنايات والتشابيه" تملأ أبياته الشعرية، فهو يكتب من أعماق قلبه بصدق لا تكلف عنده ولا تصنع فهو ابن المأساة، الصعلوك والغجري الذي آل على نفسه أن يعيش آمنًا بعيدًا عن الخطر، وفضل الموت الشريف على العيش الذليل[2].

لم يجد العشّ الدافئ

فاجأه الثلج

فعاد إلى الأمطار

ماذا يملك في تلك اللحظة عصفور الدهشة

غير العودة..

أين هي النار؟

فوق النخلة

أم بين أكاليل الغار؟

لكي يوجعني أيتها الوردة ما يوجعك، فلا تبكي..

لست بقاتلك الأول

(١) المصدر نفسه.

(٢) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ٣٠٥ .

لست بقاتلتي الأولى

يؤكد الشاعر بأن الألم واحد.. بيروت.. أيتها الوردة، فأنا لست القاتل الأول، وأنت لست القاتلة الأولى.. أي أن هناك الكثير من جرب مبضعه في هذا الشعب المشرد فلا تحزني أيتها الجميلة، فالقاتل في كل مرة هو المجهول، مع أن الكل يعلمه ويعرفه!!

أنت الجرح، وأنت السكين

وأنا القاتل، والمقتول

من قاتلنا أيتها الوردة؟

قاتلنا كان المجهول!

ربما أراد الشاعر أن يخفي حقيقة ما حدث، وأن القتلة هم أبناء يعرب فكني عن ذلك بقوله: «قاتلنا كان المجهول»، والملاحظ سيطرة الحروف اللينة على المقطع، والتي تكررت نحو سبع مرات عبر أربعة أسطر شعرية إنما توحي بالصرخة الأليمة من جراء ما حدث له ولإخوانه.

وإذا كان هؤلاء الشعراء محمود درويش، والشهيد علي فودة، وغيرهم تناولوا المأساة من داخلها وعاينوها وعايشوها لحظة بلحظة وصوَّروا تفاصيلها ودقائقها، فيكون السؤال ما موقف الشعراء الفلسطينيين في داخل الأرض المحتلة؟ وهو ما ستجيب عنه الصفحات التالية.

* * *

الفصل الثاني

تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين في الأرض المحتلة

كان لمأساة لبنان أكبر الأثر في فلسطين المحتلة، فأهل فلسطين شعروا بها لأنهم مروا بنفس التجربة، جرح بيروت هو جرح القدس، وما عانته صيدا عانت منه الجليل والخليل، شعراء فلسطين حزنوا لما أصاب لبنان من دمار وقتل وتشريد، وعبروا عن قلقهم وحزنهم، لأن لبنان عزيز على قلوبهم كما هي فلسطين في القلب.

ومن الشعراء الذين كتبوا عن مأساة لبنان سميح القاسم، وعلى الخليلي، ومحمد شديد، وهؤلاء جميعًا يعيشون داخل الوطن المحتل، يقاومون الاحتلال بشعرهم الوطني الصادق، الذي يدعو إلى طرد المحتل، ويستنهض الهمم والعزائم للثورة والجهاد.. أما سميح القاسم شاعر فلسطين، فقد هزته المأساة وكتب عنها، كما كتب عن حبيبته فلسطين التي مازالت الهاجس عنده وعند كل فلسطيني يؤمن بعدالة قضيته، تفتقت شاعرية سميح القاسم وعاطفته أثناء اجتياح لبنان عام ١٩٨٢م؛ لأن الجرح يقض المضجع والمصيبة واحدة، وسميح القاسم يعيشها في فلسطين، وهو يقول في قصيدته« القصيدة المفخخة» مخاطبا أهل فلسطين منبها لخطر اليهود مذكرا بالأجداد والآباء والجذور، وخطابه لا يقتصر على أهل فلسطين بل يشمل الأمة العربية جمعاء لكثرة الاجتياجات التي تقوم بها الصهيونية ضدهم، نجد التواصل في قصائده ولا نستغرب ذلك لأن الشاعر يقول ويكتب بصدق إحساس وعاطفة جياشة، نجد النقمة على اليهود من خلال مقاطع قصيدته، وكم من صورة يقدمها لنا من خلال قصائده، فهو يحذر وينبه في آن واحد، ويشد على أيادي المقاتلين الذين يحبون الأرض، ويقاتلون من أجل العرض، ويؤمنون بعدالة السماء في عودة الحقٌ لأهله، ودحر الظلم، وتنفس الصبح مهما اشتدد ظلام الليل يقول سميح:

لابد أن تمضي

ظلامك حالك؟

لا بأس

مد يديك في حذر

وحاول أن تصيخ القلب

حدق بالأصابع

ولتكن أذناك

في هذا الظلام عصاك

لا!

ما أنت بالأعمى

ستفهمني

ظلامك دامس

وعليك أن تمضي

لديك رسالة

والنور في علب العرائس أنت تفهمني

تقدم!

بترتك طائرة بريش جناحها

أبصرت لحمك طائرا

ترتج في منقاره الدموي سنبلتان

واحدة لطفل جائع

سقطت على أبويه جدران المخيم

ولشعر من أحببت سنبلة[1]

يتابع سميح القاسم قصيدته موضحا لؤم وشراسة وحقد الأعداء، ويضرب أمثلة على قسوتهم، مثل قتل آباء الأطفال وأمهاتهم، وتفجير البنايات السكنية، والسجون المليئة بالشباب، والسيارات الملغومة، كل ذلك بأسلوب ثوري لا يعرف السكوت، بل نجد

(١) سميح القاسم- شخص غير مرغوب فيه، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، ط١، ١٩٨٦، ص٩، وهي في الأعمال الكاملة للشاعر: ٣/ ١٣٧.

نارًا تؤجج صدر القاسم، نارًا تحرق الأعداء، وتصب الحمم على رؤوسهم، نجد معان دفاقة منتزعة من الواقع الأليم الذي يعيشه الشاعر في فلسطين المحتلة.. احتلال.. سجن.. تعذيب.. طرد.. هدم بيوت، وقلع أشجار.. قتل واغتيال، اجتياحات...!!

سمعتك صارخًا من قاع موتك:

اقبلوا

أو فارحلوا...

يا أيها الموتى بلا موتٍ

تعبت من الحياة بلا حياة

وتعبت من صمتي

ومن صوتي

تعبت من الرواية والرواة

ومن الجناية والجناة

ومن المحاكم والقضاة

وسئمت تكليس القبور

وسئمت تبذير الجياع

على الأضاحي والنذور

بعد هذا الفاصل من التعب، من الأشياء وعكسها، نراه يرسم لنا صورة لشهادة بطل فخخ نفسه ليلقى الشهادة راضيًا عن نفسه، فيقول:

دوَّنت عنواني

ورقم الهاتف السري

في سيارة ملغومة

ودفعتها فى البر

لم أحدس

بأن غزالة زرقاء

سوف تلومني أبدًا

قتلت حبيبها

ونثرت عنواني

ورقم الهاتف السري

في أشلائه

وقتلت سنبلة ووردة

ونكصت مغموما

وكنت أنا القتيل

وقاتلي ذئب خرافي

كساني الخلق جلده!

كدّست أشلائي

وأشلاء العدو

(دماؤنا اختلطت)

وصورة منزلي المنسوف ظهرًا

والأضابير الصغيرة والكبيره

والتقارير الوفيره

والقرارات الخطيره

والادانات الكثيره

والنداءات المريرة

كلها كدستها

مختومة بالشمع والقصدير

فوق سفينة ملغومة

ودفعتها في البحر

لم أحدس

بأن «القرش» سوف يلومني

لا بأس

إن يدي على ظهري

وساقي في فمي

لا بأس

صور سميح لحظة من لحظات الألم الكثيرة، ولكن الملفت للنظر، أن الأضابير والتقارير والقرارات والإدانات والنداءات كلها ذهبت أدراج الرياح، لا فائدة منها.

وإذا كان هو/ الفلسطيني القتيل، فمن القاتل؟ فكان جوابه «ذئب خرافي كساني الخلق جلده»، فيها إشارة إلى عملاء اليهود من العرب. وينتقل الشاعر فيصور الأطفال حين يفقدون آباءهم أثناء اجتياح إسرائيل لكل بلد عربي، ويصبح هؤلاء الأطفال في الشوارع بلا بيت يأويهم.. بلا وطن.. ونحن ننظر ولا نبدي مساعدة سوى التنديد والإدانة، ولكن أطفال «الآر، بي، جي» هم الذين يدافعون عن حقهم. وحق آبائهم وأجدادهم، أطفال في عمر الورود يقدمون أروع ملحمة في البطولة والفداء، ولذا كانوا منه بمثابة القلب النابض، فيقول:

قلبي في الشوارع

طفل بلا أهل

دماه كثيرة

يُتْمٌ وآر بي جي

وجثة أخته الصغرى

وآلاف الحواجز

والجنائز

والمواقع

لا بأس

قلبي في الشوارع

طفل بلا أهل

تطوّحه الزوابع في الزوابع

أبدع سميح القاسم في قصيدة له حول اجتياح إسرائيل للبنان، واحتلال بيروت، وقصيدته بعنوان «جسم بدون رأس.. رأس بلا فم» إبداعًا لا مثيل له، من وصف للطائرات الإسرائيلية وهي تلقي القذائف والحمم على المخيمات وعلى الأطفال في بيروت وجنوب لبنان، وتمجيدًا للبطولة الحقة التي خاضها المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون في الدفاع عن عروبتهم، جاءت القصيدة في مقاطع قصيرة ثورية المعاني، ثورية الاتجاه، يقول القاسم في قصيدته، التي قسمهاإلى عدة أقسام، ففي القسم الأول «ظلال طائرة إسرائيلية»، يبين لنا المأساة التي خلفتها طائرات العدو الصهيوني، مأساة ترسخت في قلوب الأطفال الذين لم يسلموا من التفجير بوساطة الألعاب الملغومة، وهذا أسلوب عدو ليس بجديد. يقول سميح القاسم:

دفتر

ما خربش الأطفال فيه أي حرف

دمية جاحظة العينين

في ومضة خوف

طابة

خبز مبعثر

وفم الطفل المدوَّر

نزعت للتو منه حلمة الأم القتيله

وذراع

وجديله

أحرف عبرية

قنبلة موقوتة

جمر دخان وشظايا

كتل الأسمنت

أسماك سناج

مسند الكرسي

أثاث

زوايا[1]

هذه صورة للمأساة التي حلّت بلبنان، وأهلها في الشطر الغربي من بيروت، والشاعر أورد صورًا رائعة حين قال: «نزعت للتو منه حلمة الأم القتيلة»، و«ذراع.. وجديلة» وما زال الشاعر في ميدان المعركة، يري الطائرات وهي تقصف المدن والمخيمات، ويصف لنا الدفاع والمقاومة، كل ذلك وهو في فلسطين يقاوم العدو نفسه كل يوم، فهو في معركة دائمة ومستمرة متجددة، ولكن من يعي ومن يقول!!

يقول القاسم في المقطع الثاني من القصيدة، وهو بعنوان: «أدافع»

الطائرات الإسرائيلية

العائدة إلى قواعدها سالمة

تترك وراءها خطاً أبيض طويلا

(أطول من شراييني.. أطول من أنابيب النفط)

ذلك الخط المتوعد كحبل المشنقة

هو البيت الأول في النشيد

أما بعد

---

(١) جريدة البيان العدد «٧٨٢»، ٩يوليو ١٩٨٣م، الصفحة الأخيرة ص١٨، دبي، وهي منقولة عن جريدة الرأي الأردنية بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٤م.

فلا وزن يستقيم مع صرخات أطفالي الأخيرة

هل قلت أطفالي؟

لم أزر «صور»

لم أتمدد على كرسي القماش الملون

في شرفة فندق صيداوي

لم أنشد مطلعا لجماهير بيروت

هل قلت أطفالي؟

لاحظ الطائرات الإسرائيلية العائدة (سالمة)، ومع سلامتها كانت المفارقة في أن تترك خيطًا (كحبل المشنقة) أطول من الشرايين/ شرايين المقاتلين.

والشاعر يصرخ مع صرخات الأطفال، ويوضح لنا كيف قاوموا وحدهم في صور وصيدا وبيروت، صورة للقصف الجوي والبحري والبري، وبيانات الشجب والاستنكار، والإدانة على الورق في سلات القمامة، والشاعر يشير إلى العرب وموقفهم المتخاذل، وذلك من خلال قوله: «أطول من أنابيب النفط»، فمعلوم أن بلاد العرب هي بلاد النفط، ولذا فإننا نري العربي/ الحاكم، يختبئ خلف هذا السطر الشعري بخزيه وعاره!

الشاعر يتمنى المشاركة في القتال، ولكنه محروم منها، فهو حزين على هذا الوضع المأساوي، وهنا نجد بعدًا وطنيًا قوميًا لدى الشاعر، وموسيقي حزينة نلمحها من خلال مقاطع قصيدته، وسخطه ونقمه على العدو وأعوانه، وهذه الأبيات قيلت في وقت المأساة، وأثناء الاجتياحات فجاءت قوية كقصف طائرات الفانتوم، ومحرقة كالقنابل الفسفورية التي مزقت وشوهت أجساد أطفال بيروت وصيدا وصور.. يتابع سميح قصيدته فيقول:

أنا المحروم من شرف التفجير بديناميت الحب

أنا أسير الحرب المتمتع بحق الانتخاب

أنا المواطن المقيم دائمًا على مجرود الزبالة

هل قلت أطفالي؟

لتزدرد الأسرار أسرارها

كامل هو الوضوح

سلام روحي غير منقوص

القصف برًا، وبحرًا، وجوا

بيانات الاحتجاج والإدانة

دُمى الأطفال

وجماجمهم المتناثره

تحت جنازير الدبابات المتقنه

الخضرة المتلاشية في الضجيج

وقع الأقدام المرتجفة تحت بقايا الأدوات المنزلية

تكمش الأكف الغضة على فولاذ البنادق

ويتابع قصيدته قائلاً في القسم الثالث منها، وهو بعنوان«اعتراف»

تلك ليلاك

على أرصفة العار

بغي تتطوح

وعلى أذرع البحارة الأغراب

تنشال وتطرح

تلك ليلاك

دم في غرف التحقيق يرشح

وصراخ حيواني

بوحل الذل ينضح

تلك ليلاك

فهل تنكرها يا «بن الملوح»؟!!

كلبة

تضمر في الجوع وتنبح

فاعترف يا «بن الملوح»!

لا تقل لي:

«خلّها في القلب تجرح»

لا تقل لي:

كل ما في جسمك الميت يزري

كل ما في روحك الميت يفضح

فاعترف

يا «بن الملوح»!

الشاعر يستلهم التراث العربي القديم، من خلال قصة الحب العذري بين قيس بن الملوح، وحبيبته ليلي، وسميح القاسم يرمز للعربي بقيس، أما ليلي فهي الوطن السليب، فإذا كانت «ليلى/ الوطن»على أرصفة العار، متاحة ومباحة للجميع، بين أذرع البحارة«لاحظ صيغة الجمع» فهو ليس بحارًا واحدًا، ولاحظ دلالة الكلمة، فالبحارة، لا مأوى لهم ولا سكن معظم أوقات العام، تمامًا كما الإسرائيليون لا مأوى لهم، ثم لاحظ أن ليلي صراخاتها عالية مستغيثة ولكن أين ابن الملوح / العربي، ربما مات لكنه يتحرك ويتنفس!!

ينتقل سميح القاسم في أبياته ليقدم لنا صورة بطولية نادرة للطفل الذي فقد ساقيه نتيجة قصف الطائرات الإسرائيلية ، ولكنه صمم على القتال بدون ساقين.. واتجه مدافعا ومقاتلا ناظرا إلى الناصرة بعينيه.. فهو يقاتل من أجل الناصرة وفلسطين، يريد العودة.. فالقتل، وقطع اليدين، والرجلين لن يثنياه عن الأمل المنشود يقول:

رأيت رأي العين

مقاتلا في العاشره

يمشي بلا ساقين

ووجهه...

للناصره

بعينها الكحيله

بالشفة البتول

بالوردة الحمراء من الجديله

حبيبتي

أميرة الفصول

تقاوم المدافع الثقيله!

ويخبرنا سميح القاسم في نهاية قصيدته عن كيفية قتال هؤلاء الأبطال، ومن أين يخرجون؟ صورة رائعة زيّن القاسم قصيدته بها.. فهم يخرجون من بقايا الردم في المخيم، ومن ترابه، يخرجون من الكهف.. الخرابات.. الخندق.. الشوارع.. الحرائق.. يتلاحم اللبناني والفلسطيني، وقد رمز الشاعر لذلك بقوله: «يأتون بالأرز وبالزيتون» الكل يتآزر لمواجهة العدو والمتربص بنا..

من ظل المخيم

يأتون

من خنادق التحدي

في شارع تهدم

يأتون

من كهف، ومن خرابه

براية الصمود والتصدي

ويبصقون دمهم في جهة الدبابة

يأتون بالأرز، وبالزيتون

يأتون بالبيارق

يأتون في الحرائق

يأتون

من عكازة الشيخ

ومن شهية الجنين

يأتون بالحب وبالحنين

بالموت واليقين

يأتون

فامدد أذرع الدمار

يا أيها التنين

بهذه السطور المعبِّرة قدم لنا سميح القاسم لوحة فنية مليئة بالصور البلاغية، فنطقت هذه اللوحة وتكلمت عن ميدان المعركة بكل جوانبها، قدَّمها لنا بنفس امتزج فيها الحزن والبكاء، بالصمود والتحدي، كل ذلك جاء بوصف دقيق لمجريات المأساة بمعان مناسبة للموقف، بالإضافة إلى الموسيقي الداخلية التي تماوجت على شكل القصيدة واندمجت مع المضمون الكلي للنص، فضلاً عن التكرار، والقافية التي تلمع بين فترة وأخرى.

قصيدة أخرى لسميح القاسم بعنوان «عمامة للمملوك، طربوش للأغا، وقداس لبيروت» يبدأها واصفًا حالة وحال أسرته من مجاعة وتشرد، متخذًا من «الخبز» أداة لصورته الشعرية، ومعلوم أن «الخبز» أساس الحياة، فيقول:

لا خبز غير وداعة الأموات

فليكن الإدام

وشلاً على الأحداق خلف الدمعة المتحجِّره

ولكِ المجاعة والسلام

يا أسرتي المغلوبة المغلولة المتكبِّره

القمحُ. هذا العام. منذور لحرب جلالة السلطان[1].

وفي نهاية القصيدة يدعو سميح المقاتلين للثبات والصمود، ويدعو بيروت للانتفاضة وعدم التسليم، فيقول بنبرة الأسى والحزن، يدل عليها كثرة حروف العلة في المقطع، فيقول:

بيروت فانتفضي

وقومي من رمادكِ يا ابنة العنقاءِ

يا شرف الأوائلْ

بيروت

يا عار الطوائف والحمائلْ

والعشائر والقبائلْ

بيروت

يا حلمًا وحيدا

حوله مليون قاتلْ؟!!

ونجد سميح القاسم في «سربية الصحراء»[2] قد التحم بالأرض وأصبحت الأم والزوجة، بل أصبحت كل شيء عنده، هذا بالإضافة إلى أن هذه الصحراء الشاسعة، سرابها يبهر العيون الساذجة، كفاح مرير ضد الأفاعي والعقارب، صورة رمزية يقدمها القاسم من خلال قصيدته. «سربية الصحراء»، وهى ترجمة وافية للواقع العربي المكلوم المهزوم، وتحذير من اليهود الأفاعي، وحنين إلى الوطن الحبيب، ورجاء، وتوسل للبحر ليرحم الأهل، وتطلعات للمستقبل بعين فاحصة محبة، حياة المخيم وزخم المقاومة، سراب الصحراء الذي يركض وراءه اللاهثون على السلامْ الذليل، وما هم ببالغيه، فيقول:

غربا تضيع الشواطئ

---

(١) سميح القاسم – الأعمال الكاملة – دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م، ٣/ ٥٤٦.

(٢) سميع القاسم – في سربية الصحراء- دار الجليل للنشر/ عمان، ط١ ١٩٨٥، ص٨٤ .

في زبد الذكريات

ولي في الجنوب

مطارح وجد بعيد قريب

ولي في الجنوب

هوي ليس يبلي

تخبئه في مناديلها

بنات المكلا

ولي في الجنوب

صهيل خيول

وصيحات قتلى:

ألا أيها الموت

أهلا وسهلا

لأنك عمر جديد

وخبز، وشعر، ودفلى

أما قصيدته «ليلا، على باب فدريكو» والتي ينبِّه فيها للخطر الداهم على الأمة العربية جمعاء من قبل العدو الصهيوني، وتوسعاته المتكررة والمنفذة حسب خطة وضعت في بروتوكلات حكماء صهيون.

لذا يتلهف الشاعر إلى الوحدة العربية من أجل الشرف والكرامة اللذين ديسا بأقدام اليهود في المسجد الأقصى وبيروت وسيناء والجولان... وغيرها من بلداننا العربية، وهو في نصه «على باب فدريكو» يعالج الوضع المنكوب بلغة الشعر، من خلال إيحاءات أوردها في أبياته، والتي يقول فيها:

فدريكو

الحارس أطفأ مصباحه

انزل

أنذا منتظر في الساحه

فد.. ريكو

قنديل الحزن قمر

الخوف شجر

فانزل

أنا أعلم أنك مختبئ في البيت

مسكونا بالحمَّى

مشتعلا بالموت

فانزل

أنذا منتظر في الساحه

مشتعلا بلهيب الوردة

قلبي تفاحه[1]

من الملاحظ أن القاسم في قصيدته يطلب الحماية من شخص أجنبي اسمه «فدريكو» بعد أن تخلي جميع الأهل والأصدقاء عنه في ساعة الضيق.!!! آية ذلك قوله في القصيدة نفسها:

انزل فدريكو

وافتح لي الباب

أسرع

أنذا أنتظر على العتبه

أسرع

---

(١) الأعمال الكاملة: مصدر سابق، ٣/١٧٥ .

في منعطف الشارع

جلبة ميليشيا مقتربه

ومن القصائد التي صوّرت المأساة أيضا قصيدة «لن يمروا»[1] للشاعر على الخليلي وهي مقاطع قيلت في موسم النزيف والحصار أثناء اجتياح العدو الصهيوني لجنوب لبنان، ولقد وضحت أبيات القصيدة كثيرًا من الصور البطولية الرائعة، إذ نجد أن عنصر البطولة موجود في هذه الأبيات، بالإضافة إلى الأمل الذي يخيم على الشاعر وكيف لا؟ وهو ابن الأرض المقدسة، بل يصوّر لنا بيروت بأنها الرقم الأخير، ولكن الصمود البطولي هو الذي أسقط كل الرهان.. يقول فيها:

والحائط الأخير

أكبر من واشنطن

أكبر من أوسمة الجنرالات

ناقلات الجند والدبابات

والطائرات

والطائرات

والطائرات

أكبر من عواصم الصمت

ومن قبائل الموت

ومما يملك الملك والأمير

والحاكم الأجير

والشارع الأخير

لاحظ الإسقاط الرمزي من خلال قوله «عواصم الصمت»، وهو يشير بها للعواصم العربية، و«الحاكم الأجير»، وهو يشير إلى الحكام العرب، إنها إسقاطات على الأمة العربية بخنوعها الذليل، وصمتها المريب!!

---

(١) الخليج الثقافي العدد ١١٩١- الاثنين ١٢ يوليو ١٩٨٢، ص١.

ثم تأمل قول محمد شديد في قصيدته «بيروت»، وهذا القول ينبئ عن نفس مؤمنة بقضيتها حتى الموت، مصمّمة على التحدي حتى الرمق الأخير، يقول:

هل من حرٍّ أو طمّاح للحريه

لا تجمعه ومنائر بيروت مصير قضيه؟

ماذا بعد تبقّى منا غير ضآلتنا وتفاهتنا

كم كان الأحرى أن لا تنجب ذريه

أو.. تقتلع الطغيان من الأرض العربيه[1]

وله قصيدة أخرى بعنوان «آلهتنا الأقزام.. وبيروت.. والحرية» يقول فيها معرِّضًا بالحكام العرب، والدول العربية، يقول في مطلعها:

لو جيرانا كانوا، لا عربا، بل من عشرين هوية.. جنسية

ولديهم بعض من شرف وإباء قومي.. وطني

وانغرست وسط ممالكهم صهيونيه

تنتزع الأرض.. تدمِّر.. تفتك.. تفترس الأطفال.. وتستهتر بالروح البشرية

لو جيرانًا كانوا، لا عربًا، لتداعوا.. نهضوا يقتلعون جذور الشر

خلاصة نهج النازيه.

ثم يقول على الحكام العرب، واصفًا إياهم بالآلهة، ولكنهم أقزام أمام الآخرين، فيقول:

يا عشرون إلهًا قزمًا متناحر

غدرًا ودسائس حقد محموم وخيانات وتآمر

يا عشرون إلهًا صغروا.. صغروا

واندسوا في قمقم إسرائيل المنتصر الظافر

ثم يتعرَّض للشعب العربي الراضخ للذل والقهر بقوله:

---

(١) محمد شديد: نقلاً عن مأساة بيروت - مصدر سابق، ص ٣٤٠.

يا عشرين مدينة قهر، عاصمةً زعموا.. تخطر فيها كل نهار

عشرون مسيرة موكب عار

يا عار التاريخ، وأي قباءة عار للأجيال غدوتم، أي شنار؟

ماذا اقترفت أجيال في رحم المستقبل من ذنب..

كيما عنكم ترث العار!!!

عار تناحركم وهزائمكم، وحذاء الإسرائيلي يمرغكم!

وللشاعر الكثير من القصائد التي تصور المأساة، نذكر منها «عذرًا لبنان»، «بيروت وهوان العربي»، «أبدًا لن تهزمني يا نذل الروح»، «ثورة على الواقع»، «نهر الدماء وانحرف».... وغيرها من قصائد، ومن يقرأ قصائد الشاعر يلحظ حنقه وغضبه من الشعب العربي، وحاكمه المستبد، ولذا كان كثير الانتقاد لهذه الشعوب.

ويبدو أن مأساة لبنان كان لها النصيب الأكبر من الشعر، وأيضًا كان لها الفضل على الشعر، من حيث أنها كانت مصدر الهام الشعراء، والشعر الذي قيل حول المأساة نبّه إلى كثير من الأمور والقضايا منها:

أولاً: خطورة الموقف، والتفكك بين الدول العربية.

ثانيًا: المقاومة الفلسطينية هي درع يحمي الأمة العربية.

ثالثًا: أطماع إسرائيل وعملائها في المنطقة.

رابعًا: دعوة واضحة إلى الوحدة، والوقوف صفا واحدا لمواجهة العدو المتربص بنا.

خامسًا: دور المقاومة اللبنانية في المعركة[1].

وهذه الأمور نلمسها في معظم القصائد التي قيلت في المأساة، ومن كافة الشعراء العرب.

* * *

---

(١) د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ٣٣٣.

الفصل الثالث

تأثير المأساة على الشعراء الفلسطينيين خارج الأرض المحتلة

مأساة لبنان كانت قاسية على قلوب الشعراء الفلسطينيين في شتي أنحاء العالم، تغنى شعراء فلسطين بالمأساة، وما أدت إليه من ضياع وفرقة، وانطلقت حناجر الشعراء باكية حزينة مصورة فراق الأهل والأحبة، ناقمة على المتآمرين، ساخطة على العدو الصهيوني، ممجدة الشهداء الأبطال الذين سقطوا دفاعًا عن الشرف العربي، أعداد كثيرة من الشعراء نقلوا مأساة لبنان عبر نشيج شعري مؤثر وعاطفة جياشة ملتهبة، من هؤلاء الشاعر معين بسيسو، الذي صور لنا ما جري في تلّ الزعتر من هدم وقتل من خلال قصيدته «برقية إلى تلّ الزعتر»[1] ونجد في هذه القصيدة تلاحمًا بين الشعر والقنبلة التي كانت تقصف المخيم، تلاحما في وصف دقيق لمأساة شعب تلّ الزعتر، وتصف القصيدة تفاصيل الفاجعة، يقول:

«تلّ الزعتر»

صار جدارك للشعراء، جريده

والقنبلة بكفك، تنفجر قصيده

وضفائر كل نساء الأرض

تتمني أن تصبح علما لك

تلّ الزعتر

كل ينابيع وأشجار فلسطين دبابيس

بشعر نسائك

لاحظ استعمال الشاعر لـ «كل» التي تفيد العموم والشمول، وليست برقية معين بسيسو إلى تلّ الزعتر، برقية حب وتقدير فقط، بل هي لبطولة جيل صمد في وجه الفاشية الانعزالية، إذ كانت بداية المؤامرة على الشعب الفلسطيني، ومعين ابن المخيم

(١) معين بسيسو: الأعمال الشعرية الكاملة- دار العودة بيروت، ط٢، ١٩٨١، ص٦١٧ .

يكتب بدمه برقية لأبنائه وأطفاله، الذين ماتوا عطشا في المخيم، ويشير - أيضًا - إلى الزعماء العرب مواقفهم المخزية بقوله:

كل شرايين الجنرالات الُركع

فوق خرائطهم

أربطه لحذائك

والطائر والثمرة والسمكة

وجميع دواوين الشعر

تحلم أن تصبح ألغاما

تحت ترابك

«تلّ الزعتر»

يا جرحا يتسع ويصبح

هذا الوطن الأكبر

لاحظ البعد الوطني يتجلىّ عند الشاعر حين يربط بين تلّ الزعتر في لبنان، وبين جبل الكرمل وغزة في فلسطين، ويظهر البُعد القومي، والارتباط بالأرض عند الشاعر، وذلك في قوله:

غنّيتُ طويلا للدالية على جبل «الكرمل»

وكتبت كثيرًا للزيتونة في جبل «القسطل»

وحملتك يا غزة

آه على غزة

كان العنق يذوب كشمعة

والأطفال وراء المتراس «بتلّ الزعتر»

في جسر الباشا والنبعة...

يخترعون لطفل في تلّ الزعتر

وردة...

الجرح واحد... فتل الزعتر هو امتداد للجرح الفلسطيني، والارتباط الروحي، وحب الأرض واضح عند الشاعر، وهاجس الخوف يلاحق الإنسان الفلسطيني أينما وجد، وتلّ الزعتر جزء من مأساة العربي المعاصر، فمأساتها تذكر بالمآسي والمحن الأخرى، كغزة، والكرمل، ومعارك جبل القسطل، وغيرها من معارك.

ويتابع الشاعر قصيدته مبيناً بأن تلّ الزعتر قاتل وحده، وصمد في وجه قوي الشر، وأصبح صموده أسطورة تاريخية، تتحاكي بها الأجيال، فيقول مخاطبًا أبطال التل:

وذراعك ماسورة مدفع

والنجمة تحلم أن تصبح.

فوق ذراعك شامه

الآن لكل حمامه

طارت من صدرك يا «تلّ الزعتر»

الآن لكل فراشه

قاتلت الفولاذ على جسر الباشا

الآن لتلك الشمعه

صارت أصابع بارود في النبعه

أنا اقطع كفى

أرسلها لك يا «تلّ الزعتر»

برقية

وتتضح المأساة لنا أيضا من خلال أبيات الشاعر في قصيدته «أكتب جسدي.. كي تقرأ جسدك»

ومأساة بيروت هي مأساة تلّ الزعتر وجنوب لبنان وفلسطين، فالخنجر المغروس واحد، تحمله يد حاقدة مسمومة، والجسد المذبوح هو الجسد نفسه رغم اختلاف المكان والزمان، رغم اختلاف المتآمرين، لكن الآمر واحد، والفريسة واحده:

بيروت وحيده

والجرح وحيد

والشاعر يا بيروت وحيد

الدم سيبقي يتدفق من أجل الحرية.. من أجل بيروت وتلّ الزعتر، والعروبة، وأمل الشاعر قوي وإيمانه بالثورة عميق، فما دام الدم يراق، فلابد من بزوغ صبح الحرية، ويتضح ذلك من قوله:

الدم لم يتعب

والدم لن يهرب

وسأبقي أكتب

الآن بتلّ الزعتر

كيس من رمل

يتزوج شجره..

أيتها الثوره،

لك جسد الأرض(١)

وفي قصيدته «مجنون تلّ الزعتر»، لاحظ العنوان يتطابق مع «مجنون ليلى» وكأن عشق «تلّ الزعتر» استبد به، أو أن شاعرنا أصيب بداء الهيام، كما أصيب قيس من قبل، فراح يقول:

أيها التل العظيم هذي لحظة انتصارنا

فكلما تسافر السكين في رقابنا

تخرج الأشجار من أجسانا

وتخرج النساء والأنهار من أحجارنا

وتسقط القصائد، الجرائد، العواصم، الخواتم المجففه

على كراسي الأرصفه

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٢٨ - ٦٢٩.

نحن ما قتلنا

نحن قد زرعنا[1]

في لحظات سقوط العواصم، والخواتم والجرائد، وما تشير دلالة كل مفردة منها، يؤكد الشاعر إننا لم نقتل بل (قد) زرعنا، ولاحظ استعمال (قد) التي تفيد التحقيق، مع ملاحظة استعمال مفردة «الزرع» التي لابد وأن يثمر.

وبيروت سيطرت على الشاعر واستحوذت كل أفكاره، ففي فترة الحرب والدمار امتشق الشاعر قلمه موضحا ما جرى للمدينة المحاربة، فكل شيء في المدينة شاهد على الدمار والخراب، وقصيدته «بيروت أصبحت بعيدة»[2] أول شاهد على الجريمة التي حلّت بها وبأحيائها، يقول فيها:

الشاعر السعيد في المطار

القارئ السعيد في المطار

والطريق للمطار آمنة

والطائرة

لم تكن مواطنة

وليس كيس الرمل وحده

هو البطل؟

وهذه بيروت

لا تحيا ولا تموت

بين جثتين تكتب الجريده

وبين جثتين تطبع الجريده

وبين جثتين تقرأ الجريده

والشاعر السعيد في انتظار الطائره

---

(١) المصدر نفسه ص٦٣٥- ٦٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ص٦٤٠- ٦٤٣ .

والقارئ السعيد في انتظار الباخرة

وليس كيس الرمل وحده

هو البطل؟

وهذه بيروت

وراء حائط تحيا.

وراء حائط تموت..

كل شيء معطل في بيروت التي لا تحيا ولا تموت، ولاحظ أن الكتابة والطباعة والقراءة وهى أفعال تحتاج لوقت، كل هذه الأفعال تُصنَع بين الجثث المتراكمة في الشوارع والأزقة.

ثم ينتقل الشاعر بعد وصفه لصعوبة وفداحة الموقف في بيروت ومطارها، مخاطبا المدينة قائلا:

أيتها المدينة، السحابة، الرصاصة، الرغيف

أيتها الزجاجة السفينة المكسورة التي تضاجع

البحارة القتلى على الرصيف...

ونلمس الألم ونشعر به عند الشاعر من خلال قصيدته «إلى جدران بيروت»[1]، والتي يصف فيها الوجع والألم، وصمود الأبطال والأطفال في لبنان يموتون جوعًا، ويتحدي الشاعر في نصه كل من يظن بأن أهل لبنان سيخضعون وما هم بخاضعين .. يقول:

هنا..

متراسُنا هنا

وهذه الطيور في سمائكم

أطفالكم، أطفالنا...

رفاقنا

(١) المصدر نفسه ص٦٤٣- ٦٤٤ .

نقسّم الرصاص في حواصل الطيور.

بينكم، وبيننا

حبات قمح

حبة لكم، وحبة لنا ..

متراسُنا هنا

نقص بالأصابع المنديل فوق جرحنا

قطعة لجرحكم

وقطعة لجرحنا

أطفالنا

سيحملون كيس رملكم

أطفالكم.

سيحملون كيس رملنا

وهذه إشارة واضحة للتضامن والتعاون بين المقاتل الفلسطيني وأخيه اللبناني على ساحة القتال في بيروت ونجد فيها الفخر والوحدة اللتين نحنّ إليهما في هذا الوقت.

وأما قصيدته «غزلان تركض نحو الشمس» ففيها نجد وصفا دقيقا للقتلة، سفاكي الدماء مبينا بأن القتلة لن يرحموا هذا الدم أينما وجد في بيروت أو غيرها[1].

وكذلك انطلقت حنجرته ناقمة مجلجلة في الآفاق، بقصيدة "رسالة مفتوحة إلى قلعة الشقيف" مصورًا فيها البطولة الفذة.... الصخرة القاسية التي تحطمت عليها آمال الغزو الصهيوني، وكم من محاولة يائسة باءت بالفشل لاحتلال القلعة.. ومرد ذلك لتضحية نفر قليل من أولئك الشباب الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن دينهم وأرضهم وفازوا بالحياة الآخرة، وفي رسالته إلى قلعة الشقيف نلمح عدة أمور منها:

تصوير البطولة الرائعة التي خاضها الفدائيون المحاصرون في القلعة، رغم مساعدات أمريكا المستمرة لإسرائيل، ثم الصمت العربي المطبق، ثم تساؤلات الشاعر

---

(١) المصدر نفسه.

الكثيرة "كيف قاتلوا وحدهم"؟

حقًا لقد قدم لنا معين بسيسو درة ثمينة وواحدة من أجمل القصائد التي قيلت في حرب عام ١٩٨٢م؛ لأنها تنبع من نفس حزينة صادقة، ذاقت المرّ والقتل والتشريد، وعانت الضياع والحرمان، يقول بسيسو:

عيون أطفالكم

أزرار قمصانكم

أصابع أطفالنا ملاعق

اشربوا بها حبركم، وامضغوا الورق

أوشكت تدق ساعة حائط الغرق

يتابع الشاعر قصيدته معلنًا سخطه على هذا العالم، موضحًا وصفًا حيًا لمعركة قلعة الشقيف، مدبجًا رسالته الشعرية بأروع الصور البلاغية من تشابيه واستعارات التي استطاعت بمعانيها أن تعبر أجواء الوطن العربي، لتصل إلى القاصي والداني، وينظر الشاعر نظرة فاحصة لمن حوله.. نظرة حزينة/ فرحة، حزينة على الوضع المأساوي الذي أصبح عالمنا العربي يعيشه هذه الأيام من صمت وخذلان، وفرحة لأولئك الأبطال الذين سطروا أروع الملاحم البطولية في هذا العصر المتخاذل، ولذلك يطلب منا أن ننظر إليهم وهم يكبرون، وهم يسطرون الانتصارات، فيقول:

وانظروا انظروا

إن قطرة الدم الفلسطيني

تكبر الآن تكبر الآن

تصير سفينة تملأ الأفق

اشربوا حبركم، وابتلعوا الورق

وعلقوا على حبل الغسيل برقياتكم

وعلقوا الخطب

وقولوا أي شيء لنا

اكتبوا أي شيء لنا

ادهنوا أصواتكم بدهان الخطب

ضعوا على وجوهكم أقنعة اللهب

ولا تقولوا شيئًا واحدًا.. لا تقولوا

إننا عرب[1]

لاحظ حماسة الشاعر وتعالي نبرات صوته المحتدة الغاضبة على الأمة العربية آية ذلك تدفق أفعال الأمر من المقطع، ثم صرّح بذلك من قوله: «لا تقولوا إننا عرب»!!

ومن قلعة الشقيف في جنوبي لبنان ينقل الشاعر معين بسيسو في قصيدته " الفلسطيني اسمه ياسر عرفات" وصفًا للحصار الذي فرضته قوات الاحتلال الصهيونية لمدينة بيروت، وحصار المقاومة الفلسطينية وقيادتها داخل عاصمة الفقراء، وأبياته الشعرية كلها تمجيد للبطولة الفلسطينية، ولكن الصورة التي رسمها من خلال أبياته، هي صورة للمقاتل الفلسطيني الذي وقف كالطود الشامخ في وجه القوات الصهيونية المدعومة بمختلف أنواع الأسلحة، بينما هو مجرد من السلاح إلا سلاح عقيدته وإيمانه بقضيته، فيقول:

هذا الصهيل، وأنت باق في فمك

هذا الرحيل، وأنت باق في دمي

هذا الحصار، وأنت باق في يدك

ويبايعونك

إنك الكبش المكحّل

ذو الجدائل

إنك الكبش المسربل

بالقرنفل والسنابل

إنك الكبش الملك

(١) جريدة البيان – العدد «٧٥٢»، ٩ يونيو ١٩٨٢م.

نبتت بصدرك كل أعشاب الخناجر

أيها الكبش الملك[1]

لاحظ التكرار في المقطع "أنت باق" ثم يتوزع منها البقاء، على النحو التالي:

- الفم، مضافًا لضمير المخاطب "ك".

- الدم، مضافًا لضمير المتكلم/ الذات "ي".

- اليد، مضافًا لضمير المخاطب "ك".

إشارة إلى الحصار المفروض على الفلسطينيين، فالذات/ الأنا، واقعة بين ضميري المخاطب، فكأنها/ الأنا، بين فكي الرحا.

ثم لاحظ استعمال بسيسو لكلمة "الصهيل"، وما بها من ظلال فروسية وشجاعة عنترية، ثم يقول:

فلمن رقاب الخيل حبلى بالعسل

ولمن تعبئ من حوافرها الجرار

ونحن من شرك إلى شرك نسير

كأن في دمنا الشرك

والآن أنت هنا

وقرص الشمس في يدك الرغيف

وبين متراسين تزرع نخلتين

وتنتظر،

دوري، طواحين الشجر

وأنا وأنت هنا

ووجهك صار عاصمة لنا

وأنا أحبك وسط هذا الرعب

(١) المصدر نفسه.

في هذه المقاطع نلمح حب الشاعر للقائد (عرفات) حبًا يكاد يصل إلى درجة المبالغة، ولكن بصورة شعرية رائعة، مليئة بلوحات فنية، وخيوط متشابكة، وألوان مختلطة ورموز معبرة.

كالقمر المطارد

أين يا قمر الخنادق تختبئ

وأنا وأنت هنا

ومن كفيك وجهي يبتدئ

هذا هو المتراس دالية من النيران

يكثر الشاعر من استخدام بعض المفردات التي لها علاقة بالواقع المحاصر الملتهب مثل: الخندق، المتراس، الدم، المشنقة، المقصلة، الحصار، الذئب، الحجر، الدالية والأرض، وكل هذه الأشياء مرتبطة بحب الإنسان لوطنه، ويكاد يتكلم الشاعر في مقاطعه مع القائد، فهو يستخدم ضميري المتكلم "أنا"، والمخاطب "أنت"، وهو يبكي حزنًا وألمًا، ويتضح بكاؤه وحزنه من خلال معانيه وألفاظه التي تثير الانفعال والإحساس على المقاتل الفلسطيني في لبنان؛ لأنه وقف وحيدًا في المعركة غير المتكافئة، ولكن ما زال الفدائي رابضًا غير مستسلم، يقول:

ويطاردونك

كل من وأد البيارق والبنادق

راح يحضر في الهواء

وفي التراب

لكي يئد!!

كان لحصار بيروت، وصمود الفلسطينيين، ورحيل المقاومة وخروجها من المدينة، وتخاذل الجميع أثره الكبير في النفوس، وهذه فدوى طوقان ابنة فلسطين تكتب حزنًا على شباب الوطن.. الأبطال.. ولقد صورت الفدائيين بأبلغ الصور منهم الحبيب، والأخ، والأب، والماء، والشرف، وبخروجهم ستبقى ظمأى لأنهم النبع الدفاق الذي يمدنا بالري كلما جفت ينابيع الحرية، وكلما ضنَّ الأخوة بالماء، هؤلاء الأبطال هم من ينير لنا

الطريق للغد المأمول، تقول فدوى طوقان في قصيدتها:

"ذهب الذين نحبهم"

نسرًا فنسرا.. غالهم وحش الظلام

سرق السموّ من الأعالي.. آه يا وطني

عليك من الدم الغالي سلام

من أجلك انفرطت عقود دمائهم

حبات مرجان، كنوز لآلئ.

«ذهب الذين نحبهم...»

لا صوت للأحزان، انظر

أورقت صمتًا على شفتي أحزاني

وأطبقت الحروف شفاها

تتساقط الكلمات صرعى مثلهم،

جثثًا مشوهة، ترى ماذا أقول لهم؟[1]

والغربة وعذابات النفي والتشرد خلقت عند الشاعر هارون هاشم رشيد نموذجًا واضح المعالم في قصائده، وقصيدته "عرض تلفزيوني لأطفال فلسطين" توضح لنا مدى تأثر الشاعر بحصار بيروت، وبيّنت لنا نقمة الشاعر على أولئك المتآمرين المتخاذلين، بل نجده مناضلاً بالكلمة، رافعًا رأسه إجلالاً وتقديرًا لأطفال فلسطين، الذين حملوا السلاح، وقاوموا، وما زالوا على الدرب، يقول في قصيدته:

من رأى الأطفال

في عمر الزهور

من رآهم عند «صيدا»

---

(١) نقلا عن مأساة بيروت في الشعر: ص٢٥٩ .

وعلى أبواب «صور»

من رآهم في "الراشدية"

تحت الشمس..

من غير قبور؟![1]

يتحسر الشاعر، ويتقطع حزنًا وألمًا حين يرى أشلاء أطفال فلسطين متناثرة هنا وهناك، لا تجد قبرًا تدفن فيه، تلهو بها مخالب الغربان، وتمزِّقها أسنان الضباع، يقول:

ها هنا رأس،

هنا رجل،

هنا بعض الثياب،

هذه مريلة ممزقة

مرمية فوق كتاب

هذه مدرسة،

مرت عليها، طائرات الغزو

خلتها خراب

من رأى الأطفال

من يعرف،

ما معنى الطفولة

أي أحلام جميلة

أي آمال نبيلة.

ويربط الشاعر بين مجزرة دير ياسين، وبين صبرا وشاتيلا ربطًا واضحًا، من حيث المقتول والمعذب والمشرَّد، فهو نفسه في كلتا المجزرتين، وكذا القاتل واحد فيهما، وكذلك كان موقف الجمهور/ العرب منهما واحد، يتمثل في الصمت الذليل، ويصور لنا هارون

---

(١) الخليج الثقافي - ملحق العدد ١٢١٨، الشارقة ٩ أغسطس ١٩٨٢، ص١.

الأطفال المقتولين، وكأنه ينقل لنا وصفًا حيًا وواقعًا مريرًا، يقول:

قتلت في هذه الأنحاء غيلة

عبرت من "دير ياسين"

إلى "صبرا"

وحطمت في "شتيله"

من رأى،

كيف يدوس الغزو

آلاف البراعم

عبرت من فوق

حسّان، وعدنان، وهاشم

قطعت ساق سعيد

مزّقت صدر مزاحم

شوّهت ليلى

وفردوس

وروزيت، وهانم

لا يخفى على القارئ أن هذه الأسماء المتناثرة، أسماء رمزية لآلاف الأطفال الفلسطينيين المشردين. ويتابع الشاعر عرضه لأطفال فلسطين قائلاً:

من رأى الأطفال

في الشمس،

عرايا في الدروب

من رآها "كربلاء"

مرة أخرى،

"بصيدا" و"الجنوب"

من رأى جيش "هولاكو"

بالعصابات "يؤوب"

وفي نهاية قصيدته يبين لنا الشاعر من خلال سؤاله المتكرر، أن هناك الكثير من الناس من شاهد وسمع ورأى، ولم يبد حراكًا تجاه الأطفال الصامدين، وهو يشير بهذا إلى الحكومات العربية التي تقف مكتوفة الأيدي، لا تملك إلا "الإدانة" أو "الصمت" على الرغم من أن القتلى "أطفالنا/ أطفالكم"، كما يقول:

من رآه

من رآهم

من رأى العرض الحزين

من بكى منكم،

ومن أطبق عينيه

على شجو الأنين

إنهم أطفالنا،

أطفالكم.

جيل الصغار الصامدين،

فلماذا الصمت،

هذا الصمت،

كم من واحد منكم، يدين

أبيات قصيرة ومعان معبِّرة، ومؤثرة كثيرة، استطاع من خلالها هارون هاشم رشيد أن يقدم لنا عرضًا رائعًا لأطفال الصمود، راسمًا أجمل وأنقى صورة لأطفال مخيمات جنوب لبنان. ويصرخ هارون هاشم رشيد مع الصامدين في بيروت، وفي صيدا، متحديًا العقبات والصعاب متشبثًا بالأمل في النصر، فيقول:

صرخ صامدين

في «بيروت»، في «صيدا»

وفي «الدامور»

تقاتل الحجار، والأشجار

والطيور

نواجه النيران والرصاص

بالصدور

وأنتمو في الصمت

في الخذلان

لا تعنيكم الأمور[1]

أما الشاعر عصام ترشحاني في قصيدة "حرب السنبلة"، وهي مهداة إلى الأبطال المقاتلين، فتلخص أبياته كل ما دار في بيروت أثناء الحصار من تشرد وجوع، وقتل للأبرياء من الأطفال والشيوخ، ثم يرصد بأبياته صورًا لمذبحة صبرا وشاتيلا، فيقول معرضًا بمذبحة "أيلول الأسود"[2]:

هل للمذابح نكهة

يهوي على إيقاعها

ورق الخريف...

أم أن أيلول المبجل

صار من عاداته

بعث النزيف؟

(١) الخليج الثقافي، ملحق العدد (١١٧٧) الاثنين ٧ من رمضان ١٤٠٣هـ - ٢٨ من يونيه ١٩٨٢م، ص ٧.

(٢) عصام ترشحاني - حرب السنبلة - منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٤، ص ٧٠ .

ماذا أقول لأمتي..؟

والوحش في الجبناء يكبر

كلما نام الحمام (...)

يا أبرياء الأرض

إن دماءكم

حرية تنمو

وتنهض للتحدي من جديد

ممتدة.. ما بين حنجرة اليباب

وعودة النعناع،

في جسد الشهيد

جفلت براعم روحنا

هرمت صبايانا الثكالى

واستغاث دم الشهيد

في قوله "إن دماءكم حرية تنمو"، يلاحظ دلالة التركيب في الجملة المصدرة بـ "إن" التي تفيد التوكيد، وعليه فلا حرية بدون إراقة الدماء، أو أن الدم المراق هو جذور الحرية التي أخذت في النمو حتى تصبح في القريب شجرة باسقة سامقة.

كما يلاحظ طبيعة الخطاب في صدر الأبيات "يا أبرياء الأرض"، ومن ثم تصبح دماء الأبرياء حرية تبزغ وتترعرع وتأتي أكلها بإذن ربها.

ويقول معرضًا بمذبحة "صبرا" في الزمن المباح، حيث شظايا الغدر:

وبين بادية

من الأشباح

"صبرا" عشاء الموت

في الزمن المباح

"صبرا" مهدمة

كأشلاء الإله[1]

على الرصيف

"صبرا"

شظايا الغدر،

والأسرار،

والصيف المخيف

وينتقل الشاعر إلى رثاء وبكاء على بيروت، بعبارات حزينة، إذ نجد نفسه تسيل ألمًا وحزنًا على ما حدث في المدينة من هدم البيوت وتخريبها، يقول:

هل أبدأ الآن البكاء

على دمي المهدور

والمنسوب ظلمًا للعرب..؟

هل أبدأ الآن الرثاء

وجثتي عرش،

لمومياء العرب..؟

خطفوك من لغتي.

ومن رؤياي..

من وقتي.. ومن صمتي..

خطفوك يا "بيروت" واجتمعوا

على عمل يفرقنا،

على رعب يلاحقنا..

---

(١) تجاوز من الشاعر لا يليق.

ولكنا..

سنذهب حيث تتصل النسور

بروحها الأولى

وحيث تموت صحراء

وتنهض قامة أخرى

الشـاعـر في المقطع على الرغم من تساؤله تسـاؤلاً اسـتـنكاريًا عن الموقف العـربي المتخاذل والذي يدعو إلى البكاء، ولكن هل يبكي شاعرنا على نسبته للعرب، حيث التخاذل والخنوع أم يبكي راثيًا شهداء المذابح في لبنان؟! وعلى الرغم من ذلك فإنه يعلن التحدي والصمود في قوله: «سنذهب حيث تتصل النسور بروحها الأولى..»، وللشاعر قصائد كثيرة، تصور المأساة، نذكر منها: "سلامًا لأمي" ، "الخروج"، وغيرهما.

ويقول عصام ترشحاني في قصيدة له بعنوان «بيروت ٨٢»:

صمت الأكاسرة العرب

سقط القياصرة العرب

هل ينصب الصيف الذي

شربت حرارته دمي؟

هل تنصب السنة التي

جرحت عميقا

بعض أعواد الغضب؟

بيروت لم تسقط

لكنه الزمن الذي احترقت

عقاربه...

على مرأى العرب..

بيروت حاصرها الغزاة،

من الحدود،

إلى وريد الماء..

من جوع الصغار،

إلى اندلاع المقصله..

بيروت تلتهم الغبار المدلهم

وناقلات الموت،

والرعب السماوي المباغت،

والهدايا القاتلة[1]،

ويختتم الشاعر قصيدته بأبيات تدلل على صمود بيروت وحدها، وقتالها وحدها أيضًا يقول:

بيروت متراس يقاوم

بيروت مئذنة النشيد

إلى الكفاح

ودم... يرفرف كالحمائم

فوق ساحات الصباح..

وللشاعر قصائد أُخر في المأساة، نذكر منها: «يوميات الوردة المحاصرة»، «قلعة الشقيف».. وغيرها.

أما الشاعر عز الدين المناصرة فيصور الشهيد وهو مكفَّن بألوان العلم الفلسطيني الأربعة (الأخضر/ الأحمر/ الأبيض/ الأسود)، وفي هذه إشارات عديدة، إشارة إلى أن الوطن يلازم الفلسطيني حتى في داخل القبر، وإشارة إلى أنه لا يحتوي الفلسطيني سوى وطنه، وإشارة إلى كثرة أعداد الموتى فلم يكن الكفن من اللون الأبيض كما هو معروف إنما تعداه إلى ألوان أخرى... يقول عز الدين في قصيدته «بالأخضر كفنّاه».

---

(١) عصام ترشحاني: يوميات الوردة المحاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العربي - دمشق ١٩٨٣م، ص ٩، ١٠.

بالأخضر كفّناه

بالأحمر كفّناه

بالأسود كفّناه

نزف المطر على شجر الأرز لذكراه

وعلى الأكتاف حملناه

بكت المزن البيضاء لمرآه

دمه ينزف، والبدوية تنتظر الأيام

دمه ينزف، زغرد سرب حمام

والبدوية تنتظر حبيبًا

سيزور الشام...[1]

فعلى الرغم الدماء النازفة «يلاحظ تكرارها» فإن البدوية «رمز الوطن» تنتظر حبيبها «النصر» وسط زغاريد أسراب الحمام، مع ملاحظة تحديد المكان «الشام».

ويقول عز الدين في قصيدة أخرى تحت عنوان «جفرا .. أرسلت لي دالية.. وحجارة كريمة» مصوّرًا القتل في بيروت، حيث أصبح أداة اللهو للإسرائيليين، فيقول:

زمنٌ مرَّ جفرا .. كل مناديلك قبل الموت تجيء

في بيروت، الموت صلاة دائمة، والقتل جريدتهم

قهوتهم، والقتل شراب لياليهم

القتل إذا جفَّ الكأس مغنيّهم

وإذا ذبحوا .. سمّوا باسمك يا بيروت[2]

ثم يصوّر بيروت، فهي وجع التبغ، وهي قلادة مكسورة، وهي همهمة الصيادين إذا اشتد غضب البحر، ثم يتساءل - بحسرة - ماذا تفعل بيروت وهي بين فكي الرحا،

---

(١) عز الدين المناصرة، الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٤م، ص٢٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢٨.

أمامها الروم بجحافلهم، وخلفها أيضًا الروم بدباباتهم!! نراه يقول في القصيدة نفسها:

هل كانت بيروت عروسًا، هل كانت عادلة.. ليست بيروت

إن هي إلا وجع التبغ المنظومْ

حبات قلادته انكسرت في يوم مشؤومْ

إن هي إلا همهمة الصيادين إذا غضب البحر عليهمْ

....

ما كانت بيروت، وليست، لكن تتوافد فيها الأضداد

خلفك روم..

وأمامك روم!!!

وإذا كانت الروم تحاصر الفلسطيني من أمامه ومن خلفه (إشارة إلى إسرائيل ومعاونيهم من العرب)، فإن عز الدين يحذر العرب بأن بيروت ستصبح محتلة كالخليل وغيرها من المدن الفلسطينية، وما المتعاونون مع إسرائيل سوى واهمين، مغرَّر بهم، فيقول في قصيدته «يا أخضر.. إنهم يتربصون بك»:

تحجَّرت العقول

إن لم نقلها في وجوههمُ

ستصحو ذات يوم فوق سمراء الطلولْ

يا سيدي إني أرى ما لا يُرى

وأشم رائحة

أرى سُمًا شهيًا قدَّموه لقتلنا

هو في طعامك

وأرى الخليل حبيبتي نهبًا لتجار الممالك

وأشمُّ رائحة

فحاذر إنهم حرباء تظهر في الفصول

أخشى إذا طلع النهار تصير بيروت

الخليلْ[1]

ويمكننا أن نرى أبعاد المأساة اللبنانية في شعر عز الدين المناصرة في قصائد كثيرة منها «دموع الكنعانيات»، «ظل يركض حتى الرصاصة»، «لن يفهمني أحد غير الزيتون»، «جفرا لا تؤاخذينا»... وغيرها من القصائد.

أما الشاعر عبد البديع عراق فيخاطب الأمة العربية من المحيط إلى الخليج على لسان شهيد لقى حتفه في صبرا وشاتيلا، ومخاطبة الشهيد للأمة بها نبرة التحدي والصمود، وإن كنا نلحظ فيها الأسى والحزن على ما آلت إليه الأمة كلها من ضعف واستكانة، يقول في قصيدته «شهيد من صبرا يتحدث»:[2]

إنني لستُ القتيلْ

اسألوا كل الخناجرْ

والحناجرْ

والسيوفْ

اسألوا كل الجرائدْ

والمنابرْ

والدفوفْ

ستقول:

إنني لست القتيلْ

فاسمعوها:

إن قتلى مستحيلْ

أنا حيٌّ

إنني ضد الفناءْ

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٩٢.

(٢) عبد البديع عراق، إبداع الحجر، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٤٩.

إنما أنتم كأحياء، كأموات، سواء

اسألوا وجه الشهيد

واسألوا قيد الحديد

واسألوا كل الثكالى

واسألوا يُتم الصبايا

إنها تبرأ منكم

إنها تبكي عليكم

فاسمعوها:

وابعدوا الأوهام عنكم

إنني لست القتيل

إنما المقتول أنتم!!

نلمح في ظلال هذه الأسطر استلهام الشاعر للنص القرآني ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

كما نلمح فيها التهكم والسخرية على من وقف مسلوب الإرادة من أبناء الأمة – وما أكثرهم –، والشعر كعادته – دائمًا – يسجل الأحداث بتفاصيلها الدقيقة، وهو ما حدث مع عبد البديع عراق حينما راح يصوِّر «إيفا ستاهل» تلك الممرضة السويدية وزوج أحد المناضلين الفلسطينيين، استشهد زوجها في حصار «تل الزعتر»، وهي أجهض حملها، وبُترت ذراعها، وكُسرت ساقها أثناء الحصار، وظلت صامدة مع من بقي من المقاومة، وفي ذلك يصف عبد البديع تلك المرأة في قصيدة اتخذ من اسمها – إيفا – عنوانًا لقصيدته، فيقول:

يدك المبتورة سيف

وعظامك سيف

ولسانك سيف،

العظم، السيف، يمزّق وجه الزيف

يغتال سياج الصمت

يحطّم جدران الخوف

ويطارد أشباح الموت بتل صمودك يا شعبي

ويشبُّ العظم، يطول السيف جميع كراسي الحكم

ويدمّر كل بحار الزيت،

حقول النفطِ،

رؤوس الظلمْ

ويصول السيف، يجول، يغني، يهتف كل صباح يهتف كل مساءْ:

«التل الصامد، لا يركع»

«يقتات الجرح، ولن يركع»

يا هذا الحاكم فلتسمع

يا ذاك الحاكم فلتسمع

ما عاد يهز ثرانا خوف

أو يخدعنا وجه الزيف

أو يستشري فينا الضعف

«تل الزعتر» هزم الخوف

وعظام الأطفال السيف

«إيفا» صارت ذاك السيف

وعلى نفس النغم يعزف لحن الإدانة للأمة العربية ممثلة في نظمها الحاكمة، وذلك في قصيدته «عار وإدانة»، إذ يتخذ عبد البديع طفل الحجارة الفلسطيني رمزًا وقناعًا ليقول من خلاله معرِّضًا بالأنظمة العربية الحاكمة:

أحرجت جاه الأنظمه

وكشفت زيف الأوسمه

ووسام صدرك من حجر

حاصرت أصحاب الكراسي والعروش

ومظاهر التنعيم أو عظم الكروش

ثم يتذكر مذابح صبرا وشاتيلا وغيرها من المذابح العربية، فيقول:

هل يذكرون القدس أو يافا وآذان المساجد؟!

ونداء من لبَّى وكبّر؟!

هل غاب صبرا أو شتيلا والدما في كفر قاسم؟

ومواكب الشهداء في لبنان، في الجولان، في سيناء، في بحر البقر؟

أيقظت كل النائمين

أزعجت كل الحالمين

وأشعلت للحيران قنديل الظفر

ويمكننا قراءة مأساة لبنان في قصائد أخرى لعبد البديع عراق، كقصيدة «هم المسيح المنتظر»، وقصيدة «أشباه الرجال» وغيرهما من القصائد.

ومأساة لبنان وضحت عن الشاعر محيي الدين عبد الوهاب من خلال قصيدة له بعنوان: «تل الزعتر»، والتل هو بداية المأساة في لبنان والمجزرة شاهد عيان على حقد الأيدي الخبيثة التي أشعلت النار في لبنان، وينقل لنا الشاعر في هذه القصيدة أبرز الأحداث التي عاشها المناضلون الفلسطينيون في جهادهم من أجل الحياة، ومن أجل الدفاع عن حقوقهم المغتصبة في كل المدن، وفي تل الزعتر. تكلم الشاعر عن المأساة بمرارة وحرقة، يقول محيي الدين في هذه القصيدة «أغنية للحياة في الموت».

أتخش المنية يا بن الزبير؟!

وهل في الحياة مكان أجل

حنانك يا أم.. إني أخشى

إن مثلوا بي.. هل احتمل

وهل يؤلم الشاة إن سلخوها

وقد ذبحوها.. وحم الأجل

دمك الأحمر.. أحمر، أحمر

من أحشائك.. يقطر، يقطر

وردًا وحشيًا يتفجر

يزرع مجدًا في لبنان[1]

الشاعر يستلهم موقفًا تراثيًا خاصًا لأسماء بنت أبي بكر مع ابنها عبد الله بن الزبير، حينما خاف أن يمثل بجثته الحجاج، فقالت له أسماء: «وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها»، فهي تشد أزره، وتشجعه فيما يصبو إليه، ويترك مخاوفه وراء ظهره لينطلق إلى الأمام.

ويواصل الشاعر وصفه المرير لمخيم تل الزعتر، حين تكالبت عليه قوى البغي والشر، دفقات دم الزعتر تكتب الحق، معلنة الثورة والتحدي، والموت من أجل الحياة، وحوار الشاعر مع تل الزعتر يعطي النص دفقًا في المعاني والألفاظ، وتجربة صاحب النص تظهر من خلال الأبيات، تجربة معاصرة الأحداث، ومعايشة المجزرة، فهو يتكلم عن واقع لمسه وآلمه، ومن داخل المخيم ينطق شعرًا مسلحًا بالثورة، والدم، والحرية، يقول:

تل الزعتر

احمل أحشاءك وتقدَّم

يا منبوذ القربى والدم

تنزف في الساحة ما عندك

روحك، دمك، تنزف وحدك

جمدت أعصاب الجلاد

---

(١) محيي الدين عبد الوهاب: تل الزعتر: أغنية للحياة في الموت، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٧٨م، ص ٩١، ٩٢.

وغصت شرفات قضاتك

حكم، خصم

يضرب، يحكم

يطعن ظهرك وحياتك

هذا أجمل عرض أخرج في ملهاهم

في مأساتك

فاسقط.. واسخر

تل الزعتر

زحف الخوف على الأطراف

ووجمت في الظلمات وجوه

رقَّ القلب.. وجنَّ النبض

وطفلك مات أبوه

يا صمت المقبرة الأسود.. اصرخ

مات أخوه

يتابع الشاعر أبياته طالبًا الصمود من تل الزعتر، والقتال، وهنا نلمح حوارًا ساخنًا بينه وبين التل، يسقط فيه كل النجدات الخارجية، ويعتمد على الساعد القوي، والبندقية الزعترية داخل المخيم، والموت عنده آت لا محالة، والثأر نبراس الحر المقاتل، مثله مثل الموت الشريف الذي نصبو إليه، سأحفر قبري بيدي، داخل المخيم قبرنا جميعًا.. نموت من أجل الحياة، ثم لاحظ أفعال الأمر في بداية المقطع «احمل/ تقدَّم..»، والتي توحي بالنبرة الحماسية وعدم الخوف من القتال. ثم يقول:

قاتل، اصمد، ردّ وزمجر

يا مدفعنا القاني الأسمر

أنا خلفك

تل الزعتر

قلت لهم: سأموت فصبرا

وسأتخذ ترابي قبرًا

لن أسألكم أبدًا ثأرًا

قلت لهم.. فأرادوا موتى

وأردت أنا موتًا آخر

ليس هنا

في تل الزعتر

كان حياة.. كان مخاضًا

يزخر بالعمل وبالكد

يسهر حتى الفجر ليصنع

زيتًا للثورة والمجد

كان يموج بأمل عارم

أمل يحمل نصرًا قادم

كان يخطط.. كان ينفذ.. كان يقاوم

لهفي يا عملاق الثورة

يا ملحمة المنفيين

يا أسطورة شعب تسطع نورًا فوق

بيوت الطين

لاحظ الإلحاح على فعل الأمر في بداية المقطع من خلال الأفعال «قاتل/ رد/ زمجر»، كما يلاحظ استحضار الماضي من خلال استخدام الفعل «كان» التي تكررت نحو ست مرات.

أما الشاعر أحمد بوبس فيناجي بيروت مناجاة حزينة، مبينًا عمق المأساة التي أصابتها أثناء الحصار، وشدة الألم الذي ألم بمن بداخلها، وكيف أن العرب تخلوا عن بيروت الجميلة وقت محنتها؟ عبر الشاعر عن سخطه لكل من تجاهل بيروت أثناء الحصار، وذلك في قصيدته العمودية بعنوان «بيروت يا وجع العروبة» يقول فيها:

بيروت هل لي في الجراح عتاب؟ ... أم في الشفاة الذابلات جواب؟
بيروت كم فوق النهود تخمرت ... أعنابنا وتحطمت أكواب
بيروت وانتحرت شفاهك في دمي ... وتحطمت فوق النهود قباب
العشق كان خديعة عربية ... والعاشقون ضفادع وذئاب
كل العواصم أغلقت أبوابها ... وتبرأت من نهدك الأنياب
بيروت.. يا وجع الشهامة هل أنا ... وحدي تفرق دونه الأسباب
بيروت حتى الحب صار جريمة ... في موطن أمجاده أسلاب
بيروت هل أبكيك أم أبكي على ... شرف العروبة غيبوه.. وغابوا[1]

لاحظ أن الشاعر يبدأ قصيدته بالتساؤل الاستكناري، ثم يكرر المحبوب «بيروت» نحو «ست» مرات في هذا المقطع، ثم يسخر ممن يدعي عشق العروبة «فالعشق كان خديعة عربية»، ولكن العاشقين/ العرب «ضفادع وذئاب»، لاحظ الضعف والاستكانة (الضفادع)، و«المكر والخديعة والخسّة» (الذئاب).

ويصورها - أي بيروت - في قصائد متعددة، ويورد لنا صورة مليئة بالحزن، هذا الحزن الذي عشش في صدره وأصبح عدوانًا لكل فلسطيني، يقول مصورًا هول المأساة في قصيدة له بعنوان «دقوا على بابي»:

دقوا على بابي ... بالسيف والخنجر
دقوا على صدري ... فبغيركم أصفر
دمي الفلسطيني ... في جرحكم أزهر

(١) أحمد بوبس: بيروت موسم النزيف، دار الجليل للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٥م، ص ٣١، ٣٢.

وأنا سوى بيروت ما عاد لي مهجر[1]

ويصور الشاعر لنا بيروت كالبركان حين انفجرت في وجه الغزاة الطامعين، فقلبت الموازين، وأصبح الجندي الصهيوني هو المحاصر بهمة رجال المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية.

بيروت لو حرقوا لن يحرقوا الهدبا
ها أرضك انفجرت في وجههم غضبا
من ذا يحاصر من؟ فلنسأل العربا
ما في سكوتهم ما يطفئ اللهبا!!

ثم يلوم الشاعر العرب الذين لم يهبوا لنجدة بيروت، بل راحوا يتفرجون عليها وهي تغتصب، يقول:

بيروت إن صمتوا أو عبأوا الصحفا
سيان من سكتا في البعد أو هتفا
غير الدما والسيف لا ينفع الشرفا
بيروت يا جرحا في قلبنا انفجرا
تبقين شامخة لو فتتوا الحجرا
كل الجراح لنا والنفط للأمرا
لا ترتجي أملا إلا من الفقرا

في البيتين الأخيرين لاحظ (كل) الدالة على الشمول، (الجراح) الدالة على الجمع، بمعنى أنه ليس هناك جرح إلا وكان من نصيبنا، أي الشعوب المغلوب على أمرها، أما (النفط) فهو للأمراء فقط، ولا نصيب لنا منه، ثم كان البيت الأخير، تلك الحكمة البالغة:

«لا ترتجي أملا.. إلا من الفقرا»!!!

(١) المصدر نفسه ص ١١.

وفي قصيدته «موتي ونلبس كل أثواب الحداد» يقول أحمد بويس مبينا بأن العرب لا يجيدون إلا الحزن، وربما يكون نفاقًا، وفي هذه القصيدة، والتي استوحاها من تاريخ السيدة عائشة ومعركة الجمل، مع الإمام علي (كرم الله وجهه) يبدأ بقوله:

عائشه..

أوقدي الحرب.. «فصفين» استعادت

كل أوجاع الزمن

أو قلديها.. إن هذا الرمل مزق

كل أثواب الكفن

أوقديها «داحسًا».. «غبراء»

ما هم فطعم الموت واحد

سيري.. فعين الله.. تتساك

وعين الموت ترعاك[1]

ويربط الشاعر في قصيدته بين موقعة كربلاء في العراق، وبين بيروت في لبنان، من حيث القتال العربي/ العربي، فيقول:

إني لا أقرأ فيك يا بيروت

تاريخًا بعيدا

أبكيك يا بيروت

هل يجدي البكاء

ما أنت أول مذبحة

تاريخنا قتل.. وتلكم كربلاء

يتابع أحمد بويس في حواره مع بيروت؛ لأن المدينة، وإن قُصفت أو دُمرت وسُفكت دماء أطفالها ونسائها، فهي أجمل المدن. ووضع عائشة كرمز لهذه القصيدة، فالاثنان

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨، ما يليق بشاعر أن يقول: «فعين الله.. تتساك» حتى وإن كانت لدلالة هنية!!

(عائشة/ بيروت) قد اتهمتا من قبل الأفاقين ظلمًا وجورًا، يقول الشاعر:

عائشة...

أنيخي بعيرك

ما عاد يجدي المسير

فكل الدروب سراب

وكل البلاد.. اغتراب

وكل الدماء.. شراب

وكل العواصم ما عاد فيها

سوى الموت ذلا

سوى الموت قهرا

سوى الموت خاتمة الأمنيات

هو الموت واحد

فلا تقلقي

وإن جزَّ جيدك حد السلاح

فغيرك مات

بمضغة قات

وما زال يهدي

إلى القدس

بعضًا من الأمنيات

عائشة

لا تقلقي إن رموك

بزيف الكلام

فكل العواصم تقرئ بيروت

منها السلام

وفي قصيدة عمودية بعنوان «وأنا القتيل» بيَّن أحمد بويس الحالة التي وصل إليها العرب.. حالة من البؤس والحزن والعار.. ويضرب لنا أمثلة من تاريخنا الإسلامي بأبطاله، مؤكدًا أننا أصبحنا نفتقر لأولئك القادة في زمن مليء بالتناقضات والادعاءات.

هذي شرابيني حبال مشانق — وأنا على حبل الوريد قتيل

والنزف من دمي المباح شرابهم — وطعامهم جسدي به مجبول

غرسوا رماحهم بجرح مرارتي — لهبًا تلظى والفؤاد غليل

والأرض أمطرت السماء بحقدها — فازورّ حر.. وأستجير ذليل

في كل قلب ألف ألف هزيمة — في كل صوت بحة وعويل

وعلى امتداد الأرض موت دائم — هل كلنا في موت «هابيل»

ومن المحيط إلى الخليج عجائب — لا الفلسفات لها.. ولا التحليل[1]

لاحظ الإشارة إلى «هابيل» وما فيها من دلالة اختلاف الأخوة حتى استحر القتل بينهم، ثم لاحظ قوله: «من المحيط إلى الخليج»، وما فيها من إشارة إلى الدول العربية مجتمعه، ثم ينادي الشاعر القدس بصوت بح من الحزن وأمل ضعيف لتحريرها خاصة، وهؤلاء العرب لا تحركهم مأساة القدس ولا مأساة بيروت، وأصبح سلاحنا هو التنديد والشجب على ورق، ورثاء لمصائبنا بقصائد شعرية مبتورة.

صدئت تواريخي.. ونؤت بحملها — ما عاد يجدي الشرح والتأويل

ما عاد «عمرو العاص» يسرج فاتحا — وأبو الفوارس بالطعان بخيل

بيروت تغرق في نزيف دمائها — وجهاتها موت.. فأين تميل

وسلاحنا ورق.. وحبر زائف — وقصائد مبتورة ورحيل

جف الكلام عن شفاة قصائدي — وتيبَّس التجويد والترتيل

وطني.. لئن فجرت جرحك داميا — فلأن تاريخي دم مطلول

(١) المصدر نفسه ص ٣٧.

ولأن أرضي أقـحلت برجـالهـا   صـوت يجلجل، والفـعـال قليل

ولأن قلبي صـار ألف مـشـوه   مـا عـاد يجـدي قلبي التـجـميل!!

أما الشاعر صالح هواري في قصيدته: «جبينك بوابتي للعبور» فيرسم صورة معبرة عن مأساة لبنان.. والشاعر يبدأ أبياته بالرقص والقنص والقتل.. ويتلاعب الشاعر بالألفاظ والمفردات، ويستخدم الحرف استخدامًا فائق الجودة.. مما يدل على عمق شاعريته وعاطفته الصادقة.. ورموزه الموحية، وصوره العميقة.. يقول:

يبدأ الرقص...

من معطف الضوء يخرج سيف

ويبتدئ القنص

ذاك المغني على طريق الليل

مشتبه بمواويله

بائع الورد

في شارع البرد

أفعى تبدل قمصانها

في مناديله[1]

وللشاعر صالح هواري قصائد أخرى تصور المأساة وأبعادها الإنسانية، والقومية، نذكر منها قصيدة «اسألوا الأرض»... وغيرها.

ويبكي الشاعر ماجد الشيخ حزنًا في قصيدة له بعنوان «حوار الطلقات». يرقص مع الرصاص المزغرد، لا يخاف الموت، لا يخش الجراح، الأمل عنده كبير رغم الحصار.. حصار بيروت الحزين، متفائل بالمدافعين عنها؛ لأنهم الوردة، والسنا الذي يضيء الطريق المظلم، بعد أن غاب الأصدقاء، وتخلي الأصحاب.. ولقد قسَّم قصيدته إلى مقاطع كل مقطع فيها يشرح وضعًا مستقلاً، لترسم القصيدة كلها حالة بيروت، ومخيماتها، والمدافعين عن كافة المدن اللبنانية، يقول:

---

(١) صالح هواري: بطيئًا يمر الدخان، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٤م، ص ١٦.

وردة وسط الحصار تنمو

يكبر فيها البريق

وردة تماري دمنا

يضيء خطوط الطريق[1]

ويتابع الشاعر أبياته قائلاً ولائمًا من حوله، ممن وقف صامتًا:

تلك الأهازيج على جثتي الطاهرة

ليست بحاجة للأهازيج أو لتدبيج البيانات

هذي الجثة التي حملوها

لقمّة الكيانات

رؤوس كيانات تعفّنت

كانت البدء في تهيئ مساحات الذبح

تمهيد الأرض للخراب.

لاحظ إسقاطات الشاعر على النُّظم السياسية العربية، من خلال «تدبيج البيانات»، «قمة الكيانات»، «كيانات تعفنت».

وصوت الشاعر الفلسطيني باسم النادي جاء مجلجلاً، ومعبرًا عن الألم والجرح الذي أحدثه رحيل المقاومة الفلسطينية عن بيروت وصمودها أثناء الحصار الذي دام ثمانين يومًا دون مساعدة خارجية، تلقت الطعنات بصدرها، وسقط الشهداء، ورحل من دافع عن شرفها وعرضها.. وبعد الرحيل حدثت مآسي وفواجع يندى لها الجبين الإنساني، يقول باسم النادي في قصيدة له بعنوان «الرحيل»:

بيروت سيدة العواصم

لملمت أشلاءها

جاءت إلى «الميناء» تودعنا

(١) ماجد الشيخ: أجراس المتاريس، شركة كاظمة للترجمة والنشر والتوزيع - الكويت، ١٩٨٣م، ص ١٠٧.

ترش دموعها

لا ترحلوا قالت، وكان الموت سيد دربنا

وحصارنا

كان اختبارًا للشعارات الجميلة والبنادق

للتردد والقرار

لا ترحلوا قالت

وكان رحيلنا بدء الحصار..

مليون أغنية

ومليون احتضار[1]

يتابع باسم النادي مناجاته لبيروت الحبيبة قائلاً:

لك الاسم يا بيروت

من «صبرا»

إلى «صبرا»

و«صبرا» في النخاع

جودي عليّ بوردة جودي

فليس لنا سوى هذا الضياع.

وما زال الشاعر يحدثنا عن مأساة لبنان ممثلة بصبرا وشاتيلا، وما على شاكلتهما من مذابح، يقول:

«صبرا» العروس العرس

«صبرا» والألم

«صبرا» المسافة بين جرحى والندم

---

(١) باسم النادي: دخان البيوت، دار الصمود العربي للطباعة والنشر، نيقوسيا قبرص، ط١، ١٩٨٥م، ص ٤٤.

لا شيء يحميها من العقبان

إلا ظلك المكسور

فاعلنها معي

جئنا من الرمق الأخير

فنعلن التكفير عن أخطائنا

وازحف معي نحو البداية

لاحظ دلالة تكرار «صبرا» وما توحيه، فهي المدينة الصامدة، وهي المذبحة الشاهدة على عار الإنسانية، وهي بحروفها تعطي دلالة الصبر والثبات عند اللقاء.

وللشاعر أيضًا بعض القصائد التي تحكي المأساة اللبنانية بكل تفاصيلها ودقائقها، أذكر منها قصيدة «المرايا والحصار»... وغيرها من القصائد.

* * *

الباب الثالث

مواقف الشعراء العرب تجاه المأساة

الفصل الأول

مواقف الشعراء العرب في الجناح العربي الآسيوي

مـأسـاة لبنان، وحـصـار المدينة، والاجـتـيـاح للجنوب اللبناني، وخـروج المقـاومـة الفلسطينية من بيروت، كان نقطة تحول عند الشعراء العرب في كل قطر من أقطاره من المحيط إلى الخليج، وأصبحت المأساة قضية مهمة، تناقلها الشعراء بشعرهم وصفا، وشرحا، وتصويرا، بعواطف امتزجت بالألم والحزن الشديد، واتخذت قصائد الشعراء مناح مختلفة، ولكن غلب عليها البعد القومي، وحب الوطن، والأرض والمقاومة والصمود، وهو ما سنوضحه فى الصفحات التالية:

وفي البدء ينبغي القول بأنني قسَّمت الوطن العربي إلى جزأين، الأول: الوطن العربي الآسيوي، والثاني: الوطن العربي الإفريقي، ثم تناولت شعر شعراء الوطن الآسيوي، وقد راعيت الترتيب الألفبائي في ترتيب ذكر هذه الدول، فبدأت بالأردن، ثم انتقلت منها إلى الدول العربية الآسيوية التالية لها في الترتيب، فإذا ما انتهيت من تلك الدول، بدأت بالدول العربية بالجناح الإفريقي، مراعيًا - أيضًا - الترتيب آنف الذكر.

شعراء الأردن:

في البدء سيكون الحديث حول الشعراء الأردنيين الذين سطروا بقصائدهم الشعرية خطوطًا واضحة عن لبنان، بل نقلوا المأساة بشعرهم إلى كل مواطن في الأردن، أو في أي مكان، وأول هؤلاء الشعراء: الشاعر الأردني يوسف العظم الذي كتب قصيدة، مليئة بالحزن على ما حدث لإخوة الإسلام في لبنان، يدعو في أبياته الشعرية إلى الرجوع إلى القرآن الكريم، ففيه سبيل نصرنا، وفيه خلاصنا، وفيه عزنا.. يقول في قصيدة له بعنوان «فلسطينية تروي قصتها في بيروت» يقول على لسانها:

ذبحــــــوني مـن وريـد لـوريـد   وســقـوني المرّ في كل صـعـيـد
مــزقــوا زوجي فلم أعــبــأ بهم   ومـضـو نحـو صـغـيـري ووحـيـدي

غـرسـوا الحـريـة في أحـشـائهم فـغـدا التكبـيـر أصـداء نشـيـدي
دمــروا بيــتـي، وهـل بيــتـي هنـا؟ إن بيــتي خلف هـاتيك الحــدود[1]

يتابع الشاعر أبياته بمزيد من الألم والحسرة، لما أصاب الأم الفلسطينية من قتل وتدمير لبيتها الذي سكنته بعد أن طردت من بيتها الأصلي في فلسطين المحتلة، ويرثي الشاعر بمرارة لحال الأمة العربية النائمة، ولم ير غير أولاد الأفاعي «اليهود» كناية عن غدرهم وحقدهم، وهم أعداء الإسلام والمسلمين، ويُكثر الشاعر من تساؤلاته للأمة العربية: أين نفط العرب؟ مذخور لمن؟ أين درع الصمود؟ وأين المساندات العربية؟ كثرة السؤال توحي بالصمت العربي الذي عيَّ جوابًا، يقول:

وتـلـفـت فـلـم أعــــثـــــر عـلـى غـــيـــر أبناء الأفـــاعي والقـــرود
أين نفـط العُــرْب؟ مــذخــور لمن؟ أين أبنـاء الحــمـى درع الصــمــود؟
ذبحـــــــونـي مـن وريـد لـوريـد غـــيـــر أني لم أطأطئ ليــهـــودي
ودمـي ســـــال عـلـى تلك الـربـى ينثــر العطر على حــمــر الورود
ولـغ الـغـــاصـب فـي أشـــلائنـا غـــيـــر أنّا لم نـزل ســمــر الزنود
ولـوائـي فـــوق هـامـــات الورى يتـــحـــدّى في العُلى كل البنود

ويؤكد الشاعر بأن السلم مع اليهود بضاعة زائفة، ويخبر الشاعر من يركض ويلهث وراء السلم، بأن اليهود لن يحترموا المواثيق، أو المعاهدات، وهذا طبع فيهم منذ القِدَم. ومن يقرأ تاريخهم مع النبي (ﷺ) يعلم ذلك، يقول:

قل لمـن يلهـث في «غـــفـلتـــه» ينشــد السلم تمتع بالصـــديد

ويأتي يوسف العظم في نهاية أبياته، داعيًا إلى العودة إلى الدين الإسلامي، وكتاب الله والتمثل بقياد الإسلام، وقادته حتى نفوز بالجنة يوم القيامة.. يقول:

قـل لمـن يحـــســب أنـا أمـــــة أنكرت أمـجـاد «ســعـد والوليـد»
نحـن شـعـب لم يعـد يخـشـى الردى أو يبـــالي برصـــاص وحـــديد

---

(١) مجلة الإصلاح العدد ٨٠، دبي ١٩٨٢م، ص ١٥، ونشرت في مجلة الجندي الأردنية، نقلاً عن جريدة الرأي الأردنية.

قطع العــهــد في أعـمــاقــه	دعوة التـوحـيـد والدين الرشـيـد
كلـمـــا أطفئ منـا قـــبس	أشـرف القـرآن بالفـجـر الجـديد

لاحظ الحسّ الإسلامي لدى الشاعر، من خلال ألفاظه وصوره ومعانيه، وسنتناول ذلك في صفحات مقبلة من هذه الدراسة.

أما الشاعر الأردني مصطفى الصيفي في قصيدة له بعنوان «ريما في تل الزعتر» فهو يبكي على ما جرى لأبناء مخيّم تل الزعتر، حين دمرتهم قوى البغي والظلم، وفي أبياته يصف المجزرة ممثلاً لها بالطفلة «ريما» التي فقدت والدها وإخوتها، ويورد صورة للذبح تفوق الخيال.. صورة الوليد الصغير الذي ذبحوه على يدي أمه.. يصرخ الشاعر مستنجدًا بالله في أكثر من بيت؛ لأنه يعرف أن العون والنجدة من الله، وأما العرب فلا... وألف لا...(!!) يقول:

لمن القـبـور يفـسـح تل الزعـتـر	«ريما» فـديتك كـيف لم تتـذكـري
وتطلعت والدمع يحكي قـصـة الـ	مـأسـاة رغم جـمـوده في المحـجـر
قـتلوا أباها في صـبـاح قـاتم	كـقـتـام زوبعـة بيـوم أغـبـر
واثنين من إخـوانهـا رشـوهـمـا	عند الجـدار بغلظة وتجـبـر[1]

وبعد هذا الألم والحزن والحسرة، الذي ألم بريما المسكينة، بفقدها لأبيها، واثنين من إخوانها، لم تنته مأساتها، بل استمرت وامتدت إلى الطفل الصغير، هذه صورة تمثل عمق الجرح، وصاحب الجريمة الذي ولغ فمه بدم أطفال تل الزعتر، يقول الصيفي:

بقي الصـغير بحضنها فمضت به	مـذهولة تعـدو بغـيـر مـدبّر
فـإذا الوحـوش ثلاثة قـد أغـفلوا	كل الدروب بوجـهـهـا المتكدر
وتقـدمـوا، طعنوا الصـغيـر بخنجـر	ذبحـوه كـالغـصن الندي المزهـر
ذبحـوه فـانتـشـر الدم القـاني على	وجـه الأديم كـدفـقـة من عنبـر
ذبحـوه فـارتجت جـبال الأرض تشـ	ـكو الظلم في بيـروت ظلم الغـدر
ذبحـــوه، يالله أريما لـم تجـــد	من مـسـعف إلا ابتـسـام المزدري

(١) مصطفى الصيفي: قنابل للسفر الطويل، المطبعة الاقتصادية - عمان، ط١، ١٩٧٨م، ص ٤٢.

لاحظ ألفاظ المقطع وما بها من دلالة حزينة، نبعت من تلك الصورة المعبرة، فضلاً عن تكرار كلمة «ذبحوه» التي توحي بالوحشية والهمجية.

وبعد قتل وليدها، هل ساعدها أحد، أين ذهبت ريما، تجمع الذئاب على جسدها ومزقوه.. بعد أن تعاقبوا عليها.. منظر الفتاة القاصر يبعث الألم والحسرة.. يولد النقمة على هذه الشرذمة المجرمة التي لطخت يديها بدماء الأبرياء. يقول:

مدوا أياديهم فهذا ناهش	في فخذها، في نهدها المتكور
قالوا لها: خذي هذا طريق آمن	لابد من ثمن لنا كي تعبري
غمسوا يديها في دماء شقيقها	قالوا: إليك تخضبي وتعطري
نشبت أظافرها، ولكن هل يصد	الريح ورد الحسن والغصن الطري؟!
فتعاقبوها.. مزقوا الفستان..	والجسد النحيل بخفة وتهور
كانت وليمتهم فتاة قاصرا	وبدعوة الحقد الدفين المسكر
قامت تجر خطى الكآبة والأسى	في التيه في الظلماء.. أي تعثر
ومضت مخضبة الثياب حزينة	ودم البكارة فوق دم الأصفر

يتابع الشاعر قصيدته الطويلة، موضحًا للعالم مدى الفظاعة التي ارتكبها الإسرائيليون، وأن هذه العصبة قد خربت لبنان، وحولته إلى مأساة دائمة.. يقول:

الله يا لبنان يا مهد الحضا	رة والثقافة... ملجأ المتحرر
أتكون معقل عصبة جحدوا العرو	بة في الجبال الشم دون تستر؟

أما الشاعر إبراهيم نصر الله في قصيدة «غزال بيروت» يوضح لنا الصورة العميقة التي رسمها للطفل الفلسطيني المقاتل في بيروت، ومخيماتها صورة التحدي والبطولة ورضاعة الصمود منذ نعومة الأظافر، عاش في بيروت بين القصف اليومي والاجتياح الليلي، شاهد الدمار والخراب فاكتمل نموه سريعًا، فأصبح عاشقًا للأرض.. للوطن. يقول:

تفتّح في النار

واكتملت وردة البحر في صدره

وطنًا لا ينام

استوى فلكًا من غناء

وخاصر أحزان أشجاره

والحمام

مضى في دم الخيل

ملتصقا

بالهوى والصهيل

وفي العشب مكتملاً بالغمام[1]

يتابع الشاعر أبياته مؤكدًا بأن هذا الغزال أصبح عنيدًا صامدًا، وتلون بلون الدم وأشرق بشمس الحرية، فهو الخصب، والنماء، وهو العشب، وهو النار الحارقة لأعدائه هو الجرح الذي تعطر بتراب الوطن، يقول:

فقالت أناشيده:

هل رأيتم دمًا يوقد الماء

أو يورق العشب فوق السحاب

هتفنا: نعم

إنه الجمر يأخذ شكل الأغاني

إنه الجرح يأخذ شكل التراب

يؤكد الشاعر على التوحد بين الأرض والمقاتل، وحدة الدم المراق على تراب الأرض، ووصل الشاعر إلى الانفجار مع غزال بيروت حين يصرِّح للشمس والأرض بأن دمه الطاهر يمثل شعاع الحرية، ونور الانعتاق، فيقول:

قال للشمس:

---

(١) إبراهيم نصر الله: المطر في الداخل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط١، ١٩٨٣م، دار الشروق للنشر والتوزيع - عمان - الأردن، ص ٥٧.

هذا دمي

فاتبعيني

قال للأرض:

هذا دمي

فاسكنيني

ومكّن للأرض سر الفصول

وزيّن للشمس هذا المدار

وقصيدة «أزهار عدن» - الزهرة الرابعة - تمثل هذه المأساة، مأساة الرحيل، وكيف عبّر عنها الشاعر من خلال أبياته الشعرية المتفجرة، التي تنبض صدقًا وحرارة وعاطفة ملتهبة.

تقولين لي:

لأن السماء

ظللت حزن أبنائك المتعبين

هي الآن زرقاء

تقولين لي:

لأن الجبال استدارت لتحرس

شيخًا بمركبه الخشبي

بعرض المحيط

هي الآن لا تقبل الانحناء

تقولين لي:

لأن الرجال هنا طيبون

يحبون أشجارهم والنساء

يجيء الشتاء

تقولين لي:

إن كل الذين رموا عشب عينيك

بالنار والخوف عبر الزمان

هم الآن غرباء هذا الفضاء[1]

نلاحظ أن الشاعر في حواريته مع الزهرة يصل إلى قمة الحدث الذي يريده، هذه الصفة جعلت الشاعر إبراهيم نصر الله يطير في كل اتجاه، مواجهًا كل إعصار، كمقاطع قصائده.

ويحدد إبراهيم نصر الله ملامح الإنسان الفلسطيني في بيروت، وفلسطين، وفي كل مكان فالموت مطارده، والقتل منتظره، والقنابل فوق رأسه، وهذه الملامح تتحدد من خلال شخصية والد الشاعر الذي يحاوره ويطلب منه أن يصمد في وجه الإعصار، ويتحدى الحصار وذلك في قصيدة له بعنوان «الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق». يقول:

واشهر سلاحك

حبك

كن في انتشارك فرقد

وسبح سطوحك

نافذة البيت

أرضك

شمسك

كن فارس الأغنيات العصي الذي يتجدد

هم يغلقون الطريق إلى صدر أمك

هذي عيون بنادقهم

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٠.

وحواجزهم

والكلاب التي خرجت من مدارسهم

وقفت في الجوار مجموعة تترصد

افتح العين

عين النخيل

وعين سلاحك

ها أنت تكتمل الآن.. تعبد[1]

وقد حركت قوافل الشهداء في «صبرا» و«شاتيلا» الشاعر عبد الرحيم عمر، فاندفع معبرًا عن تلك الفجيعة المروِّعة التي تناساها الناس، ورغم العار اللاحق بالأمة العربية، فما زال التآمر يُحاك هنا وهناك، فيقول:

وقوافل الشهداء في صبرا وشاتيلا تضيع

كأنها سرٌّ طوته يد الزمان فلا معاد

صبرًا أيا خطًا يضل به البريد إلى الأبد

ويظل يقتل في المنافي الجافيات بلا سند

طال الأمد..

....

واليوم يزدحم المدى بالعار حولك والجنون

والليل بالفرسان يزخر والصهيل سوى الصهيل

شرف السلاح يخونه المتآمرون

....

يتكلمون الضاد والفصحى، فتغضى الشمس تخفى

---

(١) إبراهيم نصر الله: الخيول على مشارف المدينة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ص ٦١.

وجهها بالنار دونك والغبار

يا ويلنا هل عاد بالموت التتار؟!![1]

وتظل نار لبنان ذات طلع كأنه رؤوس الشياطين، تشعل الشعر قبل أن يتحول إلى جمر، فهذا المرحوم الشاعر محمد شديد يقول في قصيدة له بعنوان «مرثية إلى بيروت» يقول:

.... من بيروت أخاطبكم

من هالة مشعال اللهب القدسي الرائع والباهر

من نزف إباء الجرح العربي المشبوب الثائر

هي ذي - أعني بيروت - فلا زالت وستبقى

مخرز نار في أعينكم!!

نظرة تعرية ساخرة تمسخكم..!!

«بيروت» مقاس ضآلتكم...[2]

لم يبق قوَّال لم يقل في بيروت قولته أثناء اشتعال الحريق وبعد أن صارت النار رمادًا، وأضحت لبنان خرابًا، ولذا نرى الشاعر عبد الله عبد الرزاق يقول في قصيدته الموسومة بـ«بيروت تحترق».

بل إن أعداء لنا عاثوا بها ظلما	سدُّوا منافسها بإحكام وإتقان
ثكلى أتوها لا تحرك ساكنًا وسنى	دخلوا بها داسوا كرامة كل إنسان[3]

أما الشاعر أحمد المصلح في قصيدته «عبد الله المقتول» فتكبر فيها مساحة الرمز، ويكبر الهم العربي، وتتضح المأساة، والقتل يتربص لعبد الله، وهو رمز للعربي الفلسطيني المشرَّد، والمطارد في كل مكان، هذا الإنسان الذي أصبح يعيش في العراء،

(١) عبد الرحيم عمر: قصيدة «طال الأمد»، ألقاها في مهرجان جرش ١٩٨٥م.

(٢) نقلاً عن: البحث عن قصيدة المواجهة في الأردن ١٩٦٧ - ١٩٨٥م، د. عبد الرحمن ياغي: ص ٢٥٢.

(٣) عبد الله عبد الرزاق: ديوان تأملات، دار الفرقان، عمان ١٩٨٣م، ص ١٦.

يبحث عن رائحة الوطن علّه يجد مأوى يستر عورته، أو يداوي جراحه، ولكنه لا يدري بأن دمه مهدور في كل مكان، يقول:

وجع أغالبه فيغلبني

وأقوم أخلعه فيخلعني

وأقول تبتدئ الحكاية

كان عبد الله مصلوبًا على الكلمات

تسكنه رؤى سوداء

يا أسماء

هل تلد الغرابة

غير هذا الصوت؟

عبد الله متهم

وعبد الله مكتمل

وعبد الله مشغول

وعبد الله مقتول

وعبد الله يدخل دورة الأحزان يسأل عن حبيبته

وعبد الله...!

ثمة هاجس يأتي من الوديان

أن دما يسيل

فهل ترى أحدا؟[1]

لاحظ أن الأشياء تسير عكس ما يتمنى «عبد الله» تمامًا، فإذا كان يريد أن يغلب، فإذا به مغلوب، وإذا أراد أن يخلع، فإذا هو مخلوع، وعبد الله تسكنه الرؤى السوداء، إضافة إلى صفاته المتعددة ، فهو متهم ، ومشغول ، وفي

---

(١) أحمد المصلح: تجليات فاطمة، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ص ٣٧.

النهاية مقتول، لكنه ما زال يسأل عن حبيبته/ الوطن.

بهذا السؤال ينتهي الشاعر أحمد المصلح من أبياته، ويترك الإجابة مفتوحة للقارئ، الدمــاء تسـيل.. هاجس الموت، الخـوف، يطارده في كل زاوية.. وبعـد هل تـرى أحـدًا، استفهام من الشاعر، وعدم الإجابة منه له دلالة كبيرة، وإيحاء الشاعر إلى القاتل واضح في أبياته، أما علامة السؤال فهي توضّح بأن القاتل أكثر من جهة واحدة، وأكثر من شخص واحد، وللشاعر أكثر من قصيدة تصور المأساة اللبنانية.

ويوجه الشاعر منصور البطاينة هجومًا عنيفًا تجاه الأمة العربية النائمة، في قصيدة له بعنوان «إن إسرائيل» مفعول به «ليست بفاعل»، يوضّح فيها الموقف العربي، ويندد بالصامتين عن إخوانهم، وبالمقابل يورد لنا صورًا بطولية من أرض المعركة، ويبين لنا أن إسرائيل لا تستطيع أن تقف أمام الأبطال، لولا مساعدة الأم الرؤوم أمريكا من جهة، والصمت العربي من جهة ثانية، ويلاحظ اختيار الشاعر لعنوان القصيدة، لدليل واضح على أحاسيسه الباطنية تجاه إسرائيل ومن يساعدها، وإن اتخذت ألفاظًا مغايرة، يقول:

قم وقاتل

لا تكن ضمن الفريق المتخاذل

إن إسرائيل في لبنان تجتاح المنازل

تمضغ الأطفال تغتال الحوامل

خوف أن يولد طفل فيقاتل[1]

يلاحظ أن إسرائيل (تمضغ)، و(تغتال) بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار، وتعدد الفعل مرارًا وتكرارًا، ثم يتابع الشاعر أبياته مقدمًا لنا صورة للبطولة من قلعة «الشقيف»، صورة للمقاتلين الذين لقنوا العدو درسًا لن ينساه، عدد قليل والتضحية كبيرة، والإرادة والتصميم تفوقت على جحافل الصهيونية. يقول:

قم وقاتل

«الشقيف» الآن ملك للأراذل

هاجموها بالجحافل

---

(١) الخليج الثقافي: ملحق العدد (١١٧٧)، يونيو ١٩٨٢م، الشارقة، ص ٦.

واجهتهم بثلاثين مقاتل

والملايين بأرض الشام صم وكأن الغزو

عادي، وعادل

سلبوها بعدما ألقوا عليها كل أنواع

القنابل

سلموها «سعد حداد»، وقالوا:

لك يا «حداد»، خذها إنها إرث

أهاليك الأوائل

وتهادى «سعد حداد» عليها يركل

التاريخ ركلاً متواصل

هكذا أكد لنا الشاعر في أبياته السابقة، أن الأمور أصبحت في يد أكبر العملاء للعدو، سعد حداد الذي أبدع في تنفيذ المخطط، وهو ما ذكرته بالتفصيل في مطلع هذه الدراسة.

يدعو الشاعر في أبياته إلى قتال العدو الإسرائيلي، ويورد لنا صورة الدمار والخراب الذي خلّفته قنابل العدو الصهيوني وصواريخه، ولم يقاتل إلا الفدائي الفلسطيني واللبناني، والباقي داخل في اللعبة بالمشاركة الضمنية متمثلاً بصمته المريب، يقول:

قم وقاتل

إن دبابات «بيجن» حولت «صور»

«وصيدا» فضلات ومزابل

الفدائيون صدوها وكانوا

سادة الموت البواسل

قم وقاتل

ليس إسرائيل إلا ذئبة في عين جاهل

يتحاشاها ليحيا فارسًا بين الأرامل

صنعوها بالدعايات، وقالوا: جيش

إسرائيل جبار وطائل

قم وقاتل

ليس إسرائيل إلا ظل أميركا المماثل

هل ترى فرقًا عزيزي بين زنديق وسافل

ويؤكد الشاعر عمالة الكتائب، وتعاونهم مع العدو الصهيوني، وتمهيد الأمور لهم أثناء الاجتياح، بل واستضافة قادته مثل شارون في قصر بعبدا، يقول:

قم وقاتل

في «بعبدا» يجد المرء الهوائل

جيش إسرائيل فيها بدل القرش بشاقل

وأتى «شارون» ضيفًا عند بيار المخاتل

هل ترى بيار حقًا عربيًا يا أم فاضل

أم بأن العربي الآن يعني المتنازل!

ويفتخر الشاعر بصمود بيروت أثناء الحصار، ويرثي لحال الأمة العربية التي وقفت موقف الخلي المتفرج، أو إن شئت قل الداعم غير الرسمي لهذه الاجتياحات... يقول:

قم وقاتل

أن بيروت تدك الآن بالسلم اليهودي

لتهواها البلابل

باركوها من غيوم الجو أهدوها الزلازل

ثم جاءوا من حدود البر من كل السواحل

ليذيقوا أهلها طعم الأفاعي والسلاسل

أرأيتم مثل هذا السلم يومًا يا أم فاضل

ويحذر الشاعر في نهاية قصيدته من إسرائيل، ويقول بأن هذا المنظر ليس المنظر الأخير أو المشهد الأخير؛ لأن أطماع إسرائيل أبعد من لبنان، لذا عليكم بالنهوض، والقتال، وإلا سيجرفكم السيل إن بقيتم في غفوتكم وسباتكم، يقول:

قم وقاتل

أن غفوت اليوم فاعلم أن هذا النوم قاتل

إن أقاموا حكمهم في قلب بيروت ستَصلى

نارهم «بغداد» و«عمّان» «دمشقاً»، ثم يطوون

المعاقل!

يلاحظ أن الشاعر يتخذ من الجملة «قم وقاتل» منطلقاً ينطلق منه لفكرة جديدة أو صورة جديدة، أو تعمل هذه الجملة بمثابة الدفقة الثورية للشاعر، ويلاحظ أن القصيدة وإن اتخذت اللغة المباشرة أو التقريرية، فإن ذلك لم يشب أحاسيسها وصدق شعورها وحرارة عواطفها، أي شائبة.

أما الشاعر إبراهيم الخطيب راح يسأل جراحه، وهو متشكك في عروبته، فالتاريخ يخبرنا بأشياء عن كرامة العربي، ولكن الواقع يخبرنا بعكسها، فيقول:

آخر الشعر في مشارف بيروت	قواف بها القصيد ذبيح
أسأل الجرح من يعش على النزف	سيوحي إلى الأفاعي الفحيح
يا جراحي يا مسرح القتل أنّا	خلف عار السّتار من ذا يزيح
بتُّ في الشك إنني يعربي	ربَّ نبت قد شابه تلقيح[1]

وفي الديوان نفسه قصيدة تحت عنوان «ثلاثية الدم: صبرا.. شاتيلا.. تل الزعتر» يقول:

يا صبرا

للصبر حدود

لن أقضي عمري صبرا

---

(١) إبراهيم الخطيب: «غن لي غدي» دار الجاحظ - عمان ١٩٨٤م، ص ١٧.

إما أن أصنع نصرا

أو أحفر قبرا!!!![1]

أما الشاعر محمد مقدادي فيتذكر قتلى «الشقيف» فيشيد بهم وبدورهم في ساحة الوغى والقتال، فيقول:

وضعوا على كفيك قنبلة وقالوا

فجرِّيها

فتفجَّرت.. عيناك أغنية

يردِّدها الخريف

وتجمَّعت فيك الأمومة كلها في لحظة

وتعلَّقت

آهات قتلانا

على صدر «الشقيف»[2]

أما الشاعر أبو فراس النطافي، فيصف حال اللاجئين والضحايا، ويوصي بالوحدة العربية التى انطفأت، ويوصى بعدم التفرق، فيقول:

عصفت بلبنان الليالي السود	فالأرض نار، والسماء رعود
واللاجئون ضحية ذبحت على	أرض العروبة، والجناة يهود
أبناء لبنان الحبيب تنبهوا	ما هذه الأحقاد والتبديد
الدين لله العلي وأنتم	متفرقون ودينكم توحيد[3]

ويصور الشاعر محمد الظاهر مذبحة صبرا وشاتيلا على صورة أغنية يغنيها لطفله الصغير حتى يشب هذا الطفل جاهزًا للثأر، فيقول في قصيدة له بعنوان «نم يا ولدي

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢.

(٢) محمد مقدادي: أوجاع في منتجع الهم، مطبعة الحرية، أربد ١٩٨٤م، ص ٤٩.

(٣) أبو فراس النطافي: رحيق العذاب، الأردن، ١٩٨٢م، ص ١٥١.

نم» يقول فيها:[1]

نم يا ولدي نم
واذكر عند النوم
اذكر «صبرا»
أو «شاتيلا»
وتذكر شعبًا مقتولا
واذكر نهر الدم
نم يا ولدي نم
لكن قبل النوم
اعرف من قتلوك
واعرف من خذلوك
واعرف أي طريق
واعرف أي صديق
ينفع بعد النوم
نم يا ولدي نم
وانهض بعد النوم
انهض كالزلزال
لا تخش الأهوال
واعصف كالبركان
اشعل كل مكان
نم يا ولدي نم

---

(١) محمد الظاهر: قصائد لأطفال الآر بي جي، دار الكرمل للنشر، ط١، ١٩٨٤م.

هذه الكلمات البسيطة التي جاءت على لسان الشاعر، وهو يهدهد ولده قبل النوم، ويغرس فيه الشجاعة والبطولة. ويغرس فيه اليقظة والحيطة لمعرفة عدوه من صديقه، وعليه أن يتذكر دائمًا قبل النوم شهداء صبرا وشاتيلا، ولذا يجب أن يهب كالزلزال ويعصف كالبركان، ولذا غلب على القصيدة فعل الأمر الدال على الإصرار في غرس قيم معينة في الأطفال، وذلك من خلال الأفعال: «نم، اذكر، تذكر، اعرف، انهض، اعصف، اشعل...» مع ملاحظة أن فعل الأمر «اعرف» تكرار نحو أربع مرات في المقطع، ومعنى ذلك أن معرفة الشيء على حقيقته تسهم في إيجاد حلوله، فلو عرفنا حقيقة المأساة وأسبابها وأهدافها يسهل علينا مواجهة هذه الجحافل عن طريق قطع أذنابها.

وهناك الكثير من الشعراء الأردنيين تناولوا القضية بأحاسيسهم الملتهبة ومشاعرهم الجياشة، نذكر منهم: عبد الرحمن ياغي وقصيدته «أطفال صبرا وشاتيلا»، وخليل السواحري وقصيدته «أطفال المخيم»، ومحمد الظاهر وقصيدته «طفل من المخيم»، ويوسف عبد العزيز وقصيدته «حيفا تطير إلى الشقيف»... وغيرهم.

* * *

شعراء دولة الإمارات العربية المتحدة

تأثر شعراء الإمارات بمأساة لبنان، وبرحيل المقاومة الفلسطينية عنها، لقد فُجعوا بالأحداث الجسام التي حدثت فيها، كمذابح صبرا وشاتيلا، وكان وقعها كبيرًا على نفوسهم، وكذلك الحركة الوطنية اللبنانية كان لها من الوصف الرائع على لسان شعراء الإمارات هذه الحركة التي قدمت الشهداء مثل «سناء محيدلي»، و«ابتسام حرب»، و«نزيه القبرصلي» وغيرهم.

وهذه قصيدة طويلة رائعة على روح «سناء محيدلي» يوضح الشاعر فيها الهم والحزن العربي، والوضع المتردي للأمة العربية، والبطولة الرائدة التي قدمتها الفتاة العربية لتكون مثالاً يحتذى في هذه الأيام، هو الشاعر مانع سعيد العتيبة، يقول في قصيدة له بعنوان «رسالة من روح سناء»، وهي موجهة إلى الأمة العربية والإسلامية عامة، بل تمتد إلى الأمة الإنسانية، يقول:

فلتصمت الأبواق والخطباء ... قد آن أن يتكلم الشهداء

يا أمتي شعري رسول شهيدة ... غنّي ليوم زفافها الشعراء

كانت عروس بلادها لما مضت ... في موكب يرنو له العظماء

جعلت وصيتها لدي أمانة ... فأصابني يا أمتي الإعياء[1]

والعتيبة يتابع وصفه للشهيدة سناء محيدلي، العروس التي زفت إلى جنة الفردوس إنها أجمل حفل زفاف لسناء الطفلة، الفتاة التي لقنت جيش إسرائيل درسًا عن بطولة المرأة العربية، لقد أعادت أمجادنا السابقة، والتي تمثلت في النساء المسلمات اللواتي قاتلن في المعارك الإسلامية السابقة، وسقطن شهيدات، دفاعًا عن عقيدة أو أرض،

---

(١) د. مانع سعيد العتيبة: محطات على طريق العمر، أبو ظبي، ١٩٨٦م، ط٢، مطابع الفجر التجارية، ص ٢١.

ونعم الشهيدة سناء، ونعم كل من يسقط من أجل الدفاع عن دين الله، وللمحافظة على وطنه وعرضه، وليهنأ بالشهادة يقول:

وكتبت بالدم لا الدموع رسالة	منها إليك وللحروق ضياء
إن الكتابة بالدماء ضرورة	إن شاء هز ضميرك الشرفاء
يا أمتي هذي رسالة روحها	فلتسمعي ماذا تقول «سناء»
يا أمتي، هل تذكرين صبية	هامت بحبك، والهيام ولاء
أعطتك أغلى ما لديها، عمرها	أيضيع عندك للمحب عطاء
يا أمتي آمنت منذ طفولتي	إن الذين استشهدوا أحياء
وعد من الله العلي ووعده	دين له عند اللقاء وفاء
أنا لا أمن عليك، هذا واجبي	أديته ولي الخلود جزاء

حديث سناء محيدلي، الفتاة المجاهدة لأمتها، تشعر فيه بصدق النية، وقوة التصميم والإرادة، والإيمان بالله الذي يقول في محكم كتابه العزيز ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

ويؤكد لنا الشاعر بأن سناء قدمت روحها رخيصة من أجل الله، وحبًا في الشهادة، وتوجه سناء رسالة إلى أمتها التي تغرق في الدماء نتيجة الخلافات العربية، فالأخ يقاتل أخًا له، والعدو يقتل الاثنين معًا، ولكن الملاحظ الإيمان المطلق بقضيتها، وإيمانها بعدالة السماء التي ستعيد الحق لنصابه مهما تباعدت الأزمان، يقول العتيبة:

لكنني والليل فيك مخيم	وعلى العيون غشاوة سوداء
وتراب أرضي جف نبع عطائه	لا زرع فيه فيحصد الأبناء
وأخ يقاتل بالسلاح أخًا له	فيسرّ من جهليهما الأعداء
ما للحضارة فيهما أثر ولا	للجاهلية عنهما استغناء
تجتاح روحي غضبة قدسية	ويفيض منها للإله دعاء

والشاعر يدعو على لسان روح سناء رب العالمين أن يغير هذه الحال بأحسن

منها، وأن يزلزل الأرض تحت أقدام هؤلاء السفهاء الذين شبههم بالغربان والبوم، وهم مصدر الشؤم والخيانة والذلة لهذه الأمة، والاستعانة بالله مستمرة عند الشاعر من خلال أبيات قصيدته.. يقول:

يا رب زلزل أمـــتي بصـــواعق ... إن ظل يحكم أمـرها السـفـهـاء
أو ظلت الغـربان تنعق في الحـمى ... بين الدمـــاء فــلا يقـــوم بناء
أو بات الشــؤم فــوق خـــرابهـــا ... مـتـغنيًـا فـيـروقـهـا الإصـغـاء
أو ظل فـيــهـــا للخـيــانة منبـــر ... يدعـو إلى اسـتـسـلامـهـا فـتشـاء
يا رب زلـزلهـا فـمـا في عـيـشـهـا ... نفع ولا في مـــوتهـــا ضـــراء
ولـعـل زلـزال الإلـه يـهـــــزُّهـــا ... فـــيـــفـــيق من نوم الخنوع إباء
يا أمـــتي أيظل صـــوتي تائهـــا ... تصـغي له الأنقـاض والأشـلاء؟
يا أمـــتي هـذي الـرســـالة لابنة ... أعطتك مـــا لم يعطه الكرمـــاء
منحت ســراجك من دمـاء وريدها ... زيت الخلود فـــمـــاله إطفـــاء
فلتـقـرأ الأجـيـال مـجـد سطورها ... وليــفــهـم البـسطاء والعلمــاء
إن الكتـــابة بـالدمـــاء ولادة ... للفـجـر، فليـسـتـيـقظ القـراء

يذكر الشاعر أمته على لسان سناء، بأن هذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس، وراح يسأل الشاعر إن كانت هذه الأمة هي المقصودة بالآية الكريمة أم لا.. فإن كانت هي المقصودة فلم الذل والهوان؛ لأن أمة محمد ما عرفت الذل، ولكن أمرها الآن أصبح مجهولاً، وخبت شعلة الإيمان، وأصبحت ذليلة خانعة يقول:

يا أمـــتي هـل كنت أفـضل أمـــة ... فـــتـخـــيـرتك لما تريد ســمـــاء؟
هل أنت من أعطى لدين مـحـمـد ... جند الفـداء وعـــزٌّ منك فـــداء
إن كنت أنت، فكيف لم تتـمـــردي ... حين اســتـحـل ديارك الغـــرباء!!

وتنادي سناء محيدلي باكية حزينة على هذه الأمة، وتتقطع ألمًا لما أصابها من تفكك وانحلال، وأصبحت مقودة كالنعاج المسالمات. هذه سناء الفتاة الجميلة نقرأ رسالتها من خلال قصيدة مانع سعيد العتيبة، ولاحظ كثرة الأساليب الإنشائية من خلال الاستفهام،

والنداء، والتعجب، وغيرها وتغير الأساليب إيماء بضرورة تغير الأساليب العربية التي تتمثل في الصمت والاستكار.. يقول:

يا أمتي ظلم القريب أمر من	ظلم العدو، وليس فيه عزاء
روحي تنادي والأسى يجتاحها	يا أمة لعبت بها الأهواء
وتقاسم الزعماء حتى بؤسها	فسعى لنيل رضاهم البؤساء
فهنا زعيم هادر وصراخه	ما فيه للقوم الجياع غذاء
وهنا زعيم وزّعت أبواقه	خبز الكلام ليشبع الفقراء
خطب وتصفيق ومجد زائف	هل غير هذا قدّم الشعراء
يا أمتي أرض العروبة أصبحت	سجنًا فهل يتحرَّر السجناء؟!!

في البيت الأخير إشارة إلى الأحوال داخل البلدان العربية وما فيها من ظلم وعسف وجور من جانب الحكام، ويختم الشاعر قصيدته بأبيات كانت بمثابة الصفعة لأمة عربية نائمة.. يقول:

يا أمتي هذي الرسالة بُلِّغَتْ	بأمانة فليقرأ البلغاء
كتبت سناء حروفها بدمائها	فحروفها الحرية الحمراء
وإليك أهدتها فإن لم تقرأي	أو ضاع في استسلامك الإهداء
فعليك من روح الشهيدة لعنة	هل أنت والحجر الأصم سواء؟

ومن خلال قصيدته سناء محيدلي، نلمح البعد الإسلامي عند الشاعر، فهو يرى في الإسلام منقذًا للبشرية، ولهذه الأمة التي أصبحت تسير بلا وازع أو رادع، ونخر السوس عظمها، فأين لها من أمة الإسلام السابقة.. الأمة التي لا تقبل بالذل، ولا ترضى الهوان، والبعد الإسلامي يتدرج تحته البعد الوطني، وحب الأرض، والأمة العربية.

كما نلمح فيها أثر التراث العربي، وتأثر الشاعر بالمتنبي، وأحمد شوقي في بعض أبياتها.

وهذه مأساة لبنان وجراح بيروت، وأبطالها عند الشاعر العربي عارف الخاجة، هذا الشاعر الذي أبدع في وصف بيروت وصفًا بديعًا وبيروت عند الشاعر هي الجنة،

البطولة، الفداء، الشرف. الخيل العابرة، السكين، الجرح، الرحيل. والذنب العربي، بل الهم العربي، وهو يقول في قصيدة له بعنوان «سعد صايل». هذا البطل الذي قاد معركة بيروت ضد إسرائيل، لم يقتل أثناء القصف، ولكنه قتل بعد الخروج منها؟ سعد صايل نموذجًا للبطولة النادرة في هذا الزمن الجبان، يقول عارف الخاجة:

هي تفعيلاتك الكبرى مرايا

وانتعاشات وصايا

وطن يخلع عنه الكفنا

قام لله يغني الوطنا

قد ولدت الآن عشرين نبيا

وزمانًا أبديا

قد ولدت الآن شعبا

سوف يبقى

سوف يبقى

يأكل الصخر، ويرميه شظايا

يا فلسطين.. فلسطين.. سنأتي

خلف «سعد»

نحمل الشمس على الكفين مهرًا عربيا

هي أعراس الرسالات

مع العيد دفوف وبنادق

قد أتيت الآن صدرا

للمسيرات، وقامت البنادق

خلفك الموكب من «صبرا وشاتيلا»

يرش الأرض تفاحًا وزيتونًا، وغابات زنابق[1]

ويؤكد الشاعر بأن سعد صايل خسرناه جميعًا، وذهب ضحية للزعامات الواهية، وعرج الشاعر على ذكر اليهود، وذكّرنا بخبثهم وأحقادهم على مرِّ الأزمان، منذ القدم حتى الآن، يقول:

ليس للأوس وللخزرج فتح في بعاث

قد ولدت الآن للأنصار دربا

ليس غير الثأر.. غير الثأر

ها هم قينقاع

والنضير

أيها القادم ربانا،

لأمواج الهجير

قد قرأناك منارات تغني للصواري

وتراتيل الصباحات الموشاة

برحلات الكناري

وفي قصيدة «بيروت - كيف نأتي» يقارن عارف الخاجة بين بيروت البطلة وبيننا نحن الضعفاء وبين بيروت الصامدة ونحن الهاربون، وبين الدفء والبرد، الخير والشر، والخصب والجدب بين أبطال ومتخاذلين، يقول:

عينان للتاريخ أنت الثانيه

بيروت يا دفئ الشتاء وموجة

تمتد في وهج القطوف الدانيه

مطرًا تحرق في الغيوب

ومولدًا للخيل ترقص في ربوع الباديه

(١) عارف الخاجة: بيروت وجمرة العقبة، الكويت: ص ٥، ٦.

بيروت يا ضد الغروب

وأنجما تختال في عرس المدائن والحروب

تلملم الأحلام في كفّين

حين تلملم التاريخ للفقراء

تبسط شعرها

فوق الزمان

وفوق عشاق البلاد النائيه[1]

لاحظ قوله «بيروت يا ضد الغروب»، وما فيها من كناية عن الإشراق الدائم، والبقاء المستمر، وكيف لا، وهي عروس المدائن التي تبسط شعرها فوق الزمان، ويتابع الشاعر أبياته مشبهًا بيروت بالغادة الحسناء، والكل يتجه صوبها ليبث خلجات قلبه وأحزانه المتراكمة.. يقول:

بيروت يا حسناء تحملنا

على نهد السواقي قبلتين

تحلّقان أمام شمس ثائره

نلقاك في روح السماء

وفي البراري

في عيون البحر ذاكره

بيروت هي الموئل، هي عيشة الأحرار، وأرض العروبة، والروضة، وقفنا نراقبها، كيف حوصرت؟ كيف سقطت؟ كيف رحلوا؟ ما سبب الرحيل؟ علام اتفق العرب أثناء حصارها؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ أسئلة كثيرة نجدها على لسان الشاعر خلال أبياته المليئة بالنقمة والحسرة على هذه الأمة المتخاذلة، يقول:

بيروت يا روض العروبة وابتداء الأزمنه

(١) المصدر نفسه.

نحن الثكالى الهائمين الغارمين

نغلف التاريخ بعدها

ثم نبحث عن بقايا العمر بين الأرصفه

ونبيع عورات النساء على النساء

لقاء بعض الأرغفه

نحن الحيارى الغارقين المعدمين الصامتين

نقلّب الأوراق

علّ الغيب يخرج ناشرا

من مقلتينا الأشرعه

جئنا إليك في القيامة راكبين الدائره

نتقمّص اللحظات من بيروت طفلا

يرتدي عرق القصيدة.. يبتني

من لحم أمه صرخة

تمتد من عرش الشهيد إلى عروبتنا الشهيده

من رحى سجن العشيق

إلى فلسطين العشيقه

ويؤكد الشاعر على عمق الجراح الغائرة، وشدة الحزن، والمأساة لأهل بيروت العنيدة الصامدة، فيقول:

فإيه يا بيروت.. يا بيروت

في عينيك ينقض الصباح

وترقص الأعراس

تنهمر الشموس

وتقتح الأجراس للوديان

من صخب الجميع رسالتين وموجتين

ونحن ما زلنا نسائل مقلتيك،

ونسأل الصوت المدوي

كيف نأتي.. كيف نأتي

والعروبة أمَّها في العيد حاخام الغزاة!!

وسبّحت باسم التنازل في الصلاة؟؟!!!

لاحظ السطرين الأخيرين، وما فيهما من رمز وكناية، فالذي يؤم العرب في العيد «حاخام» - فهو الإمام، وعلينا الاتباع. وأصبحت صلاتنا «ترنيمات» التنازل عن حقوقنا المغتصبة...

أما قصيدة «بيروت.. النهر المتجمد» فهي مطولة رائعة، تقدم لنا صورة العفن العربي، والنكوص والتآمر الذي دار حول بيروت المحاصرة، وقد تجمدت الدماء العربية، وأصبحت باردة لا تعرف النخوة أو النجدة، ونلاحظ في هذه الأبيات توضيحًا للوضع المتردي، بل المزري لأمة العرب،التي أطفأت النور الذي جاء من فلسطين إلى بيروت، أحبت العيش في مواخير الظلام هكذا أرادت، ولم تقدم هذه الأمة لبيروت.. إلا برقيات التنديد والشجب، وربما بعد الاستئذان من ماكر غادر.. يقول:

فيا بيروت أتاك النصر يحدق من برقيات النكران[1]

وتتجلى إيحاءات الشاعر حين يورد صورة «لنزيه» الطفل الذي خرج مقاتلاً، لم نجد أحدًا يقف بجانب هذا الطفل حين سقط شهيدًا، وكل الرموز سقطت كأوراق الخريف التالفة حين تلقى بها الريح في مكان سحيق، ونلمح نقمة الشاعر، وحسه الثوري من خلال كل مقطع من مقاطع هذه القصيدة الثورية، ولكن النفس الوطني، والبعد القومي عند الشاعر نجدهما في قتال مستمر مع العجز العربي والجهل والقهر، والسجن العربي مكمِّم الأفواه، مجتث الحرية وائدها إلى الأبد، وسجَّانها يرتدي العباءة وينطق بالضاد، ولكنها ضاد تغلفها العجمة، يقول:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤.

طفل خرج الأمس إلى الألغام

ومر «بصيدا»

من ينكر في الجنة وردا

سلمها درسًا للقمه

نفثًا للعضة في الخيمه

قلنا:

والناس مع الحشر الأصغر

همس نوايا لقذائف

لا تفتح إلا سوءتها

لطوائف تخشاك طوائف

لا تزأر إلا في الطا.......

طافت امرأة بك حبلى

مرت بعواصم موتانا

أخرجت عيونك زلزلة

أسرت...

والورق المكلوب الخائف

خافوك، ولست سوى «الواقف»

وبعدما وصف الشاعر الحال العربي المتخاذل بقوله: «عواصم موتانا»، يأتي إلى خاتمة القصيدة، مؤكدًا على عمق المأساة، وغور الجرح في الجسد العربي المنخور بالسوس الأمريكي.. يقول:

قنبلة تتفسخ

في بيروت وفي الأوهام

وقنبلة تتوعدكم

قنبلة تترنح

في التابوت وفي الأعلام

وقنبلة تتخللكم

وله، والهادر في عيني

حتف يتصلب في حتفي

تتنفس أغنيتي بيني

صبرا، والهجر بها يكفي

قلنا:

وأتيت فتيلا

ورحلت فتيلا

وتركت وراءك

اثنين وعشرين قتيلا

ربما كان العدد في السطر الأخير «اثنين وعشرين قتيلا» يشير إلى الدول العربية القتيلة آية ذلك قوله معرِّضًا بالأمة العربية «صبرا والهجر بها يكفي»، وإذا كانت الدول العربية تهجر صبرا، فهي إذن المقصودة في السطر الأخير. لقد غنى عارف الخاجة للشهداء، للمقاومة في بيروت، للحركة الوطنية اللبنانية، شعرًا يخرج إلى صدق العاطفة، يرمز إلى حب الأرض، والفداء والتضحية، ويدخل إلى زوايا الزمن المتفسخ بقبائله، ليرسم البعد الحقيقي، والطريق الصحيح لوطن يحيا على دم الشهداء.

أما الشاعر ناصر جبران، فقد كتب شعرًا عن مأساة لبنان، وعن رحيل المقاومة، ودبج قصائده بفخر بأبطال الحركة الوطنية اللبنانية.

يقول في قصيدة له بعنوان «ماذا لو تركوا الخيل تمضي» مبينًا عمق المأساة والهزال العربي، ومشيدًا بصمود المقاومة:

على حد السيف الزاحف

أمضي كالشفق المغسول بلون الدم

أنتزع الخوف

أزحف في بطء الليل

أجرجر جسدًا مشلولا

أقلِّب أعضاء الصمت

فلعل الأخرس من ذاتي

ينطق

وأواري الرعشة في الجوف

أدخل ذاكرتي

أبحث عن اسمي.. عني

وعني يبحث عني، ويطول الدرب

وتمضي راحلتي تتعرج

مثل وريد القلب

أتعثَّر.. أنهض.. أتعثَّر

أكمل رحل الأيام الصدئة

أتلكأ كالمسلول ببيداء الماضي[1]

لاحظ تداخل الضمائر في النص من خلال - مثلاً - «أدخل ذاكرتي.. أبحث عن اسمي.. عني.. عني.. يبحث عني..» هذا التداخل يشير إلى حالة التخبط التي يعيشها العربي، فلا يعرف عدوه من صديقه، أو هي حالة يعيشها العربي مع أخيه العربي.

الخيل تصهل في جنوب لبنان، وتستحث العرب على الوقوف بجانبها، وعدم كبح جماحها، بل إن الدماء النقية في جنوب لبنان تنادي أصحاب القيم والمبادئ، بأن يلبوا النداء ويكونوا معها في السراء والضراء، لحماية الأرض والإنسان من قطعان الذئاب

---

(١) ناصر جبران: ماذا لو تركوا الخيل تمضي - منشورات المجلس الثقافي اللبناني الجنوبي، واللجنة الدائمة لمناصرة المقاومة الوطنية اللبنانية - الإمارات العربية المتحدة: ص ١٨.

الجائعة.. يقول:

ويترك لبنان

أرضًا تنهشها ذئاب الليل

قوّس جثته وتحدّب

وحمى كل الأطراف

إلا النهر المبتور

كانت تعلكه الأنياب

هل كفّت ذئاب الليل

هل كلّت تلك الأنياب

لا.. بل زادت شرها

وجالت قطعانًا تتمخطر، والكل نيام

ويمضي صاحب الخيل في أبياته موضحًا الصورة السوداء التي وصل إليها العرب وأصبح لا يهمهم إلا الغانيات، والدولارات التي لا تساوي قطرة دم عربية أو دمعة طفل حائر، أو صرخة ثكلى مكلومة، يقول:

لن تجدي هذي الدولارات

لن تغسل عار خيانتهم

لو فرشوا كل الأرض العربية ذهبا

ما ساوت شريانًا ينبض

ما ساوت طلقة جندي يسقط

أو دمعة طفل يتعثر بين الأنقاض

ومأساة لبنان تجلّت في شعر محمد شريف الشيباني، لينقل لنا الألم والحسرة من خلال ديوانه «أعراس الضحايا»، وفي قصيدة له بعنوان «أيها التاريخ سجل» يتضح لنا أن الشاعر يبكي ويتحسر على الآلاف الذين سقطوا داخل بيروت أثناء الحصار، لقد

سقطت الضحايا من قبل العدو الذي حاصر بيروت برًا وبحرًا وجوًا. وجيوش الإسلام والعرب في نوم عميق، ونجد الشاعر يصرخ من شدة الألم، ينادي الأمة العربية لتنهض من غفوتها، بعدما طال سباتها العميق.. يقول:

إنه التاريخ

قد يشهد في أيامنا فصل عجيب..

وفريد في الغرابه

إنه فصل بتاريخ بني قومي

أقاصيص كآبه

إنه التاريخ..

لا يرحم من بارز خصما

بمقال أو خطابه..

كشفت مجزرة الغدر.. بلبنان..

لعورات، وسوءات المدارك..

إنه فصل..

يدين الصمت، في خوض المعارك.

اتضحت كل ألاعيب،

الفنون القذرة...

انكشفت أقنعة الجبن..

وكانت في دهاليز الخفا..

مستتره...

من هو البائع والشاري..؟

ومن راهن في قبض الثمن..؟

تُرجمت كل الشعارات..

التي توحي بإعلاء الوطن[1]

يصرخ الشاعر داعيًا الأمة العربية إلى النهوض من نومها، والاستفادة من درس حصار بيروت، ويحفز الهمم خوفًا من التشرذم والاضمحلال لهذه الأمة التي باتت على حافة الهاوية بعدما ضاعت فلسطين، والآن لبنان على الطريق.

أمة العرب أفيقي..

من سبات وهنات..

واحفظي من درس بيروت

دروسًا للحياة

واستعيدي شرفا..

غالته إسرائيل عدوانًا وغفله..

درس بيروت..

هو العار الذي يصعب غسله..

والشاعر يؤكد على أن العار الذي لحق بالعرب أثناء حصار بيروت، يصعب غسله ونحن بهذه الصورة، أمة ابتعدت عن جادة الطريق، وتفرّقت بها السبل والأهواء، ولكن رغم العذاب، ورغم الدمار والشقاء الذي ألم ببيروت، فإن الصمود هو عنوان ونبراس هذه الأمة التي لم تستجب إلا لصوت الحق، وهذه الفئة القليلة لقنت إسرائيل وعملاءها درسًا قاسيًا في فنون الصمود والتحدي، والإيمان بالقضية، وهو درس لن ينسوه.. يقول:

إنهم أبطال قد خاضوا المعارك..

بأزقاق الشوارع

بالبنادق

شارك الشبان والأطفال فيها

---

(١) محمد شريف الشيباني: أعراس الضحايا - مؤسسة الموسوعة الخليجية في دولة الإمارات، ص ١٩.

في ممرات الخنادق

واجهوا ما أنتجت ترسانة العدوان..

(أمريكا) سلاحًا، وقتالاً..

ومشانق..

ليس يُعزى لبني صهيون..

في بيروت نصر أو غنيمه..

لا.. ولا.. كلا..

لتحرير فلسطين هزيمه..

هو عرس للبطولات..

التي تهتف كانت..

بالزغاريد..

أناشيد رخيمه...

هو حزن.. هو دمع

سال..

من صمت، وخذلان..

لأهداف جسيمه..

من خلال الأبيات السابقة يتبين لنا تمسك الشاعر بشعبه، ورغم كبر المأساة، وعمق الجرح، فإن الشاعر يسخر من الأمة العربية لسكوتها على حصار بيروت، واجتياح لبنان، واحتلال فلسطين، ويطلب منها أن ترفض المحتل، وينعت الشاعر هذه الأمة بالبله، والخرس، وإلا كيف تسمح لبني صهيون أن يدنسوا الأرض العربية؟ وهم واقفون لا يتحركون لنجدة طفل يصرخ أو لأرملة تبكي، يقول:

أمة العُرب اصمتي...

حتى المنام..

بل.. ولا تستيقظي..

واتركي صهيون في عدوانها..

تعبث غيا..

بفلسطين الفدا

ليل نهار..

علك ترضين ما لا ترتضي..

أو ترفضي..!!

إنها تجتاح «بيروت، ولبنان»..

وأرضًا، وبقاعا..

كل ذا لم تنهضي..؟!

كل ذا أمتي صامتة..

خرسا..

ولا تعترضي؟

كل ذا في مسمع الدنيا ومنظر

بلهاء..

إننا - حقًا - إذا ما نتصور..

إننا في مأمن..

إذ ليس من صهيون..

عدوان علينا يتكرر..!!

وحزن الشاعر وتأثره على رحيل الفدائيين الفلسطينيين من بيروت يبدو واضحًا من خلال مقاطعه المختلفة، ويشير الشاعر بصراحة إلى اللعبة التي حيكت ضد أبطال بيروت، ونفذت بتعاون من أطراف متعددة، رحل الشرفاء عن الأرض التي بكت دمًا عليهم؛ لأنها أحبت فيهم الرجولة، والبطولة، يقول:

نجحت صهيون في تشتيت

أبطال الكفاح..

والنضال...

نجحت في وضع أحرار الفدائيين

رهن الاعتقال

نجحت صهيون في أهدافها

اللاتي..

تخطط في دهاليز الخفاء..

هدف كان وفي أبعاده

ترحيل كل الشرفاء

ويؤكد الشاعر على الصمت العربي والخذلان والذل اللذين عما أمة العرب من شرقها لغربها.

أسمعتم.. يا ترى..أصوات

صيحات الثواكل..؟

أفهل طابت لكم أخبار بيروت..

وهاتيك الفعائل..؟!

أسمعتم لنساء تندب القتلى

من الأهل، من الصحب، من الولد،

وتشريد العوائل؟!

ويفخر محمد شريف الشيباني بالفلسطيني؛ لأنه الصامد والمدافع عن الوطن والأرض والعرض، هو الثورة، البركان، البذرة التي تنتج تثمر الأبطال لتسير على طريق الشهامة وقصيدته «أنا كل فلسطيني» تؤكد تلك الحقيقة، يقول:

أنا الصامد في الثورة..

ورافع مشعل الثوره

أنا البذرة..

سأغرسها نضالاً عبر تكويني

لتنمو عبرها الأجيال في شتى الميادين

أنا الصامد في الثورة..

أنا كل فلسطيني(١)

ويتابع الشاعر افتخاره بالفلسطيني؛ لأنه كل شيء حي يكافح عن الأرض، ويكافح عن العرض والدين، وفي المقطع التالي يلاحظ تكرار «المبتدأ» أنا، ولكن «الخبر» متغير، فهو أرض، وصقع، وشهداء، ووجدان، وصور، وصيدا، وبيروت، وقبر، ويلاحظ اختلاط الرمز «غسان كنفاني» - مثلاً - بالمكان «صور» - مثلاً - وبين ثبات المبتدأ/ أنا/ الفلسطيني، وتغير الخبر على امتداد القصيدة تكون الدلالة، يقول:

أنا الأرض التي تولد بركانا

أنا الصقع الذي يصنع أبطالاً وإنسانا..

أنا من «دير ياسين» أنا من «كفر قاسم»

أنا الأسود أيلول، و«تل الزعتر» الأحمر..

أنا «غسان كنفاني»

أنا الشهداء يوم الأرض..

أنا وجدان إنسان يصون شرف العرض

أنا «صور».. أنا «صيدا»

أنا «بيروت» في «لبنان»

أنا القبر الذي قد صار محفورا

بعزم السيف والساعد..

---

(١) المصدر نفسه: ص ٣٩.

عبارات وكلمات بسيطة جاءت على لسانه، وبساطتها لأنها صدرت عن عاطفة صادقة، صاحبها ينتمي لأمة العرب الذين ما زالت عندهم النخوة والشهامة وحب العرب والمسلمين، لذا نلمح في شعره مطابقته للواقع، ومعالجته لأمور الساعة، ولأحداث وهموم الأمة العربية.

وأما هاشم الموسوي، فقد تألم لمأساة لبنان الجميل، وأحزنه، ونهر الدم المتدفق من الأخوة، وآلمه أن تعربد عصابة صهيونية في لبنان، وتقتل الأطفال والنساء على أيدي العملاء، يقول في قصيدة له بعنوان «أنا لم أقصد الهجوم»:

ذاك لبنان والجـــراح نزيف	مـستـمـر يفيض منه الغدير
فـتنة تتـرك القلوب فـتـاتا	ورزايا يشـيب منهـا الصـغيـر
وثكالى تصـايحت كـأوز	أثقل الثكل خطوها والمسـيـر
هجروها فـيا لبؤس الثكالى	بعد ثكل ينتابها التهجير
هدموا الكوخ، أهدروا الحق غدرا	روّعوا الطفل والقتيل يخور
ودم الشـيخ شـاهد في ثراه	أن تغشّاه «منكر ونكيـر»
ويح لبنان والقـريحة تبكي	ونفـوس مطهـرات تفـور
قـرب الصـبح لم تظل طويلا	عـتمة الظلم والعذاب المرير[1]

والشاعر يتفاءل رغم الجراح، وأصوات الثكالى، وأنين الجرحى، بأن الظلم زائل والعتمة زائلة، وسوف يطل فجر مشرق بالنصر، لتنتهي رحلة العذاب المريرة.

ومن نافلة القول أن هناك العديد من شعراء الإمارات بكوا المأساة، وهالهم ترويع الآمنين، نذكر منهم على سبيل المثال، الشاعرة العنود، وقصائدها «دمي فصيلة نادرة»، «مدينتان تحت سماء واحدة» وغيرها...

* * *

(١) قيلت هذه القصيدة في عيد ميلاد الجامعة العربية الخامس والثلاثين، وألقيت في الأمسية الشعرية التي أقامتها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بمسرح مدينة تونس يوم السبت ٥ من جمادى الأولى ١٤٠٠هـ - الموافق ٢٢/ ٣/ ١٩٨٠م، نقلاً عن مأساة بيروت: ص ٥١٠.

شعراء البحرين

الشاعر لا تحده الأقطار، ولا تضمه الديار، ينفعل بالحدث أينما كان، يشعر بآلام المتألمين، ويصرخ لدموع الجرحى، وقد كان لمأساة لبنان الأثر العميق لدى شعراء البحرين، فقد أحدثت تلك المأساة صدى قويًا لدى البحرنيين، ومن هؤلاء الشعراء الشاعرة منى غزال التي راحت تبكي الأمة العربية من خلال تلك المأساة التي كشفت المخادعين وأسقطت القناع عن المرائين والمزايدين، فالقضية لم تكن قضية لبنان إنما هي قضية أمة تتاجر بالزيف، تقول الشاعرة في قصيدة لها:

شرائعنا ضحايانا

هذي ضمائرنا

هذي ضحايانا

هذي شرائعنا

لحن جديد اللون أرهقنا

حتى حفظناه

أفيونه سافر في آلامنا

خدَّرها .. فامتصصناه

(...) هذي شرائعنا

قتل، وبارود ونيران نضاجعها

شيطاننا سلطاننا بالسر منتحر

(...) لا عرف يجمعنا - أو ماء.. ولا دم أو لغة أو بيتًا يومًا بنيناه

هذي شرائعنا تحاكمنا

فتحكمها

ونترك للتاريخ أوراقًا يسوِّدها

وآملاً يبدِّدها!!!![1]

لاحظ تغيُّر الدلالة في كلمة «شرائعنا»، فهي تارة الأعراف والتقاليد المتوارثة، والتي أصبحت ضحية لنا، نلعب بها، وهي أحيانًا تمثل شريعة الغاب، فهي قتل وبارود ونيران. ثم لاحظ قولها «شيطاننا سلطاننا»، فدلالة تركيب الجملة، بتقديم «الشيطان» على «السلطان»، وكأنها تعرِّف الشيطان فتحصره في السلطان فقط، أو أن السلطان هو عينه الشيطان.

ثم لاحظ - أيضًا - أن الحروب العربية/ العربية، متمثلة في الحرب الأهلية في لبنان، تعطي دلالة وإشارة إلى أنه لا عرف يجمعنا، لا ولا ماء ولا دماء، ولا لغة، ولا حتى دين واحد نلتف حوله ونرفع لواءه.. وهكذا أصبحنا في مهب الريح يحركنا التاريخ ويلقي بنا في مكان سحيق، بعدما بدد آمالنا وحطم أحلامنا، على صخرة الخلافات العربية/ العربية، التي ما زلنا نعيشها حتى اللحظة!!

* * *

---

(١) الخليج الثقافي العدد (٢٧٥٠)، نوفمبر ١٩٨٦م، ص ١٦، نقلاً عن مأساة بيروت، ص ٥٥٨.

شعراء المملكة العربية السعودية

لم يقف شعراء المملكة تجاه مأساة لبنان، والحرب التي حولتها إلى جحيم، من شدة القصف، والقتل، وتدمير المدن والقرى، وارتكاب المذابح مثل تل الزعتر، ومذابح صبرا وشاتيلا وقانا مكتوفي الأيدي، بل راحوا يصرخون بحناجرهم، منددين بالأفعال الغاشمة تجاه الشعب الأعزل، وكان على رأس شعراء السعودية، الشاعر الكبير غازي القصيبي الذي كتب قصيدة رائعة في صورها وأسلوبها، ومطابقتها للحال الذي نعيشه، هذه القصيدة مهداة إلى أبرياء تل الزعتر.. وصبرا وشاتيلا.. والمجازر الآتية.. يقول غازي القصيبي في قصيدته «نهر من دم» موضحًا فيها بأن نهر الدم العربي ما زال يتدفق بغزارة، ويشن الشاعر هجومًا على الزعماء العرب الذين يراقبون سفك دماء شعبهم من بروج عاجية، ولا يحركون ساكنًا، ولا يوقفون متحركًا، يقول منتقدًا:

نهر من الدم.. فامشي فيه واغتسلي	من الجنابة.. يا أنثى بلا خجل
تأملي جثث الأشياخ.. وانفعلي!	وطالعي جثث الأطفال.. واشتعلي!
ماذا يخيفك؟ هل بعد الحمام ردى؟	وهل سوى الأجل المحتوم من أجل؟
ها أنت.. فقومي الآن وانتفضي!	قد يصبح الموت ميعادًا مع الأزل[1]

الأنثى التي يقصدها الشاعر، ويخاطبها هي الأمة العربية المغلوب على أمرها.. تلك الأنثى أمامها نهر من الدم، وعليها الاغتسال من الجنابة حتى تتطهر من نجاستها، وعلى تلك الأنثى/ الأمة العربية أن تطالع الأطفال والشيوخ، ولا تخف، فليس بعد الحمام من ردى.

ويتصاعد نفسه الشعري الحزين على أمته، ومع نهر الدم العربي، قائلاً:

(١) جريدة الجزيرة - نهر من دم - شعر الدكتور غازي القصيبي، ص ١١، الأحد ١٦ من صفر ١٤٠٤هـ - نوفمبر ١٩٨٣م، العدد (٤٠٧٠).

نهر من الدم فامشي فيه وارتشفي	حتى الثمالة.. يا أضحوكة الدول
قالوا «فلسطين».. قلت الحين عاجلها	فاستسلمت لمدى الجاني على عجل

ويؤكد الشاعر بأن الزعامات كلها فرحت لما حدث لفلسطين، وما يحدث لهم في ولبنان من قتل وتشريد وترحيل... وأن تلك الزعامات ألقت التهم على بعضها عساها تنجو من عذابات الضمير، فيقول:

«أبو فلان» يغني فوق جثتها	كما يغني غراب وحشة الطل
يقول: ما الذنب ذنبي.. إن قاتلها	«أبو فلان».. ومن أغواه بالحيل
قتلتموها جميعًا إن واحدكم	«أبا الخديعة» أضحى أو «أبا الدجل»
ونحن من خلفكم.. ما بيننا رجل	لم تختضب يده بالأحمر الهطل

يصرح الشاعر بأن أمة العرب اعتادت على الشقاق، والهزيمة أصبحت عنوانًا لها، وجرائم زعماء أمة العرب في كل مكان، تشهد عليهم بمضاء عزيمتهم، وسكينهم الذي يذبحون به شعبهم، وينتفخون في محافل الود، ويتزآرون على شعوبهم، يقول:

قالوا العروبة.. قلنا أمة فطرت	على الشقاق فصارت مضرب المثل
في كل شبر زعيم رافع علما	يقول: إني وحيد الناس في مثلي
تمشي الهزيمة مشيًا فوق منكبه	لكنه باحتفال النصر في شغل
في كل شبر زعيم مدَّ قبضته	على الجموع.. فلم تفعل.. ولم تقل
في كل شبر زعيم مَنْ ينافسه	على الزعامة.. أضحى طعمه الأسل

قدم لنا الشاعر صورة واضحة للأمة العربية المتقاتلة مع بعضها، والعدو يضرب الشعب العربي في بيروت وفلسطين، ويذبح الأطفال في مخيمات جنوب لبنان، ويحرقهم بقنابله، وسيف الأمة العربية مغمد، ولا يسل إلا في وجه العربي، لقد أصبحت الأمة أضحوكة الزمن بسبب التخلف والجهل والاستعمار الذي يدير المركبة، وكأنه يستلهم أحاسيس المتنبي، في قوله:

....	يا أمة ضحكت من جهلها الأمم[1]

---

(١) من قصيدة يهجو المتنبي بها كافور الإخشيدي، ومطلعها:

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم	أين المحاجم يا كافور والجلم

انظر: شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري: ٤/ ١٥٠.

وقصيدة أخرى للشاعر غازي القصيبي بعنوان «على ضفائر سناء». يوضح في قصيدته صورة سناء المشرقة، الشهيدة التي فجرت صفوف العدو الصهيوني.

يرسم الشاعر تفاصيل يوم الشهادة، وما نلمحه من إصرار في عيونها السوداء، نلمح الغضب في عينيها، نلمحها وهي تقبّل والدها ووالدتها، لتنطلق إلى زفاف الخلود، انطلقت دون وداعنا نحن الأقزام والأصنام، فكانت قصيدة، تغنيها صباح مساء، يقول:

أوت إلى فراشها

في جبينها وصيه

وفي العيون السود شعله

غاضبة شهيه

واستيقظت

فودعت صباها

وقبّلت جبهة أمها

ولثمت أباها

وانطلقت إلى الزفاف بالمنيه

وأصبحت شهيدة أسطورة فريده

في العالم الموبوء بالأقزام والأصنام

والقصيدة

سناء..[1]

ويؤكد الشاعر بأن سناء حققت ما لم يستطع الرجال تحقيقه، لذا يطلب الشاعر من الرجال أن يتحجبوا فهم والنساء سواء بسواء، عليهم أن يتواروا خلف الستار، فقد فشلوا في الحروب، وفشلوا في إثبات الرجولة، فليتهم يصبحوا نساء، ربما يلدن مثل سناء، يقول موجهًا خطابه لسادة القبيلة العربية:

(١) الخليج الثقافي ملحق العدد ٢٥٢١ رقم ٢٥٤، الاثنين ١٥ من جمادى الثانية ١٤٠٦هـ - فبراير ١٩٨٦م، الإمارات العربية المتحدة، ص ٤.

تحجَّبوا.. تحجَّبوا

يا سادة القبيله

كي لا تمر عينها النبيله

يا أيها الرجال

تحجَّبوا يا أيها الرجال

قد فشلتم كلكم

في حومة النضال

وقد هربتم كلكم

حين حمي القتال

لم تقدروا أن تصبحوا رجال

فحاولوا أن تصبحوا نساء

وحاولوا أن تلدوا

صبية وحيده

أن تلدوا

سناء

ولغازي القصيبي - أيضًا - قصيدة عن حرب تموز ٢٠٠٦م يخاطب فيها رجال الجنوب، يعزيهم ويشد من أزرهم، فهم وحدهم في معرك القتال، لا أحد يشد من أزرهم، ماتت الهمم العربية، وتفرقت النخوة في متاهات الضلالة، يقول:

وفي كل يوم تموت.. وتحيا

تموت.. وتحيا

كأنك - وحدك - خلّ الحياة

وعشق المَمات

وفي كل يوم نجيئك..

نحتضن الطفل في مهده

ثم نتلو عليه طقوس الوفاه[1]

وأطفال صبرا وشاتيلا، وحصار بيروت، ومأساة لبنان، والوضع المتردي للأمة العربية نجد ذلك كله عند الشاعر عبد المحسن مسلم في قصيدة له بعنوان «تصحيح في معلقة عمرو بن كلثوم»، ويوضح الشاعر الصورة الغائمة، ويبين لنا بأن العرب وقفوا متفرجين على مذبحة صبرا وشاتيلا، ولم نسمع منهم إلا التهديد والوعيد والتنديد والشجب، والمقولات المعهودة في أي مناسبة، وقد استهل قصيدته بقوله: «عندما تكون القصيدة سببًا في بكاء الشاعر تصبح مصبلاً ضد النسيان».

والشاعر في القصيدة يستلهم نصًا عربيًا جاهليًا يعدُّ من أبدع ما أنتجته القريحة العربية، وهي معلقة عمرو بن كلثوم، وهي نصٌّ يمثل الإباء العربي، والكرامة العربية التي ضاعت أو كادت أن تضيع بفعل فاعل مشهور ومعروف.

والشاعر في القصيدة يبدو معتذرًا عن واقعنا العربي الراهن، آية ذلك جملته الشعرية «أبيت اللعن»، والتي أراها تتناص مع قول النابغة الذبياني معتذرًا للنعمان:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني	وتلك التي أهتم منها وأنصب[2]

ولكن شتان بين الاعتذارين، وشتان بين الموقفين!! يقول عبد المحسن مسلم:

«أبيت اللعن» عذرًا إن هذي	قصيدتي التي كانت جنينا
قصيدتي التي ستظل تبكي	دمًا حرًا أمام السامعينا
ولا نبكي «لأعراض الصبايا»	ونركض «للسلام» إذا دُعينا
وعند صغار «شاتيلا» وقفنا	على أشلائهم «متفرجينا»
و«صبرا» تستغيث ولا مجيب	كأن صراخها أمسى لحونا
وكم بالثأر هددنا «وقلنا»	سنفتك بالطغاة المعتدينا
سنسحق كل طاغية حقير	ونشرب من دماء الظالمينا
ونبني من جماجمهم صروحا	ونملأ من سباياهم سجونا

(١) صحيفة الحياة اللندنية في ٢٤/ ٨/ ٢٠٠٦م.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، شرح د. عمر فاروق الطباع، دار القلم - بيروت: ص ٢٤.

ونطعم من لحـومـهم الضـواري ونرمـي للكلاب.. الميـتـينا

على أشـلائهم سنقـيم عـرسـا ونـرقص فـي مـآتمـهم سنينا

وأن «القـدس» سـوف تعـود يومـا ونحن بذاك أقـسـمنا يمينا

سنمـسح دمع «صـبـرا» بانتـقـام وبالأبطال سـوف نـرد «سـينا»

ونهـدي جـرح «شـاتيـلا» شـفـاء وفي «الجولان» نغدو الحاكمينا[1]

وبعد هذه المعاني ذات البعد الدلالي الواضح، وهو تفكك الأمة العربية، وانهزامها وكلامها الكثير، وفعلها القليل، يختم قصيدته قائلاً:

فكم يعـزى إلى «الإسـلام» ذنب وكل الذنب ذنب «المسلمـينا»

نعم العلة ليست في الدين، ولكنه في الأمة التي ابتعدت عن دينها وانحرفت عن جادة الطريق.

الحرب الأهلية التي عمَّت لبنان، وتسببت في خرابه، واستبدلت الخراب بالجنان الغناء، هو ما جعل الشاعر عثمان بن سيَّار المحارب يقول في إحدى خماسياته:

أين لبنان الشـواطي والجـبل والثـقـافـات ضـروريًا والمثل؟

كـان – يامـا كـان – شـعب ههنا حـدث التـاريخ عنه يا طلل

صـرخ الشـيطان في أرجـائه فـتـهـاوى جـبـلاً إثر جـبل

وامَّـحـت آياته فـي فـتـنة مـثلهـا مـا كـان في شتى الدول

لا تـسـلـنـي إنـهـم أبـنـاؤه همج لم يرحمـوا فيـه الأمل[2]

أما الشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي، فقد كتب قصيدة بعنوان «أهذه أنت يا لبنان» وضح فيها ما أصاب هذا البلد من تدمير وخراب، وأورد صورًا للأطفال الذين شردتهم الحرب، وأخرى للنساء اللواتي يصرخن استغاثة بأمة العرب والإسلام، يقول متحسِّرًا على لبنان وبيروت وعلى الدماء الطاهرة التي أريقت، وما زالت تراق يقول:

---

(١) جريدة الخليج – الخليج الثقافي – ملحق العدد ٢٤٣٣ رقم ٢٤٤، الاثنين ٤ من ربيع الثاني ١٤٠٦هـ – الموافق ١٦ من ديسمبر ١٩٨٥م، ص ٨.

(٢) عثمان بن سيّار المحارب – خمسة أبيات – دار العلوم، الرياض، ١٩٨٧م، ص ٢٩.

ويح قلبي، ومـــا لذلك يبكي وعليـــه الدمـــاء كـــالأرجـــوان

ما لتلك الفتاة تصطحب الأطفال تجـــري بهم بغـــيـــر توان؟

ما لتلك البيوت تهدمها النيران حـــتى غـــدت بلا بركـــان؟

أين هذا المكان من صـفـحـة الأر ض، أجبني يا صاحبي ما دهاني

قـال لي والأسى على شـفـتـيـه إنمـا أنـت فـي ربـى «لـبـنـان»

لهف نفـسي، أهذه أنت يا لبنان يـا بلـدة الرضـى والأمـــان؟

لهف نفـسي، أهذه أنت يا بيـروت أصـــبـحت كـتلة من دخـان

أدمـــاء تراق ظلمـًــا، وقـــتل يتـجـافى عن صبغـة الإنسـان[1]

يؤكد الشاعر بأن هذا الدمار، وهذه المصائب من فعل العدو الصهيوني وعملائه في لبنان، ويدعو الشاعر إلى العودة إلى الإيمان، والتمسك بالقرآن الكريم، والأخذ من أحكامه، حينئذ نرفع الظلم عن أمة العرب..

أمـــتي إنهـا مـصـائب عـصـر نظمـتـهـا أصـابع العـدوان

سلبـــونا حـــقـــوقنا ورمـــونا بضـــلال الأديـان والأذهـان

وأثاروا في أرضنا مـــا أثاروا من خـلاف في أحـرج الأحـيـان

فـــأفـــيـــقي يا أمـــتي وأزيلي ظلمـــات الطـريق بالإيمان

نلمح من هذه الأبيات البعد الإسلامي الواضح، الذي يرى أن القوة في التمسك بالدين، وأنه لا خلاص للأمة من كبواتها المتعددة إلا بالعودة الصادقة والخالصة لله.

أما قصيدة «شهداء صبرا وشاتيلا» للشاعر محمد بن سعيد الدبل، ففيها نجد اللوعة والحزن على أناس ذهبوا ضحية الغدر على أيدي عصابة مارقة ملحدة، ونجد وصفًا كاملاً لمشاهد مذبحة صبرا وشاتيلا التي نفذت على مرأى ومسمع من العالم العربي والإسلامي، ولا حراك.. يقول:

قـدر سـابق وروع نار... أين سـرنا والأبرياء أين ساروا؟

---

(١) عبد الرحمن صالح العشماوي - إلى أمتي - مطابع النهضة، الرياض، ط٢، ١٤٠٠هـ، ص ٥٦.

يا دماء الأشلاء مع رخيص إن نعي الأحرار بالدمع عار...

يا رفات الصمود ردوا علينا... هل تخطاك صارم بتّار؟

سنظل.. الأشلاء والدم والنار فهذا طريقنا والقرارُ..[1]

إذًا حدَّد الشاعر خريطة الخلاص، فهي: أشلاء، ودم، ونار، وقرار جريء، وعن طريقها يكون التحرير. ثم يقدم الشاعر صورة حزينة للأمهات اللواتي فجعن بقتل صغارهن على يد الأجنبي الغادر الذي ضرج دماء الأطفال والعذارى، والأرامل والثكالى، فيقول:

وعزائي في الأمهات اللواتي حول أشلائهم ضجّ الصغار

صاح في الدار غادر أجنبي يوقد الحقد وسط عينيه نار

ضرج الكف من دماء العذارى ودعا الطفل أرعبته الشفار

يا قتيلاً نعاه كل فؤاد.. لغة السيف في رثاك شعار

نتقي الله في الشيوخ اقتتالا واللواتي في طبعهن انكسار

كيف بالطفل لائذًا مستغيثا غوثك الله فالطواغيب جاروا

أما الشاعر أحمد سالم باعطب، فيقول على لسان اللاجئ الفلسطيني الذي دُمرت خيمته في تل الزعتر بأيدي العملاء العرب، يقول الفلسطيني بمرارة وحسرة على ما آلت إليه أحوالنا، موجهًا حديثه لهؤلاء العملاء، يقول باعطب في قصيدته «قناع يتمزق على تل الزعتر»:

أمصوِّبًا سهم الردى	نحوي وكنت له الأمل
ومتوِّجًا من حقده الأعمى	طريقي بالأسل
بالأمس كنت تهشُّ لي	وتذيقني أحلى القبل
آثار مبسمك الجميل	على خدودي لم تزل
فعلام تجنح للصدود	ألا حياء، ألا خجل!!

(1) محمد بن سعيد الدبل - معاناة شاعر، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، ط1، 1405هـ، ص 17.

بالأمس كنت لك الضياء ... وكنت درعك في المحن

فعلام خُنتَ ولم تصن ... وقلبت لي ظهر المجن؟!

هل كنت تخدعني وأنت ... تردِّد القسم العظيم؟

كيف اجترأت فسدَّدت ... يمناك سهمًا في الصميم؟![1]

ويظل الشاعر في تساؤلاته الحيرى، ولكن من يجيب، ربما ترد الأيام بإجابات لهذه التساؤلات.

وإذا كنا نحب أوطاننا، فإن حب سناء - وغيرها من المناضلين - يختلف عن حبنا، مغاير له، حب ينحو إلى الجد والعمل البناء من أجل وطن حر، وهذه القصيدة للشاعر حسين عرب يشيد بمآثر عروس الجنوب وبطولاتها وإقدامها وإيمانها بعروبيتها ووطنها وصبرها على الشدائد والمحن، فيقول:

اكتبي تاريخنا باللهب ... وارسميه بشظايا الغضب

واتركي كل جبان غادر ... يمضغ الأقوال باسم العرب

وسناء، معلمة أجيال، مدربة الجيوش العربية على السلاح الثقيل، وإذا كانت جيوشنا العربية لم تحقق أحيانًا الظفر على جيوش أعدائها، فإن سناء حققت ما عجز عنه الرجال، فهي شابة قادمة من أعماق التاريخ، جاءت لتعلمنا كيف نحمي أنفسنا، كيف نصون أعراضنا.... فيقول:

يا ابنة التاريخ في إشراقه ... نشوة الفتح وومض الغلب

ضاعت الأيام من إسرافنا ... في أباطيل الهوى والكذب

علمينا كيف نحمي أرضنا ... من حمى الشرق لأقصى المغرب

علمينا كيف نجني حقنا ... من يد الظالم والمغتصب

ثم يصور الشاعر عروس الجنوب، تلك الشابة الصغيرة بظبي يشعل النيران في أعدائه، وإذا كنا قد ألفنا الفتيات يرفلن في ثوب الطهارة والبراءة، فإن سناء أضافت لهن ثوب الشجاعة، فيقول:

---

(١) أحمد سالم باعطب: الروض الملتهب، النادي الأدبي، الرياض، ١٤٠٠/ ١٩٨٠م، ص ٧٣.

يا غـزالاً أشـعل النيـران في صـائديه كـالأتون الصـيب

مـا عـهدنا الظبي إلا نافـرًا من سهـام الصـائد المرتقب

فـإذا الظبى قـضـاء مـبـرم من قـضـاء الله لم يحـتـجب

دمَّـــر الأعـــداء أسطولهم، ورمـــاهـم بـالوجى والعطب

شـهب هبت عليهم نارها أين منهـا قـاذفـات الشـهب؟[1]

ورغم أن بطلتنا الشهيدة صغيرة السن فإنها ناضجة العقل، ثابتة الجنان، قامت بمهام عظيمة تصعب على أولي القرار السياسي في أوطاننا، فيقول:

يا ابنة العـشـر وسـبع بعـدهـا	قـد طويت العـمـر طي الكتب
يا سـنـاء الشــرق، يا لمح السنا	شعَّ من بين ظلام الغـيـهب

هكذا تبارى شعراء المملكة العربية السعودية فى تصوير المأساة بكل تفاصيلها ودقائقها، معبِّرين عنها بأحاسيس صادقة وقلوب ملتاعة.

* * *

(١) حسين عرب، صحيفة الجماهيرية، الجمعة ١٢ من رمضان ١٣٩٤هـ من وفاة الرسول، ٣١ من مايو ١٩٨٥م.

سوريا

استطاع الشعراء السوريون أن ينقلوا المأساة إلى العالم عبر أشعارهم، ومن أهم هؤلاء الشعراء نزار قباني، فقد كتب قصيدة بعنوان «السمفونية الجنوبية الخامسة» بث فيها آلامه وأحزانه، وعبّر فيها عن فخره وسروره لأهل الجنوب اللبناني، مجسدًا البطولة، والمأساة - في آن واحد - التي يعيشها الشعب اللبناني في الجنوب، تحدث عن أهلها وبطولتهم، ذاكرًا أماكن ورموز مهمة عند الشيعة مثل كربلاء وغيرها، يقول فيها:

سميتك الجنوب

يا لابسًا عباءة «الحسين»

وشمس «كربلاء»

يا شجر الموت الذي يحترف الفداء

يا ثورة الأرض التقت بثورة السماء

يا جسدًا يطلع من ترابه

قمح.. وأنبياء..

اسمح لنا بأن نبوس السيف في يديك

اسمح لنا أن نعبد الله الذي يطل من عينيك

يا أيها المغسول في دمائه كالوردة الجوريه

أنت الذي أعطيتنا شهادة الميلاد

ووردة الحريه[1]

---

(١) نزار قباني - السمفونية الجنوبية الخامسة، مجلة كل العرب، ١٠/ ٣/ ١٩٨٥م.

يواصل نزار قباني افتخاره بالجنوب، الذي شبهه بالسنابل، والنجمة، وشتلة التبغ، وأضفى عليه هالة كبيرة وخروج عن الواقع، النقي التقي، ويبدو أن الشاعر أعطى الأبيات صفة عقائدية ترتبط بعقيدة أهل الجنوب، ولا نشك في أن جنوب لبنان قدم أبطالاً، وكان منارة للحرية، ولكن الشاعر تناسى دور المقاومة الفلسطينية في سمفونية الجنوب، وتناسى الحركة الوطنية اللبنانية، وأكد على دور السواد، وكربلاء، والحسين في حرب الجنوب، هذا الجنوبي الذي قاتل كل من فيه حتى الحجر والشجر وحبات الرمل...

سميتك الجنوب

سميتك المياه والسنابل

ونجمة الغروب

سميتك الفجر الذي ينتظر الولاده

والجسد المشتاق للشهاده

يا آخر المدافعين عن ثرى طرواده

سميتك الثورة، والدهشة، والتعبير

سميتك النقي، والتقي، والعزيز، والقدير

سميتك الكبير، أيها الكبير...

سميتك الجنوب...

ويؤكد الشاعر على بطولة الشيعة في الجنوب، ويرمز إليهم بفاطمة - لاحظ دلالة الاسم الذي يحمل معنى عميقًا لدى الشيعة - التي تحمل الرايات، واللون الأسود الذي يسيطر على أبياته، لون راية الشيعة السوداء.

«فاطمة» تجيء من «صور»، وفي ثيابها

رائحة النعناع والليمون

«فاطمة» تجيئني، وشعرها

يشبه هذا الزمن المجنون

«فاطمة» تأتي، وفي عيونها

خيل.. ورايات.. وثائرون

هل الحروب يا ترى؟

تعمق السواد في العيون؟

الشاعر ينتقل بنا ليتحدث عن بطولات الجنوب، ممثلة في قرية «معركة»، قرية صغيرة الحجم، أهالي معركة يعرفون بعضهم جميعًا، معركة أملها أكبر من مساحتها، ضربت أروع مثل في البطولة، في دفاعها عن شرف الأرض والعرض، وكرامة الأمة العربية المتخاذلة، ويعتمد نزار على مبدأ التناقض، قرية قليلة السكان، صغيرة المساحة أفضل بكثير من وطن بأكمله كبير المساحة، ولكن أهله غثاء كغثاء السيل، يقول:

سيذكر التاريخ يومًا قرية صغيره

بين قرى الجنوب، تدعى (معركه)

قد دافعت بصدرها...

عن شرف الأرض، وعن كرامة العروبه

وحولها قبائل جبانة..

وأمة مفككه...

من بحر «صيدا» يبدأ السؤال

من بحرها يخرج آل البيت كل ليلة

كأنهم أشجار برتقال

من بحر «صور» يطلع الخنجر، والوردة، والموال

ويطلع الأبطال...

يختم الشاعر سمفونيته مقررًا بأن الجنوب هو البقية الباقية لهذه الأمة النائمة الجنوب هو الأمل الأخضر لنا وسط صحراء جافة ماتت خصوصيتها، وأنه الطريق إلى النصر، وهو القمر في ظلمة الليل الحالكة، وهو الأمل وسط المدن المكبلة والمفككة.

يا سيدي الجنوب

في مدن الملح التي يسكنها الطاعون والغبار

في مدن الموت التي تخاف أن تزورها الأمطار

لم يبق إلا أنت.

تزرع في حياتنا النخيل، والأعناب، والأقمار...

لم يبق إلا أنت.. إلا أنت.. إلا أنت....

فافتح لنا بوابة النهار

يلاحظ أن تكرار الضمير «أنت» يوحي بيأس الشاعر من الأمة العربية.

وقصيدة أخرى له بعنوان «آخر عصفور يخرج من غرناطة» يوضح فيها نزار قباني حالة البؤس والشقاء التي تلاحق الإنسان الفلسطيني، وبخاصة مرحلة الرحيل من بيروت إلى العواصم العربية الجديدة، ويصف بيروت بعد خروج المقاتلين بالأرملة، بالدجاجة الكسيحة، رحل العاشقون المدافعون عنها، وكان رحيلهم نهاية الطريق، وافتقاد الأمل.

الماء في عينيك زيتي، رمادي، نبيذي،

وأشرعتي دموع

وأنا على ظهر السفينة مثل عصفور يتيم،

لا يفكر بالرجوع

بيروت أرملة العروبة والحواجز والطوائف

والجريمة والجنون

بيروت تمكث كالدجاجة في الطريق

فأين فر العاشقون؟

بيروت تبحث عن حقيقتها،

وتبحث عن قبيلتها،

ولكن الجميع منافقون[1]

ونحن من جانبنا نردِّد معه سطره الأخير، «الجميع منافقون»

يتابع نزار أبياته مبينًا أهمية النفط في قلب الموازين، لو استغل بشكل صحيح.. ولكن النفط الآن لا يفيد إلا في الأشياء الخاصة، من نساء وقصور، ويخوت، وهو أداة لهو للأمراء، يقول:

النفط هو السائل المنوي

لا العربي، لا القومي، لا الشعبي

هذا الأرنب المهزوم في كل الحروب

كيف الدخول إلى القصيدة يا ترى؟

والنفط يشري ألف منتجع بـ «مربيا»

ويشري نصف باريس

ويشري نصف ما في نيس من شمس وأجساد

ويشري ألف يخت في بحار الله،

يشري ألف غانية لعوب

لكنه لا يشتري سيفًا لتحرير الجنوب

لاحظ اعتماد الشاعر على فنية التضاد، فالنفط يستطيع أن يشري كل شيء من منتجعات حتى أجساد الغانيات، لكنه لم يستطع أن يشتري سيفًا، وآلية التضاد تعكس حالة الشاعر الوجدانية وأحاسيسه الصادقة تجاه قضية لبنان.

أما قصيدته «لماذا يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الإنسان» - يلاحظ العنوان، وما يرمز له من استهجان للأمة العربية - فيوضح فيها ما وصل إليه حال الأمة العربية من التهتك والانحلال، ويقدم صورة حزينة للواقع الفلسطيني الذي وصل إلى طريق مسدود من قبل القبائل العربية، هذا الفلسطيني الذي يحمل هموم الوطن في صدره وهاجس الخوف من حوله يطارده، ولا مكان فيه أمان لهذا الحر الأبي..

---

(١) نزار قباني: مجلة الشراع، ١٦/ ٣/ ١٩٨٥م، ص ٥٢.

يقول:

مواطنون... دونما وطن...

مطاردون كالعصافير.. على خرائط الزمن...

مسافرون دون أوراق.. وموتى دونما كفن...

نحن بغايا العصر.. كل حاكم

يبيعنا، ويقبض الثمن..

نحن جواري القصر.. يرسلوننا

من حجر لحجرة...

من قبضة لقبضه

من هالك لمالك

من وثن إلى وثن

نركض كالكلاب كل ليلة

من «عدن» «لطنجه»

نبحث عن قبيلة تقبلنا

نبحث عن عائلة تعيلنا

نبحث عن ستارة تسترنا، وعن سكن..[1]

يتابع نزار قباني أبياته موضحًا الحالة التي يمر بها الإنسان العربي بشكل عام، والفلسطيني بشكل خاص، حالة الرثاء والبكاء، الويل لمن يرفع رأسه فالسقوط في انتظاره، يجب أن ينسى منزله الأول.. عليه أن يغير هويته.. انتماءه.. حتى اسمه..

مسافرون نحن في سفينة الأحزان (...)

مكومون داخل الأقفاص كالجرذان

---

(١) ألقاها الشاعر في مهرجان المربد السادس الذي عقد في بغداد ١٩٨٥م، نقلاً عن مأساة بيروت: ص ٥٧٧.

لا مرفأ يقبلنا...

لا امرأة تقبلنا..

لا حانة تقبلنا

كل الجوازات التي نحملها

أصدرها الشيطان

كل الكتابات التي نكتبها

لا تعجب السلطان

مسافرون خارج الزمان والمكان

مسافرون ضيعوا نقودهم، وضيعوا متاعهم..

ضيعوا أبناءهم، وضيعوا أسماءهم، وضيعوا انتماءهم

وضيعوا الإحساس بالأمان...

فلا بنو «يعرب» يعرفوننا، ولا بنو «قحطان»..

ولا بنو «ربيعة».. ولا بنو «شيبان»..

ولا بنو «لينين» يعرفوننا.. ولا بنو «ريجان»

يا وطني.. كل العصافير لها منازل..

أما العصافير التي تحترف الحرية

فهي تموت خارج الأوطان

يلاحظ استلهام التراث العربي من خلال «بنو يعرب»، «بنو قحطان»، «بنو ربيعة»، واستلهام الأحداث السياسية من خلال «لينين» «ريجان»...

كما يحاكي المقطع الوضع الراهن بثباته وعدم تغيره، آية ذلك غلبة الجانب الأسمى على الأفعال، ومعروف أن الأسماء تعطي دلالة الثبات وعدم الحركة، حتى الأفعال الواردة بالنص وردت في معظمها بصيغة الماضي، وهي أيضًا تحاكي الاسم في هذه الصفة، مع ملاحظة ثبات الأفعال الواردة أيضًا من خلال تكرارها أكثر من مرة.

وفي وصف الأحداث الجسام التي مرّت على لبنان، وأحدثت جرحًا عميقًا لبيروت كان لنزار قباني الدور الواضح حين رسم المأساة في قصيدته «بلقيس»، أي زوجته التي قتلت في بيروت، فالمأساة عامة، وهي عنده عامة وخاصة.. ونزار قباني بكى بكاء مرًا حين رثى زوجته، بل قدّم لنا قصيدة حزينة، وضّح فيها سبب موتها، وَمَنْ قَتَلَهَا.. واضعًا اللّوم على أولئك القاعدين والعملاء. هذا بالإضافة إلى نقد لاذع للأمة العربية من خلال مقاطع قصيدته، والتي نلمس فيها حزن الشاعر على زوجته.. وهي أغلى شيء عنده كما نرى من خلال مقاطع كتبها نزار بدمه. فيقول نزار قباني واصفًا بلقيس في قصيدته بالأم والزوجة والكل، وما بعدها خراب وسراب!!

شكرًا لكمْ

شكرًا لكمْ

فحبيبتي قُتِلَتْ.. وصار بوسعكم أن تشربوا كأسًا على قبر الشهيده..

وقصيدتي اغتيلت

وهل من أمة في الأرض - إلا نحن - نغتال القصيده؟

بلقيس كانت أجمل الملكات في تاريخ بابل

بلقيس كانت أطول النخلات في أرض العراقْ

كانت إذا تمشي.. ترافقها طواويسٌ وتتبعها أيائِلْ

هل يا ترى من بعد شعرك سوف ترتفع السنابلْ؟

يا نينوي الخضراءَ..

يا غجريتي الشقراءَ..

يا أمواج دجلة تلبس في الربيع بساقها أحلى الخلاخلْ..

قتلوك يا بلقيس..

أيةُ أمّةٍ عربيةٍ تلك التي تغتال أصوات البلابلْ؟

أين السموْأل، والمهلهل.. والغطاريف الأوائلْ؟

فقبائل أكلت قبائلْ..

وعناكب سحقت عناكب...

قسمًا بعينيك اللتين إليهما تأوي ملايين الكواكبْ

سأقول، يا قمري، عن العُرب العجائبْ

فهل البطولة كذبةٌ عربيةٌ

أم مثلنا التاريخ كاذبْ؟؟

بلقيس.. لا تتغيبي عنّي..

فإن الشمس بعدك، لا تضيء على السواحلْ

سأقول في التحقيق، إن اللّص أصبح يرتدي ثوب المقاتلْ..

وأقول إن حكاية الإشعاع أسخف نكتة قيلتْ..

فنحن قبيلة بين القبائلْ..

هذا هو التاريخ يا بلقيسُ..

كيف يفرق الإنسان ما بين الحدائق.. والمزابلْ؟[1]

ويتابع نزار قباني أبياته بأسلوب حزين يصدر عن نفس حزينة ملتاعة، وقلب يتقطع على فراق حبيبته، بل ويصب جام غضبه على الأمة العربية، ويتّهمها بأنها التي قتلت بلقيس، ويقدم لنا صورًا لبلقيس الجميلة، الشهيدة، القصيدة، النقية، بل ونجد أنه لا يبالغ في وصف بلقيس لأنها زوجته التي رحلت دون رجعة فأصبح وحيدًا مكلومًا:

بلقيس.. أيتها الشهيدة، والقصيدة والمطهرة النقيه

سبأ تفتش عن مليكتها.. فردي للجماهير التحيه..

يا أعظم الملكات.. يامرأة تجسّد كل أمجاد العصور السومريه

بلقيس يا عصفورتي الأحلى..

ويا أيقونتي الأغلى

---

(١) مجلة المستقبل، السنة الخامسة، العدد ٢٥٩، ٦ شباط ١٩٨٢م، (كتبت القصيدة بتاريخ ١٥/ ١١/ ١٩٨١م)، بيروت، ص ٦، ٧، وهي بعنوان «بلقيس» في أعماله الشعرية الكاملة: ١/ ٣٦٩.

ويا دمعًا تناثر فوق خدّ المجدليه..

أترى ظلمتك إذ نقلتك ذات يوم من ضفاف الأعظميه

بيروت تقتل كل يوم واحدًا منا.. وتبحث كل يوم عن ضحيه..

والموت في فنجان قهوتنا..

وفي مفتاح شقتنا.. وفي أزهار شرفتنا

وفي ورق الجرائد.. والحروف الأبجديه

ها نحن، يا بلقيس، ندخل مرة أخرى لعصر الجاهليه..

ها نحن ندخل في التوحش، والتخلف، والبشاعة، والوضاعه.

ندخل مرة أخرى عصور البربريه

حيث الكتابة رحلة بين الشظيّة.. والشظيّه..

حيث اغتيال فراشة في حقلها

صار القضيّة

لاحظ دلالة الموت وأماكن وجوده، فهو أقرب إلينا من أنفسنا، فهو في مفتاح الشقة، ووردة الشرفة، وورق الصحيفة، وفي قهوة الصباح، وفي حروف كلماتنا، ترى هل يمكننا الهروب منه!

ثم ينتقل الشاعر في قصيدته ليتهم بيروت وأهلها من العملاء بأنهم هم الذين قتلوا بلقيس.

بلقيس إن الحزن يثقبني

وبيروت التي قتلتك.. لا تدري جريمتها

وبيروت التي عَشِقَتْكِ تجهلُ أنها قتلت عشيقتها

الحزن يعتصر فؤاده لفراق زوجته، فهو يصورها بكل الأشياء بالقمر، بالجزيرة بالكآبة، بالمنارة، ونلمح حقد الشاعر على العرب، وكأنهم قتلوا غزالته، وفرَّطوا فيها كما يقول:

حتى العيون الخضر يأكلها العرب

حتى الضفائر.. والخواتم.. والأساور.. والمرايا.. واللعب

من يوم أن نحروكِ، بلقيس يا أحلى وطن..

لا يعرف الإنسان كيف يعيش في هذا الوطن

لا يعرف الإنسان كيف يموت في هذا الوطن

لاحظ السطرين الأخيرين في المقطع تجد أن العيش يتساوى مع الموت، فالاثنان لا يعرفهما الإنسان في هذا الوطن، ثم يختم الشاعر قصيدته بقوله:

نامي بحفظ الله، أيتها الجميله..

فالشعر بعدك مستحيل.. والأنوثة مستحيله

ستظل أجيال من الأطفال تسأل عن ضفائرك الطويله

وتظلّ أجيال من العشّاق تقرأ عنك.. أيتها المعلمة الأصيله..

وسيعرف الأعراب يومًا..

أنهم قتلوا رسوله

وهناك قصيدة أخرى للشاعر نزار قباني بعنوان «الثقب»، ويوضح فيها حالة الأمة العربية، وما أصابها من تفكك وتأخر، ويبين فيها الحال الذي وصل إليه سكان المخيمات في لبنان، حيث أكلوا الحشرات والفئران، ونلمح في هذه القصيدة خطوطًا عريضة تذكرنا بماضينا المجيد، وكيف كنا أمة لا نهاب الموت ولا نقبل الذل، واليوم يلقي اللوم علينا لتقاعسنا وفرقتنا، حتى أصبحنا طعامًا سهلاً لكل الطامعين، يقول فيها:

لقد مرّ عشرون عامًا علينا

لقد مرّ عشرون عامْ

يحاصرنا الروم من كل صوب

وليس هناك ثأرٌ

وليس هناك من يثأرون

ويسقط نخل العراق جريحا

ولا صوت يثقب أعماق هذا الظلام

ولا شيء يطلع من هذه الأرض

إلا الطباقُ،

وإلا ألا عيب علم الكلام

ويأكل سكان بيروت فئرانهم

وليس هنالك حزن

وليس هنالك من يحزنون

فأهل الملايين فوق ملايينهم نائمونْ

وأهل الخيول الأصيلة.. فوق جواريهم يركبونْ

وأهل السياسة لا يقرأون ولا يكتبون!!

وللشاعر عدد كبير من القصائد تحكي المأساة، نذكر منها: «منشورات فدائية على جدران إسرائيل»، «قانا»، «بيروت الحب والمطر»، و... غيرهما.

وقد تعمَّقت مأساة لبنان، وحصار بيروت، ورحيل المقاومة الفلسطينية عن بيروت بحرًا وجوًا وبرًا، والبطولات في الجنوب والشهداء أمثال سناء محيدلي، في نفسية الشاعر راتب نصر الله، ففي قصيدته «الأرض تولد بركانا» يوضِّح البطولة عند الفلسطينيين واللبنانيين في قتالهما ضد اليهود وعملائهم، فيقول:

يا وطن الصمت على الأشرار

والنوم في جفن العار

لا تملك إلا شجبا

وأراك تهوى

شلوا شلوا

هل منكم من يسمع صوت امرأة

تحمل طفلاً بين النيران

فيواجهها طلق الموت؟!

هل منكم من يسمع أصوات الأبطال

خلف متاريس الحرب

يتحدى واحدهم مئة

باسم الشعب

هل يقربكم هذا الشعب؟!

يا وطنا

لا تملك أن تتكلم

أو تتحرك

عبر حدودك

من هذا الماء إلى الماء

هل تملك أن تحزم أمرك

في تلبية نداء؟!(١)

والشاعر يهنئ سناء محيدلي، ويزفها بقصيدة عنوانها «الجنوب يزف عروسه سناء» مقدمًا صورة رائعة للفتاة المؤمنة بعقيدتها، ويحب الوطن والتضحية من أجله. هذه سناء، وأمثالها في الجنوب كثير، وحبذا لو أن بنات اليوم، يقتدين بسناء الحرية ساعتها ينبلج صباح التحرير، وتصبح العروبة أكثر إشراقًا، يقول:

أختاه يا برقًا إذا غصّ الشتاء

يا صولة الرعد بآفاق الرجاء

يا صيحة البركان يا حمم الغناء

يا راية النصر

---

(١) راتب حمود نصر الله - الأرز يحرق ثوبه، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

بأنحاء الفضاء

يا فارسا

نار المعارك شاله

وسواره حرف النداء

وقلادة التحرير زينة جيده

والكحل آيات الرجاء

يا فارسًا يهدي لمجد بلاده

وهج السناء

فبين قطر من دماك وقطرة

سيموج مرج سنابل

ينشق درب جحافل

ما بين قطر من دماك وقطرة

تتوحد الأجيال في دنيا القبائل

ما بين قطر من دماك وقطرة

جسر البطولات الأوائل

قد رفضت أن تكوني من شياه

الغزو

بل كنت القنابل[1].

وحصار بيروت، وصمود المدينة في وجه المحتل والبطولات الملحمية للمدافعين، أنطق الشعراء ليتغنوا بالمدينة المحاصرة، أسطورة المدائن، عروس العواصم العربية التائهة، ومن هؤلاء الشاعر سليمان العيسى الذي راعه ما يحدث في لبنان في ظل عجز عربي، وخنوع دولي، فيقول لائمًا الأمة، داعيًا عليها بالهلاك؛ لأنها فرطت في عروس المدائن،

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٤٢.

وقد تفرط في غيرها عمّا قريب، يقول العيسى:

واستيقظت شهوة للقتل.. ما انطفأتْ

نيرانها بعد في أنقاض بيروتِ

لم تُنتشل جثث الأطفالِ.. ما برحتْ

آلامهم بين تدمير وتشتيت

يا أمةً.. تلعق السكين صامتة

موتى..

فلم يبق ما نبكي له..

موتى..[1]

وحينما وقعت مذبحة «صبرا»، و«شاتيلا» انطلق العيسي معبرًا عنها بقوله في قصيدة تحت عنوان «لا تقل لي»:

منذ دهر..

قطعوا رجلي في «اللد» ولحمى

لم يزل مختلطًا في الحفر الحمر «بصبرا»

في سعير الحقد لحمي..

ثم يصرُّ العيسى على المقاومة وعدم الاستسلام، فيقول:

يا عصر «أبناء الأفاعي».. لن أهادن

إنني أمضغ أكفاني صباحًا ومساءً..

لن أهادن..

إنني أُجتثُّ من جلدة رأسي..

من وريدي..

---

(١) سليمان العيسى: ثمانون عامًا من الحلم والأمل، دمشق - صنعاء، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢٤٠.

من عيوني..

لن أهادن..

إنها لازمة الدم، نشيد الدم، مطلولاً وساخن[1].

وللعيسى قصيدة يصور فيها «سناء محيدلي» الفارس العربي، العروس، الوطن، الأرض، الطهر، العزة، ففي قصيدة له بعنوان «كيف تحولت الوردة إلى صاعقة»، يقول فيها مصوِّرًا تلك الفتاة:

كلها في بسمة زهراء.. إصرار الجنوب

وتدوي الصاعقة

وردة الفجر.. استحالت صاعقه

فوق رأس الغزو. والحقد الجبان

يا أعاصير الندى والأقحوان

ليس للمحتل في كل أرضي مكان

فجِّريهم، لقِّنيهم أول الدرس، ورفّت كالصباح

فوق تاريخ الجراح..

وانتهت دفقة عطر.. في كتاب الشهداء

يشمخ الشعر إذا رفَّ اسمها.. يحلو جنون الكبرياء

اسمها كان «سناء»

أول الغيث «سناء»..[2]

أما سعيد قندقجي في قصيدته «وقيل الجنوب» يمجد أهل الجنوب، ويفتخر بمشعل الانتصارات، الذي يحمله الجنوبيون ليضيئوا به جنبات الأمة الحالكة:

ألا أيهذا الجنوب الأبي

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(٢) مجموعة من الكتاب: المقاومة في الأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٥م، ص٢١٨.

ويا أيهذا الدم العربي

ويا أيهذا الشموخ النبي

لك المجد يا ناسجا من دماك النهار

لك الخلد يا ضافرًا بخطاك الفخار

لك الوعد رغم احتدام التتار

وحشد المغول بألف انتصار

لأن الشعوب كمثل السحاب

يهلُّ، فيبدأ موج البحار[1]

أما الشاعر حسين حموي فيرثي بيروت في قصيدة له بعنوان «فاتحة المراثي.. خاتمة المراثي» يقول الشاعر:

وتدثرت بيروت بالأكفان يقتلها الدمار

وتدثر العرب الكماة الصيد بالصمت المتوج بالخديعة والشنار

أين استغاثات النساء، وألف معتصماه

تحترق الفضاء وتبلع الجوزاء

تنشد من يجيب على النداء، ولا جواب

من أين ينطلق الجواب، وكل من شهد الوقيعة

يستتيخ على الحراب؟؟

ظهر المنادي بعد ما سكت الرصاص

وغاص في الرمل الدم المسفوح والتاريخ

والقتل المجلل بالخيانة والصغار[2]

وللشاعر عدنان البرازي عدد من القصائد عن جراح لبنان، من تلك القصائد،

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

قصيدة «قسم الثأر.. يا قانا»، الشاعر يتخذ من مذبحة قانا متكأ يتكئ عليه وينطلق منه ليقسم بأن الثأر قادم لا محالة، ولن نهدأ حتى نثأر لقتلانا، وليهنأ الشهداء في قبورهم، فنراه يقول:

لما أن عـــرفـــوا مـــعنانا	وتبـــاكـــوا.. من عـــزم قـــوانا
ورأوا.. مـــن بـــأس نمـــلكـــه	مـــا أرّق منهم.. أجـــفـــانا
وارتفـــعـت منـا.. ضـــربات	كـــســـرت للظلمـــة أوثانا
وهوت مطرقـــة يحـــملهـــا	فـــرســـان تقـــفـــو فـــرســـانا
أدمت أيديهم قـــوتهـــا	وروت بـالـثـــــأر حنـايـانا
وقـــضت في التـــو على كـــذب	روّجـــه الســـفلة أحـــيـــانا
لما أن ذاقـــوا حـــريتنا	ضـــربوا أطفـــالك يا «قـــانا»

ثم نراه يقسم بالله أنه لم ينس القتلى، ولن يسكت عمن آذاهم فيقول:

يا «قـــانا» يا حـــزن بلادي	يا جـــرحًـــا في العين أتانا
يا دمـــعًـــا في الخـــد تجلّى	ولهـــيـــبًـــا.. تصلاه حـــشانا
أقـــســـمت بربك لن ننسى	لـــن نسكت عـــمـــن آذانا[1]

وفي قصيدة أخرى تحت عنوان «قسمًا يا بيروت» يتابع الشاعر قسمه، فيقسم «بجمال الحسناء»، و«بالأرز وأثمار التوت»، «بالبلبل والحسُّون»، و«بدماء الشهداء»، و«بالجوعى والعطشى»، و«بالثكالى»..... إلخ، ونقتطف منها قوله:

قـــســـمًـــا بصـــمـــودك يا بيـــروت	في وجـــه الطاغي والجـــبـــروت
قـــســـمًـــا بجـــمـــالك يا حـــسناء	وبالأرز.. وأثمـــــار التـــــوت
وقـــلـــوب فـــي الأرض تـــذوب	لن نبـــقـى بأســـر الطاغـــوت[2]

---

(١) عدنان البرازي: يا شمسنا عودي – القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ٨١.

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

وللشاعر قصائد أخرى عن لبنان، نذكر منها «اضرب يا حزب الله»، و«لماذا نحن»، و«المقاوم»، وكذلك «لبنان حب.. ثقافة.. نضال»، و«جنوب لبنان»...[1]

بيروت، خلدة، بئر حسن، قلعة الشقيف، بطولات الفدائيين في الدفاع عنها ملحمة الشرف والفداء، تلاحم الأجساد المقاتلة، اللبناني والفلسطيني كل ذلك نجده عند الشاعر علي عقلة عرسان في قصيدته «بيروت يا مقاتلة» يقول فيها موضحًا قتال بيروت لمدة سبعين يومًا دون نجدة من أخ أو صديق، قاتلت وحدها كشجر الأرز والزيتون الصامدين في مواجهة الرياح العاتية.

بيروت يا بيروت

يا جسدًا ألقيت عليه النار ما لم تشهد الأبصار

سبعين يومًا من قتال في لظى الحصار

بيروت يا معاقل الثوار يا محاصره

ما كنت أول الطريق، لا، ولن تكوني أنت آخره،

القدس قبلك اسألي

ولتسألي حيفا ويافا والخليل

ولتسألي القنيطره

وبورسعيد في الحريق

ومجدها العريق

ما كنت أول الطريق، لا، ولن تكوني آخره[2]،

ونجد في المقطع السابق ربطًا بين فلسطين وبيروت، وبين معارك سابقة كبورسعيد، وأخرى لاحقة، مع ملاحظة تكرار الجملة «ما كنت أول الطريق، لا، ولن تكوني آخره»، التي تدل على أن طريق المواجهات طويل.

---

(١) بعض هذه القصائد بالمصدر السابق، وبعضها بديوان «عشق العيون العربية»، وهو صادر بالقاهرة - أيضًا - ٢٠٠٩م.

(٢) المقاومة في الأدب: مصدر سابق، ص ٢٦٢.

فدربنا يمتد في التاريخ من «ذي قار» حتى «الليلكي»

إلى مدافن الرفاق في الجبل

في قلعة «الشقيف»، في «خلدة»، في «بئر حسن»

يمتد قصرًا أو كفن

يمتد نصرًا أو صمودًا في المحن

لكنه يا غرة الصمود يا بيروت، يبقى دربنا

في العز، في الذلة، يبقى دربنا

فتصنع الإرادة المقاتله

«حطين» أخرى قابله

وينشد الجميع:

«بيروت يا مقاتله

لك الحياة والخلود والبقاء

لك الوفاء

، وللعدو العار والفناء»

مجزرة «تل الزعتر» كانت بداية المجازر في لبنان لشعب أعزل من السلاح، شُرِد من فلسطين عام ١٩٤٨م، وسكن مخيمات لبنان، وصمود مخيم «تل الزعتر» حطم كل تكهنات الكتائب، دافع المخيم حتى آخر طلقة وآخر بيت صفيح، وأصبح المخيم ركامًا أو رمادًا تذروه الرياح أينما شاءت، قتل أصحاب المخيم، ولم يستسلموا، فكان الشرف وكانت الشجاعة، والشاعر ممدوح عدوان يوضح لنا ما جرى في المخيم، من خلال قصيدته «هكذا تكلم التل» فيقول:

متراجعًا .. غادرت أوردتي

تهاوت في دمي الأحلام رملاً خائفا

وعريت من أمني ومن أمي

يطاردني لظى الفقر المدجج[1]

وينتقل الشاعر إلى القول بأن الدماء الطاهرة الزكية التي سفكت في تل الزعتر على أيدي الكتائب لا يكفي لغسلها مياه نهر النيل، ونهري دجلة والفرات، ونهر العاصي. ويتساءل الشاعر هل يكفي البكاء لنكفر عن خطايانا؟ هل تكفي اللافتات والخطب الرنانة؟ وهل.. وهل؟

أيكفي النيل والعاصي ودجلة والفرات غدا

لغسل دمائنا عن هذه الأيدي

أيكفي الدمع للتكفير؟

تكفي لافتات الحفل للتكفين؟

والآبار هل تكفي

إذا ما جف منها النفط

أن تخفي شظايانا وأشلاء العروبه

إنني الهمُّ المتلَّل

جاء نحوي التائهون عن البلاد

الدامعون من البلاد

أتى الصعاليك الحفاة

وجاءني الخلعاء

---

(١) ممدوح عدوان: أمي تطارد قاتلها - دار العودة - بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص ٥٦.

صرت قبيلة موبوءة

نادمتهم

وشربت ذكراهم عن الأم التي وئدت

الشاعر يصوِّر الفلسطينيين بالصعاليك في زمن الجاهلية، أو الخلعاء الذين لفظتهم قبائلهم فأصبحوا مطاردين بلا مأوى يفترشون التراب، ويلتحفون السماء، ثم يصور الشاعر الموت والميلاد، والوجع والوحدة، واليأس من أولئك الناس الذين لا يهمهم إلا الشراب والملذات، والهروب من الواقع، وبقي التل وحيدًا يتمتع بكرامة وعزة عربية، ومقاومة وبطولة، هذا التل هو ملجأ كل عربي حر يؤمن بعروبته، ويعتز بها، حتى وإن خانه الآخرون، فيقول:

نهضت من التراب

وكان يحبل بي

شراييني تفتح كالزهور

فخندقوا فيها

لقد خفنا من الوديان والآبار

فانحزنا إلى تل يرى الدنيا بأعيننا

وخفنا من غيوم الصيف

فانحزنا إلى سيل

يهلل فاضحًا ما يحتويه القلب من جثث

وخفنا من شفاة قبلتنا

ثم أبقت في حنايا أمنا خنجر

لن يحتوينا الصبر والمنفى

ولن نرتاح عند الموت للريحان

نحن الموت منحاز إلى الزعتر

الأرض لها رائحة طيبة رغم القتلى ورائحتها التي تلعن كل جبان هارب، هذه الصور المسترسلة على سجية صاحبها، وما وجده وصادفه من أشباه ونظائر لتل الزعتر.

إنها صورة الإنسان الذي يقفز فوق الزمن والأشياء إلى حياة أخرى، ومن موت إلى موت، وبين الاثنين فسحة من الأمل، وبريق الشهادة، حتى النصر القادم، فيقول:

هل رأيت روائح القتلى تصيح

كما تهاجس في التلال الزعتر البري

تلك فلول رائحة مقاتلة

تلاقت مرة أخرى على عهد مميت

فانتحيت بها .. تمترس خوفنا خلف الغد المأمول

من غدر السلالات الرجيمة

جاؤوا إلي، وقاتلوا عني

لأني كنت تلا خافقًا كالقلب

قلبًا واسعًا كالتل

كنت أواخر الأحلام

كنت مبشرًا بالموت

ويتابع الشاعر قصيدته «هكذا تكلم التل» واصفًا المعاناة الحقيقية التي يعانيها الإنسان العربي في التل وما بعد التل، ثم يضيف ممدوح عدوان بأن الفلسطيني يقابل الموت، ويصمد في المعركة علمًا بأنه يعرف أن الموت يأتيه من كل جانب، ولكن من أحب الوطن والعروبة لا يهمه الموت، بقدر ما تهمه الحياة الكريمة، وهو ما عبَّر عنه عنترة قديمًا بقوله:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني العز بكأس الحنظل

* * *

العـــــراق

ومن العراق انطلقت أصوات الشعراء معبرة عن مأساة لبنان، ونجد أن الألم والحز قد أدميا قلب الشاعر العراقي، من ذلك مثلاً الشاعر أحمد مطر، هذا الذي جاء من تحت الأنقاض من الخوف والرعب وحاول أن يخرج من داخل الوطن، ليعبر عن أحزان الشعب الفلسطيني واللبناني داخل المخيم، من خلال قصائده الملغومة بشحنات لغوية وتصويرية بارعة، يقول أحمد مطر في قصيدة له بعنوان «قف ورتل سورة النسف على رأس الوثن» موضحًا التمزق العربي والمعاناة والمآسي اليومية التي يعيشها الشعب في لبنان، والشاعر في قصيدته يرمز بالصحراء للأمة العربية، عديمة الفائدة، فلا تعطي زرعًا ولا تأوي لاجئًا، ولا تغيث ملهوفًا - كذا حال أمتنا الكريمة - وهي أيضًا سجينة رغم اتساعها اللامحدود، يلاحظ أيضًا تحذير الشاعر للفلسطيني من نفسه/ أي من أخيه العربي، فنراه يقول:

لا تهاجر

كل من حولك غادر

لا تدع نفسك تدري بنواياك الدفينه

وعلى نفسك من نفسك حاذر

هذه الصحراء ما عادت أمينه

هذه الصحراء في صحرائها الكبرى سجينه

حولها ألف سفينه

وعلى أنفاسها مليون طائر

ترصد الجهر وما يخفى بأعماق الضمائر

وعلى باب المدينة

حسبما تقضي الأوامر

تضرب الدف وتشدو:

أنت مجنون وساحر

لا تهاجر[1]

يتابع الشاعر قصيدته مطالبًا بعدم الاستسلام، وعدم ا لرحيل، وضرورة استخدام القوة للعودة إلى أرض الوطن.. يقول:

أنت مطلوب على كل المحاور

لا تهاجر

اركب الناقة، واشحن ألف طن

قف كما أنت

ورتل سورة النسف

على رأس الوثن

إنهم قد جنحوا للسلم

فاجنح للذخائر

ليعود الوطن المنفي منصورا

إلى أرض الوطن

الشاعر يرمز للأمة العربية المستسلمة من خلال قوله: «إنهم قد جنحوا للسلم»، فالضمير «إنهم» يعود للحكام العرب، لا لإسرائيل.

وقصيدة أخرى له بعنوان «فبأي آلاء الشعوب تكذبان»، وهو مضمَّن من آية كريمة في سورة الرحمن، يقدم لنا الشاعر لافتة مهمة، تدلل على عمق ما يريد، وما يرمز إليه، وهذه مقاطع فيها صورة رائعة لفأرتين وقعتا في الفخ، ولكن يكون السؤال من المخلص

---

(١) أحمد مطر، لافتات، مطابع دار القبس - الكويت، ط١، ١٩٨٤م، ص ١٥٩.

ومن المنقذ؟ يقول:

من مات مات

ومن نجا

سيموت في البلد الجديد

من الهوان

فبأي آلاء الولاة تكذبان

في الفخ تلهث فأرتان

تتطلعان إلى الخلاص

على يد القطط السمان

فبأي آلاء الولاة تكذبان

خلق المواطن مجرمًا حتى يُدان

والحق ليس له لسان

والعزم ليس له يدان

والسيف يمسكه جبان

وبدمعنا ودمائنا سقط الكيان

فبأي آلاء الولاة تكذبان

في كل شبر من دم

سيذاب كرسي

ويسقط بهلوان

فبأي آلاء الشعوب تكذبان[1]

الشاعر يساوي بين الولاة والرب عند الشعوب، فالشعب مقهور مأمور وعليه الطاعة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

لربه/ لمولاه، آية ذلك قوله: «فبأي آلاء الولاة تكذبان»، هي نفسها مع تغير كلمة واحدة من قوله تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

وينتقد أحمد مطر الوضع العربي الهزيل، والذي يكيل بأكثر من مكيال، فيقول في قصيدته «المطففون» لاحظ الاقتباس من سورة «المطففين» في القرآن الكريم، ولكن شتان في التطفيف بين هذا، وذاك، فيقول:

يا من ببيروت وضعتم دمنة

في آلة التحويل والإحاله

فانقلبتم بفضلكم

في الحال.. برتقاله!

....

أعدل مكيال لكم

يميل حسب المبلغ الموضوع

في الحصاله!

لكنكم

إن مال كيل غيركم

ملأتم الدنيا دموعًا ودمًا

من قسوة الإمالة[1]

وله قصيدة «استغاثة» يوضح فيها القتلة بطريقة النحت اللغوي، فالقتلة ليسوا عربًا، وكذلك ليسوا إسرائيليين، إنما هم هجين من النوعين، تدبير إسرائيلي، وفعل عربي، فيقول:

الناس ثلاثة أموات

في أوطاني

---

(١) أحمد مطر، لافتات، الأعمال الكاملة، الدار المصرية للنشر - القاهرة ٢٠٠٨م، ص ١٥٤.

والميت معناه قتيل

قسم يقتله «أصحاب الفيل»

والثاني تقتله «إسرائيل»

والثالث تقتله «عربائيل»[1]

وفي قصيدة له بعنوان «كلمات فوق الخرائب» تتبين لنا الصورة الحزينة التي وصلت إليها بيروت، صورة الخراب والدمار، القتل والتشرد، الصمت الرهيب، والسكوت على المذابح التي أقدم عليها الصهاينة في بيروت، ومخيماتها ... يقول مطر:

قفوا حول بيروت

صلوا على روحها واندبوها

وشدوا اللحى وانتفوها

لكي لا تثيروا الشكوك

وسلّوا سيوف السباب لمن قيدوها

ومن ضاجعوها

ومن أحرقوها

لكي لا تثيروا الشكوك

ورصوا الصكوك

على النار كي تطفئوها

ولكن خيط الدخان

سيصرخ فيكم: دعوها

ويكتب فوق الخرائب:

«... إذا دخلوا قرية أفسدوها»[2]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٩١.

ويؤكد أحمد مطر بأننا نشتكي إلى من يقتلنا، فإذا كان القاضي هو المتهم نفسه، فكيف يتحقق العدل، وأصبح الكل لا يصغى إلى الشكوى التي نقدمها، هذا ما نجده في لافتة بعنوان «منفيون» يقول:

لمن نشكو مآسينا

ومن يصغى لشكوانا

ويجدينا؟

أنشكو موتنا ذلاً لوالينا؟

وهل موت سيُحيينا

قيطع نحن.. والجزار راعينا

ومنفيون.. نمشى في أراضينا

ونحمل نعشنا قسرا.. بأيدينا

ونعرب عن تعازينا لنا.. فينا

فوالينا.. أدام الله والينا،

رآنا أمة وسطا فما أبقى لنا دنيا

.. ولا أبق لنا دينا[1]

ولأحمد مطر قصيدة «القرصان» أوضح فيها حال الأمة العربية وكيف استقبلنا مذبحة صبرا تحت تأثير الكلام المعسول المخادع، يقول فيها:

بنينا من ضحايا أمسنا جسرا

وقدمنا ضحايا يومنا نذرا

لنلقي في غد نصرا

ويممنا إلى المسرى

وكدنا نبلغ المسرى

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٣٤.

ولكن قام عبد الذات

يدعو قائلاً «صبرا»

....

فأنجب صبرنا «صبرا»

وعبد الذات

لم يُرجع لنا من أرضنا شبرا

ولم يضمن لقتلانا بها قبرا(١)

الصورة واضحة الدلالة على من يتشدق بكلام السلام، فما هو إلا مخدر للشعوب العربية، أو وهم نجري وراءه. وله قصيدة أخرى بعنوان «لبنان الجريح» يقول فيها:

صفت النية يا لبنان

صفت النيه

لم نهملك ولكن كنا

مختلفين على تحديد الميزانيه

....

جامعة الدول العربيه

تهديك سلامًا وتحيه

تهديك كتيبة ألحان

ومبادرة أمريكيه!!!(٢)

وللشاعر قصائد أخرى للبنان يصف فيها الخراب والدمار اللذين حلا بها، يصف فيها الأوضاع العربية المتردية، يصف فيها الخلافات العربية/ العربية، نذكر من تلك القصائد - مثلاً - قصيدة «الجهات الأربع اليوم: جنوب»، وقصيدة «كلمات فوق

---

(١) أحمد مطر، لافتات - الأعمال الكاملة: ص ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٩٦.

الخرائب» وغيرهما من قصائد.

أما الشاعر عبد الوهاب البياتي، فقد كتب للبنان، ومأساتها، وخاطب الكادحين الذين يصنعون التاريخ المشرق لهذه الأمة، هكذا عبَّر البياتي في قصيدة له بعنوان «بيروت.. حزني.. وحزن البنفسج» عن حزنه أصدق تعبير. يقول:

الملايين التي تكدح، لا تحلم في موت فراشة

وبأحزان البنفسج،

تحت ضوء القمر الأخضر في ليلة صيف،

أو غراميات مجنون لطيف،

الملايين التي تكدح

تتمزق،

الملايين التي تصنع للعالم زورق،

الملايين التي تصنع منديلاً لمغرم،

الملايين التي تبكي

تغني، تتألم،

في زوايا الأرض في مصنع صلب أو بمنجم

إنها تمضغ قرص الشمس من موت محتم،

إنها تضحك

وتغرم،

لا كما يغرم مجنون بطيف،

تحت ضوء القمر الأخضر في ليلة صيف،

الملايين التي تبكي،

تغني، تتألم،

تحت شمس الليل باللقمة تحلم[1]

الشاعر يكنى بالعرب بقوله «الملايين»، هذه الملايين/ الشعوب العربية، «تبكي»، «تتألم»، «تحلم بلقمة عيش»، وهذه إشارات للقهر العربي، واستبداد الحكام وبطشهم لشعوبهم المستكينة!!

أما الشاعر مظفَّر النواب، فيصوِّر مأساة تل الزعتر في قصيدته «تل الزعتر» فيصور جثث الأطفال والأبرياء، يصوِّر الصمت العربي المخجل، واصفًا الحكام العرب بأوصاف يندى لها جبين الأحرار والشرفاء، يصور أن همَّ الحكام العرب أن يعقدوا جلسة طارئة للقمة العربية، فما أكثر الجلسات، وما أقلّ القرارات الجريئة، فيقول:

صرَّح نفط بن الكعبة أن يعقد مؤتمرا

....

ابتعدوا

ابتعدوا

ابتعدوا خطوات أخرى

خلوا الأصوات، وخلوا تل الزعتر يعتاد الظلمة

لم يحن الوقت

عاصمة الفقراء لقد سقطت

لن أبكي أبدًا من قاتل

لكن أبكي إطلاقًا

أبكي من يبحث في القمة عن دولته[2]

والقصيدة طويلة ومليئة بألفاظ تخدش الحياء، وصور تتنافى مع الذوق العام قاصدًا بها الحكام العرب أولياء أمورنا!!!

وفي قصيدة أخرى له بعنوان «كيف نبني السفينة في غياب المصابيح والقمر..

---

(١) جريدة الخليج – العدد (٢٨٨٢)، الجمعة ١٣ من رجب ١٤٠٧هـ – ١٣/ ٣/ ١٩٨٧م.

(٢) مظفر النواب، الأعمال الشعرية الكاملة، دار قنبر – لندن ١٩٩٦م، ص ١٦٦.

قصيدة عن بيروت» يقول عن القمة العربية:

أيها (.....)!

أما تستحي البندقية حين ترى امرأة

تتوسل تحت البصاق

أما تستحي القمة العربية من قاتل

يجهل اللغة العربية يحكي مطالبها

أما يستحي الشعب من صمته

إن طاولة الزهر ضاقت بنا فاستحوا[1]

ولمظفر قصيدة أخرى بعنوان «وما هم.. ولكنه العشق». يوضح فيها الذل المهين الذي أصاب الأمة بعد حصار بيروت، وسقوطها في أيدي الصهاينة، ويحزن على رحيل المقاومة منها، والويل لمن أسهم في رحيلها، والويل أيضًا لمن رأى وسمع باجتياح لبنان، ولم يتحرك.

ومن داخل الحصار كتب الشاعر سعدي يوسف قصائد تحمل بعدًا قوميًا، وتصف الحرب، والحصار بمهارة فائقة، وكان لوجوده في بيروت أثناء الحصار الأثر الكبير في قوة شعره، إذ خرج شعره من رحم الدمار والقنابل والجثث، ولقد جمع شعره الذي شاهد الأحداث في ديوانه «مريم تأتي» يقول:

كلما جئت بيتًا تذكرت بيتا

كلما كنت حيًا تناسيت ميتا

غير أن الذي جئته

غير أن الذي كنته

لم يعد لي

لم يعد غير ظل

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

وليكن!

إن ظلا يصير

خير ما يرتجى في ظلام المسير[1]

هدير الطائرات، وانفجار القنابل، وسواد الليل كل ذلك بعث في نفس الشاعر الأمل والصمود، في وجه الأعداء والأمل ببزوغ فجر جديد يفرج الكربة عن الأطفال والنساء والشيوخ، و«مريم» بالنسبة للشاعر هي الأمل الذي يقاتل من أجله المقاتلون، وهي الأم المتحسرة على أبنائها، والأخت المصممة على القتال، والنصر القادم، وشبّه الشاعر «مريم» بأنها قذيفة الماء التي تبل ريق الأطفال، لكنه يتساءل: لماذا كل هذا الخراب والقتل؟ لماذا يقاتل الإنسان؟ لماذا يموت؟ هذه أسئلة تدور في قلب الشاعر، والإجابة عليها هي أن الخراب والنار والموت والقتال كل ذلك يكون معادلة واقعية سارية المفعول ولابد من وجود ضد لكل شيء، فالخراب والدمار يقابله البناء والتعمير، والقتال، يقابله الصمود، والليل الأسود يقابله الفجر بضيائه ونوره.. يقول:

أريد أن أراك هذا المساء

للثلاثين قنبلة في الدقيقة

للبيوت التي تتكفئ

للعيون التي تترصد أو تنطفئ

للقبور التي نثرت

للشجيرات مخنوقة بالرماد

للمخيم مستفردًا كالبلاد

نرسم الدائره

نرسم الأمة العاثره

ثم ندخلها في هواء الخنادق

ويتابع الشاعر قصيدته مخاطبًا مريم بقوله:

---

(١) مجلة أسرتي - العدد ٢٢ لسنة ٢١ السبت ٢٠/ ٧/ ١٩٨٥م - الكويت: ص ٦٢.

ما بين حائطك المثلم والعدو

خطى

وما بين الخطى، والموت غمضة مقلة

يسري

سلامًا أيها الحي المتوج بالقذائف

أيها الحي الذي اخترناه جلجلة

سلامًا للصبايا في المحاور[1]

هكذا طوع الشاعر مفردات اللغة في مجموعته «مريم تأتي»، وقدم صورًا رائعة ومفردات جميلة قوية بالإضافة إلى الموسيقى القوية حينًا والحزينة أحيانًا أثناء كلامه عن الموت والدمار، وصُوره التي قدمها خصبة مليئة بألوان الخيال الذي يدل على سعة أفق الشاعر، وعمق التجربة التي مر بها آثناء الحصار.

ويرسم سعدي لنا صورة الإنسان المذعور، بل يقدم لنا وصفًا حيًا مر به أثناء سقوط القنابل، وركض الناس إلى الملاجئ، والطائرات المغيرة.. أكياس الرمل.. الشباب المقاتل ومنزلتهم في نفوسنا.. الخبز المجفف اليابس.. كل ذلك نجده في سطوره الشعرية، التي يخاطب فيها الأم والأخت والحبيبة والملاذ.. يقول:

ها نحن مريم. نرسم الطرقات في

الليل الملبد

نرصد الطلقات تتبعنا

ونقفز مثل عصفورين مذعورين

بين قذيفة وقذيفة

ها نحن مريم. نهبط الدرجات

نحو الملجأ الليلي

---

(١) المصدر نفسه.

نحصي الطائرات مغيرة

ونقول: آمنا..

ونمشي خلسة للبحر

نجلس خلف أكياس التراب

ونرقب الأمواج تهدر. والشباب

مقاتلين...

ثيابهم مخضرة كالصخر عند

شواطئ المتوسط

انتظري قليلاً. كي نقول لهم:

سلاما

كي نبارك بالدموع سلاحهم

كي نمسح الخصلات بالماء القليل

ونمضغ الخبز المجفف صامتين

ومريم.. المرآة والرؤيا

بشارة أن نموت ممجدين

وأن نعيش كما يعيش الرفقة البسطاء

مريم تسكن الميلاد

تسكن في الدم العربي

نتبعها. وتتبعنا

ولكنا. هنا: في قسوة اللحظات

ننسج من عباءتنا هويتنا

وندخل في القيامة

في الموقع الحجري رايتنا

مغروزة في وقفة الزمن

سنظل نغرزها ونغرزها

حتى نفجر نبعة الوطن

وليكن ما يكون (...)

وليكن...

إننا القادمون.

ولسعدي يوسف مقاطع قصيرة بعنوان «مساء»، يوضّح فيها الحالة المأساوية التي مر بها المحاصرون داخل بيروت، قلة الماء والطعام، لقد عطش أطفال «صبرا»، فسقتهم لبنان بصمودها ماء الحياة يقول:

تشرب القبَّرة

يشرب النجم

والبحر يشرب

والطير

والنبتة المنزلية تشرب

لكن أطفال «صبرا»

يشربون دخان القذائف[1]

هكذا بيَّن لنا سعدي يوسف بأن أطفال مخيمات صبرا وشاتيلا، عاشوا حياة الحرمان والقهر والبطش الهمجي، وأمطار غزيرة على رؤوسهم من القنابل العنقودية والفسفورية فأصبحوا حقل تجارب لأسلحة أمريكا التي تمد إسرائيل بها. هم محرومون حتى من الماء الذي هو أساس الحياة.. فكل الكائنات تشرب الماء هنيئًا إلا أطفالنا - أطفال لبنان الجريح!!

---

(١) المصدر نفسه.

يغني سعدي يوسف لمدينة صبرا، وصور، هاتان المدينتان اللتان، صمدتا أمام الحمم البركانية التي أسقطها طيران إسرائيل من السماء والقصف المدفعي العنيف من الأرض، ولكن صور وصيدا، مثل الصخر كلما ضربت ازدادت صلابة، أبدعت صيدا بمقاومتها المحتل، وذلك بأبطالها الأشبال الذين قدموا ما في وسعهم من تضحيات وبطولات، هدمت البيوت، وأحرقت المزارع، وتحولت الأرض والسماء إلى شعلة نار ملتهبة، وأبناء الأرض المخلصين يدافعون عن مدنهم وقراهم ببسالة نادرة، يقول سعدي:

إني أفتح الشرفة

تتكشفين، مدينة تجد القرنفل فجأة في لعبة الخصلات

بحر غير منتسب لذاكرة ومعنى

والعمائر تحتمي في رعدة الطيران بالأزهار والشرفات

صيدا - وصور

....

نعرف أننا الشهداء والغرقى

ولكنا لأجل الثوب والأشجار، نرفض أننا الشهداء والغرقى

ونرفض أن تكون حمامة في ساحة الإعدام

أن تتحلل الأقدام ماء...

وهكذا فإن الشاعر سعدي يوسف تفاعل مع الموقف، فصدر شعره قويًا من حيث الأسلوب، والمعاني والألفاظ والصور، والأخيلة والموسيقى الحزينة تارة، والصاخبة تارة أخرى، فهو يكتب من قلب الحصار.. يتفاعل مع الأحداث يرسم الصورة بالسكين الذي غرس في صدورنا، يبكي للمصاب الجلل، يبتسم لأولئك المقاتلين الذين يدافعون عن «مريم» الرمز للمرأة العربية، ولعله يرجع بها لمريم العذراء، وهي في مواجهة قومها مدافعة عن حق وتدرأ الباطل وتمحقه.. ورد شعر سعدي صادق العاطفة له بعد وطني، قوي العبارة، ولذا فهو شاعر قومي عربي ثوري صادق الكلمات[1].

* * *

---

(١) إبراهيم الوحش، مصدر سابق: ص ٥٥٢.

سلطنة عُمان

لم يقف الشعراء العمانيون مكتوفي الأيدي، فقد انطلقت حناجرهم وأصواتهم معبرين عن تلك المآسي اللبنانية، وما تلاها من فقر وتشريد وجوع وحرمان، وإذا كان العماني - بعيدًا من الناحية الجغرافية، فإنه قريب بوجدانه وأحاسيسه من أخيه اللبناني، يشعر بضياعه، يتألم لحرمانه، يصرخ لاغتياله، ففي قصيدة «لبنان» للشاعر أبي سرور، حميد بن عبد الله بن حميد، يلوم الشاعر الأمة العربية الواقفة الصامتة، الشاكية لمجلس الأمن والأمم المتحدة، ولكن لا مجيب، نراه يقول:

إلى متى نحن للطاغوت نحتكم ... ونطلب العدل من خصم هو الحكم

إلى متى نحن لا نلوي إلى ثقة ... بالله تعصمنا ممن هم ظلموا(١)

ومطلع الشاعر في قصيدته تنبئ بتوجه إسلامي، وذلك من خلال كلماته ذات الهوامش الدينية مثل «للطاغوت» «تعصمنا»... وبعدما استهل الشاعر قصيدته باستفهام استنكاري بقصد التوبيخ، نراه يزيد في التحديد والاستفهام، فيقول:

نأوي إلى الشرق هل نأوي إلى أحدٍ ... إلا لأقسى عدوّ ما له ذمم

ثم يقول:

وتقصد الغرب أيدينا فهل رجحت ... إلا على قطعها والكيد يزدحم

والشاعر يدرك أن قضية «لبنان» هي قضية «فلسطين»، وهما معًا قضية الأمة العربية والإسلامية كلها، ولذا نراه يجمع القضيتين معًا في قوله:

أرض النبيين ما دمنا نخادع من ... شرق وغرب فلن ترقى لنا همم

«لبنان» تقصف، والباقي معرضة ... «والقدس» محتلة يبكي لها «الحرم»

ويستأنف الشاعر لومه للأمة التي أضاعت القدس، واليوم تساعد على ضياع لبنان،

(١) أبو سرور، حميد بن عبد الله بن حميد، إلى أيكة الملتقى - القاهرة ١٩٧٨، ص ٤٤.

يقول:

إنا أضعنا من الإسلام جوهره	فضاع موقفنا وانهارت العزم
ومن يضيّع لشرع الله يرمّ بما	يذله وتوالت حربه النقم
فلنأو لله ولنرجع لشرعته	ما هان والله من بالله يعتصم
ونحن للسلم والهيجا إذا زأرت	ما إن بنا خور والشاهد الأمم
والسلم نقبل إن أعداؤنا جنحوا	والحرب إن نكثوا يومًا هي الحكم

يلاحظ استلهام الشاعر للنص القرآني، خاصة قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ (الأنفال: ٦١).

ولكن يطرح السؤال نفسه من الجانح إلى السلم؟ ومن يجري وراءه؟!!

وللشاعر قصيدة أخرى بعنوان «بين القنا والقنابل» يصف فيها الأحوال العربية في كل موقف سياسي تجتمع القادة، ويتمخض الاجتماع إلى لا شيء، وإذا شكونا إلى مجلس الأمن، فلن تجدي شكوانا، ولكن الحل في الوحدة العربية، والصمود المشترك، يقول:

أين التآلف هل رأيت من الملا	إلا صحائف سوِّدت بالأدمع
نبكي ونجتمع الليالي نشتكي	وقلوبنا لم تجتمع بالمجمع
كم قمة رمنا بها عرش السما	فإذا بها من عرشها في مصرع
كم جلسة عقدت لأمن يبتغى	أضحت بنا نارًا توجج أضلعي
ما الأمن ما التحرير ما باب العلى	ما النصر إلا وحدة لم تُصرع[1]

* * *

(١) أبو سرور: باقات الأدب، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٤٧.

فلسطين

من فلسطين انطلقت حناجر الشعراء نحو لبنان تشجب وتستنكر وتدين وتناضل، وتحث على النضال فالجراح واحدة، والمصيبة كبيرة بُحت الأصوات من شدة الحزن، بكى الشعراء دمًا على شهدائنا اللبنانيين، كما بكت على رحيل المقاومة منها، وأول ما نبدأ من هؤلاء، الشاعر هارون هاشم رشيد، ففي قصيدة له بعنوان «ماذا بعد يا لبنان» يتساءل الشاعر عن هذه المأساة، وإلى أين سنذهب نحن الفلسطينيين، فالقدس محتلة، وسيناء منتهكة، وبيروت محاصرة:

ومــاذا بعــد يا لبنان! مــاذا بعــد يا لبنان

ركعنا من شطوط الأطلسي: إلى رُبى جيزان

صرعنا تحت أقدام الطغاة ومنجل الأحزان

قــتلنا، مـــا لنا اسم، ولا علم ولا عنوان

فماذا بعد، ماذا بعد، فيم يكرس العدوان

وما في القدس منهوب، بها القرآن، والصلبان

وسيناء، يدنسها العدو، وتستبي الجولان

فــمــاذا بعد يا لبنان، مــاذا بعــد يا لبنان[1]

وقصيدته «لأنها بيروت» يوضح فيها صمود بيروت الأسطوري، رغم القذائف وهلمجازر، ستبقى المدينة منارة للعلم، للحرية، ثم يشير إلى الخداع العربي والزيف الدولي، وبرغم هذا، وذاك ستظل «بيروت» مشرقة:

بــرغم الـصــــــــــواريخ رغم المدافع

---

(١) هارون هاشم رشيد، النقش في الظلام، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٣م، ص ١٧.

ورغم المجـــازر، رغم الفـــواجع

تظل بيــــروت، تبـــقى المطابع

تواصل إشـــراقـــهـــا، وتتـــابع

وتمسح بالحب، دمع الشــــوارع

فبيــروت مـهـمـا تحيك الأصابع

شباك التآمر، مهما تخادع

تظل منارًا مـضـيـئًا وسـاطع

ورغم الصـــواريخ، رغم المدافع

تواصل إشـــراقـــهـــا وتتـــابع

أما قصيدته «ما بها بيروت» ففيها يُظهر الشاعر الحزن والموت في المدينة المحاصرة التي ذبحت بسكين اجتمع على شحذه عدة قبائل.. الموت في بيروت أصبح سهلاً وميسرًا، امتلأت شوارعها بالأحقاد الدفينة، تحطمت المدينة على مسمع من الصمت لعربي، بيروت أنثى لم تلد إلا الأحرار، لا يجيئوا إلى الحياة إلا بالدم المراق.

ويؤكد الشاعر بأن المقاومة الفلسطينية في بيروت، هي الوجه المشرق، وأبناء المخيمات هم الذين يذودون عن حماها، حتى تبقى عربية الوجه والتاريخ، والكيان، ويقول في القصيدة:

أنتم الشـعلة مـهـمـا رددوا	من تفاهات ومـهـمـا لفّقوا
عـربي وجـه لبنان... وإن	لطّخوه، عـربي مـشـرق
لن ينالوا منه مـهـمـا دبروا	من خيانات، ومـهـمـا أطلقوا
عـربي وجـهـه تاريخـه	كل مـا فـيـهـا بهـذا ينطق[1]

طال التفرُّق والشتات بالأحبة، وهطلت القنابل، وتوزعنا على المنافي والفيافي العربية، الحنين إلى الوطن زاد حرقة، وأمل العودة أخضر وأينع، والمسافة مهما بعدت عن فلسطين فهي في قلب من أحب الوطن، لبنان كان الامتحان الحقيقي، دمّر لبنان،

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥.

هتكت الأعراض، ديست الكرامة العربية، أُخرج أبطال المدينة منها بإجماع قبائلي عربي متخاذل، هكذا يخبرنا الشاعر مريد البرغوثي في قصيدته «طال الشتات» يقول:

لبنان مقبرة الكذب

لبنان مختبر السراب

لبنان وحدك من كتب

وهم الهوامش في الكتاب

لبنان جلجلة التعب

بوابة الحلم المصاب

تعب الغزاة، وما تعب

لولا ممالكنا الخراب

لبنان في الدم إن ذهب

باق يجلّ عن الذهاب

لبنان يا خيط الذهب[1]

يتابع البرغوثي أبياته متسائلاً أين العرب، وأين المسلمون؟ لبنان يذبح.. والجميع مسترخو الجفون.. أين أصحاب الدين؟ ماذا طبقوا من دينهم؟ وأين أصحاب القومية والتقدمية.. أين الألسن العنترية، وماذا تفيد القمم العربية المتتالية، يقول:

لبنان مقبرة العباءات التي كذّبت على أجسادها

لبنان مقبرة الفصيح القومجي

وكف صاحبه تثبت خيمة

وبكفه الأخرى يهبطها على أوتادها

لبنان مقبرة المصلي حين يسجد للصلاة تُقى

وينقش نجمة الأعداء في سجادها

---

(١) مريد البرغوثي، طال الشتات، دار الكلمة للنشر - بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص ٩١.

لبنان جرح للفتى الأممي، فضح للقريب وللقصي

مسلة الشهداء، قائمة من الدين العصي

وما تقدم غيرنا لسدادها

لبنان! قد يمضي بنا العمر القصير ولا نفيك

لبنان إذا قالت فلسطين اصطفوا الخِل الوفي سنصطفيك

وكفى دليلاً للمحبة أنه

ما رد موتك عنك غير الموت فيك

بل إن لبنان العربي، وأبياته تنادي بالوحدة بين فصائل المقاومة حتى يكونوا سداً منيعًا، ومن جانب آخر، هي تنذر من يخون، وتؤكد أن جزاءه الموت، يقول البرغوثي،

هل فيك يختتم النشيد دمي

أم بين كفيك المضرجتين

يبدأ مأتمي...

....

يقول الطالعون من الحطام

وأمهات الرفض في دمهم

بأن الشعب أصدق حاكم.. والبندقية وحدها..

البندقية في يد الزيتون.. تذبح من يخون

حصار بيروت.. والصمت المطبق على المؤامرة... المذابح المروعة في مخيماتها الصمود البطولي.. المعاناة أثناء الحصار.. معاناة الروح والجسد.. النضال من أجل وطن للأطفال يرسمون، ويكتبون، ويطلقون الرصاص، يموتون.. ويغنون له من داخل الحصار.. من أقبية التعذيب والزنازين، يقول الشاعر محمد حذيفي في قصيدته «بيروت في حصار الصمت»:

يا أيها العرب «التقاة»، «الطاهرون»، «الصالحون»

النائمون على أرائك من صدور الجاريات

الوالغون بدمنا، ودمائنا

العائمون على بحار الدمع

في عطش القرون

الصامتون إذا الكلام يفيدنا

والصاخبون على المنابر

في الليالي المقمرات

يا كلّ أعداء الحياة

تتسنمون ظهور هذا الشعب

في الزمن الرديء

وتقتلون الحب في أعماقه

للأرض للوطن الذبيح[1]

يلاحظ أن الشاعر يعرِّض بالحكام العرب من خلال جمل كثيرة مثل: «الصامتون إذا الكلام يفيدنا»، «الصاخبون على المنابر»، ثم يحشرهم جميعًا في قوله: «يا كل أعداء الحياة».

ويصور الشاعر بيروت أثناء حصارها، ومحنتها مبينًا العطش والجوع اللذين حلا بالمدينة، ومن حولها - من العرب - يلهون، ويأكلون، ويسكرون، ولكن ستظل بيروت الرحم الذي أنجب الأبطال.. وتبقى كما هي عروس العواصم العربية المجللة بالسواد..

بيروت تلعن خاذليها الشامتين

بيروت تسكن كل نبض

في دماء الكادحين

بيروت رحم الأرض مزرعة النضال

---

(١) محمد حذيفي: ليل المشاعر، دار مجلة الثقافة - دمشق ١٩٨٣م، ص ٧٥.

وغدًا سيأتي يومكم

يا كلّ أشباه الرجال.

أما سعيد المزين فله رباعيات كثيرة جمعها في ديوانه «سفر السيف» نراه يذكر «سعد صايل» أحد القادة الذين اغتيلوا عقب خروج المقاومة ورحيلها، فيقول:

إن أشـــرق في وطني «صــــايل»	مـــقـــدام مــــوثوق عــــاقل
يحـــمي بيـــروت ويدعـــمـــهـــا	برجـــال كم صـــرعـــوا البـــاطل

لا تنســـوا يومًـــا أو تقـــفـــوا[1]

وفي رباعية أخرى نراه يشد من أزر المجاهدين، محمسًا لهم، فيقول:

مـــا تاهت خـــيل مـــواكـــبنا	مـــا ضلت كل مـــراكـــبنا
لبنان جنوب مـــســـتـــعـــر	والثـــورة باسم «مـــحـــمـــدنا»

لا تنســـوا يومًـــا أو تقـــفـــوا

الشاعر يتخذ من جملة «لا تنسوا يومًا أو تقفوا» متكأ يتكئ عليها ليعاود الانطلاق نحو رباعية جديدة تبلور فكرته وتحدد هدفه وخططته.

والدماء حبر يكتب به الشعراء، ويكتب به الشهداء وصاياهم للأجيال القادمة، كما يقول الشاعر عبد الناصر صالح في قصيدته «هل غادر الشعراء» التي أهداها إلى روح زميليه فلشهيدين: أسعد الشوا، وعلي سمودي، اللذين استشهدا في مقاوجة السجابين في مذتقل (أنصار ٣) في ١٦/ ٨/ ١٩٨٨م، يقول:

يتسابق الشهداء في سجن النقب

ليشكلوا بدمائهم جدلية الموت/ الحياة

(...) يتسابق الشهداء

يلتحمون بالرمل القديم

يسافرون لعرسهم

---

(١) سعيد المزين: سفر السيف، منشورات لجنة القدس – القاهرة، ط١، ١٩٨٥م، ص ٥٩.

(...) أعدوا للنشيد الحر

أسراب العصافير التي اجتازت سياج الموت

(...) لم يهبط الشعراء من عليائهم

لكنهم صعدوا إلى قمم التوحد

واستعادوا في الدجى أرواحهم

كتبوا وصاياهم بحبر دمائهم

قرأوا على البحر السلام

وجمعوا أصدافه

فتحوا لزخات الرصاص صدورهم

واستقبلوا سيل اللهب..[1]

أما الشاعر شوقي العمري فيتحدث عن الشهيد علي حسن سلامة، أحد المسئولين عن قوات الأمن الفلسطينية في لبنان الذي اغتيل بسيارة ملغومة، فيقول:

أواه يا علي حسن

قتلت يوم كنت برتقالة، حمامة، رصاصة

على الطريق للوطن

يا أم لمن هذي الراية

هذا المنديل الأحمر

مصبوغ برحيق فراشات فلسطين

الليل يدق على الباب، وقلبك سهران منذ سنين

ماذا يغزل هذا الأمل بسكين الحلم

سوى طرحة ثوب العرس القادم

---

(١) عبد الناصر صالح: المجد ينحني أمامكم، اتحاد الكتاب الفلسطينيين - القدس، ١٩٨٩م، ص ٩٢.

ماذا في ثلج العمر، على الشباك رجال

أعلام، خواتم[1]

الشاعر يتحدث عن الدم الذي يصبغ (فراشات فلسطين) الفدائيين المنديل الأبيض الذي تضعه المرأة الفلسطينية فوق رأسها كغطاء، ولذلك ناداها بتحسّر وتوجع (أواه)، فلن تستقبله الأم إلا محني، شهيدًا، عروسًا للفرح الآتي، ولعله باستخدام: الخنجر، السكين، يؤكد معنى الغدر الذي مهما كان خسيسًا فلن يؤثر على صلابة المقاتل والمناضل.

الطفولة هي البراءة والجمال والرقة، وأشد ما تكون القسوة والوحشية إذا وجهت للأطفال، فقتلت براءتهم، وشوهت جمالهم، واغتالت رقتهم، ولذلك وجدنا الشاعر أحمد الريماوي يصف مذبحة مخيم صبرا، ومخيم شاتيلا، وكان معظمهم من الأطفال الأبرياء، يصفه بأنه عمل أبعد ما يكون عن الإنسانية، فراح يحض على القتال ومواصلة النضال، برغم كل هذه المجازر، فالأهداب شظايا، والعيون هدايا ثمينة تزين جيد الوطن، أما الدماء فهي مرايا عرَّت خفايا الجريمة والمشاركين فيها بقيادة «إرييل شارون»، فيقول:

أطفال شاتيلا مشانق

أهدابهم شبت شظايا

وعيونهم أحلى هدايا

ودماؤهم سكبت مرايا

مزَّقت ليل الكفن

زينت جيد الوطن

لألأت

عرَّت خفايا.. خلخلت عرش الزمن[2]

وللشاعر قصيدة أخرى، عن شهداء مخيم «عين الحلوة» في جنوب لبنان، الذي

(١) شوقي العمري: القمر كان يبكي، دار القدس - بيروت (د. ت)، ص ١٤.

(٢) أحمد الريماوي: هلت من صبرا عشتار، مطبعة الكرمل، مخيم اليرموك - دمشق، ١٩٨٥م، ص٢٢.

تعرَّض للقصف والمجازر أكثر من مرة، فيصور الجرح بأنه يغني نشيد الأيام القادمة محملة بالأمل والتفاؤل، فيقول:

من عين الحلوة، أحسو نار الموت الشادي

ألحف قلبي برد العنف

يغني الجرح نشيد الآتي

يا لضباب العقم الجاثم فوق مدائن عصر أرعن(١)

ولا يريد الشاعر صخر حبش (أبو نزار) أن يصور وجه الشهيدة (دلال المغربي) التي قادت العملية العسكرية البحرية الشهيرة ضد الاحتلال الإسرائيلي في ١١/ ٣/ ١٩٧٨م، بل يريد لزحف صبايا العرب أن ترسم وجه (دلال) على شاطئ البحر، فدور المرأة لا يقل عن دور الرجل، فيقول مخاطبًا الجنوب اللبناني:

أكرر عندك يبدأ زحف المرايا

ليغرس في شتلة التبغ صاعقها.. والفتيل

وعندك يبدأ زحف الصبايا

ليرسم وجه (دلال) على شاطئ البحر

يغرس (غزة) فوق (الجليل)

وينشد أغنية المستحيل(٢)

أما داود معلا شاعر يرثي صبرا وشاتيلا... وبيروت بقصيدة يقول فيها:

بالأمس كانت ترينا ثوبها القصبا	تختال فيه على أقرانها عجبا
بالأمس أي عروس أنت لاهية	تمارس الحب كاسا مدهقا وصبا
واليوم أي حريق بات يأكلها	يحرق اللحم والأعراق والعصبا

(١) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٢) صخر حبش: الحرب في زمن الحرب، الإعلام الموحد الفلسطيني (فلسطين الثورة) - بيروت ١٩٧٨م، ص ١٠.

كل الخـواتم ذابت في أصـابعـهـا ... وذوبت بعـدهـا الأقــراط والذهـبـا
لم أدر مـا قلت أو مـا قــالـه سلفي ... من ذا الذي يحسم الأمر الذي صعبا
أهكذا أنت إســـرائيل ثانيـــة ... يريدك الغرب فينا مرتعًا خصبا[1]

ونلاحظ أن الشـاعـر داود معـلا يقارن بين حالة لبنان في السـابق حين كـانت تزهو جمالاً، وحالها اليوم حين غزتها ملة الكفر قتلة الأنبياء، وما آلت إليه من خراب ودمار.

وكران للكفـر مـقـرون سـلاحـهـمـا ... وخنجـران على أحـشـائنا ضـربا
باسم العـروبة أم باسم اليـهـود أتى ... حـزب الكتـائب هذا العـار وارتكبا
حـقـد.. وقـتل.. وأشـلاء مـبـعـثـرة ... ألا يـبـين هـذا أنـهـم عـــــربا
ليـست عـروبتنا شـيـئًـا نقـدسـه ... إلا إذا كـان للإسـلام منتـسـبـا
ويلاه بيـروت هل كـانت مضـاجعـهـا ... تنام إلا دخـــانًا يخنق العلبـــا
فكيف صـارت وفـرسـان الرجـال على ... شـوارع الليل، نارًا تقـذف اللهـبـا
يحـمـون عـرض نسـاء المسلمين على ... أسنة الموت لا يلقـــونه جنبـــا
(ريجـان) يدعـو وإسـرائيل مـشـقلة ... بالموت، والموت فـيـهـا بالغ أربا
حـتى إذا خلت السـاحـات وارتحلت ... جمـاجم الموت عن مـيدانهـا غضبا
وكـبـروا.. ويد التـاريخ رافـعـة ... سواعد الصـامدين الصيد، والعتبا
وقـادة (العـالم العـشـرين) مـانعـة ... دم الثكالى ولكن الجـبـــان أبى
يميل فـيـهم وقـد صـاحت جـوانبـهم ... يقطع السـوق والأعناق والركـبـا
طبع الجـبـان فـلا عـهـد يقـوم به ... ولا لقـاء بغـيـر الغـدر إن ركـبـا

لاحظ إشارة الشاعـر بقوله: «وقادة العالم العشرين» فيها إشارة إلى الدول العربية التي باتت تتفرج من بعيد.

يلوم الشـاعـر القـاعـدين عن الحـرب، ويذكـر القـادة بأن من ينصـر الله فـإنه سـوف يلاقي الجزاء الرابح، ثم يخاطبهم، وما بالكم تقاعستم وأطلقتم يد الكفر وقيدتم أيدينا؟

(١) داود معلا: الطريق إلى القدس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٤م، ص ١٣.

وأغلقتم نوافذ بيوتنا.. وفلذات أكبادنا تقطع وتحرق من قبل إسرائيل وحزب الكتائب؟
فها هي إسرائيل عادت ثانية وعاد معها الصليبيون حاقدين على المسلمين.. فيقول:

يتيمة أمة الإسلام مغمدة سيوفها وهي تبكي الحق مغتصبا
يا قادة المسلمين اليوم موقفكم يخزي به الخزي مرتدًا ومضطربا
ماذا بكم؟ أطلقوا الأيدي تقاتلهم تقطع السيف في أجسامهم إربا
من كان ينصر دين الله فانطلقوا أمامه أسد حرب قادة نجبا
ماذا عليكم إذا فزنا بموقعنا وجدد الحق فينا العزم والأهبا
أبعد أكبادنا تلقى ممزقة نرضى بما قيل أو نرضى بما كتبا
أليس فيكم إذا سالت على يده دماء أطفاله مسفوحة غضبا
أتقفلون علينا كل نافذة وتطلقون يدي أعدائنا سربا
يعدو علينا الصليبيون مشرعة حرابهم يقتلون الأم.. والعقبا
ونحن من خلف الحديد بلا رأي إذا قيل أو أمر إذا ضربا

يتابع الشاعر قصيدته ويضرب أمثلة للأمة الإسلامية ويذكرهم بالقدس، التي تنادي المسلمين في كل مكان من أجل إنقاذ المسجد الأقصى من براثن الاحتلال، ولكن لا حياة لمن تنادي فالكل نيام.. ويتساءل الشاعر أين أنت يا صلاح الدين؟ أين القادة المسلمون الأحرار؟ أليس عندنا القرآن الكريم ويحثنا على الجهاد؟!!

ويدعو داود معلا إلى الوقوف في وجه أعداء الإسلام بكل قوة من أجل الحفاظ على كرامتنا وديننا، والجهاد في سبيل الله من أجل رفع راية لا إله إلا الله خفاقة عالية، حينئذ ترجع المقدسات والوطن السليب وإلا سيكون مصيرنا إلى الزوال على أيدي اليهود أعداء الدين، وأعداء محمد ﷺ، فهبوا يا بني الإسلام.

* * *

شعــــراء الكويـــــت

مأسـاة لبنان كان لها وقع كبير عند شعراء الكويت، الذين نقلوا المأسـاة من خلال أشعارهم، فقد تناولوها من خلال افتخار بشهداء الحركة الوطنية مثل سناء محيدلي عروس الجنوب، وغيرها من شهدائنا المناضلين.

ومن شعراء الكويت محمد الفايز الذي كتب شعرًا يقارن فيه بين بيروت قبل الحرب، وبعد الحرب، كيف كانت قبل بدء المأساة اللبنانية؟ ماذا حدث في لبنان بعد الحرب ففي قصيدة له بعنوان «لبنان الملوح» يقدم لنا صورتين للبنان هما: لبنان السلام، لبنان الحرب. يقول على لسانها:

قـالت هجـرنا التين والزيتـون	والزاخـرات بلابلاً وغـصـونا
والداليـات الناشـرات ظلالهـا	والحـاضنات الورد والحسّـونا
كـانت روابينا تضج خـمـائلا	مـأنوسـة ومـشـاتلاً وعـيـونا
هبطت بهـا كل الطيـور وحلقت	فـيـهـا قلوب العـاشـقين سنينا[1]

وينتقل الشاعر لتوضيح الصورة الثانية للبنان الجريح..

لبنان «قـيس» آخـر في شـرقنا	ترك الهـوى والعـشق فـيـه جنونا
فكأنه كف تغـوص بهـا أظا	فـرها وجـرح يزرع السكينا
جـبل حـزين إن أفظع صـورة	جـبل تراه مـهـدّمـا وحـزينا
كسـيت به الأشـجـار ريش طيـوره	فـتكاد تسـمع للصـخـور أنينا

---

(١) محاضرات الموسم الثقافي لعام ١٤٠٠ - ١٤٠١هـ - ١٩٨٠ - ١٩٨١م، دولة الإمارات وزارة الإعلام والثقافة - **الإدارة الثقافية**، أبو ظبي، ص ٢١٦.

شاهدت «بيروتا» تنوح بجسمها ... وسمعت في آهاتها «حمدونا»

مدن بامرأة تنوح وعالم ... سكن الملامح فاستحال شجونا

يلاحظ أن الشاعر يستلهم التراث العربي من خلال العشق في سيرة «قيس بن الملوح» إذ ذكره صراحة، فالعشق إذًا قاسم مشترك بينه وبين قيس، ولكن المعشوق مختلف، فشاعرنا معشوقته بيروت النائحة، بينما كان قيس لاهيًا كباقي العرب.

كما يستلهم التاريخ من خلال «آل حمدون»، وقد جعلهم الشاعر ينوحون ويصرخون في وقت عزَّ فيه الصراخ العربي!

أما قصيدة «وتمزق الأكليل يا لبنان»، فهي صورة حزينة للبنان، كل شيء تغير فيها، الطيور الفرحة أصبحت حزينة، الدخان يملأ سماء لبنان، وحل الكره مكان الحب، ومزق وجه لبنان الجميل، بفعل عصابة اشرأبت نفوسها منذ زمن بعيد على العنصرية والعمالة، يقول:

ألا لهفي على حقل لسلمى ... يفاجئه حريق في الماء

كأن طيوره والنار تسري ... بها شعل تطاير في الفضاء

ألا لهفي على تلك الدوالي ... كأن جذوعها أيدي الإماء

ألا لهفي على حارات ورد ... وزيتون وأعناب وماء

تقوست السطوح بها فأحست ... ظهورًا مثقلات من عياء[1]

يتحسر محمد الفايز في الأبيات السابقة على لبنان لما أصابه من تدمير، ويعرض صورًا من الواقع اللبناني، ومن الطبيعة الجميلة لتكون شاهدًا على ألم لبنان وجرحه؛ فالوجوه مصفرة، والسواقي معطلة، حتى الطيور تعاني من الألم، فلا فرح ولا غناء، فضلاً عن الجداول الفارغة، حتى الجبل أمسى حزينًا، يقول:

على الألوان يحجبها دخان ... كما أصفرت وجوه من حياء

كأن عواري الشجر المدمى ... نساءٌ عاريات في كساء

تعطلت السواقي عن خرير ... وأحجمت الطيور عن الغناء

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

وأفرغت الجداول من مياه | كأعراق تلوح بلا نماء
لقد سقطت بوديان جبال | كما ذابت شموع في إناء
ألا لهفي على الجبل المعنى | فقد أمسى حزين الكبرياء

يستأنف الشاعر آهاته وزفراته الحزينة، حيث المشاهد المؤلمة، فيلتقط بعض المشاهد ليدلل على خراب هذا البلد، فالشرفات ليست كالشرفات، وتوقف همس النوافذ والسواقي... إلخ، ثم يستلهم الشاعر قصة «يوسف» (عليه السلام) مع إخوته، فإذا كان الأخ يسعى جاهدًا لقتل أخيه كما حدث مع «يوسف» فهو تمامًا ما يحدث هنا، حيث العربي في مواجهة العربي، وربما أسقط الشاعر على إخوته «يوسف» بإسرائيل، فهم منذ القدم سفاحو الدماء، يسعون في الأرض فسادًا، وربما أراد أن يقول: إن الطهر والبراءة في مواجهة الفساد والمكر دائمًا، فيقول:

ألا لهفي على الشرفات لما | يدور بها الحديث عن الشتاء
على همس النوافذ والسواقي | وهفهفة الستائر والملاء
على الواحات تزخر بالعذارى | كما احتشد البهاء على البهاء
تعالي جربي عطشى وبئري | عسى تجدين من بعض العزاء
فأخوة «يوسف» جاءوا أباهم | وهم يبكون «يوسف» في العشاء
وما زال القميص به دماء | وآخر مزقوه من الوراء

ولمحمد الفايز قصيدة أخرى بعنوان «القميص ودم الكذب» يصور فيها العرب ما بين منتهب يريد الأرض، وبين خانع راض بالاستكانة، يقول فيها:

تعالى أُريك جوانبهم
وانتفاخاتهم والذي يضمرونا
هم اثنان: بعض يصول
لينتهب الأرض، والبعض همٌّ ثقيل
ويتضح الأمر.. ينكشف السرّ..
إن دماء القميص ملفقة الكيد

والذئب منها براء

وإن الجناة هم الأخوة الأتقياء!![1]

وفي قصيدة «الأشباح وأنوثة الأرض» يعقد مقارنة بين بيروت الماضي، حيث الحدائق الغناء، والعطور والرياحين، حيث الملاهي والمرح، وبين بيروت اليوم حيث الخراب والدمار، والقتل والتشريد يقول:

شاهدت في الأحلام

مدينة شطآنها سلام

وأرضها حدائق

وأفقها حمام

ينبت في مياهها اللؤلؤ والمرجان

والمسك في ترابها، والظل والريحان

....

ثم ينتقل من تلك الصورة إلى صورة أخرى معاكسة لها ومغايرة، فيقول:

وفجأة باغتها الإعصار

وزلزلت من تحتها الأرض التي

قد بدأت تنهار

كأنها سقيفة من قصب

تشب فيها النار

وحوصرت شطآنها بالغضب

وطوقت أرجاؤها باللهب...

وحاق فيها الخسف..

---

(١) محمد الفايز، تسقط الحرب، المركز العربي للإعلام، الكويت، ط١، ١٩٨٩م، ص ٢٣.

والتفَّت على حيزومها الأخطار[1]

وهناك العديد من القصائد للشاعر تحكي المأساة وتصور حال المناضلين نذكر منها «الفتنة والأسلحة المعارة»، و«يبقى القمر منعزلاً».... «آه عليك يا لبنان»، ثم ديوانه المهم «لبنان والنواحي الأخرى» وغيرها.

وبرزت المأساة في شعر غسان مطر، ففي قصيدة له بعنوان «زهرة المستحيل سناء محيدلي»، يوضح فيها ملامح المرأة العربية الأصيلة، والبطولة الفذة التي عانقت السماء، وبطولة سناء محيدلي، الفتاة الشابة، عروس الجنوب، التي زفت نفسها في أجمل حفلة عرس، اختارت سناء طريقها، تطايرت أشلاءها على أرض الوطن لتكون زهرات المستحيل، هذه سناء الحرية، رفضت العيش الذليل، أرادت الانتقام لشعبها، ولوطنها الذي صرخ متألمًا من الجراح، تلك الفتاة كانت مصدر إلهام للشعراء وللفدائيين، يقول غسان مطر:

لأن النبوءات ومض

أضيئوا عواصفكم،

واقرأوا فوق فستانها سورة النار

وامضوا

أضيئوا عواصفكم

فالدروب إلى سرها وطن

والهوى خاتم الكبرياء

ولا ترسموا وجهها

فالخرائط أجملها

ما نسيجه بالدماء[2]

والمتأمل في القصيدة - الطويلة - يلاحظ ارتكاز الشاعر على البعد القومي، حيث

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٢) الكفاح العربي، ١٥/ ٤/ ١٩٨٥م، ١٢ نيسان ١٩٨٥م، ص ١٨.

بدا شاعرنا محبًا لوطنه وقوميته مدافعًا عن عروبته.

أمّا سعاد الصباح فتصرخ صرخة وجدانية مختزلة الحب والرفض، وتحرض على الشعور بما يعاني منه أطفال لبنان، وعلى ضرورة الانضمام لجيش العرب فتقول:

يا بلادي

اخرجي من نشرة العملات.. والأسهم

وانضمي إلى جيش العرب

إن في لبنان أطفالاً يموتون

وعِرضًا يُغتصب

لبيروت متسع عند سعاد الصباح، وعلى الرغم من أن الشاعرة تتحدث عن بيروت المدينة، بيروت الذكرى والماضي الجميل، والحاضر المتعب، فإنها جعلت منها مفتاحًا سحريًا تعبر من خلاله إلى الحدود غير المرئية للمدينة العربية المعاصرة، وللهمّ العربي وللدمار العربي، وقد خصَّصت الشاعرة لبيروت قصيدتين في ديوانها «خذني إلى حدود الشمس»، أما القصيدة الأول بعنوان «السمكة تعود إلى بحرها»، والعنوان ينبئ عما في داخل القصيدة من صور ومعان، فسعاد تلك السمكة التي خرجت من بحرها لظروف طارئة ها هي تعود ثانية هانئة لبحرها، فتقول:

ها أنذا أمام بحر بيروت

لأستعيد صداقتي مع الطيور الأسماك

وحواري مع اللون الأزرق

بعدما أرهقني العطش

أما القصيدة الثانية، وكانت تحت عنوان «بيروت كانت وردة.. وأصبحت قضية» تغوص الشاعرة إلى الأعماق في بحر بيروت، وتظهر أوجاعها باحثة عن الدواء الناجع، ومن ثم فهي تتفجر براكين أسى، ففي تلك القصيدة تقول:

آتى إليك اليوم، يا بيروت

هاربة من قلقي النفسي

من توجعي القومي

من أكذوبة السلام

آتي من التخلف الكبير

والتشرذم الكبير

والتناثر الكبير

آتي إليك من ثقافة الشراء.. والبيع

ومن مثقفي الظلام!!

آتي إليك اليوم يا بيروت

أمشي على حقل من الألغام

هاربة من مدن قد أحرقت تاريخها

وطلَّقت مبادئ العروبة

وطلَّقت مبادئ الإسلام

ثم تفتخر سعاد الصباح بالجنوب اللبناني الصامد، فتقول:

آتي إلى الجنوب

حيث الأرض تنبت الليمون، والزيتون

والأبطال

وتنبت العزة والنخوة والرجال

آتي إلى الجنوب

كي أقبل السيوف، والخيول والنصال

وفي فمي سؤال:

هل أصبح الجنوب وحده.. قاعدة النضال؟!

* * *

لبنــــــــان

مأساة لبنان خلقت موضوعات شتى ومتنوعة، الدمار والخراب، والألم والأحزان حلت هذه الأشياء على كل بيت في لبنان شماله، وجنوبه، شرقه، وغربه، يتمت أطفالاً، ثكلت أمهات، رمّلت نساء، شردت آلاف النساء، ضيعت وجه الشرق، أغرقت الشعب اللبناني وشريكه الفلسطيني في بحر من الدموع والدماء. ومن أبرز الشعراء الذين صرخوا صرخة الألم في وجه الظلم والاستبداد، الشاعر أدونيس ففي قصيدة له بعنوان «الوقت»، يوضح فيها عمق المأساة.. وشدة الألم الذي وقع فيه لبنان، وعانت منه بيروت طوال سنوات الحرب التي أكلت الأخضر واليابس، أو استبدلت الأخضر حطامًا، يقول فيها:

حاضنًا سنبلة الوقت ورأسي برج نار

ما الدم الضارب في الرمل، وما هذا الأفول؟

قل لنا، يا لهب الحاضر، ماذا سنقول؟

مزّقُ التاريخ في حنجرتي

وعلى وجهي إمارات الضحيه

ما أمرّ اللعنة الآن وما أضيق باب الأبجديه

يتابع أبياته مبينًا هول المأساة، والفاجعة التي ألمّت بالبيوت العربية، فيقول:

جثث يقرؤها القاتل كالطرفة/ أهراء عظام

رأس طفل هذه الكتلة، أم قطعة فحم؟

جسد هذا الذي أشهد، أم هيكل طين؟

أنحني، أرتق عينين، وأرفو خاصره

ربما يسعفني الظن، ويهديني ضياء الذاكره

غير أني عبثًا أستقرأ الخيط التحيل

عبثًا أجمع رأسًا، وذراعين، وساقين، لكي

أكتشف الشخص القتيل[1]

لوحة الموت، صورة أشلاء القتلى تملأ ساحات بيروت، أشباح الموت تلاعب الثكالى، ملحمة من جثث الناس في بيروت، وصيدا، وصور، دماء تسيل على أيدي الصهاينة، والوقت يسير بسرعة، والصمت أسرع من الوقت، وأمضى في جسد أمتنا!!

ولأدونيس قصيدة أخرى بعنوان «ضوء الشمعة» بين فيها شدة القصف الإسرائيلي لبيروت المحاصرة، طائرات الفانتوم تلقي بقنابل النابالم على سكانها، الظلام الدامس الذي نتغلب عليه بضوء الشمعة النحيلة، وله قصيدة بعنوان «أشخاص» يصور فيها حرمان الأطفال وجوعهم وسط أكوام الموتى وأشلائهم المتناثرة!!

وسجل أدونيس مجموعة أغنيات للجنوب اللبناني، يمجد الجنوب الحر الأبي، ويعتز بصلابة أبطاله، الذين عطروا ترابه بدمائهم، الأولى بعنوان: «أغنية إلى زينب» الفتاة الجنوبية.. الأم التي تحضن طفلها.. تفقد زوجها...

والثانية بعنوان: «أغنية إلى هذا الزمان» يوضح فيها أن أبطال الجنوب، هم الذين سيحملون مشعل الحرية مع الرياح اللافحة لهذا الزمان، رياح الثورة.. بذرة النضال[2].

سناء محيدلي عروس الجنوب - فجرت طاقة الشعراء، الذين تغنوا بالعروس الشهيدة، ورثوها بقصائد تمجيد وافتخار. ومن الذين كتبوا لسناء الشاعر عصام العريضي، إذ قدم صورة مشرقة للفتاة المناضلة، ابنة الجنوب، التي عبرت الطريق الصحيح نحو بوابة الوطن، ولحقت بها ابتسام حرب، ونزيه القبرصلي، وغيرهم من الأبطال الشهداء.. منارات الحياة وألاحين الحرية والنضال.. يقول:

لم يعد اسمي ذكاء

---

(١) أدونيس، كتاب الحصار، دار الآداب، ط١، ١٩٨٥م، ص ٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٥، نشرت هذه الأغنيات إلى السيد الجنوب (الكفاح العربي) ١٨/ ٢/ ١٩٨٥م، وأجزاء منها بمأساة بيروت: ص ٥٨٩ وما بعدها.

قالت الشمس حبيبه

أنا بعد اليوم

أصبحت «سناء»

أجمل الأسماء

اسم لصبيه

أعطت العالم درسًا في الفداء

جاء فيه حجم القضيه

علم الأجيال بعد اليوم

أن البربريه

سحقت تحت حذاء لصبية[1]

يتابع الشاعر أبياته مبينًا بأن الشمس أذرفت دموعها على سناء.. وغيرها من الظواهر الطبيعية قد شاركتها هذه الأحزان، فيقول:

واعذريني يا سماء

قالت الشمس السنيه

أنا لن أشرق بعد اليوم

من وجه الغروب

مشرقي صار الجنوب

لقد اخترت الهويه

فأنا شمس الجنوب العربيه

لكن الشمس لم تشرق من الغروب كما ذكر شاعرنا، فكان الأليق أن يقول «أنا لن أشرق من اليوم من عكس الغروب».

---

(١) عصام العريضي، ثلوج، دار العودة - بيروت، ص ٨١.

وتتضح مأساة لبنان في شعر عصام العريضي، الذي كتب عن بطولة المقاتلين في الجنوب اللبناني، حيث أورد شعرًا يصف بطولة ابتسام حرب، وسناء محيدلي، ووجدي، وغيرهم ممن قبّل الأرض شهيدًا، متحديًا صلف القوات الصهيونية وجبروتها، ونجد الشاعر في قصيدته «أم الشهداء»، وهي بلدة بيصور في جنوب لبنان، يبين لنا مدى مقاومة هذه البلدة لقوات الاحتلال، وهي أم لكل الشهداء الذين تصدوا لرصاص الاحتلال بصدورهم، يقول:

وطني فديتك والفداءُ وفاءُ ... وتراب أرضكَ طينة ودماءُ
من يوم أعطاك «المعلّمُ» نفسَهُ ... وعلى رمالك تَنْبُت الشهداء
لبنان نحن بناته وحماته ... والصفوة الشرفاء والحلفاء
لبنان نحن على ذري تاريخه ... أبناؤه الأبرار والآباء
لبنان نحن وليس من كفروا به ... فإذا بهم من حقدهم أشلاء
فولاء إسرائيل قبل ولائه ... والحرب تشهد أنهم عملاء[1]

والشاعر في المقطع السابق يشنّ هجومًا على عملاء إسرائيل في جنوبي لبنان وفي كل مكان، ثم يقول:

أمّ الشهادة لا أقول شهادة ... فعلى جبينك كوكب وضياء
قد صغت حبات القلوب قلادة ... في الجيد، تلك شهادة عصماءُ!

ويوضّح لنا في مقاطع قصيدته العطاء الذي يجب أن يقدمه ابن لبنان دفاعًا عن أرضه، ومثال ذلك بلدة بيصور أم الشهداء، والتي كانت قلعة حصينة، بل عطاء دفاقًا من الشباب الذين قدموا أنفسهم فداء لأرضهم ووطنهم.

ولكم سَخَوْتِ، وما شكوتِ، ببذلهمْ ... هل فوق بذلك والعطاء عطاء؟
ركزوا لواءك فوق كل وقيعةٍ ... وهم على علم الفداء لواءُ

وهناك قصيدة أخرى للشاعر تدور حول الشهيدة البطلة «ابتسام حرب»، والتي اختارت طريق الشهادة لتنال دار الخلود.. الجنة التي وعد الله بها الشهداء، فهذه

---

(١) عصام العريضي: ثلوج، دار العودة – بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٠٣.

ابتسام الفتاة العربية، مثال لكل فتاة في عصرنا الحاضر، كل فتاة تسير على نفس الدرب الذي رسمته ابتسام.. لقد سبقت إلى قوافل الشهداء، وفازت بدرجة عالية عند الله، بوركت الأم التي أنجبت ابتسام وسناء، وبوركت الأرض التي حملت بمثل هذه البطلة، وبوركت السواعد الفتية التي لقنت العدو درسًا في البطولة والتضحية، يقول عصام العريضي في قصيدته «ابتسام حرب».

من قال إنك يا ابتسام تغادرين

نشوى بعطر المجد

عطشى لخمر الخالدين؟[1]

وينتقل الشاعر إلى وصف حاله بعد استشهاد ابتسام حرب، وما هو واجب عليه تجاه أرضه وأمه، فيؤكد لنا بأنه سيسير على الدرب نفسه، وسيفجر الأرض بركانًا يحرق الأعداء أينما وجدهم.

إنيّ لأسمع صوتك الدافي يقول:

«أنا في أديم الأرض

أزرعها عواصف من جديدْ

أنا في صخور الأرض

أحبكها دروعًا أو جسومًا من حديدْ

أنا في البراكين التي التهمت جبالاً من جليدْ

سأعود بعد اليوم

في ثوب جديد»

إني أصدق يا ابتسام النصر

يا حربًا على سلم الجناة الراكعين

فغدا إلينا ترجعين

(١) المصدر نفسه، ص ٩١.

اسمًا جديدًا تحملين

رقمًا جديدًا تكتبين

وتسطّرين:

«ما نحن قومًا ميتين

للطّين نرجع مثله

من بعد حين

إنّا إذا غابت «سناء»

عادت إلينا في «ابتسام»

والشاعر في السطرين الأخيرين يحكي توالد الشهيدات، فإذا غابت «سناء محيدلي»، فقد عادت إلينا باسم آخر، باسم «ابتسام حرب»، وإذا غابت «ابتسام» فسرعان ما تعود باسم جديد، فالأرض ولادة بأبطالها وشهدائها.

ويتغنى بأمجاد أمته التاريخية الشاعر أحمد قدورة هذا الذي يدغدغ بشعره مشاعر أمته، ويعمل على النهوض بمجتمعه إلى الأفضل؛ ففي قصيدة له بعنوان «لبنان تحت وطأة الحرب» ينقل لنا صورة حية عن حصار بيروت، ومعركة ٨٢، والدور البطولي الذي قدمه أبناء الوطن، ويبين فيها مدى القصف الإسرائيلي وشدة المعركة، ومدى الخسّة العربية والصمت المريب، فيقول:

بيروت يا أماه تختصر الطريق

أواه ما كانت شوارعنا قفور

ما لون حاضرنا، وما شكل المصير...

أو تعلمين...؟

الطائرات الطائرات الطائرات

رباه ما أقساه قصف الطائرات

نزالة نزلت، وصبت صاعقات

هل زلزل لبنان..

أم دور الكواكب فجرت..!

ما صار في بيروت يا أماه..

حتى غارت الأنوار وانتهت الحياه

أين المقاوم، والمدافع، والحماه..؟

بيروت ما حل بها...

دهياء من عنت العتاه

ويتمتم المذياع وقف النار

في أجوائها غصص حزين

لا رحمة في الأرض.. لا قلبًا يلين

في هجمة صلفاء كالرقطاء.. ينتحر الضمير..![1]

وفي قصيدته «دك الهمجية الإسرائيلية» ينادي الشاعر علي الانتفاضة لطرد العدو من الوطن، ومهما صنع العدو من أساليب لتدعيم احتلاله، فنحن الثوار. والثورة آتية لتحرق الأرض تحت أقدامهم، وسيعم الربيع أشجار بلادي، وتزدهر شجرة الحرية بفضل ثوارنا الأحرار.

يا رفاق الجرح لبوا صوت ثكلى

ذاقت الويلات والمر سنينا

لن تنالوا البر من شكواكم

ارفضوا الظلم لقوم غاصبينا

وابعثوها في بلاد العرب ثورات

تقيم العدل والحق اليقينا

ليس نيل الحق صلحًا إنما

نحن رغمًا بالسيوف الآخذينا

---

(١) أحمد قدورة، لبنان ودم الجنوب، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ٢١.

نحن إن لم نطرد الغاصب طردا

من ثراك يا بلادي.. فاطردينا[1]

الأرض، العرض.. حماية البيت.. الشهادة.. الصبر على المكاره.. نجد ذلك كله في قصيدة له بعنوان «من قتل دفاعًا عن بيته مات شهيدًا»، والعنوان يستلهم حديثًا نبويًا شريفًا، ورد عن النبي (ﷺ) رغبة من الشاعر في شحذ الهمم الثورية وضرورة الثبات، فيقول:

سأزور البيت ويحدوني

عاطفة تتشد أطلالي

هدمتم جدرانه بيتي

بعثرتم أحجاره.. بيتي

بيتي.. أنقاضه هزتني

تستنجد كفي تبنيه

من أجل الأرض.. أرويها

بدمائي عشت فأفديها

من أجل الأرض.. أحررها

من وطء الغاصب أحميها

جرحت القلب لأسقيها

الصبر دواء لم ينجع

سأرد الضربة بالمدفع

من أجلك أحيا يا وطني

ولأجل ترابك والمرضع[2]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠.

وللشاعر أيضًا قصيدة «إشراقة الجنوب»، يصرخ فيها بأن أيام خيبر عادت مرة أخرى.. فينادي.. يا مسلمون يا عرب، ها هو الجنوب يلقن اليهود درسًا، ثم يذكر بأن الإيمان القوي والسلاح هما طريق النصر على الأعداء.. الأبطال الذين حملوا إيمانهم وسلاحهم يحرسون الجنوب يعبدونه بدمائهم حتى ترفرف راية الحرية، فيقول:

يا أيها السيف الذي يواجه الغزاه

يا ذا الفقار انسل للعداه

ذي خيبر تعود من جديد

حصونها ترسانة السلاح

صهاين تحشدت..

من كل صقع أمَّت البلاد

وزادها «فلاشة» العبيد[1]

ما عاد إلا نعلن الجهاد

ليخفق الإيمان للغيوب

وليسلم الأطفال والجنوب

جنوب يا جنوب يا جنوب[2]

لاحظ أن الشاعر يستخدم أسماء قديمة أمثال «ذا القفار»، وهو السيف الذي قيل أنه سيف النبي (ﷺ)، ثم يذكر «خيبر»، ثم يسقط هذه الأشياء على واقعنا الآن من خلال «فلاشة العبيد».

وأما قصيدته «أليس لبنان مقربة الغزاة..؟» يوضح فيها بأن لبنان كان مقبرة للصهاينة الذين ظنوا أنهم يخرجون إلى نزهة كما تعودوا سابقًا، ولكنهم لن يعودوا مرة أخرى آمنين، يقول فيها:

في أرضنا لبنان

---

(١) إشارة إلى يهود الفلاشا، هؤلاء الذين هاجروا إلى إسرائيل من أثيوبيا.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٣.

يا أيها الفوارس العراب

ها نحن في مواطن الجدود

نطارد اليهود

في ثورة العقاب

....

فعندما يوحّد الجنود

وتكسر الأصنام، والقيود..

الويل للزنيم..

والمعتدي الأثيم

ويصبح الدماء

في أرضنا عطاء..[1]

أما الشاعر الفيلسوف خليل حاوي، فقد كتب عن مأساة لبنان وأحداثها الدامية، وتعمق الجرح عنده، حتى وصل إلى مرحلة التفكير المسدود، واتخذ قراره الأخير هو التخلص من هذه الحياة التي لا يوجد فيها ما يشجع على الاستمرار، هكذا رحل خليل حاوي إلى دنيا بعيدة عله يستريح استراحة أبدية، وقد كتب عدة قصائد مخطوطة منها: أغنية الأصيل والمارق، قبل انتحاره المأساوي في ٦ يونيو ١٩٨٢م، ونلمح فيها قلق الشاعر على لبنان، ويأسه ومقته للطائفية وهاجس الخراب الذي نستشفه من قصائده، نلمح فيها صور الخراب والدمار، والجثث والأشلاء... يقول:

يا حملة الباطل!

كم حملة حلت على الساحل

كم حاولت أن تدعي

أصلاً عريقًا

في عروق القدس، والجولان، والحولة

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٨.

.. ومرت هموم رصاصية فجّرتها ارتعاشاً[1]

....

وعادت سليمي تعبئ أطرافها بالشموس

التقت «ماجدا» قال.. قالت

وأضرمها في انطفاء المساء

وأودعها خلف صمت البيادر

مرت بشيخ يروض طفلاً كبيرًا

وسارت بزوج يدجن زوجته «أم ليلى»

رأت كلبة ذئبة في جراح الحدود

وعشر نساء يراوحن في ورق التبغ

زفّت مواعيدها خلفها

هاتف لفّها

وابتدت قلبها تحت خطو القمر

.. سليمي

كيف تبقين صامتة كالعذاب؟

.. أسمع صيفًا وجيعًا

أنا الآن سابحة في غنائي

على نزق الليل وحدي

يبعثرني الليل، يجمعني

أنبت في وشوشات الخرائب، عارية من رمادي

حبيبي ينادمني تحت كل العيون..

---

(١) مجلة فكر، العدد ٢١ - ٢٢، السنة الرابعة آيار/ حزيران، ١٩٧٨م، ص ١٦٧.

وجاء الذي جاء

جاء المساء

البكاء.. التعب.. وجاء العنب

كعنا قيد الكرم قميص حبيبي

كزهور الوزال خواطره

ويتابع الشاعر إلياس لحود قصيدته بوصف دقيق لنفسه التي تمثل الناس جميعًا، ويذكر الأزهار والرياحين والأرض التي تخرج منها هذه الأزهار.. هذه الأرض التي أصبح الدم فيها وكأنه الماء الذي يسقي المزروعات.. نيسان كرنفال دموي.. رفعت البنادق، وأطلق الرصاص الحاقد على الصدور، بدلاً من إطلاقه صوب العدو الكبير الشبح الذي فجر الفتنة الأهلية، تصوير دقيق لمشاهد الحرب الدامية، فيقول:

والتربة قبل العرس وحيدة

وأنا كنارة هذا الهمس المتلاشي في كل غناء

خذ كبدي من لهب الثوب

وضمده بأريج الصحو

أنا المعتوقة بين يديك

أنا المسفوحة بين يديك..

وجاء الذي جاء

جاء الضباب

الصباح.. التعب

اختزن يا ضباب المراعي فمي.. خضّب ربيعي بصيف قتيل

وغاب الذي غاب.. جاء الصنوبر، والعاشقات ارتشفن الربى

ظلام الليل والدخان.. دماء كثيرة تنزف من طفل.. غطته ملابس والده الذي احتضنه.. التصق به من شدة القصف الوحشي.. كل شيء ينزف، الشجر، الحجر،

الأكواخ البيوت، تسمع صرير الدماء من خلال ولولة الريح.. وبؤس الشجر الذي أصبح ثمره رصاصًا.. دماء.. اشتعلت النار واشتد أوارها.. أشلاء تتناثر، وعويل من هنا وهناك..

ويتابع لحود قصيدته في وصف الحرب الأهلية بقوله:

ألمح في الشجر الدموي ثمارًا أضرمها نيسان

– نيسان محترق فوق الأغمار الذهبية –

.. ألمح في الأكواخ نشيدًا محترقًا بطيوب جذلي

عبر حدود الوطن النازف

أطلقت صباحي وحدودي

أنزل من أيامي الصعبة

أصعد في تاريخ بلادي

أطرق باب الفرح اللاهث

يصحو في ظلمات فؤادي

هذا قدر النبض الزاحف بالأنشوده

أسمع في الشجر الدموي صرير الأزمنة المولوده

حين صعدنا من أقبية الزمن المهترئ الشفتين

رفعنا الصوت الجائع. قالوا:

نقطع هذا الصوت

رفعنا دربًا للطاحونة. قالوا:

نقطعها نقطعها

....

ألمح في الغسق الجوري رغيفًا

أكبر من عرس في غرف الشمس

وابصر حصّادات.. حصّادات

وبيوتًا كفمام الماء.. وساحات وأيادي

فارفع كفك يا وطن الزفرات الحمر

لقد صعد العرس الوتريّ إليك

من العرق الجائع..

ولحود يتابع أبياته الشعرية واصفًا الفتنة التي عصفت بالناس في بيروت، هذا الجرح النازف تجده على وجه كل إنسان عاش المحنة في بيروت، وضواحيها، بل في لبنان كله. يقول إلياس لحود في قصيدته الملحمية الكرنفال الدموي:

قافلاً من حلم النازح محمولاً على ريح طروب

ساحبًا خلفي حكايات طويلة

ويمر الساحل العاشق بي

يسألني عمّا رأيت اليوم.. أصغى

قد سمعت اليوم دكانا

تصب الشاي، والسهرة للناس

سمعت اليوم جرحًا ضاحكًا يصفح عني

....

فاسكبي صحوتي في الكؤوس.. اشربي

بعد ليل الخطايا

دخلت المدينة من دفئها المائل نحو الجنوب

أيها الشجر المتّكي فوق قلبي

ويا أيها النهر.. يا ساكنًا في ضلوعي البعيدة

هل كلمتني سليمي.. بعينين من عبق القمح قبل الحصاد

مواسم عينيّ بائرة قبل يومين

من مهجتي، واحتراق الدوالي

وعلى خطوات من قافلة تلتهم الأصوات

وتخرج من غزّار النهر

ودفلى الطاحون المتعانق

استرسل في خصل الشمس

وأقلب أوراق الأيام

وأدنو فوق حصى كرويّ من أنفاس الحقله

تتفتح أنفاس الوادي

تتألق أضلاع التربة

ظهرًا تطلع من شرنقة الأرض المصفودة

أغنية العاشق

أما الشاعر علي بدر الدين فيتخذ من الحرب الأهلية مدخلاً لقصيدته الطويلة، وأوضح من خلالها ما خلفته الحرب من دمار للبلاد وإزهاق لأرواح العباد، وما هدفها إلا السيادة على البلاد، فيقول في مطلعها:

الحرب تدمير البلاد نتاجها	وحصادها الأموات والأيتام
(...) لبنان أدمت قلبه وفؤاده	فتن لهن تأجج وضرام

وفي نهاية القصيدة يقول:

بلد تسبب أهله بخرابه	إن السكوت عن الآثام آثام[1]

أما الشاعر هدى ميقاتي فتتذكر «قانا» ومذبحتها، وذلك في قصيدتها «رؤى قانا.. وحديث الستارة»، فتقول:

ترى يا ليل.. لو أسقيك دمعي.. تعاقرني الجوى تغدو خليلا

أبثك شكوتي وزفير «قانا» يصعِّد ذابحًا في الصدر جيلا

(1) مدار الأفكار: صالون غازي الثقافي العربي، الكتاب الخامس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٥١٨.

ووجه الأمنيات يفرُّ مني.. ألا أرجعه.. حاذر أن يحولا

أيمكن أن أخون الروح يومًا وألبس هامتي وجهًا بديلا؟[1]

وللشاعرة قصيدة أخرى بعنوان «من قال» تشحذ من خلالها همم الرجال، وتشد أزر المناضلين، عساهم أن يفوزوا بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

* * *

(١) هدى ميقاتي: هكذا يغني طائر الأرز - مختارات، اختيار وتقديم إسماعيل عقاب، الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١١٥.

اليمـــــــن

مأساة لبنان، وحصار الجنوب، والأحداث الدامية في البلاد كلها كان لها الأثر الكبير عند شعراء اليمن، وليالي بيروت قبل الأحداث، جاءت أخبارها على لسان الشاعر اليمني الكبير عبد الله البردوني في قصيدته «ليالي بيروتية في حقائب سائح عربي» بيَّن فيها كيف كانت الحياة في لبنان قبل الحرب اللبنانية، ثم عرَّج إلى ما آلت إليه...

وكـــانت تلبس اللحظات..	نهــــرًا طـائر المجْـــرى
وكـــان الليل يســـتلقي	كـســقف الحـاني الســهرى
وكـــانت غـــرفـــتي العطشى	بأظفـــار الأسى شـــجْـــرا
كـــعـــصـــفـــور بلا لون	يـجيء الحلُمُ والـذكـــرى
كـــأشـــلاء من الأحـــجـــار	تكبـــر، ترتدي ثعـــرى
كـــشـــرطين يقـــتـــســـمـــان	فـــخْـــذ أجـــيـــرة سكرى

يتابع الشاعر أبياته مؤكدًا انقلاب الحياة في لبنان عما كانت عليه سابقًا، فيقول:

وشـــاب الليل، والسلطان	فـي بـوابـة المسْـــــرى
يغـــوص بعـــمق رجليـــه	من اليـــمنى، إلى اليـــسرى
ومن كـــبـش إلى شـــاه	ومـن أهْـنـا، إلـى أمْـــــرا
لهـــذا ترتجـــيـــه (القـــدس)	يرفع بيـــرق البُـــشـــرى[1]

أما عبد العزيز المقالح، فقد كتب للمأساة في بيروت، في الوطن العربي، وحصار عكا هو حصار بيروت، والعكس صحيح، فمدينة بيروت المحاصرة هي وجه لكل المدائن

(١) عبد الله البردوني، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الثاني، دار العودة - بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ص ٥٧٣.

العربية، ولكن وجه بيروت نقي طاهر وضاء، بعكس السواد الذي يجلل المدن العربية لصمتها الذليل، ففي قصيدة له بعنوان «نقوش وتكوينات في جدار الليل الفلسطيني» يرسم المأساة على وجه أطفال المخيمات في لبنان.. فلسطين، وجوه تنطق بالمعاناة اليومية من القريب أو البعيد، ولكن لا مجيب لها!!

إنه وجه عكا..

وهذي القرائن أجمعها من رفات المنازل

من صخرة يحزم العشب جبهتها

ويصير صديقا

يعاند كل السكاكين، يشحذها،

إنه وجه (عكا) استطال به الحزن

يرحل بين الزمان، وبين المكان، ويصرخ:

من أين جئت؟

لماذا أموت؟

لماذا أنا شارد، وقتيل هنا في براري الشام،

وعكا هنا محاصرة بسيوف من القمع؟

وجهي يضيع هنا، يضيع

ويصنع لي طفلي النعش

يصنع لي طفلي القبر

يصنع لي بيديه النهاية

إني أضيع، أبيع..

الشتاءات مرت على جسدي

أوغلت في دمي

يقتلون بعضهم بعضًا، فيكفون الكرام البرره

نار القتال المستعره

ألا تراهم يستحقون وسامًا من ذهب

لم لا يكون من نحاس أو حديد أو خشب

بل من ذهب

وما نسميه؟ نسميه وسام الاعتراف بالجميل

نعلنه في كل من هب ودب

وكيف يختار الوسام منظره؟

نجمة داود وفي

أطرافها الستة سيف عنتره

لاحظ أن الوسام المقترح يصف استهزاء إسرائيل بتاريخ العرب، وهو ما وضح من خلال السطر الأخير، حينما يرسم فوق الوسام سيف عنتره!!

الشاعر يصف حال إسرائيل، وهي تفكر في منح عملائها جائزة - جائزة الخيانة - ولكن يقول على لسانهم، إنهم خائفون حتى من عملائهم، فيقول في القصيدة:

يا للأسف!

كنا نريد الاعتراف بالجميل

حتى نكون الأوفياء[1]

أما عبد الولي الشميري، فيصف الحال العربي الراهن، حيث التفرُّق والتشتت، والخذلان، ويتخذ من ذلك مدخلاً لقصيدته «ماذا أقول»، الشاعر تخيل نفسه وهو واقف بين يدي الله (عز وجل)، وهو يسأله فماذا يكون الجواب، يقول فيها:

ماذا أقول لربي حين يسألني   إذا بعثت غدًا في معشر العرب؟

وجئت أحمل من أخبارهم قصصًا   أبطالها كل أفّاك وكل غبي

(١) محمد عبده غانم، الموجة السادسة، دار آزال للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٥م، ص ١٩١.

مـــاذا أقـــول وقـــومي هؤلاء هـم	إذا أحـاط حـمـاهـا مـارج الغـضب
مـاذا أقـول تحـررنا؟ ومـا برحت	خـيـول أبرهـة في جيـشـهـا اللجب
والفـيـل يقـتـحـم الوادي وليس لنا	من الأبابيل مـا يشـفـي من الكرب
عـدو الفـوارس دوي فـي مـعـاقلنا	ونحن كالشاة في عدوى من الجرب
مـاذا أقـول وحـولي من عـسـاكـرهم	مليـون مـاهرة في الرقص والطرب
قـالوا: تـريليـون عند الغـرب ثروتنا	والشعب في درك الإمـلاق والسـغب
في الروع مـا عـاد من ذكـري لعنتـرة	واستسلم اليوم عالي الرأس للذنب!![1]

الشاعر في قصيدته يتكئ على التراث الإسلامي ممثلاً في آيات كريمة، تلك التي تحكي قصة أبرهة الحبشي وجيشه الجرار، في مواجهة آلة ضعيفة، ولكن مع ضعفها كانت لها الغلبة والنصر بفضل قوة إيمانها بعدالة السماء، كما يتخذ الشاعر عنترة مصدرًا من مصادر الصورة، حينما وصفه وقد استسلم لقوة غيره، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا دفاعًا، كما استخدم الشميري في قصيدته آلية فنية هي التكرار في جملة «ماذا أقول»، والتي توحي بمدى اليأس الذي أصاب شاعرنا من أحوال العرب، الأمر الذي جعله متحيرًا في إيجاد إجابة يرد بها على المولى (عز وجل).

أما الشاعرة جميلة هادي الرجوي فتتخذ من حرب ٢٠٠٦م مدخلاً لقصيدتها «رمز البطولة.. مرحبًا»، ومن خلال القصيدة نرى الشاعرة قد دبَّ فيها الأمل بالنصر المظفر الذي حقَّقه الجنوبيون على إسرائيل، فنراها تقول:

عودي إليّ كرامتي

واستنهضي نفسي التي

صارت بفعل اليأس تخفض

هامتي[2]

---

(١) عبد الولي الشميري: ديوان أوتار، مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب والفنون - صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م، ص١٠٣.

(٢) مجلة الرباط الأدبي: نشرة غير دورية تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة، العدد (٩) ديسمبر ٢٠٠٩م، ص ٦٨.

ومع تباشير النصر، وانقشاع ليل الحزن العربي، تقول في القصيدة نفسها:

وانزاح ليل الظالمين بفجر

نصر الله يزرع في مآقينا

ابتسامه

ويعانق الأقصى عناق الحرٌ

لا يرضى سلام الخانعين، ولا يساوم

بالكرامه.

هكذا تفاعل الشعراء اليمنيون مع إخوانهم الشعراء العرب فى وصف مأساة لبنان وتصوير تفاصيلها الدقيقة، علٌهم بذلك يوقظون الحسَّ القومى الذى تبلَّد شعورًا وأحاسيسا.

أما شعر المأساة في الوطن العربي الإفريقي، فلم يكن أقل من نظيره الأسيوي، وهو ما سنوضحه فيما يلي.

* * *

الفصل الثاني

موقف الشعراء العرب في الجناح العربي الإفريقي



تونـــــس

شارك بعض الشعراء التونسيين في الهم اللبناني، وجاءت أشعارهم معبرة عن الحزن والأسى لما أصاب لبنان وأهله، ومن أبرز هؤلاء الشعراء هشام الدمرجي، حيث قدم مقاطع تمثل الصورة الواقعية لبيروت، ووصمة العار التي ارتسمت على الوجوه.. يقول في قصيدة له بعنوان «أخبار بيروت»:

نقرأ الصحف اليومية

خارج أسوار بيروت

قد نبكي

أو نضحك،

أو نحتج،

أو نرتج،

أو نشمت،

وفي كل الحالات نموت

على الوجوه عار يعشش كالعنكبوت

وتطل عروس العواصم، أم العواصم

كالسرو تجابه كل الفصول

وتقسم أن لا تموت[1]

يوضح هشام الدمرجي بأن حياتنا أصبحت احتجاج، وبكاء على جانب، وضحك، ولهو على الجانب الآخر، ولكن في النهاية نموت، وإذا كان الموت نهاية كل كائن، وهي

---

(١) هشام الدمرجي، مرافئ الحزن، شركة فنون للطبع - تونس، ص ٩.

الحقيقة الأبدية التي نسعى إليها في كل يوم يمر علينا نقترب منها، إذ كان الأمر كذلك، لم لا نموت كرماء، وهذه بيروت عروس العواصم، وحدها تقاوم. أبطال بيروت، وأشبال الثورة الفلسطينية، قدموا الكثير من أجل لبنان العرب، وفي جنوبه سطر أطفال فلسطين ملاحم بطولية.

وفي قصيدته «يوسف» يخبرنا الشاعر عن الطفل الفلسطيني، ابن المخيم في جنوب لبنان، وقد صار رجلاً في غير أوانه، «يوسف» يمثل كل أطفال فلسطين في الداخل والخارج.. يقول:

شرب الأخبار مع القهوه...

واسترخي قليلاً... ثم

استجوب دولابه..

أي ثوب يلبس من أثوابه؟

الأسود؟ لا.. لا..

فذا زمن الفرح العربي المُنْسَلّ

عن أتعابه..

فليلبس ألوان الفرحة الصيفية...

وليبق اللون الأسود...

لطفل فلسطيني...

يصطاف بين المدفع، والدبابه

اسمه يوسف...

فاحفظوا اسمه...

إنه الغضب العارم

إنه الوطن القادم

كان يوسف..

طفلاً يتيم الأوطان..

حين يفاجئه الليل

يبحث عن زند كي ينام

وعروس العواصم كانت...

بلا زند آمن...

ولذا كان يوسف

نهارًا يصرع عشرين دبابة..

وفي الليل.. يُطعم.. أسراب الحمام

يلاحظ الاسم في القصيدة «يوسف»، وهو اسم كنعاني موغل في القدم، وهو اسم نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقد استعار الشاعر هذا الاسم لطفل عربي يجابه وحده طغيان العالم تمامًا كما واجه «يوسف» (عليه السلام) إخوته، وهو وحيد قد صور الشاعر لقطة من لقطات الحياة اليومية، وهو - يوسف - يتخير ثوبًا يرتديه، ثم يلاحظ قوله: «إنه الغضب العارم»، «إنه الوطن القادم»، وقد صدَّر جملته بـ «إنه» المؤكدة، وربما أراد الشاعر أن الغضب العارم هو طريق الوطن القادم.

أما الشاعر أحمد اللغماني في قصيدته «لا أفهم» يقف مشدوهًا أمام ما يحدث على الساحة اللبنانية، وكيف أغرقت الدماء لبنان، أخوة يقتتلون، وكأنهم يتنازعون على ميراث جد أو أب:

لا أفهم كيف تدور اللعبة أثر اللعبة في لبنان

وتصير الرقعة سطحًا أحمر تغرق في دمه الألوان

في أرض سلام كانت تربط بين الشيخة والرهبان

لا أفهم كيف يجن المرء فتسمل إصبعه الأجفان

كيف المجنون يجر على جنبيه الخنجر في اطمئنان

ويدك البيت فيهوي السقف عليه، وتنقض الجدران[1]

---

(١) محاضرات الموسم الثقافي لعام ١٤٠٠/ ١٤٠١هـ - ١٩٨٠/ ١٩٨١م - دولة الإمارات العربية المتحدة - أبو ظبي، وزارة الإعلام والثقافة، ص ٢٤١، نقلاً عن مأساة بيروت، ص ٥٥٥.

ينادي الشاعر العرب ويذكرهم بصلاح الدين الأيوبي، وأيام الفتوحات الإسلامية ويخسر من اقتتالهم مع بعض؛ لأن ذلك لا يفيد إلا عدوهم الرابض أمامهم بكل مكر وخديعة، ونجد في أبياته وضوحًا في المعنى، وبعدًا وطنيًا دينيًا.

لا أفهم كيف الأمة صارت نهب العابث والدجال

فرقًا تتآكل، بل مزقًا تهدي لذئاب الأدغال

لا أفهم يا أحفاد صلاح الدين، ويا نسل الأبطال

لا أفهم يا لبنان لماذا يقتلنا بعد العار؟

ما زلنا نفخر بين الناس بأنا الصفوة والأخيار

ما زلنا مثل المسطولين نفاخر بالمجد المنهار

ما زلنا - يا لبنان - صغار نرفل في أزياء كبار

كثرة التساؤلات في السطور الشعرية السابقة يعطي معنى الحسرة والفجيعة التي ألمت بالأمة، وما زالت تحيط بها!! ويضع الشاعر الأمة أمام واقع حقيقي، وهو أن العرب يحذقون فن التمثيل في الحرب، والنجدة والشجب، ثم يورد صورة من الحياة تؤكد ذلك، وهي تمثيل الأطفال الصغار أمام البيت لمشهد حربي، ويجزم الشاعر بأننا أعداء أمتنا، وقاتليها، فنحن المجزرة والجزار، ثم يأتي سؤال الحسرة، لماذا لم يقتلنا العار؟ وإنه لعار أن نبقى أحياء!!

ما زلنا نمتهن التمثيل ونتقن توزيع الأدوار

كصغار السن إذا خاضوا ميدان الحرب أمام الدار

حزم الأعواد بنادقهم، وذخيرتهم كوم الأحجار

ونقيم الكون ونقعده بشعار يرفع بعد شعار

وتدل فضائحنا أنّا نحن المجزرة والجزار

نحن الأعداء لأمتنا، ولقاهر أمتنا الأنصار

لا أفهم - يا لبنان - لماذا لم يقتلنا بعد العار

أما محمد أحمد القابسي فيصور الخوف الذي يخيم على «تل الزعتر» وهو أنموذج من المدن اللبنانية الأخرى التي تعرّضت لقصف القنابل الإسرائيلية فيقول في قصيدة بعنوان: «براق الموت.. براق التل».

ما عاد ثمة ماء.. ما عاد ثمة جبل

تكبر أنهر الدم فيك

فأين السفن؟

أيها السيد الذي كان الشمس

للهمج أبجدية تكبر فيك

تقرع طبول البربر والصعاليك

هي المماليك شاءت أن يسقط «التل»

وأن تنتشي الصقور بلحم الذبائح!!

فمن يركب معي براق الحزن

زمن الأعراس الدموية؟

من يعبر معي جسر الموت إلى جسر الولادة في التل؟[1]

وللشاعر بعض القصائد الأخرى تصور المأساة اللبنانية بدقائقها وتفاصيلها، نذكر منها: قصيدة «اعتذار إلى أبي ذر الغفاري»، وقصيدة «من تغريبة أحمد الشاهد»... وغيرها من قصائد.

* * *

---

(١) محمد أحمد القابسي: البحر في كاس، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله - تونس، ط١، ١٩٧٧م، ص ٩٥.

الجزائـــــر

ومن الجـزائر يدوي صـوت ثوري، يصدح بالمأسـاة وأهوالهـا ومـا فعلتـه من تخـريب وتدمير، ثم نراه يفتخر بأبطال جنوب لبنان، ويحيي عروس الجنوب - سناء محيدلي - ويسخر من العجز العربي، مقارنة بما حققه الأبطال في لبنان، إنه الشاعر ناجي محمد الإمام.

وقصيدة «هم الأهل» توضح ما أراده حين اعتبر جنوب لبنان، هـو الوطن، وأهله هم الأهل؛ لأنهم لم يقبلوا الذل والعبودية، وسعوا جاهدين من أجل التحـرير، واستطاع الفدائيون في جنوب لبنان من تحقيق الانتصارات المتكررة، والتي انتهت برحيل العدو الصهيوني. إن المقاومة اللبنانية والفلسطينية هما درع الوطن، وسلاحه النافذ إلى قلب العدو الصهيوني، بهمة أبطاله الذين قدموا أرواحهم رخيصة من أجل تراب الوطن وعروبته.. يقول:

وتمترست الزهره

بالدمعة..

فانداح الطل

على حاجبي طفلة

من بقايا بني عذره

فطوبى لساكنه من طلل

حين يفقد رب الهجائن «حاجزه»

وتشمخ بين ضفائر زرع الجنوب..

... «سناء»...

تواري العناكب أعقابها...

وتتبطح الترهات،

«فبرج البراجين»

عين الحقيقة.

جنوب المعاقل واقعة

سقط السيف فيها على خده

حين لم يبق في حده أي حد...

وحين تساقط من غمده الأمل..[1]

يلاحظ استلهام الشاعر للتراث العربي، من خلال كلمات كثيرة منها «بني عذرة»، «الطلل»، «السيف»، كما يستلهم التراث الصوفي من خلال جملة «عين الحقيقة»، كما يعتمد على جغرافية المكان من خلال تحديده لـ «برج البراجين».

يتابع الشاعر ناجي محمد الإمام أبياته مؤكدًا بأن الجنوب اللبناني هو ساحة الإصرار والشرف، فكيف لا يعشقه الإنسان الحر الأبي، ويذكر الشاعر ببطولات صيدا، وقلعة الشقيف، وصور، وقانا، وغيرها من بطولات، يقول:

«هم.. الأهل»..

لا يعرف الشوك

لمسة ودّ...

هو البرج يعلو

ويعلم «هارون» أن «الأمين»

أحب «الرصافة».. والأدبا

وأورث «قورش» «مأمونه» طواويس...

(١) شؤون أدبية، السنة الأولى العدد ٢ صيف ١٩٨٧م، مجلة اتحاد كتاب وأدباء الإمارات - الشارقة، ص ١٩١.

... من عسجد نُضبا

فهلا سألت الطلول «بصيدا»

وهلا سألت «الشقيف»

يحدثك عن موبقات «الإمامة»

عن أمل يسفك الأملا

إشارات واضحة نجدها عند الشاعر في أبياته عن الشيعة في جنوب لبنان، وكيف أنها لعبت دورًا بارزًا في الحركة الوطنية اللبنانية، ويتجلى ذلك من خلال الأسماء الواردة في المقطع، وما يستتبعها من هوامش دلالية وإسقاطات فنية، ولا شك أن هذه الإسقاطات تعطي القصيدة إشراقًا وتوهجًا، وتعمّق الفكرة وتوضّح الصورة بما لديها من رمزية.

وكانت حرب «حزب الله» الأخيرة مع إسرائيل ٢٠٠٦م فرصة تنفّس من خلالها الشاعر عبد الله جدي بقوله في قصيدته «نصر الله»، والتي تحتمل معنيين، أولهما: النصر الحسي للجيش في المعركة، وثانيهما: حسن نصر الله زعيم حزب الله في الجنوب اللبناني، نرى الشاعر يقول:

دوّى الرصاص ولاح البرق في عجل ... والنصر يوقعهم في منتهى الشلل

ويل لهم لقطاء الأرض ساعتهم ... باتت على يد «حزب الله» في جلل

هذي «فلسطين» يا «لبنان» عاشقة ... للوصل فاحتضني الأبطال بالقبل

أبكى، وأطلب رب الكون ينصرنا ... والنصر يأتي بلا خوف ولا وجل

«نصر قريب»، وفتح لا مثيل له ... «حيفا» على يد «نصر الله» كالطلل[1]

يلاحظ استلهام المعاني الإسلامية في المقطع السابق «أطلب رب الكون»، «نصر قريب وفتح»... وللشاعر قصائد أخرى عن مأساة لبنان نذكر منها «مرثية نهر البارد»، وقد ضربت أثناء الحرب الأهلية، يقول الشاعر فيها:

---

(١) منتدى أبيات، شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) www.abyat.com

«لبنان» إن طلب الشرقي عنوان — «لبنان» إن طلب الغربي أعوان
نار على «بارد» والغرب قررها — كوني سلامًا على آل هنا كانوا
إن الأمور على أيامنا اختلطت — والسر ذاع، وفيك السر إعلان
الموت فيك على أهواء عولمة — شتان أمس، وفيك الحرب شتان
بالأمس «لبنان» لا رهط يساندهه — واليوم يسنده طاغ وطغيان!!
أهل الخيام بكينا عن تشرّدكم — واليوم يبكيكم من فيه إيمان
جوع، وقتل، وتشريد وجائحة — مثل النهار ظلام الليل نيران
اقرأ على السلم والإسلام «فاتحة» — شرق اليهود وعرب فيه خلان[1]

يلاحظ أيضًا استلهام المعاني الإسلامية في القصيدة، وذلك من خلال جمل كثيرة يمكن التقاطها بسهولة، وللشاعر عدد من القصائد الأخرى التي تتحدث عن مأساة لبنان وأختها الكبرى فلسطين، وهما - بلا شك - أهم القضايا العربية، بل الإنسانية جمعاء في عصرنا الحالي، ولكن من يعي تلك الحقيقة!!

* * *

(١) المصدر نفسه.

السودان

تألم السودانيون لإخوانهم الفلسطينيين واللبنانيين، وذرفوا الدموع لأطفال صبرا وشاتيلا، وقانا وبيروت، ومن هؤلاء الشاعر الكبير محمد الفيتوري، الذي كتب لبيروت الجريحة، نقل المأساة عبر أشعاره، وبيّن عمق الجريمة بصورة دقيقة تدل على تتبع الشاعر للأحداث التاريخية، ورصدها بدقة، كتب قصيدة بعنوان «أخي الغالي» يوضح فيها الموت المنتشر في بيروت.. الجرح النازف في جسد الأمة، وأشلائها المتناثرة، يقول الفيتوري:

أخي الغالي، كتبت إليك مزهوًا «أخي الغالي»،

«تحياتي وأشواقي،

تطير إليك من بيروت،

إليك هناك، حيث تموت.

فدى الباقي من التافه من ميراثك الباقي

تحياتي وأشواقي

أنا أصبحت إنسانًا جديدًا، غير ما تعهد

ختمت دراستي العليا، ونلت شهادة المعهد

وأصبح مكتبي أكبر.

وصار اسمي هنا أشهر!

ولي صاحبة شقراء، جدتها فرنسيه

وأخرى جدها قاد الفتوحات الصليبيه

ومثل بقية الأسياد

تربض في فناء الدار، فارهة خصوصيه

أخي الغالي

لماذا أنت لا تأتي إلى بيروت

وتترك جرحك الممقوت[1]

يتابع محمد الفيتوري أبياته مؤكدًا على نمو الجرح وكبر المأساة، بوعي للموقف والموقع ومعرفة بقضايا مجتمعه الاجتماعية، مؤكدًا على مدينة بيروت التي قرنها بالموت والفزع، يقول..

أخي الغالي

إليك هناك في بيروت

إليك هناك حيث تموت

كزنبقة بلا جذور

كنهر ضيّع المنبع

كأغنية بلا مطلع

كعاصفة بلا عمر

إليك هناك يا جرحي وعاري

ويا ساكب ماء الوجه في ناري

إليك إليك من قلبي المقاوم جائعًا عاري

تحياتي وأشواقي، ولعنة بيتك الباقي!

وللفيتوري قصيدة أخرى بعنوان «معزوفة لدرويش متجول» يختلط فيها البعد الاجتماعي بالحس الصوفي، يقول فيها:

حريق في الزمن الضائع

(١) نقلاً عن: عبد الرحمن ياغي، أبعاد العملية الأدبية - رابطة الكتاب الأردنيين - عمان ١٩٧٩م، ص ١٠، وكذا مأساة بيروت، ص ٦١١.

قنديل زيتي مبهوت

في أقصى بيت، في بيروت

أتالق حيناً، ثم أرتق، ثم أموت[1]

وللفيتوري أيضًا قصيدة «إلى الأخطل الصغير»، يصور الشاعر حال الأمة العربية، وتفككها، وانقسامها، لائمًا الحكام العرب على ما يفعلونه بشعوبهم، يقول فيها:

كلما امتدت على الأفق انقسام

وحزيران على أبوابها

لعنة تغلي، وعار، واتهام

بعثروها.. مزقوا وحدتها

فهي سودان، ومصر، وشآم

ونسوا أن النواقيس غدا

تتنادى، والموازين تُقام

ونسوا أن الضحايا أبدًا

نارها فوق الملايين ضرام[2]

وكذلك كان للفيتوري قصيدة عن لبنان تحت عنوان «قراءة في عيون يغسلها الدمع»[3].

أما الشاعر عزيز التوم منصور، فيصور لبنان وقد لفّها اليأس والأسى وتسربلت بالأحزان وتخضبت بالبكاء، فيقول:

زفَّ ليل الأسى لك الأحزانا.. ناسجًا من خيوطها الأكفانا

وتسربلت بالدماء جروحًا.. نائحات تعاتب الرحمانا

---

(١) محمد الفيتوري: الأعمال الشعرية الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٩٨م، ٢٣٧/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢/ ١٢٥.

هنت يومًا فلم تزل بيد الهون، وبدَّلت بالهوان الهوانا

مات في كفِّك الأمان وفي يأسك أطلقت للدموع العنانا[1]

كان من الأليق ألا يخاطب الشاعر الرحمن بقوله: «نائحات تعاتب الرحمانا» فهل الرحمن سبحانه وتعالى يُعاتب!!

ثم ينطلق الشاعر عزيز التوم لائمًا الأمة العربية ورجالاتها الذين لم يلبوا نداء الجهاد، ثم راح يصور ساحة المعركة وما فيها من أهوال جثام، فيقول:

وتطلعت للرجال فألفيت ذليلاً مستخذيًا وجبانا

لم يلب النداء منهم «صلاح الدين» أو يكبح السنان السنانا

والعدو المغير يحصد «بيروت» لهيبًا مسعرًا ودخانا

ربَّ طفل في المهد هدهده الموت، فأغفى إغفاءة واستكانا

ربَّ أنثى ضعيفة مزقتها صرخة مرهق صداها المكانا

ربَّ بيت لله قد هدَّه الظلم تهاوى ليلعن الإنسانا

والمأساة لم تكن مأساة الإسلام وحده، إنما يقبع في خندق الاستسلام الإخوة النصارى فمصابنا واحد، والجرح العميق، الأمر الذي جعل الشاعر يقول:

وهلال منكَّس وصليب في يد الظالمين ذل وهانا

ويستعرض الشاعر في القصيدة لمحات من التاريخ ويسقطها على ما يحدث في لبنان فمن التاريخ نستهدي العبر، وأخيرًا يوضح الشاعر أن تفرُّق العرب كان سببًا في نكستهم الحالية، وقد تتسبب في كثير من المصائب المستقبلية، فيقول:

ودرجنا على التنابذ بالألفاظ حينًا وبالقوى أحيانا

وذهبنا مع التفرُّق حتى عزَّ في ساعة الأسى ملتقانا

والعدو الأثيم يغرق في البطش ويصلى بناره «لبنانا»

* * *

(١) فتح الرحمن حسن التني، مختارات من الشعر السوداني المعاصر، المطبعة العصرية - دبي، ١٩٩٠م، ص ٢٨٤.

الجماهيرية الليبية

لم يكن الأخوة الأشقاء في ليبيا بمعزل عن لبنان الجريح، ولذا نرى الليبيين يسطّرون بأشعارهم وحواسهم صفحة النضال اللبناني، دفاعًا عن الأمة العربية.

وقد سجل تاريخ نضالنا المعاصر لسناء محيدلي ما اتصفت به من معاني البطولة النادرة، وقد تحقق لها ذلك لأنها عاشت حياة غير حياتنا، فإننا نلهو أحيانًا لنريح أنفسنا من عناء التعب والنصب، ولكن سناء ترفض اللهو مهما كان لونه، فهي مشغولة بكل ما يتعلق بقضية وطنها، وإن لبسنا ثيابنا الفاخرة، فلا يعنيها ذلك اللباس إلا ما يسترها في قيافة عسكرية تؤدي بها واجباتها القتالية.

الأمر الذي جعل عز الدين الحسناوي يكتب قصيدة تحت عنوان «قصيدة غزل في سناء محيدلي»، وعلي الرغم من عنوان القصيدة التي يوحي بالغزل، وغرام الشاعر بها وافتتانه، فإن القصيدة تغاير هذا المعنى حرفيًا، فدلالة القصيدة توحي بغزل الأفعال، لا غزل العيون والأقوال، يستهل الشاعر قصيدته بالحال اللبناني العابس، والليل الحالك الذي يخيم على البلاد، ويد القهر الآثمة، وكاسات المرارة التي يرتشفها الأعارب، فيقول:

كم طوى الليل بين جناحيه..

من أنفس عابسه

حملت حزنها في شقاوتها البائسه

جرعتها يد القهر كأس المراره

حتى الثمالة...

فانتفضت في تمرد

تحمل العمر قافله..

في منافي التشرد

ثم يقول في قصيدته:

وقفة ترفض الانحناء لفرد تألّه

يا لهذا التولّه

بالوقوف شموخًا أمام الطواطم

حين تنال تمام العباده

حين تنقض تلك الجراده

فتحيل الحياة جفافًا لتبق السيادة[1]

وهكذا يستمر عز الدين الحسناوي في مغازلته لسناء محيدلي، تلك الفتاة الصغيرة التي رفضت الذل والمهانة وأبت إلا أن ترفع شعار السيادة.

أما الشاعر لطفي عبد اللطيف فيوجه رسالة إلى الشاعر بشارة الخوري يبثه فيها لواعجة الحارقة متأسفًا على الحال اللبناني، واصفًا أحداثها الدامية، فيقول:

شجر الأرز سيطرح علقم

فاللوزات طرحن العندم

والزيتون به الحبُّ الدم[2]

الشاعر يصور المأساة التي حلّت بالحياة اللبنانية عامة، من رجال ونساء وأطفال وأشجار وتلال، وسهول وهضاب، وعلى الرغم من ذلك، فإننا لم نسمع من يدين هذه الاعتداءات، حتى ولو بالقول، فيقول:

شجر الأرز

جبل الدرز

وتل الهدم، وتل الردم

(١) عز الدين الحسناوي، مجلة الفصول الأربعة – طرابلس، العدد ٣٨، شهر كانون ١٩٨٧م، ص ٣٢٣.

(٢) لطفي عبد اللطيف، قليل من التعري، الدار الجماهيرية للنشر – طرابلس – ليبيا، ١٩٩٩م، ص١٤٧.

ولحم أشلاء تتكلم

في نشرات تخشى قول:

البادي أظلم...

في نشرات..

تقتل عيسى، تجلد مريم

....

في نشرات رقص الباطل فيها

عريانًا ومُلَفَّمْ

صفَّق قحطان مع جرهم

فافهم، تغنم..

كل سلاح العالم أبكم

ثم يصور الشاعر لحظة من لحظات القتال المتكررة، ويجسِّد المأساة أثناء الضرب، فيقول:

أم ترضع طفلاً يحلم

حضن فيه الدمية ترفض أن تستسلم

ضُرب الحضن، تنحَّى من جسم متفحِّم

ضاعت في الأرض الأشلاء

فأي ضمير

فيه شظايانا تتجسَّم؟!!!

أما الشاعر عبد المولى البغدادي فينظر إلى جراح لبنان النازفة، فإذا النزيف يدوم لسنوات، فاغتال الجبل والبحر والحجر، ولم يكن في تلك المعركة منتصر أو منهزم، فالقاتل والمقتول إخوان، وتلك مأساة مريرة، لذا كانت قصيدته صرخة تحاول أن تهز الضمير العربي، هي قصيدة باسم مواطن عربي يعلن منذ البداية أنه يحمل الوزر في

هدم لبنان، فيقول في قصيدته «جراحات لبنان»:

صـــرح لبنان قــد تهـدم باسـمي … لا تدينوا بهـــدمـــه أي خــصـم
أنا حـطمــــتـــــه ولم آك أدري … أن أنقـــاضـــه دمـــائي ولحـمي
سكنت ثورتي ومـــات شـعـــوري … وانتـهـت قـصـتي نهـاية شـؤم
جـرح لبنان قــد أصــاب كـيـاني … فـهــو في قلبي المضـــرَّج يُدمى
فـــأنا الخـــصم والمدافع عنهـــا … وكـــلا الجـــانبين أهلي وقـــومي

لقد فجَّرت الحرب في لبنان كوامن البغدادي (المواطن العربي) المغلوب على أمره، المغمى من قبل أرباب الرياسة، والسياسة، ولذا نراه يقول على لسان المواطن العربي البسيط، موجهًا خطابه لأطفال الصمود والتحدي في لبنان.

كنتُ لولا طبـــول حـــريك وهمـــا … ركـــبُّـــوا في خـيـــاله ألف وهم
كنتُ حلمًـــا مـــحلِّقًـــا في ســراب … يتــــهـــــادى بخـــاطري كل يوم
كنتُ لا شيء غـيـر حـارس قـصـر … يخـدم السـيـد العظيم بحـزم
كنتُ لا شيء غـيـر عـبـد حـقـيـر … أخـــرس مـــثل سـيـفـــه وأصم
كنتُ أحــمي جناب من كـــان ظني … أنه جــــاء كي يذود ويحـــمي

ومحنة لبنان ومأساته، وحربه وويلاته أثارت عبد المولى البغدادي، فراح يلعن أولى الأمر، ساخطًا عليهم أفعالهم، لائمًا عليهم سكوتهم وصمتهم المريب، فيقول:

كـــان لولاك مـــا تضـــاءل عـــرش … واســـتـحـــال الزعـيم كـتلة زعم
الزعـــامـــات يا لهـــا من غـبـــاء … إنهـــا كـــالدُّمى بلحم وشــحم
كـشـفـتـهـا استـغـاثة منك عجلى … فـــــإذا الكل بـين صُمٌّ وبُكم
توِّجي ســـاســـة العــروبة عـــارًا … والعنى من سُـــراتهم كل شـــهم
فـجِّـري حـقـدنا الدفين عليـهم … حـمـمـــا تصـرع الطغـاة بحـسم
إنه حـــقـــد ألف عـــام تولَّت … لم أجـد من ولائهم غـيــر ظلم
زلزلي الأرض تحـتهم واقـصـفـيـهم … وانزعي من صـــدورهم كل حلم

(١) عبد المولى البغدادي: على جناح نورس – طرابلس، ط١، ١٩٩٩م، ص ٨٥.

أعلني ثورة الشعوب عليهم	ليلاقي مصيره كل قزم
ليس فيهم من الطواغيت طاغ	لم يصب قلبك الجريح بسهم
سقط البرقع المزيف عنهم	فبدا القبح سافرًا دون كتم

ويستمر عبد المولى البغدادي يبث شكواه الدفينة، ويصب جام غضبه على أولئك الكروش الممتلئة، القابعة على العروش العربية دون خجل، ولكنه في الوقت نفسه يلوم تلك الشعوب الخانعة والقابعة في استكانة ذليلة مهينة راضية بالأمر، فيقول:

محنتي أنني وكلت إليهم	أمر حريتي وتدبير حكمي
فاحتواني من المهانة سخط	جال في خاطري وسابق فهمي

ثم ينهي هذه القصيدة الطويلة بقوله:

فهلمّي لبنان نشعل نارًا	تحرق الظلم في حمانا هلمّي

أما الشاعر حسن السوسي، فيصور الخلافات اللبنانية، والحروب الأهلية، وتناحر الأحزاب فيقول مسميًا بأسماء أبطال مسرح الجريمة:

ومن «لحد» إلى «جعجع»

ومن مستنقع عفن لمستنقع

تطلُّ جنادب وتغوص في أوحاله ضفدع

فمن متخاذل لكع

إلى متلكئ ألكع

ومن مستسلم خنع

إلى مستسلم أخنع

وبعدما صور الشاعر المجتمع اللبناني، والخضوع العربي الذليل، نراه يقول مخاطبًا أهل الجنوب الأبطال:

ستبقى أنت لم تخنع

ولم ترهب، ولم تسجد، ولم تركع

وتبقى أنت

لم تركن، ولم تخضع، ولم تُخدع

وتبقى أنت

كالقدر المطل عليهمو تطلع

تقضُّ عليهمُ المضجع[1]

أما الشاعر راشد الزبير، فيصور لنا حال اليهود ومكرهم، لائمًا من يصدِّقهم من العرب، فالتاريخ يؤكد أنهم لا أمان لهم ولا عهد ولا ذمة، ثم يذكرنا بالمآسي والمحن الصهيونية في القدس، وصبرا، وقانا، والخليل، وغيرهما من المدن، ولكننا دائمًا ننسى أو نتناسى إذا شئنا الدقة، يقول الزبير في قصيدته «بيروت»:

وكنا نردِّد في سيرتنا	دعاء وكنا نكيل السباب
ولكن أصواتنا لم تصل	إلى أي سماح ولا أي باب
لأن الحناجر مملوءة	بقيء توالد فيه الذباب
فلا صبَّح الله بالخير وجهًا	يصدق أن هناك انسحاب
وأن اليهود سيوفون عهدًا	ولن يلجؤوا بعد للاغتصاب
ففي القدس جرحًا، وجرح الخليل	ينادي الرجال، وما من جواب
ومن قبل صبرا، وها هي قانا	مآسي تكرّ، وننسى الحساب!![2]

ولراشد الزبير قصيدة ثانية تصور المأساة اللبنانية بعنوان «نشرة الأخبار»، يقول فيها:

مللنا نشرة الأخبار، والأخبار ملتنا

وصار الصبح ينعانا لليل فيه قد متنا

وصرنا في فم الأحداث ملهاة، فعافتها

---

(١) حسن السوسي: ديوان الجسور، الدار الجماهيرية - ليبيا - ١٩٩٨م، ص ١٨٥.

(٢) راشد الزبير، «همس الشفاة» الدار الجماهيرية - طرابلس، ط١، ١٩٩٩م، ص ٣٧.

وفي استجدائنا الأبواب لم تأبه وصدَّتنا[1]

ثم يتوجه بحديثه للحكام العرب، ومن بيديهم مقاليد الأمور، فيقول:

ملِلناكم طواغيتا.. ملكناكم

وما عدنا نصدقكم.. نبذناكم

فكم خدرتمو إحساس قتلاكم

فويل حينما يصحو ضحاياكم

وللشاعر عيسى الباروني قصيدة «الهاربة»، وقد صدرها بقوله: «إلى تلك الفتاة اللبنانية التي قابلتها في إحدى أمسيات خريف ١٩٧٥م بفندق الشموع في دمشق.. هاربة بحياتها من جحيم الحرب الأهلية الدامية»، يقول فيها مصورًا المأساة:

يا فتنة من فتنة ... في فتنة تبغي مقر

أختاه بنت الأرز بل ... بنت النوائب والخطر

أين المفر من الحمى؟ ... أين المفر من القدر؟

يا من هربت من السعيـ ... ـر وقد تطاول وانتشر

وظننت - وأسفي - نجو ... ت.. لقد أتيت إلى سقر

قادتك مسرعة خطاك ... فصرت في الخطب الأمر

ولجأت في وادي الذئا ... ب إلى مغارات النمر

كالمستجير من الهجيـ ... ـر أمضه ظمأ وحر[2]

الشاعر يقصد أنها - الفتاة - وإن ظننت أنها هربت من جحيم الحرب الأهلية بلبنان، فإنها هربت لنار طغيان أشد تعاني منه أمتنا من خليجها لمحيطها، ممثلاً ببطش حكامنا وقهرهم لنا، وهي بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار - كما قال الشاعر القديم:

المستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

وللشاعر قصيدة أخرى بعنوان «حريق لبنان» بالديوان نفسه، يقول في مطلعها:

---

(١) راشد الزبير، «نشرة الأخبار»، الدار الجماهيرية - طرابلس، ط١، ١٩٩٨م، ص ١١.

(٢) عيسى الباروني، «خلجات إنسان»، الدار الجماهيرية - طرابلس، ط١، ١٩٨٠م، ص ١٨٧.

مـــا لـلعـــــروبـة مـــا لـهـــا قـــــد زلـزلـت زلـزالـهـــــا
أتـرى أخـي مـــــاذا جـــــرى أم لا تـرى أعـــمـــــالـهـــا[1]

أما الشاعر محمد بشير السوكني فيصور الخلافات اللبنانية، بين الأحزاب المختلفة، فيقول في قصيدته «متى بيروت تبتسم؟» يقول:

لمن بيروت تبتسم؟

لمن بيروت بعد الآن تبتسم؟

وكل الشعب منقسم!!

متى بيروت تبتسم؟

وإسرائيل تذكي النار..

والنيران تضطرم.. وتضطرم.. وتلتهم!!

وإسرائيل تغتنم.. وتغتنم

فمن بالله يا صبرا.. وشاتيلا.. سينتقم؟!

وفوق سفارتي قد نكِّس العلم

وها قد سيطر الألم[2]

أما الشاعر محمد عمر بعيو، فيلقي التهم واللوم على العرب - جميعهم - حكامًا ومحكومين، فالشعوب العربية، لا تركن للمآسي، ولا تعبأ بالمحن، وكأن شيئًا لم يكن، فيقول في قصيدته «قانا»:

انحروا الأضاحي يا عرب

أنتم الضحايا يا عرب

واقرأوا التاريخ والأصول والمتون

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٢٧.

(٢) محمد بشير السوكني، «تنفس في الهواء الطلق»، الدار الجماهيرية - طرابلس، ط١، ١٩٨٦م، ص ٤١.

والحواشي والأدب

وتلهّو بالأساطير القديمة

حيث تختلط الحقيقة بالكذب[1]

وللشاعر قصيدة أخرى بعنوان «جنوب» بالديوان نفسه يصور فيها بطولات الجنوب اللبناني الصامد.

هكذا عبر الشعر الليبي عن حقيقة المأساة اللبنانية، وموقف الشعوب العربية منها، وكذا موقف الحكام المتخاذل إزاء هذه الأحداث.

وقد جمع الدكتور عبد الله سالم مليطان عددًا كبيرًا من تلك القصائد التي تحكي المحنة وتصور تلك النكبة في كتابه المهم «متى بيروت تبتسم»[2]، وقد أورد أشعارًا لكثيرين ممن صوروا المأساة وفداحتها نذكر منهم: إدريس بن الطيب في قصيدة «لوحة بالألوان اللبنانية»، وكذلك قصيدة «مقاطع من النشيد الفلسطيني»، والشاعر امراجع المنصوري وقصيدته «لبيروت واحتمالات أخيرة»، والشاعر بشير العتري وقصيدته «عصافير بيروت»، والشاعر بشير هروس، وقصيدته «لبنان»، وكذلك الشاعر جمعة عتيقة، وقصيدته «بيروت»، وكذلك الشاعر حسن غالب المغربي، وقصيدته «بمناسبة ثورة لبنان»، كما جمع أشعار كل من خالد زغبية، ودلال عبد الصمد، وصبرية العويتي، وعبد الحميد الهرامة، وعبد الرحمن الجعيدي، وعبد الله الأصفر، وعبد المجيد القمودي، وعلي الخرم، وعمر الحاجي، وفوزية شلابي، والكيلاني عون، ومحمد مصطفى بلحاج، ومحمد مسعود جبران.

* * *

(١) محمد عمر بعيو، «أول الغيث قصيدة»، شركة المختار، ط١، ٢٠٠١م، ص ٥٩.

(٢) عبد الله سالم مليطان: متى بيروت تبتسم، دار مداد للطباعة - طرابلس، ط١، ٢٠٠٧م.

جمهورية مصر العربية

لم يقف الشعراء المصريون – على اختلاف اتجاهاتهم الفنية والفكرية – مكتوفي الأيدي أو مكممي الأفواه تجاه المأساة اللبنانية وأحداثها الدامية، فهبوا يصدحون بأشعارهم وأغانيهم، علهم يجدون آذانًا صاغية، تنقذ لبنان الجريح أو تضمد جراحه النازفة، من هؤلاء الشعراء، الشاعر الكبير فاروق جويدة، الذي تألم لتلك المأساة فكتب عنها الكثير، من تلك القصائد، قصيدته «يا زمان الحزن في بيروت»، وهو يذكرنا بقول ابن الخطيب «يا زمان الوصل بالأندلس» الموشح المعروف والمشهور، والشاعر يعقد المفارقة بين حالنا الآن – حيث الضعف والخذلان –، وبين حال المسلمين في الأندلس أثناء حكم الطوائف، وهو أيضًا حال يدعو للأسى والرثاء، يقول الشاعر في قصيدته:

برغم الصمت.. والأنقاض يا بيروت

ما زلنا نناجيك

برغم الخوف.. والسجان.. والقضبان

ما زلنا نناديك

برغم القهر.. والطغيان.. يا بيروت

ما زالت أغانيك

وكل قصائد الأحزان يا بيروت

لا تكفي لنبكيك[1]

يلاحظ على المقطع سيطرة ألفاظ الفزع، من قهر، وخوف، وصمت، وأنقاض، وأحزان وطغيان وسجان... فالمقطع يمثل كتلة خوف وقهر صدح بها الشاعر.

---

(١) فاروق جويدة، ديوان: شيء سيبقى بيننا، وهي بالأعمال الكاملة ٢/ ١٣٣.

والشاعر - كما ذكرت - يعقد مقارنة بين حالنا - الآن - وحال الأندلس، آية ذلك دلالة العنوان وتركيبة ألفاظه التناصية، وكذلك قوله في القصيدة نفسها:

ويا بيروت

يا نهرًا من الأشواق

عاش العمر يروينا

ويا جرحًا سيبقى العمر.. كل العمر..

يؤلمنا.. ويشقينا

ويا «غرناطة» الفيحاء

هل ضلَّت مساجدنا

وهل كفرت ليالينا؟

زمان اليأس كبَّلنا

وكسَّر حلمنا.. فينا

غدوت - الآن - يا بيروت بركانا

كبئر النار يحرقنا

ويسري في مآقينا!!

ويرصد الشاعر بعضًا من المآسي والمحن، لائمًا الشعب العربي المتخاذل، لائمًا الحاكم العربي المهزوم بالصمت والخذلان. وللشاعر قصيدة أخرى بعنوان «بعض العشق.. يكون الموت»، وقد أهداها فاروق جويدة إلى «سناء محيدلي شهيدة الجنوب اللبناني» حاول فيها أن يرسم مشاعر تلك الفتاة، حاول أن يتسلل إلى أعماقها، وينقل أحاسيسها، فيقول:

كانت تعلم..

أن الموت ضريبة عشقٍ للأوطان

أن الحب سيصبح يومًا أجمل وشمٍ للأكفان

أن الموت سيصبح عرسًا..

يُنسينا كل الأحزان

من هذا الطين بدأنا الرحلة

سوف نعود لنفس الطين

ليطوينا .. صمت النسيان[1]

ويظل جويدة محاولاً التسلل داخل الفتاة ناقلاً أحاسيسها المترعة، وأنفاسها الحارة، وفكرها المتقد، وكيف سحبت من عوراتنا ثياب الصمت، فبدت سوءاتنا، ثم نراه يقول:

سنموت جميعًا تطوينا

أيدي الأقدار

ونصير بقايا من أخبار

أو نغدو سرًا

تختار الحب.. الأرض

الوطن.. الأهل

ولكن عمرك لا تختار

لحظة موتك لن تختار

لكن «سناء» اختارت كيف تموت

لتبكيها كل الأشجار..

وللشاعر قصيدة أخرى بعنوان «متى يفيق النائمون»، والقصيدة تحكي مأساة الإنسان العربي النائم دائمًا، بينما الآخرون يقظى عيونهم، يفكرون ويخططون، ولكننا نغط في نوم عميق، لن نفيق منه حتى وإن توالت الكوارث والمحن، يقول فيها:

شهداؤنا في كل شبر يصرخون

---

(١) فاروق جويدة، ديوان: لن أبيع العمر، وهي بالأعمال الكاملة ، دار الشروق - القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٢/٢٢٣.

بيروت تسبح في الدماء

وفوقها الطاغوت يهدر في جنون

بيروت تسألكم أليس لعرضها

حق عليكم؟ أين فرَّ الرافضون؟!

وأين غاب البائعون؟!

وأين راح الهاربون

الصامتون.. الغافلون.. الكاذبون؟!

صمتوا جميعًا..

والرصاص الآن يخترق العيون[1]

وللشاعر الكثير من القصائد ترصد أبعاد المأساة وترسم صورًا حيَّة من داخل المواقع اللبنانية نذكر منها قصيدة «رسالة إلى صلاح الدين»، و«سافر فارس العشق»، وهي مهداة إلى الشاعر الكبير نزار قباني... وغيرها.

أما الشاعر الورداني ناصف في قصيدته «رسالة من السماء»، وقد كتبها الشاعر على لسان عروس الجنوب اللبناني «سناء محيدلي»، فيقول فيها:

أماه.. تلك رسالتي ببياني ... تأتي إليك وما بها عنواني

أرسلتها يا أم بعد تغيبي ... عن الصدر العطوف الحاني

فلقد عهدتك تفزعين لغيبتي ... وتهرولين إذا نأى إخواني

أماه.. إني قد تركتك والأسى ... والحزن في جنبي يعتصراني

ينتابني همٌّ ثقيل ماثل ... قهر المنى والحب في وجداني

فحملت عمري فوق كفي لم أهب ... موتًا.. ولم أرهب وعيد الجاني

أماه.. لما تقرأين رسالتي ... فترفقي بي.. واغفري عصياني

لا تحزني يا أم أنت، ولا أبي ... فأنا بقرب الله فاحتسباني[2]

---

(١) فاروق جويدة، لو أننا لم نفترق، ص٢٧.

(٢) الورداني ناصف: همسات الورد، ص ٣٩.

ويقدم الشاعر صورًا رائعة تفيض حيوية، وذلك لما التقط من صور للحياة اليومية التي نعيشها كذكرة - مثلاً - حوار دار بين سناء وأمها، وهي تمشط شعرها، وراحت الأم تحلم بيوم زفاف ابنتها، ولكن سناء اليوم تعتذر لأمها بأنها لم تساعدها بتحقيق هذا اليوم الذي تتمناه منذ زمن طويل.

أما الشاعر حسن فتح الباب في قصيدته «عروس الجنوب» فيرى من سناء محيدلي بطلة فرَّقت أشلاءها كي توحد العرب، عرفنا بطهرها عار المتخاذلين، وصمت الصامتين، عرفتنا بجهرها صمتنا المريب، فيقول:

من ذا سوَّاك يا سناء يا

حورية الجنوب يا

حورية الدم المراق في حدائق الحياه

يجمِّع الأشلاء

لتستحيل عربا؟

يفرِّق الأشلاء

لتستطير لهبا؟

من علَّم الأسماء

غيرك يا سماء

من يا ترى غيرك يا سناء

يعرفنا

بطهره، وعارنا

يحبنا

بفرحه، وحزننا

يقهره

بجهره، وصمتنا[1]

(١) حسن فتح الباب، مخطوطة لدي.

ولشاعرنا قصيدة فريدة بعنوان «قانا .. رسالة جندي إسرائيلي إلى الحاخام الذي أفتى بقتل النساء والأطفال العرب»، وهي جديدة فكرة لم أجدها في القصائد الأخرى، من المحيط إلى الخليج، ماذا يقول الجندي الإسرائيلي لحاخامه المفتي، هذا الجندي يبشّر هذا المفتي الذي اغتال الكثير بفتواه، فيقول:

بشرى يا مولانا الحاخام

قد صدقنا الرؤيا

وقهرناهم بالفتوى

فثأرنا ليهوذا

من أبناء فلسطين ولبنان

وضحايانا في يوم الغفران

باسم الشيطان

مزقناهم أشلاءً أشلاء

لم يبق سوى أحشاء

تتناثر في (قانا) تحت التل[1]

لاحظ أن البشرى كانت بالقهر والقتل!! ويلاحظ أن الفتوى هي مصدر الاطمئنان النفسي أصبحت هنا مصدر القهر - على غير العادة -، وأن تمزيق الأبرياء كان باسم الشيطان، ولم يكتف الإسرائيليون بالقتل، بل تعدى للتمثيل بالجثث، آية ذلك قوله: «مزقناهم أشلاء أشلاء، لم يبق سوى أشلاء»، وتمضي القصيدة على هذا النمط الإيقاعي والدلالي إلى آخرها..

وللشاعر قصائد أخرى تحكي مأساة لبنان وتصور فجائعها، صارخة في وجه العالم الذي يكيل بمكيالين، وما زال، نذكر من تلك القصائد، «قانا»، و«فوق العاصفة»، «إلى سورية والجنوب اللبناني الصامدين».... وغيرها.

---

(١) حسن فتح الباب، شجرة ورد خلف الشط الآخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٧٥.

ومذابح لبنان المتكررة ولَّدت عند العربي نوعًا من التبرم والغضب على كل شيء، فلا يرى في الوجود شيئًا جميلاً، وهو ما دعا الشاعر عبد العليم عيسى في قصيدته «بعد المذبحة.. في لبنان»، يتساءل لمن الانتماء، وما معنى الاحتماء، فكل ما تربينا عليه من قيم نبيلة وفضائل عظيمة ذهبت أدراج الرياح، وما هي إلا مزاعم وأوهام مضللة، ولذا نراه يقول:

لأي شيء أنتمي؟

بأي معنى أحتمي؟

تقطعت بيني، وبين كل شيء

علاقتي الحميمه

وصرت مبتوتًا بلا جذور

تفجّر الحياة في كيانيَ المقهور

لأي شيء أنتمي؟

فكل ما انتميت له

مزاعم مضلَّله

وكل تاريخي الذي وعيته

وعشته

وصرت أتلوه على مسامعي

كأنه ترنيمة المرنِّمِ

هوى.. بلا أسى ولا تندم!!

لأي شيء أنتمي؟!![1]

وللشاعر قصيدة أخرى بالديوان نفسه بعنوان «صفحة من سفر العرب الحديث»، يقول في مطلعها:

---

(١) عبد العليم عيسى، للحياة أغني، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٩.

أحـاطت بنـا الأهوال من كل جـانب	وحـاصـرنـا ليل ثقـيل الغـيـاهب
ومـازحت الدنيـا فكنا مـزاحـهـا	وألعـوبة يلهـو بهـا كل لاعب
وأنشب فـينا كل علج سـهـامـه	وقد كـان في تاريخـه غـيـر ناشب
ونحن قـعـود لا نهمُّ لغـايـة	ونحن اكتفينا بالدموع السواكب..[1]

أما الشاعر حسن توفيق فيصف حال المحاصرين الجائعين الذين طالبوا باستصدار فتوى تبيح لهم أكل لحوم الموتى، يصف الشاعر حالهم، مخيماتهم، أحاسيسهم، ويعرِّج على حال الوطن العربي لا سيما الحكام الجالسون على الأرائك في انتشاء ويتقابلون في القمم العربية ويتصافحون، ولكنه تصافح الثعالب، فيقول في قصيدته «مرثية الزمن العربي»:

يا أيها الزمن المؤهل للسقوط.. بلا دوى
جئناك بالنبأ اليقين
من أرض لبنان الطعين
حيث القلوب يشقها لفح الهواء الطائفي
والحقد ميراث دفين
يسقيه من عبثوا لمرتزق تفنَّن في التمسح بالكيان العنصري
يا أيها الزمن المؤهل للسقوط بأمةٍ غرقت صحائفها المجيده
جئناك بالنبأ اليقين، وما عليك سوى الترقب للمتاهات الجديده
منعوا الطعام عن الذين تشرَّدوا من أرضهم فاستقبلتهم أضرحه
وتلقَّفتهم خيمة القهر المخلخلة البناء
وتساندوا متحملين خطا الشتاء ففوجئوا بهطول أعتى الأسلحه
... ماذا يقول المتخمون الجالسون على الأرائك في انتشاء وارتخاء؟

---

(١) المصدر نفسه: ص ٣٨.

فلتذكروا أمجاد ماضيهم لكي يبقوا على قيد الحياة محصنين

ما دام في أمل الصهاينة انتشار كالوباء

والمسلمون.. مطامع، وتوابع، وشقاق

فإذا تلاقوا – مرة – وتصافحوا عند اللقاء

فالأرض تعرف جيدًا أن اللقاء.. نفاق[1]

وللشاعر عدد من القصائد تصور المأساة، نذكر منها، «بطاقة من متفرج عربي لسناء»، «لبنان – الجحيم»، و«لبنان والدماء.. وفيروز».... وغيرها.

أما إبراهيم عيسى فيعزف على نفس الوتر الذي عزف عليه حسن توفيق، فيقول لائمًا أرباب الأمور، ومن بيدهم مقاليدها، يقول في قصيدته «الموت يجتاح المدينة»، والتي صدّرها بقوله: «إن الدماء التي جرت في لبنان. من إبريل ٧٥ إلى يناير ٨٧ ستبقى ذنوبًا على جبين التاريخ»، يقول إبراهيم عيسى:

ضمُّوا الصغار فقد دجى ليل تلفَّع بالضغينه

والغصن حول الغصن يكتم في حناياه أنينه

وجرت دماء المتعبين على بقايا ياسمينه

وأكاد أسمع من شفاه الأرز تمتمة حزينه

والموت جبار تمرَّد.. والأخوة مستكينه

تستنكر الدم.. ثم تمضي عن أمانينا الطعينه

فاحموا الصغار من الردى.. فالموت يجتاح المدينه[2]

أما عبد الله السيد شرف فيتخذ من المأساة الشخصية لنزار قباني وفجيعته في زوجه بلقيس مدخلاً للهم القومي والمأساة العربية الكبرى، فراح الشاعر يخاطب نزارًا، محددًا ماهية الشرق، مسترجعًا تاريخه الطويل، حيث النكبات والهزائم، من كربلاء إلى الأندلس، وكأن تاريخنا العربي سجلاً حافلاً بالمآسي والمحن، فيقول مخاطبًا الزوج

---

(١) حسن توفيق، الأعمال الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣م، ص ١٤٣.

(٢) إبراهيم عيسى، الأعمال الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ٨٦٨.

المفجوع في زوجته نزار قباني:

يا نزار لمن نقول..

والشرق مزمار

وراقصة

وأصنام تبول

فلمن نقول، ونحن مشدوخون

مشدوخون

من أقصى المحيط الأندلسي

حتى الخليج الكربلاء

ولمن نقول..

ونحن محصورون..

محصورون..

بين القات، والأفيون

من لم يمت بالسيف

في هذا الوطن

سيموت تحت سنابك الإذلال..

هل أقصى من الإذلال موت

وانكسار[1]

وللشاعر قصيدة أخرى استلهم فيها مذبحة صبرا وشاتيلا، معرِّجًا على الجراح العربية النازفة، والقصيدة تحت عنوان «ورقة من كتاب معجم البلدان».

أما الشاعر وحيد حامد الدهشان فله عدد كبير من القصائد تصور المآسي العربية،

(١) عبد الله شرف، سلسلة أدباء القرن العشرين عدد (٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م، ط١، ص ٧٤.

والجراح الفلسطينية واللبنانية، فقد أوقف الشاعر عددًا من دواوينه لهاتين القضيتين المهمتين اللتين تؤرقان الأمة العربية من شرقها إلى غربها، وهو في كل قصائده يعرّج على الحكام ومواقفهم المخزية، من ذلك - مثلاً - قصدته «المرجفون» يقول فيها:

لبنان جرحك جرحنا لبنان	وكلام كل الخانعين مُدان
ماذا دهى الحكام حتى أصبحوا	ودموعهم يزري بها البطلان
هانوا وأصبح من قصارى جهدهم	عجز الرؤى والوهم والخذلان
لم يسمعوا يومًا بغدر صديقهم	وكأنما قد صُمَّت الآذان
صمتوا طويلاً قبل أن يتحذلقوا	حتى ظننا ما (لهن) لسان!!!
لبنان عرضك عرضنا لبنان	والمرجفون حديثهم بهتان
يا شعبنا العربي لا تأبه بهم	فهمو أمام عدوِّنا خصيان!![1]

هذا وقد أرَّقت حرب تموز ٢٠٠٦م الشعب العربي وأقضت مضجعه، ومنهم شاعرنا وحيد الدهشان، فانبرى في أكثر من قصيدة يصور ملحمة «حزب الله» في الجنوب اللبناني، وهو يدافع بشراسة مستميتة عن عرضه ووطنه، في الوقت الذي وقفت فيه إسرائيل بسلاحها المدجج عاجزة عن التقدم في الأراضي اللبنانية، فراحت تهاجم المدنيين الأبرياء، وتهدم الجسور والمدارس، وفي ذلك يقول الشاعر في قصيدته «في انتظار الفجر»:

هتفت بي الذكرى فقلت خذيني	من حاضري هذا الذي يضنيني
(...) يا أمتي بين المعامع قلبنا	يصغي إلى أنشودة التكوين
وأرى تباشير الصباح على المدى	أملاً يرفّ وصحوةً تحييني
في وجه أطفال الحجارة نورها	وكتائب «القسّام عز الدين»
ورجال «حزب الله» من باعوا الدنا	ربّانهم قال: «الجهاد سفيني»[2]

ولوحيد الدهشان قصيدة أخرى قريبة في معناها من السابقة، وهي قصيدة

(١) وحيد الدهشان، في انتظار الفجر، آفاق أدبية، العدد (٢٣)، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٧.

«اللؤلؤة»، يفتخر فيها بـ«حماس» الفلسطينية، وكتائب «عز الدين القسام»، وكذلك «حزب الله اللبناني»، يقول فيها:

«حماس» أنت رمز للمعالي	يحقر من يبيع ومن توانا
وذكرك ذكر ياسين ورهط	من الإخوان يخشاهم عدانا
رجال كتائب القسام منهم	حماهم في ربا الأقصى حمانا
وإخوانهم «بحزب الله» فخر	أذلوا أنف من غدروا بـ«قانا»
دماهم تبعث الأرواح فينا	ووا أسفاه تخذلهم دمانا!![1]

من الأبيات السابقة يتضح الحس الإسلامي للشاعر، ومحافظته والتزامه بمنهج أدبي معين، وللشاعر أيضًا عدد آخر من القصائد التي تصور المأساة، نذكر منها: قصيدة «لا وقت للدمع»، و«هي وقفة لله»، و«المبعدون»... وغيرها.

أما الشاعر مصطفى بهجت بدوي، فيصف الحال على الساحة اللبنانية، ويرصد موقف الشعب العربي، والحكومات العربية، في الوقت الذي يعاني فيه أبطال المقاومة، فيقول في قصيدته «غزوا لبنان.. وفرغنا لهوانا»، يقول فيها:

نحن أصحاب القضية

غير أني أنحت القول، وها هم هؤلاء الصيد في الساحة خلَّوا وحدهم!

قاوموا واستبسلوا واستشهدوا واستنجدوا، والحرب خاضوا..

وأفاضوا وحدهم!!

هل قصارى ما علينا دمع عين في فراشٍ آمنٍ ناءٍ يحيى جهدهم

وقلوب واجفات مشفقات

وآذان مرهفات

تحضن المذياع، يتلوها بأنباء المعارك!

هكذا بتنا نشارك!![2]

---

(١) وحيد الدهشان، نحن الشهادة عشقنا، كتاب الوعد السنوي (٣)، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٥.

(٢) مصطفى بهجت بدوي، ضراعة من قلب عربي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩١، ط١، ص ١٧.

وللشاعر قصيدة أخرى تحكي قصة المأساة تحت عنوان «ضراعة من قلب عربي».

أما محمد سليم الدسوقي فيتخذ من «قانا» صديقة له يبثها أشجانه وشكواه، يبثها أشواقه ومرتجاه، فيقول في قصيدته «قانا .. لها»:

فتلك الجميلة

وفوق الرباب وفوق السحاب

وفوق البيوت

يقولون ماتت

ولكن وهج السنا والمنى لا يموت

فكم هفهف الورد والسيسبان

وشطرت الشمس والحبهان

رهان السكوت

وأخرجت الأرض وهج القتامه

والمستهامة

.. والنوح والبوح

دنيا الخبوت

فماذا عن الصمت «قانا»

.. وماذا عن الورد والعهد

والبرتقال الذي صار يومًا دمانا؟[1]

ولمحمد سليم الدسوقي عدد كبير من القصائد التي تحكي المأساة بدقائقها وتفاصيلها، نذكر من تلك القصائد «كاترينا»، «يا محروسة بيتي الأزرق»، «كاتيا .. معنا بيروت»، «مدينة الشفوف والرباب»، «تفعل ماذا يا عصفور»، «هات.. هات البردة»، «صغيرتي المروعة»، «سبورتي ودثاري»، «يا للحب ويا للعار»، «رسالة إلى مقاوم»، «ماذا

---

(١) محمد سليم الدسوقي: يا خيل الله اركبي، ديوان مخطوط لدي.

كنت أغني»... إلخ، وهذه القصائد ضمنها ديوانه «يا خيل الله اركبي».

ومع الحوب الأخيرة ٢٠٠٦م انطلقت حناجر الشعراء تحيي «حزب الله»، باعتباره رمزًا للصمود العربي، ومدافعًا عن حق عربي مضاع، فهذه الشاعرة محبوبه هارون، تقول في قصيدتها «وفي الظلماء يفتقد الضياء»، تقول في مطلعها:

لحـــزب الله هللت الســمـــاء	فـأسـد الله بالأمـجـاد جـاءوا
وقـد صـدقـوا العـهـود وانجـزوها	ومـا وهنوا ولا ضـعـفـوا وناءوا[1]

وعلى نفس الدرب يسير الشاعر عاطف الجندي، في قصيدته «حزب الله» يقول فيها مخاطبًا رجالات الحزب.

لأنك الوحيد - بيننا -

الذي يردُّ عن خيامنا

مطامع الغزاه

ويبعد الذئاب عن ربوعنا

ويحرس الشياه

ونحن لا نقدِّر الجميل

أو نبادل الوفاء بالوفاء

فصبحنا خيانة الصديق

والمساء فرصة لنقتل الظباء

ونحن من نقبِّل اليدين

كي نعيش مرتين!!!

في حظائر الحياه!![1]

أما الشاعر محمد يونس، فيخاطب الشهيد مهنِّئًا له على الحياة الأبدية التي نالها

---

(١) محبوبة هارون، «قصيدة مخطوطة»، لدي.

(١) عاطف الجندي، «مخطوطة»، لدي.

بفضل الشهادة، وهو بذلك يضمّن أبياته معنى الآية الكريمة بأنهم أحياء يرزقون، فيقول في قصيدته «أحياك من أرداك»:

أحياك من أرداك

فارتد بالموت الذي أحياك من قتلاك

دنياه ظن يطيلها

إما طوى دنياك

فإذا بدنياه انطوت

والله أحيا بالردى دنياك

أو لم يكن أقصى مناك شهادة

في نيلها محياك

ولقد تحققت المنى – وكما أردت – فهل هناك

شيء تؤمل غير سير الثائرين على خطاك

حتى يؤذن فجر نصر نوره

بعض – تلألأ – من سناك[1]

المقطع يفيض بالشاعرية المرهفة، فضلاً عن الموسيقى اللفظية النابعة من استخدام طاقة الحرف/ الصوت وتغيير موضعه، فتتغير دلالته، إضافة إلى شرف المعنى الذي تحدث عنه القدماء، وللشاعر عدد كبير من القصائد تخص المآسي العربية، نذكر منها: «لك ما أردت من الدماء»، و«الشهيد»، و«صور»، و«لعله»، و«لم يبق غير النار»، و«الموت صار هو الخيار»، و«من يكون؟»، إضافة إلى قصيدته المطولة «الغضب».

أما الشاعر عزت عبد الله فيتذكر مأساة فلسطين، ومأساة المسلمين في كوسوفو، والشيشان، حينما تحدث عن مذبحة صبرا وشاتيلا، فيقول:

---

(١) محمد يونس: لم يبق غير النار – ملتقى الوعد الأدبي، اللجنة العربية لمساندة المقاومة الإسلامية في لبنان – القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٣٧.

خمسون عامًا في فلسطين التي	كم كابدت من وطأة العدوان
صبرا وشاتيلا شهود مذابح	شرب الثرى منها دم الصبيان
في أرضها بقرت بطون حوامل	ودم العذارى غار في الكثبان
لم يسلم الإنسان من ويلاته	في أرض كوسوفو أو الشيشان[1]

أما الشاعر محمود خليل، فله قصيدة للأطفال بعنوان «ريح الجنة»، وكأن شاعرنا أصابه اليأس من رجالات العرب، فراح يخاطب الأطفال، علهم يشبون رجالاً مدافعين عن حقنا المسلوب، يقول فيها:

هبي ريح الجنة هبي	في أنسامك نعمي ربي
والمسلم في كل زمان	إن صيح به، طار يلبي
... (قانا) أنفاس تتردد	وجهاد عذب يتجدد
وشهادة ميلاد حر	في أن الغدر سيتبدد[2]

وهناك الكثير من شعراء مصر تناولوا القضية بتفاصيلها الدقيقة، مصورين المأساة لحظة بلحظة، وهم بذلك يؤكدون أن الشعر ديوان العرب، وهو سجل حافل لأحداثهم وأيامهم ووقائعهم، نذكر من هؤلاء الشعراء، فاروق شوشة وقصيدته «الشهيد»[3]، وسهير فودة وقصيدتها «من مهازل الحرب في لبنان»[4]، وحسن علي محمد عثمان، وقصيدته «اشمخ بأنفك»، وكذلك قصيدة «أخشى عليك»[5]، وجابر الحاج في قصائده «لبنان»، «سوريا في لبنان»، «شهداء صبرا وشاتيلا»، «اللقاء»، «سباق وأمل»[6]، وكذلك حلمي سالم وديوانه «سيرة بيروت»[7]، وكذلك ديوان «قمر على الجنوب»[8] للشاعر وليد منير،

(١) عزت عبد الله: الشيطان يحكم - طنطا، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٥٣.

(٢) محمود خليل، سبع سنابل، القاهرة، ط١، ص ٧٧.

(٣) فاروق شوشة، الأعمال الشعرية الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ٢/٤٥٠.

(٤) سهير فوده، الكلام في السياسة، مكتبة مدبولي - القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٩٥.

(٥) حسن علي محمد عثمان، عبير الوفاء، سلسلة آفاق أدبية (٢٤) - القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٣٥، ٨٢.

(٦) جابر الحاج، محنة الشقيقتين (فلسطين ولبنان) - القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٧٥، ٧٧، ٨٤، ٨٩، ٩١.

(٧) حلمي سالم، سيرة بيروت، دار الفكر للنشر والدراسات والتوزيع - القاهرة، ١٩٨٦م.

(٨) وليد منير، قمر على الجنوب، مركز يافا للدراسات والأبحاث - القاهرة، ١٩٩٦م.

وهو مهدى إلى المقاومة اللبنانية، إضافة إلى قصائد صابر عبد الدايم، وخاصة «السفينة والطوفان»[1]، وقصيدة «الجراد»[2] لكامل أمين، و«زير جدة إلى بلقيس»[3] لحسن طلب..... وغيرها من قصائد لكثير من الشعراء.

* * *

(١) صابر عبد الدايم، العاشق والنهر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أصوات أدبية (٦٤)، ١٩٩٤م، ص٥٣.

(٢) كامل أمين، النور الأخضر، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٣٧.

(٣) حسن طلب، قصائد البنفسج والزبرجد - الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م، ص ١٥١.

المملكة المغربية

على الرغم من بُعد لمسافة بين المغرب ولبنان، فإن ذلك لم يثن المغاربة ولم يضعف همتهم، فتجاوبوا مع الأحداث، فالهمُّ العربي واحد، يشعر به القاص والداني، فالشاعر حسن الأمراني يصدح بالهموم العربية أينما كانت في مصر أو لبنان أو في سوريا، وكأنه أينما ولى وجهه قابلته الهموم والأحزان، وكأنها طائر الفينيق - الأسطوري - الذي ما يلبث أن ينتهي فإذا به يعود من جديد، كذلك همومنا ومواجعنا وأحزاننا لا تنتهي أبدًا، فإذا خمد أوارها في قطر، تصاعد دخانها في قطر آخر، فنراه يقول في قصيدة بعنوان «قلوب على البركان»:

بدمي العـيـون تشع بالإيمان	وترف في الأعـمـاق فـيض حنان
بدمي العيـون المورقات قصائدا	خـضـراء تسـبح في دنى القـرآن
وهـج أطلَّ كـأنه قـبس بدا	من «نار مـوسى» رائع الخـفـقـان
....	....
أدمـي إذن ذاك المطـارد فـي ربـى	مـصـر وفي بيـروت والجـولان؟
أدمي الذي يسعى على جسد الخليـ	ـج مـغـاضـبًا، ويغـور حين يراني؟
يا «طائر الفـينيق» ذاك ومـا دنا	قد سيط من «عبس»، ومن «ذبيان»
وحـوافـر الغـبـراء تعـبث هاهنا	بجـماجم الضـعـفـاء، والصـبـيـان
هي أمـة لفظت فـتـاها بغـتـة	فـمـضى يسـائل أين؟ أين مكاني؟

ثم يحدد الشاعر سبيل النجاة، والخروج من المآزق والنكبات العربية، إذ لا سبيل إلا بالعودة للإيمان بالله والعمل بكتابه، فيقول:

إني أنا السـفـر الذي كلمـاته	هدى، ومن وحي السـمـاء بيـاني
ها يا معشر المستضعفين تحصَّنوا	بـ(الفتح)، و(الأنفال)، و(الرحمن)[1]

(١) انظر: موقع د. حسن الأمراني، على شبكة المعلومات الإلكترونية (إنترنت).

ولشاعرنا – حسن الأمراني – قصيدة أخرى تحت عنوان «لبنان» يبدء الشاعر قصيدته متحيرًا من أين يبدأ قصيده، فكل ما في لبنان أحزان، وكل ما في بيروت جراح، وكأن الكلوم المتناثرة والأحزان المتكاثرة كانت سببًا في تحيره، فكل مصاب جلل كان أهلاً للبداية، فيقول:

لبنان إن الحسن يضني	وشذاك يضمر ألف حسن
من أي بيروت سأبدأ	أي بيروت أغني؟
أمن القلوب النابضات	الرابضات بكل جفن؟
أم من صلاة يمامة	خضراء تجرح ألف غصن؟
أم من جراح صبية	سكنت كوخز الحلم ظني؟
أمن الخراب؟ من العذاب؟	من السراب؟ من التجني؟

ثم يصف الشاعر لبنان، حيث الأطلال الباعثة على الأسى والحزن، حيث الحطام الذي طال كل شيء، ورغم هذه المآسي والمحن، فإننا نحتسب هؤلاء الشهداء عند ربهم، فهم يرزقون في جنات عدن كما وعد ربنا سبحانه، فيقول:

أو ما ترى الأطلال تب	عث في كياني ألف حزن؟
هـذا حطام لم يدع	قلبي الغرير ولم يدعني
الجرح يا لبنان يضني	لكن.. إلى جنات عدن

أما الشاعر عبد الكريم الفلالي في قصيدته «ازرعني بشبعة سنبلة»، الرجل يأخذ من مزارع شبعة في الجنوب اللبناني مدخلاً لقصيدته، متمنيًا أن يكون سنبلة أو خبزًا لجياع أو حليبًا لرضيع، فقد أمه في ساح القتال، أو أغاريد نساء قد عدن من دفن شهيد أو حتى كحلاً لصبايا الجنوب، أو نعالاً لجنوده، الشاعر يريد مشاركة الجنوبيين أتراحهم وأفراحهم وأحزانهم وهمومهم بعدما تقاعس المتقاعسون، وخذلهم المتخاذلون فنراه يتمنى تلك الأماني لابسًا ثوب الخجل، علّه بذلك يكفر عن ذنوبه، فيقول:

خجلان أتيتك من قرب	فاجعلني أكفر عن ذنبي
ازرعني بشبعة سنبلة	أذكى من قنبلة الغرب
صيرني خبزًا لجياع	حافٍ كي يشبعني شعبي

اجـــعلني حليـبًـا لرضـــيع	ثـكـلتـــــه الأم علـى الـدرب
اجـــعلني زغـــاريد نـســـاءٍ	شـيــعن شـهــيــداً بالحــرب
أو بعني كـــحـــلاً لصـبــايا	ونعـــــالاً لجنـود الحـــزب
اجـــعلني كـتـــابًا يقـــرؤني	أجـيــال مـــا بعــد الحـــرب[1]

يلاحظ في الأبيات إصرار الشاعر مشاركة جنوب لبنان حربه الأخيرة في تموز ٢٠٠٦م آية ذلك إلحاحه الدائم في نحو قوله: «اجعلني» أكثر من أربع مرات في القصيدة، ثم استعماله لفعل الأمر الذي يوحي برغبة الشاعر الملّحة في المشاركة.. ولم يتوقف عطاء الشاعر عند هذا الحد، بل تناول هذه الحرب بقصائد عدة نذكر منها:

«لا أهلاً، ولا سهلاً»، و«قنابل ذكية دكًا دكًا»، و«غنائم حريك»، و«أطوار الحرب على لبنان».... وغيرها.

«بيروت تموت» بهذا السطر الشعري وصف الشاعر محمد علي الرباوي مأساة لبنان وأحزان أهلها المشردين، فشوارعها تحرقها الجحافل الحمراء، بينما وقفت الدول الخمس، دائمة العضوية بمجلس الأمن موقف المناصر لهذه الهمجية البربرية، ولكن العجيب موقف الدول الإسلامية العاجز حتى عن الإدانة، يقول الرباوي في قصيدته تحت عنوان «قصائد زمن الرعب»:

يا أيتها الكأس المحرقة العطشى

ها مملكتي أشرعت الأبواب

ومرافئ ذاتي تستقطب

عنقود الفردوس، وعنقود الريح

هلا عدت إلى سمواتي راضية مرضية[2]

بيروت تموت

شوارعها يحرقها جلدي الأحمر

---

(١) انظر: موقع www.abyat.com على شبكة المعلومات الإلكترونية (إنترنت).

(٢) التزم الشاعر بالرسم العثماني في كتابته لكلمة (سمواتي).

وعرائس زمزم فوق التل الأكبر

لوَّحن مرارًا بالأيدي الخمس

آه يا أيتها النفس

هل يقبل ذاك الحجر الأسود؟!![1]

يلاحظ تلميح الشاعر، وهو ما يفك مغاليق القصيدة، في مثل قوله: «عرائس زمزم فوق التل الأكبر»، «لوحن.. بالأيدي الخمس»، «الحجر الأسود»، مما يجعل القصيدة تدخل في إطار الرمز الديني والسياسي والاجتماعي، وهو ما يعطي القصيدة تألقًا وتوهجًا، وهو هدف رئيسي يسعى إليه الشعراء.

* * *

---

(١) موقع الشاعر محمد علي الرباوي على شبكة المعلومات الإلكترونية (إنترنت).

موريتانيا

الموريتانيون شعب قابع في غرب القارة الإفريقية.. عُرف عنهم أنهم مسالمون.. كما عُرف عنها – موريتانيا – أنها «بلاد المليون شاعر».

الموريتانيون يتنفسون الشعر.. تمامًا كما كان العرب قديمًا، ويتميز شعر الموريتانيين كما يتميز شعر العرب قديمًا من نواح عدة كجزالة اللغة ورهافة الصورة، إضافة الشكل الشعري الذي يعدُّ ثوب القصيدة.

وعلى الرغم من المسافات الشاسعة والمفازات الهائلة فإن ذلك لم يكن عائقًا للشعراء الموريتانيين، ولذا نجدهم يتألمون لصراخ طفل في المشرق العربي، يصرخون لنواح ثكلى في الشمال العربي، ويذرفون الدمع لأرملة فقدت بعلها في الجنوب العربي.

فالموريتانيون إذن يعيشون الهمَّ العربي أينما كان – وما أكثره – يتفاعلون معه بأحاسيسهم المرهفة، وانفعالاتهم اللامحدودة، ولذا نرى الشاعر عبد الله السالم بن المعلي في قصيدته «يا نجد، يا نجد» يبكي الأحوال العربية عامة، يبكي تبدّل الأحوال وتغيّر الأزمان، يبكي المصائب العربية المتتالية، فراح يخاطب «نجد» بما لها من قداسة دينية استمدتها من رسول الله (ﷺ)، فيقول:

يا نجد؟ يا نجد هل من نجدة لذوي	قرباك في الدين والتاريخ والنسب
عهدتنا الرأس للدنيا فغُيِّر في	تركيبها فتحولنا إلى ذنب
لا الشام بالشام ولا حمص ولا حلب	إذا رجعنا بحمص لا ولا حلب
وأين من سحرها لبنان ضاربة	في مِنعة من قلاع العز والغلب
بل أين مرَّ «صلاح الدين» سيدتي؟	عفوًا ألسنا لأم كلنا وأب؟
ما ذنبنا أ «هلاكو» في مضاربنا؟	ما إن يزال يُرابي صفقة الشغب

أم أننا أمـــة منســـيــة حُـــرمت ... نور الحياة فضاعت في دجى الحقب؟[1]

ويبدأ الشاعر سلسلة من التساؤلات الاستنكارية التي تهدف إيقاظ الهمم العربية، وبث روح النخوة التي افتقدناها، فإلى متى تلك المخازي، وإلى متى هذه المحن، ألسنا قادة الدنيا فيما مضى، ماذا حدث، وما الأمر؟...؟ فيقول:

مـــاذا دهانا ألسنا أمـــة وسطا ... ظلت لخيـر أبٍ تُدعى وخيـر نبي؟

مشت خطاها الليالي فوق أظهرنا ... فـمـا انتبهنا وعضَّتنا فلم نثب!

تأتي الهزائم في شعبان مخزية ... تـتـرى فنقـرأ أن النصـر في رجب!

إلى متى هكذا نبقى؟ فيا عجبًا! ... أما نحس؟ أما في الأمر من عجب؟

أمـا انتهى القول؟ إن القول يُفرقنا ... أمـا كـفـانا من التهريج والكذب؟

لم تبق في لهوات الشعر حنجرة ... فقـد أغصَّت عكاظ الناس بالأدب

وما نرى في سيوف العُرب من ذكر ... يرتاح للشـعــر أو يهـتــز للخطب

لم يبق في الكوب من نخب فنجعله ... دواء مـولاتنا من دائها العـصـبي

هانت على الظافر المختال راعدة ... من تحتها صلف المستأسر التَّرِب

فما يقض على «شارون» مضجعه ... في قلب بيروت أن نشتد في الصخب

ويظل عبد الله السالم في بكائيته واستثارته للنخوة العربية المفقودة إلى أن يختتم قصيدته بقوله: إننا أطفال لا نعرف عدوًا من صديق، ولا نفرق بين الموت واللعب، فيقول:

والعرب - يا سوأتي - طفل عدوهمُ ... يهـديهمُ الموت في الأقـلام والعلب

أما الشاعر الخليل النحوي فراح يبكي بيروت، مستنكرًا حالة العجز العربي، والخنوع الذليل، مستنكرًا دموعنا التي هطلت فكانت بحارًا له أمواجه المتدافعة المتلاطمة، والشاعر يشخِّص بيروت ويتخذ منها صديقة يناجيها وتناجيه، يبثها آلامه وأحزانه العربية، فيقول في قصيدته «بيروت»:

بيـــروت كل القـــارعـــات ســـلام ... ذهـب الـرجــــــال ودالـت الأيام

---

(1) ملحق جريدة القاهرة عدد ١١٦ الأربعاء، إبريل ٢٠٠٨م، ص ٩.

البحر حولك موجة من دمعنا ودموعنا للساهرين مدام

تبكي وبعض بكائنا ضحك وبعض شجوننا وهمومنا أوهام

الصخر يا بيروت رمل قلوبنا قست القلوب ولانت الأكمام

لا تنكري فرساننا.. ففوارس الزمن الجديد عجائز.. أقزام!!

لا تنكري إغضاءنا وحياءنا فالأرض رمل.. والرجال نعام!!

لا تنكري أحساب قومك إنهم أهل النهى.. لكنهم أيتام[1]

وعلى الرغم من طول القصيدة، فإنها تتميز بعاطفة قوية وتماسك في صورها، فضلاً عن ألفاظها الجزلة. وشاعرنا وهو يتحدث إلى بيروت المصابة إنما يومئ أحياناً إلى الضعف العربي، أو إن شئت قل: الإهمال العربي.. فالشعوب لا تحرك ساكناً مهما كان ضعيفاً، فلا حيلة لها إلا الكلام.. وماذا يفيد الكلام أمام الآلة العسكرية الغاشمة؟! أما حكامنا فابحث عنهم في صالات القمار، حيث رءوسهم مرتفعة، وأصواتهم عالية رنانة، وماذا يا بيروت وقد سلب الغرب منا الحقول والعقول، وأصبحنا أنعامًا تُساس، لا نملك يا بيروت – نحن الشعوب – إلا الدموع والأنين... فيقول:

بيروت صبرا.. ما لرهطك حيلة إلا الكلام.. وهل يفيد كلام؟

ستقاتلين العالمين وحيدة فبنو أبيك عن القتال صيام!!

كثرت مضاربنا.. وطال بناؤنا فبكل سفح دارة وخيام

وبكل وادٍ راية مشطورة وبكل حيٍّ شرطة ونظام!

وبكل بطن للبسوس غوائل وبكل بيت ضجَّة وخصام!

وبكل أندية القمار رؤوسنا مرفوعة ورؤوسهم أقدام

وإذا ثرىً صال منا صولة فهو الكمي الفارس المقادم

وإذا تدار الكأس ذات عشية في محفل فبنو أبيك كرام!

سلب الغزاة حقولنا وعقولنا وحلومنا فكأننا أنعام!

لبّ المصيبة.. أن تعيش بذلةٍ فالذل موت في الحياة زؤام!

---

(1) المصدر نفسه: ص ١٠.

يستأنف الخليل النحوي خطابه لبيروت، مؤكدًا أنها والقدس سواء بسواء، فالمصاب جلل والجرح دام، والذل العربي جاثم في ربوعنا، ولا نملك غير الأنين! فيقول:

بيروت أنت القدس.. أنت ديارنا ... أنت الشام وكل أرض شام
في كل قلب منك نبض عاصف ... وبكل صدر أنّة وسقام
وبكل جسم منك جرح نازف ... أنت الجراح.. وكلنا أجسام
فإذا ركعتِ فأنت حُرٌّ وجوهنا ... وإذا هويتِ فأنت منّا الهام
بيروت صبرا يا أعزَّ أسيرة ... في كل بيت.. والبيوت ركام
شابت نواحينا.. وطال رضاعنا ... فمتى نشيب.. متى يكون فطام؟
ومتى نكفُّ عن البكاء.. فإنه ... غاض الكلام.. وجفَّت الأقلام

أما الشاعر محمد النبهاني بن المحبوبي في قصيدته «وقفة مع دار ندامى عطلوها وأدلجوا»، فيبدأ قصيدته كما بدأ القدماء، فبدأ متغزلاً بزينب ورباب، لاحظ الأسماء - وهي أسماء قديمة تغزل بهما القدماء أيضًا، ثم دلف من الغزل إلى الوقوف على الأطلال، ربما أراد النبهاني من ذلك إثارة المتلقى واستمالته أولاً، وهو ما أشار إليه ابن قتيبة حينما علَّل بدء القدماء بالغزل فقال: «الغزل لائط بالقلوب»، كما أن اختيار الشاعر للبحر العروضى «البسيط» دلالة ارتباط القصيدة بالقديم، واستلهامها للتراث، فيقول في قصيدته:

حطم كؤوسك فالأصحاب قد تابوا ... واسكب دموعك فالأحباب ما آبوا
ليل الصبا موحش لا خلَّ يؤنسه ... ولا حبيبَ، فهل للبين أسباب؟
وزينب صرمت، ودعد قد خدعت ... شاب الهوى أم شباب الأمس قد شابوا؟
دار الرباب يباب بعد حلتها ... لا هي هي، ولا التطراب تطراب!
أمست خواء، خلاء، بلقعا، لببًا ... من ساكنيها؛ فغاب الأنس إذ غابوا
إن الزمان وإن طابت عطيته ... خاب الندامى به من بعد ما طابوا[1]

ويمضي النبهاني في قصدته مستتبتًا الحكم في قصيدته الطويلة، فالحكمة ضالة

(١) المصدر نفسه: ص ٣١.

المؤمن لهذا يتدرع الشاعر بالحكمة علها تجد آذانًا صاغية أو قلوبًا واعية، وهي أيضًا الوعاء الذي صاغ فيه القدماء أشعارهم وتجاربهم، فهي - الحكمة - تمثل خبرة السنوات، وتجارب الكهول، فهي كطريق هداية، أو مصباح مضيء في ليل داج، وما لبث شاعرنا بعد هذا إلا أن بدأ القول عن أحوال أمتنا العربية الخانعة، وما يفعله اليهود بها، فنراه يقول:

ليل دجاه انصرام شف أمتنا ... وفجره يوم وصل الأمس إيهاب
إن الملاعين قد عاثت بأمتنا ... فالجمع مفترق، والشمل آراب
والبوم صاح، وورُق القوم قد رحلت ... أين الذين أصم الصخر قد جابوا؟[1]
هذي سعاد تروم الوصل ليس لها ... علم بأن بني الإسلام أغراب!!
ماذا أقول.. وعشقي اليوم سيدة ... في أسرها دونها سور وحجاب
الكفر حاصرها، والجهل شتتها ... مات الضمير، وهو الدهر أحقاب

ثم يبدأ الشاعر في استلهام التراث، نافخًا في الرماد لبعث أيام الحضارة الإسلامية، زمن الفتوحات الإسلامية، أزمان القوة العربية، بل نراه يذهب لأبعد من ذلك، فنراه يذكر «الرشيد/ كليب/ تميم/ طيء/ مضر/ جرهم/ الأوس/ كندة...»، ثم نراه يتحسَّر على المدن التي أضعناها، فيذكر «طليطلة/ القدس/ جنين/ غزه/ حيفا...»، ثم يصل للمأساة العراقية في زماننا الراهن ليندب حظنا العاثر فيمن تولى أمرنا، فيقول:

هل للرشيد بآلام النخيل أسى؟ ... هذا كليب حماه اليوم أسلاب
وهل مآذن إقليش مباذخة ... منارة القدس والأقيال أعراب؟
أهم غطارفة؟ أهم صعاترة؟ ... أهم صناديد أبطال وأقطاب؟
أم من تميم؟ أم من طيء؟ أم من مضر؟ ... أجرهم جدهم والأوس أصلاب؟
أهم أعدوا رباط الخيل مرهبة ... عدوهم؟ أهمو إياه ما هابوا؟
عروسة الحلم، إن الناس قد غابوا ... غاب الشموخ، وتاريخ وآداب!

---

(١) إشارة إلى مصر، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (الفجر: ١٠).

ففي طليطلة نبات كندة كم ... صرخن فاعتلت الأنسام والغاب!

وفي جنين كأين من أنين آسى ... بدون آس وقلب الحق ينتاب!

واحيرتاه! من الليمون مبتسمًا ... كأنه ما له في العُرب أحباب

أما رعوه، فهل تخضر خضرته ... والأرض تنهب والأوصاب أضراب؟!

هل يطرب الناس والأهلون لا وطن ... ولا رغيف ولا ماء ولا طاب؟

أم يضحك البحر والأمواج باكية؟ ... تبت يدا منتش والشؤم أسراب

هذي الرصافة لا عين المهاة بها ... مات الخليفة، فالأحزان أحزاب

والجسر واجمة وغزة غُزيت ... والجيف تُقلق حيفا منه أحواب

ودجلة ماؤها دمع الزمان جرى ... حزنًا علينا ويبكي مثلها الزاب

أفٍ.. على الدمع بئس الكرب معتليا ... من بعد ما برزت في خصمنا ناب

ويستمر الشاعر على هذا العزف إلى أن ينتقل إلى جرح آخر من جراح الأمة، وهو التطاول على رسول الله (ﷺ).

ولكن يلاحظ أن الشاعر لم يستلهم التراث السياسي للأمة فقط، إنما استلهم التراث الأدبي من خلال قول علي بن الجهم، وهو يمدح المتوكل.

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى[1]

وهو أيضًا ما فعله الشاعر محمد كابر هاشم في قصيدته «النخيل الجريح»، والذي بدا من خلالها لائمًا الأمة العربية مواقفها المخزية، مستلهمًا «داحس والغبراء، وبعض أيام العرب كيوم «الكديد»، وهو يوم لربيعة، ويوم «بعاث» وهو يوم النضير، كما يذكر التراث الأدبي القديم، مثل قول قريط بن أنيف «لو كنت من مازن لم تسبح إبلي...»، كما يستلهم تراثًا شعريًا معاصرًا من خلال قول أبي القاسم الشابي، وكذا قول علي محمود طه في قوله «جاوز الظالمون المدى»، ويقول الشاعر في مطلع قصيدته:

مدوَّرة أذرع الشمعدان

---

(١) ديوان علي بن الجهم: عني بتحقيقه خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص ٢٢٠.

وتيه تقاسمه القارظان

وذل تسنَّم خيل الطعان

ونصل السنان

حنانيك يا عاشق الشمعدان

فللبيت رب[1]

أما الشاعر الشيخ بن بلعمش فيذرف الدموع على الأمة العربية التي سقطت ورقة التوت عنها، وأصبحت لا حول لها ولا قوة، وقد غدت نهبًا لكل ذي مخلب، يرثي بلعمش هذه الأمة من خلال قصيدته «مولوية في حضرة المتنبي»، والتي يقول في مطلعها:

أيها القلب هل يفيد العتاب والحمى ديس والربوع يباب

وليالي الهوى التي دار سلمى مهدها كلها سراب سراب

عاتبونا وأزمعوا صرمنا لم يثنهم شوقنا ودمع سحاب

أيها التاركون قلبي جحيمًا أمن العدل أن يذلَّ الصحاب؟![2]

ويستمر الشاعر على هذا المنوال، ويعزف على هذه الأوتار الحزينة الموجعة علها تجد آذانًا صاغية أو قلبًا يعي الجراح، فينبض بالفداء، ولكن هيهات هيهات!!!

* * *

(١) المصدر نفسه: ص ٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٨.

الباب الرابع

الدراسة الفنية

الفصل الأول

الاتجاهات الفنية في شعر المأساة



تعدَّدت الاتجاهات الفنية للشعر الذي تناول مأساة لبنان، ويمكننا دراستها على النحو التالي:

(أ) الاتجاه الإسلامي :

تعددت اتجاهات القصيدة حول مأساة لبنان، وسلكت طرقًا متنوعة، وسلكت كل مجموعة من الشعراء مسلكًا يختلف عن الآخر، ولكن بيروت وصيدا وصور تقاتل وحدها، إنه الدم العربي الذي يسيل - وما زال - على أيدي الإسرائيليين وتاريخهم يشهد على حقارتهم، وقتالهم واجب على كل مسلم يؤمن بدينه وبما أنزل الله.. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٥١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣)، والآيات في ذلك كثيرة، ومعروفة، ومشهورة.

والشعراء المسلمون سخّروا شعرهم لخدمة الإنسانية، ولقول الحق، وإحقاق العدل، جاء شعرهم من إيمان راسخ في القلوب، ومن نفوس مؤمنة بربها تواقة إلى الشهادة في سبيل الله، والشعر الإسلامي مهمته صعبة، وتمثل: دعوة هؤلاء الشعراء دعوة إسلامية للرجوع إلى دين الله، والتمسك بالقرآن الكريم، وإعلان راية الجهاد في سبيل الله عالية خفّاقة، ورأي هؤلاء بأن الشعر إذا خرج من دائرة الإسلام فلا فائدة مرجوة منه، إذن موضوع الشعر الإسلامي عند هؤلاء الشعراء هو روح الإسلام، وجوهره معركة الإسلام الخالدة، ولا عون إلا من الله، الذي يجيب دعوة الداعي الصادقة، وعلى رأس هذا الاتجاه الإسلامي: الشاعر المسلم يوسف العظم، شاعر ملتزم في شعره، كما هو ملتزم بإسلامه، ونجد هذا الاتجاه في عدة أبيات من قصيدة له بعنوان «فلسطينية تروي قصتها في بيروت» يقول يوسف:

قل لمن يحسب أنا أمة	أنكرت أمجاد «سعد» و«الوليد»
نحن شعب لم يعد يخش الردى	أو يبالي برصاص وحديد

قطع العهد وفي أعماقه دعوة التوحيد والدين الرشيد[1]

ويلوح الشاعر بالقرآن الكريم، ويقول بأنه دستور المسلمين الدائم والخالد، وهو المرجع في كل شيء، فعلينا التمسك بأهدابه. فهو النجاة من المهالك، وهو ما شهد به الأعداء.

كلما أطفئ منا قبس أشرق القرآن بالفجر الجديد
قد رجعنا راية زاحفة بعد أيام ضياع وشرود
ومضينا نحو آفاق العلى يسلم الراية جد لحفيد

ويؤكد يوسف العظم على حب الشهادة.. وابتغاء الجنة، فهي الأمل المنشود لكل مسلم صادق، مؤمن بربه، مؤمن بقضية وطنه.

إنها الجنة تبغي ثمنًا عزّ إلا من شرايين الشهيد

يلاحظ أن الاتجاه الإسلامي يسيطر على أبيات القصيدة من أولها إلى آخرها، فهو شاعر مسلم هو شاعر المسجد الأقصى، ومعاني الشاعر مستقاة من القرآن الكريم، فضلاً عن ألفاظه التي تكتسي بالروح الإسلامية.

دمروا بيتي، وهل بيتي هنا؟ إن بيتي خلف هاتيك الحدود
وتلفّت فلم أعثر على غير أبناء الأفاعي والقرود

نعم ومسخهم الله قردة، وأخزاهم إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٢)، وأي ذل ومسكنة أعظم من العيش على التسول والصدقات، واغتصاب الأراضي؟

ومن هؤلاء الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه داود معلا، شاعر مسلم يغلب على قصائده الطابع الديني الملتزم، وأبياته حول بيروت، صبرا، شاتيلا تعالج المشكلة وتضع الحل في التمسُّك بالإسلام، والرجوع إليه، وغرر الإسلام كثيرة، فهو ينادي الأمة، ويستنهض الهمم حتى تزول الغمة والكروب، ونقف في وجه الظالم والمعتدي، بقلوب مؤمنة بربها، عاشقة لدينها، يقول في قصيدة له بعنوان «صبرا وشاتيلا وبيروت».

---

(١) مجلة الإصلاح، دبي، العدد ٨٠، ص ١٥.

يتيمة أمة الإسلام مغمدة سيوفها، وهي تبكي الحق مغتصبا

يا قادة المسلمين اليوم موقفكم يخزي به الخزي مرتدًا ومضطربا

من كان ينصر دين الله فانطلقوا أمامه أسد حرب قادة نجبا

يعدو علينا الصليبيون مشرعة حرابهم، يقتلون الأم.. والعقبا

يتألم الشاعر لفرقة المسلمين، وتخاذلهم، ويتساءل: لم لا نتوحد؟ حتى نقف في وجه هذه الهجمة الصليبية، التي تحاول النيل من أمة الإسلام، ويركز داود معلا على الدين الإسلامي الذي يجمع هذه الأمة الكبيرة، فيقول:

يا أمة الله والإسلام يجمعنا فاقدموا إنما الإيجاب ما وجبا

واطلقوا النار لا حق يدوم بلا عزم، وهذا كتاب الله قد طلبا

وأبياته ذات سمة دينية، فهو يتعامل بدافع الإيمان بالله، والمسلم أخ المسلم، والموت حق منتظره، فلِمَ المهانة إذن؟

فإن قضينا فهذا الأمر منتظر وإن وصلنا فوعد الله ما كذبا

الشاعر في البيت يستوحي قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣)، والشطر الأول من البيت يذكرنا بقول المتنبي:

إذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العار أن تموت جبانا

ومهما كان رد هذا الاتجاه من قلة عدد، فإن شعرهم يصل إلى النفوس، معبرًا عن حنين إلى الإسلام، وسيفه المضّاء. بيروت هي مركز تلاقي المناطق والطوائف والفئات اللبنانية المختلفة، فإذا انهار هذا المركز عاد كل فريق إلى منطقته وطائفته، وحزبه، ليغرق في دهاليز التقسيم، وهو ما يريده الكثيرون لأمتنا.

أما الشاعر جابر الحاج في قصيدته «شهداء صبرا وشاتيلا» فتبدو عليه الصفات الإسلامية، واستلهام النص القرآني، وكذلك استلهام التراث الإسلامي خاصة الصراع الإسلامي اليهودي، ونلحظ ذلك من خلال قوله:

---

(١) داود معلا، الطريق إلى القدس، دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان، ط١، ١٩٨٤م، ص ١٣.

شهداء صبرا إنها إحدى الكبر والأمر جلّ على المشاعر والعبر
كانت فلسطين الجريحة داركم فأزاحكم عنها حثالات البشر
هامت خطاكم في عذاب يائس سرتم إلى لبنان في يوم عسر

ثم يقول فيها:

فتعقبوكم في البلاد بحقدهم إن اليهود لفي ضلال مستعر
جاءوا لصبرا في جحافل غدرهم وأتوا شتيلاً دمروها بالشرر
فرضوا الحصار وجاء أوغاد لهم صبوا قذائفهم كسيل منهمر
....
آن الأوان كي نثوب لرشدنا لنعيد أمجادًا فهل من مدكر؟[1]

يلاحظ أن النص من أوله يستلهم آيات كريمة من القرآن الكريم، ويحاول جابر الحاج توظيفها توظيفًا فنيًا، وهي وإن دلت على شيء فهي تدل على اتجاه الشاعر الإسلامي وحرصه على إظهار الثقافة الدينية، وهو أيضًا ما وضح من خلال قصيدته «سباق وأمل» يقول فيها:

نادت فلسطين المهيضة صفكم لا تحسبوا حقد اليهود أماتها
وتمزقت لبنان شرًّ ممزق لكن بوحدتنا نوحِّد صفَّها[2]

ويمكننا ملاحظة ذلك من خلال قصائد الشاعر المتعددة مثل قصائد «لبنان» و«سوريا في لبنان» و«اللقاء»..... وغيرها.

أما الشاعر رشاد يوسف فيتخذ من أزمة العراق والكويت مدخلاً لهمومنا العربية، فقد قلّبت الأحداث على الشاعر ذكريات أليمة، فيقول:

بغداد تفتك بالكويت فخورة «صدام» يفخر أنه الجلاد
والنار تأكل خيرهم، وديارهم والقوم لا وعي ولا استرشاد
لبنان تسبح في الدماء جريحة ويعيث في أرجائها الأضداد

---

(١) جابر الحاج، محنة الشقيقتين (فلسطين ولبنان) - القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٨٥.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٤.

وتبيت تندب من بنيها عصبة | خلعوا هوية قومهم أو كادوا
وتظل تجتاح الخطوب ربوعنا | وتظل ظلمة ليلنا تزداد
.... | ....
يا أمة الإسلام صيحة شاعر | قد ملّها التكرار والترداد
والمسلمون لديه وحي قصيدة | وهم الهوى والأهل والإنشاد[1]

وحينما صدرت فتوى دينية تبيح أكل جثث الموتى المتعفنة أثناء مذبحة صبرا وشاتيلا، انطلق رشاد يوسف يقول:

يا رفاق الجرح والأهوال والأسر المهين
أي فتوى تمنح اللقمة أو تمحو الأنين
إنه الجوع فما جدوى فتاوى العارفين
لا تخافوا الكفر، فلستم في عداد الكافرين
إنما الكافر من أفزع أمن الآمنين
إنما الكافر من قيَّد عزم الثائرين

ثم ينهي قصيدته بقوله:

وكلوا الأموات إن شئتم وموتوا واقفين[2]

أما محمد الغلوي فيقول في قصيدة له بعنوان «دم الطهارة»[3] يؤكد فيها على الشهادة في سبيل الله:

تعلمنا كيف نقدم قرابين الفداء
أن نجاهد بأنفسنا.. هو العطاء
نحن الفلسطينيون حقًا علينا

---

(١) رشاد يوسف، ديوان: وا إسلاماه «مخطوط».
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) محمد الغلوي، نشيد فلسطين، مطبعة الكتاب العرب - دمشق، ص٨٦.

أن نقتل بالحق، ونقتل

دماؤنا دين، لن، ولن يؤجل..

ويظهر الاتجاه الإسلامي في قصيدة «أهذه أنت يا لبنان»[1] للشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي ويبين فيها دور اليهود في بث الفرقة بين المسلمين، كما يبيّن الاعتداء على الإنسانية.

أمــتي إنهـا مـصـائب عـصـر	نظمـتـهـا أصـابع العـدوان
سلبـونا حـقـوقنا ورمـونا	بضــــلال الأديان والأذهان

ويطلب الشاعر من أمته أن تصحو من نومها العميق، وترجع إلى الإسلام، فهو الملجأ الآمن، ويجب عليها أن تأخذ من القرآن الكريم ما يصنع لها النصر بإذن الله.

فـأفـيـقـي يا أمـتي وأزيلي	ظلمــات الطريق بالإيمان
أنت والله، بالهـدى في جـلال	فـانهلي من مناهل القـرآن

ونداء الإسلام وأمة الإسلام، والدعوة إلى الوحدة على كتاب الله يبدو واضحًا في شعر محمد بن سعد الدبل، في قصيدته «شهداء صبرا وشاتيلا».

عـــربي بل مـسـلم لا أبالي	ســـام روحي مـــهند أوار
نتـقي الله في الشيـوخ اقـتـتالا	واللواتي في طبـعـهن انكسـار
كـيف بالطفل لائذا مسـتـغيـثا	غـوثك بالله فالطواغيت جاروا
كـيـفي يصلي بحـرينا من عليـه	من مـشـيـب جـلالة ووقـار
كـيف يصلي بحـرينا أمـهـات	وبنات يخـيـفـهن الشـجـار[2]

والصبغة الإسلامية تظهر جلية عند الشاعر مانع سعيد العتيبة في قصيدة له بعنوان «رسالة من روح سناء»[3]، وتبرز قيمة الشهادة في سبيل الله.. ورائحة الجنة التي يتوق إليها المؤمن المجاهد، ويتمناها في كل آن.

---

(١) عبد الرحمن صالح العشماوي، إلى متى، مصدر سابق، ص ٥٤.

(٢) محمد بن سعد الدبل، معاناة شاعر، مصدر سابق، ص١٧.

(٣) مانع سعيد العتيبة، محطات على طريق العمر، مصدر سابق، ص٩١.

يا أمـــتي آمنت منذ طفـــولتي	أن الذين اســتــشــهــدوا أحـيــاء
وعـــــد من الله العلي ووعـــــده	دين له عند الـلـقـــاء وفــــاء

العون يجب أن يكون من الله؛ لأنه هو الواحد القادر على كل شيء، فتراه يتجه إلى ربه داعيًا أن يزلزل أمته المستنامة:

يا رب زلـزل أمـــتي بصـــواعق	إن ظل يحكم أمـرها السـفـهـاء
يا رب زلـزلهـا فـمـا في عـيـشـهـا	نفع، ولا في مــوتهـــا ضـــراء
ولـعـل زلـزال الإلـه يـهـــــزُّهـا	فــيــفــيق من نوم الخنوع إباء
فـــالـلـه كـــرَّمنا بجنة خلده	وهـو الـكـريم الـواجـب المـعـطـاء

أما غازي القصيبي في قصيدته «نهر من دم» يحطم كل التقاليد البالية، ويدعو دعوة صريحة إلى المقاومة والصمود، ويصور سواد الأمة العربية في هذه الأيام، وأما في المقطع الأخير من قصيدته، فيقول:

وقال إن خيول الله قادمة

وقال إن بنود الله.. لم تمل

نهر من الدم في قلبي يبشرني

كما أبشره.. أن الشهادة لي[(1)]

ويظهر هذا الاتجاه الإسلامي - أيضًا - في شعر حسن الأمراني، مثال ذلك قوله:

إني أنا الســفــر الذي كلمـــاته	هدى، ومن وحي الســمـــاء بيـــاني
ها يا معشر المستضعفين تحصَّنوا	(بالفـتح) و(الأنفـال) و(الرحــمن)

لاحظ تخير الشاعر لسور معينة من القرآن الكريم تحض على القتال والحرب وضرورة الجهاد، وذلك في (الفتح والأنفال)، ثم سورة (الرحمن) التي تعطي القدرة الإلهية.

ومن هذا الاتجاه أيضًا الشاعر وحيد حامد الدهشان في كثير من قصائده، ونذكر

(١) جريدة الجزيرة، الرياض، العدد ٤٠٧٠، ص ١١، الأحد ٦ صفر ١٤٠٤هـ.

منها قصيدة «لا وقت للدمع» والتي يقول في مطلعها

لا وقت للدمع في أوطانك الأنا فكل شيء على ساحاتنا بانا

كل الوجوه تخلَّت عن براقعها ما كان في السرِّ صار اليوم إعلانا

وفيها يقول معرِّضًا بالشهداء:

ففي بلادي بفضل الله طائفة كالشهب.. كالغيث.. إرصادًا وإحسانا

هم زينة الكون في شرع الألى فقهوا لا من يسوِّي بأهل الطهر شيطانا

طوبى لكل شهيد في مرابعنا روت دماه غراسًا يثمر الأنا[1]

وللشاعر الكثير من القصائد تحكي مأساة لبنان بحسٍّ إسلامي، ووطني إضافة إلى الوعي السياسي.

ومن هذا الاتجاه أيضًا الشاعر صابر عبد الدايم في العديد من قصائده، نذكر منها قصيدة «السفينة والطوفان»، وهو يستلهم سفينة نوح (عليه السلام) وقصة الطوفان، ولا شك أنها معان دينية، والشاعر ينطلق منها لآفاق إسلامية وروحية خالصة، يقول في مطلعها:

واصلي السير يا سفينة نوح إن ربانك الذي غاب حيّ

مزقي ظلمة الخطوب وصدي زحفها واحمي عزك السرمديّ

وأبيدي الطوفان في عنفوان يحسر الموج عن حماك الفتي[2]

هذه أمثلة واضحة على الاتجاه الإسلامي حول القصيدة الشعرية التي قيلت في الحرب الأهلية في لبنان، واحتلال بيروت بعد حصارها، ولابد من القول بأن اتجاهات القصيدة، سواء بأبعادها المختلفة من سياسية، واجتماعية، وذاتية، وإنسانية منسجمة مع الحدث وموضحة الواقع الأليم الذي نعيشه، وشعراء الإسلام اتجهوا نحو بيروت كما اتجهوا إلى القدس وفلسطين قبلها، إذن أهمية الشعر الإسلامي ليست قليلة بل تدعم الموضوعات الشعرية الأخرى، واتحاهات القصيدة حول مأساة لبنان متداخلة مع بعضها البعض، ففي القصيدة الواحدة نلمح عند بعض الشعراء الاتجاهات المختلفة، مما يؤكد أهمية كل اتجاه في تأدية الدور الذي يلقى على عاتقه، وهو استنهاض الهمم وشحذ العزائم لمواجهة عدو غاشم، متربِّص بنا.

---

(١) وحيد حامد الدهشان، القدس في القلب، شروق للتجارة والتوزيع - المنصورة، ٢٠٠١م، ص ١٧.

(٢) صابر عبد الدايم: العاشق والنهر، مصدر سابق، ص ٥٣

(ب) الاتجاه الوطني:

كُثر هم الشعراء الذين تحدثوا بشعرهم عن لبنان، وقصائدهم في جملتها تمثل اتجاهًا واضحًا عند معظم الشعراء الذين توجوا لبنان، وأحداثها بأشعارهم، ذات الموضوعات المتنوعة، التي تدور حول محور أساسي هو سقوط بيروت بعد محاصراتها في يد الصهاينة، ومذابح صبرا وشاتيلا، وقانا وقبلها تل الزعتر، وخروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، والحركة الوطنية اللبنانية ودورها في تحرير الجنوب اللبناني، والصمت العربي المتخاذل، إلا من بيانات الشجب والتنديد، وأخيرًا حرب تموز ٢٠٠٦م، كل هذه الأشياء كانت محاور القصيدة العربية التي اتخذت من لبنان عنوانًا لها.

وتمثل بيروت مركز التوازن في لبنان، فإذا سقطت بيروت اختل المركز، وكانت الطامة الكبرى، وهي - أيضًا - مركز التفاعل الثقافي والفكري، وسقوطها حتى على المستوى المعنوي يؤدي إلى تعطل الفكر والثقافة.

بيروت - كانت وما زالت - هي واحة الديمقراطية والتحرير في صحراء من العسف والإرهاب تعاني منه المنطقة العربية، ونلاحظ أن أكثر الشعراء اتسم شعرهم بالاتجاه الوطني، حب الأرض، حب الوطن، الجذور التي لا ترحل، وأول هؤلاء الشعراء الشاعرة فدوى طوقان، التي عبّرت عن حب الوطن في قصيدتها «ذهب الذين نحبهم»، وهنا وصلت فدوى إلى قمة الحدث، وزاوية الموقف، حين لبست ثوب الوطن، وأحبت من يدافع عنه ببسالة وشجاعة.

من أجلك انفرطت عقود دمائهم
حبات مرجان، كنوز لآلئ
ذهب الذين نحبهم...
إنا سنبقى ظامئين
عند الينابيع الحزينة سوف نبقى
ظامئين
حتى قيامتهم مع الفجر الذي
حضنوه رؤيا لا تموت، ولا يذوب لها حنين

نعم فقد ذهب الأبطال الذين ضحوا بدمائهم الزكية، وسنبقى ظامئين لماء الشجاعة، حتى وإن تفجرت الينابيع الحزينة، سنبقى عطاشى لماء الحرية.

بيروت، الوطن، الأرض، نجد ذلك عند الشاعر أحمد بويس في قصيدة «بيروت يا وجع العروبة» التي يقول فيها:

بيـــروت هل أبكيك أم أبكي على	شـرف العـروبة غـيّـبوه.. وغـابوا
فـحكاية الوطن الأبي خــرافـــة	وبطولة الشـعب الكبـيـر ســراب
والصـمت صـار فـضيلة في مـوطن	فـيــه الكلام شــتـائم وســبـاب[1]

ويظهر انتماء الشاعر إلى بيروت، وإلى الحس القومي حين يقول:

وفي كل عاصمة ألف عاد

وما عاد لي في الرمال امتداد

لكم صمتكم.. أيها الصامتون

ولي ألف جرح

ولي فيك بيروت

ألف انتماء[2]

الالتزام ضروري للشاعر والأديب والفنان، والانتماء للوطن موجود عند الشاعر المقهور، والذي أُخرج من وطنه، فحنينه إلى وطنه، وأمله في العودة، يقوي عنده من خلال الانتماء لهذا الوطن الغالي، وتقديسه لهذا التراب.

شكلت الأرض محورًا أساسيًا لدى الشاعر عارف الخاجة، والتزامه بقضية الوطن وما فيه من أبعاد إنسانية وقومية يقول في قصيدته بيروت «كل يوم بعد يوم».

نحو لا أرض سوى أرض عنود

وبقايا قطرات من كرامه

يحملوني بين غيم ورياح

---

(١) أحمد بويس، بيروت موسم النزيف، مصدر سابق، ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٨.

ينشروني فوق بيروت علامه

خافقي أرض وطفل وشظيه

يصبغ الدنيا بلا لون

سوى لون القضيه

نظمت وجدي، وسجني في عقود

صرت مجدافًا على الشط يغني[1]

أما الشاعر المنجي سرحان فيخاطب المعتصم بالله، ذلك الخليفة الذي هبَّ منتفضًا لنجدة امرأة أعرابية، حينما سمع صرختها الشهيرة «وامعتصماه»، فيتخذ المنجي من هذا النداء عنوانًا لقصيدته، ولكن شتان بين الندائين، نداء امرأة مستغيثة، ونداء رجل يرصد الحال، نداء امرأة تستصرخ القوة، ونداء رجل يصف الخنوع والذل. في هذه المساحة الدلالية يهتف المنجي سرحان مناديًا المعتصم/ الحاكم العربي أينما كان، فيقول:

من ترى غال سيفك؟

من أفقد الوجه نضرته البدوية،

من غال صوتك؟

من أفقد الخطو نضرته المضرية..؟

صرنا سبايا

يساومنا الليل أوجاعنا.. نحلم..

يسري بأوصالنا الخزي

حين يطالعنا صوتك العربي الذي

لم نصنه

فما نحن نعرف إلا التباري

---

(١) عارف الخاجة، بيروت وجمرة العقبة، مطابع دار الطليعة - الكويت، ص ٢٣.

في القول،

والأمنيات العجاف[1]

والاتجاه الوطني والقومي يعانقه الاتجاه الإسلامي هو ما يعكسه الشاعر فاروق جويدة في عدد من قصائده، مثال ذلك قصيدة «متى يفيق النائمون» يقول جويدة:

شهداؤنا يتقدمون

أصواتهم تعلو على أسوار بيروت الحزينة

في الشوارع.. في المفارق.. يهدرون

إني أراهم في الظلام يحاربون

رغم انكسار الضوء..

في الوطن المكبّل بالمهانة

والدمامة.. والمجون

والله إنا عائدون

أكفاننا.. ستضيء يومًا في رحاب القدس

سوف تعود تقتحم المعاقل.. والحصون

شهداؤنا في كل شبر يصرخون:

يا أيها المتنطعون

كيف ارتضيتم أن ينام الذئب

في وسط القطيع وتأمنون؟![2]

يلاحظ تعانق الاتجاهين (الإسلامي/ الوطني) في كثير من سطور الشاعر. انظر – مثلاً – «الشهداء»، «رحاب القدس»، «والله إنا عائدون»، «وطن مكبل بالمهانة»، والحق أن كثيرًا من الشعراء مازجوا بين الاتجاهين، فهما ينتميان لبؤرة دلالية واحدة.

---

(١) المنجي سرحان، وعائد إليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٣٧.

(٢) فاروق جويدة، لو أننا لم نفترق – القاهرة، ص٢٩.

نزار قباني في أبياته يمثل اتجاهًا قوميًا، وحسًا وطنيًا صادقًا، يقول في قصيدة «آخر عصفور يخرج من غرناطة»

هذا هو الزمن المضرّج بالبشاعة

والنذالة

والخيانة

والذنوب

هذا هو الزمن الذي فيه الثقافة

والكتابة في غروب

لا العربي

لا القومي

لا الشعبي

هذا الأرنب المهزوم في كل الحروب[1]

ويقول في قصيدة «لماذا يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الإنسان»:

يا وطني المصلوب فوق حائط الكراهية..

لا أحد من مُضر.. أو من بني ثقيف

أعطى لهذا الوطن الغارق بالنزيف

زجاجة من دمه.. يا وطني المكسور مثل عشبة الخريف.

يا وطني كل العصافير لها منازل

أما العصافير التي تحترف الحرية

فهي تموت خارج الأوطان

يمثل هذا التزامًا بالاتجاه القومي والوطني. الالتزام الذي تلتحم فيه قضية الشعر مع قضية الجماعة وهمومها، فهو يكتب ملتزمًا بالهم الجماعي متناسيًا همه الفردي،

---

(١) مجلة الشراع، بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٨٢م، ص ٥٣.

وهذا ما تجده عند الشاعرة مقبولة الشلق.. التي أقسمت أن تبقى صامدة في الأرض.. في الوطن.. تموت دفاعًا عن الوطن تقول في قصيدة «رغم الحصار»

قسمًا بشاتيلا المذابح

قسمًا بصبرا والحصار

والفاكهاني والدماء

لن تهدؤا في أرضنا

لا، لن تكونوا آمنين

رغم انتشار عيونكم

ورغم هول سجونكم

رغم الحصار

رغم الدمار

سنظل نلقي نارنا فيكم

ونتبعها بنار..[1]

ويؤكد الشاعر هارون هاشم رشيد على القومية العربية وحب الوطن، وهو ما يعطي مؤشرًا مهمًا للبعد القومي، والحس الوطني، ففي قصيدته «ماذا بعد يا لبنان»[2]

طويل دربنا، لكن مد زحوفنا أطول

فإن تطعنا في الخلف كف مغامر مهمل

نقول له، وحق الحب، من أعماقنا ينهل

وحق ذراك يا لبنان لن نعزل لن نعزل

فمهما حاول الدخلاء فيك وحاول العذل

(١) مجموعة من الكتاب، المقاومة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق، ص ٣٤٢، نقلاً عن مأساة بيروت في الشعر، مصدر سابق، ص ٦٤٤.

(٢) هارون هاشم رشيد، النقش في الظلام، مصدر سابق، ص٦٠.

سيبقى وجهك العربي، يبقى وجهك الأجمل

أحمد قدورة شاعر تمسك بالأرض، بالوطن، التزم بالكلمة الشعرية وطوعها نحو الوطن.. والأبطال.. يقول في قصيدته «من قتل دفاعًا عن بيته مات شهيدًا»، وهو وإن كان يستلهم نصًّا دينيًّا متمثلاً في حديث نبوي شريف، فإن القصيدة تنبئ عن حس قومي ووعي وطني بقضايا بلاده، فضلاً عن الرؤية الدينية، يقول:

من أجل الأرض.. أرويها

بدمائي عشت لأفديها

من أجل الأرض أحررها

من وطء الغاصب أحميها

من أجلك أحيا يا وطني

ولأجل ترابك والمرضع[1]

ونجد الاتجاه الوطني عند الشاعر معين بسيسو، وهو يدعو إلى القومية العربية، التي افتقدناها، فضاعت هيبتنا، وذهبت أدراج الرياح، يقول بسيسو في قصيدة «رسالة مفتوحة إلى قلعة الشقيف»:

اشربوا حبركم.. وابتلعوا الورق..

وعلقوا على حبل الغسيل برقياتكم.. وعلقوا الخطب

وقولوا: أي شيء لنا.. اكتبوا أي شيء لنا

ادهنوا أصواتكم بدهان الخُطب

ضعوا على وجوهكم أقنعة اللهب

ولا تقولوا شيئًا واحدًا.. لا تقولوا

إننا عرب![1]

---

(١) أحمد قدورة، لبنان ودم الجنوب، مصدر سابق، ص ٦٠.

(٢) معين بسيسو: مصدر سابق.

ويمثل هذا الاتجاه - الوطني - كثير من شعراء الوطن العربي على امتداده الجغرافي الكبير إذ إن كل الشعراء العرب ممن تناول المأساة اللبنانية، قد انطلق من دافع قومي، وحس وطني، وهو ما نلحظه - أحياناً - حينما يلوم الشاعر الحكام العرب أو ممن بيدهم مقاليد الأمور حينما يتقاعسوا عن نجدة امرأة ثكلى أو يهبوا لصرخة طفل يتيم، وفي الشواهد الشعرية السابقة وعلى امتداد صفحات هذا الكتاب يلاحظ ذلك بشكل واضح، وهو ما يؤكد أهمية هذا الجانب.

* * *

(ج) الاتجاه الحزبي:

ظاهرة تعدد الأحزاب، ظاهرة مبشّرة، إذا اتجهت جميع هذه الأحزاب لتحقق الهدف المنشود، والاختلاف في الرأي، يؤدي في النهاية إلى القناعة واليقين، وهو ما دعا إليه الإسلام، حينما دعا إلى ثقافة الحوار، واحترام الآخر، وإقامة الحجج والبراهين للإقناع، لذا فإن اتجاه القصيدة حول لبنان، سواء كان حزبيًا أم وطنيًا أم إسلاميًا، فهو في النهاية يقودنا إلى المنهج الذي تريده، ويعالج المشكلة القائمة أمامنا، ويضع الحلول السليمة، بل إننا لا ننكر ما للشعر من قيمة في الحروب مثله مثل البندقية آية ذلك تلازم الحرب مع شحذ الهمم بالشعر، وتاريخ العرب يؤكد تلك الحقيقة.

والقصيدة في مأساة لبنان توحدّت في موضوعها الأساسي، ومحورها الرئيسي، رغم خروج بعض الشعراء عن المألوف، وخروجهم عن جادة الطريق أحيانًا، ربما يكون للواقع المر الذي مرت به لبنان دون تقديم أدنى مساعدة لها من الدول العربية، أو يكون الشاعر مرتبطًا بانتماء حزبي، أو اعتقاد فكري، ولا ضير فالالتزام موجود في الواقعية والاشتراكية، كما هو موجود في الشعر عند الشعراء، الذين التزم كل واحد منهم بمبادئ معينة، وأبعاد ربما متفقة مع غيره من الشعراء، وربما تختلف.

رغم أن هؤلاء الشعراء يمثلون اتجاهًا وطنيًا وعندهم انتماءات حزبية، فإن خروج بعضهم بالقول جعل البعض يتهمهم بالإلحاد والشيوعية، أو المروق من الدين.

فمثلاً شاعر الأرض المحتلة محمود درويش الذي ارتبط بالأرض في جميع أشعاره، فالأرض عنده الوطن.. الأم.. الدم.. الخير، بل كل شيء في حياته، ففي قصيدته «مديح الظل العالي»[1] نجد البعد الوطني والإنساني، وبعض المقاطع التي تدلل على انتماء الشاعر، يقول فيها:

بيروت قصتنا

بيروت غصتنا

وبيروت اختبار الله. جربناك جربناك.

من أعطاك هذا اللغز؟ من سماك؟ من أعلاك فوق جراحنا ليراك؟

---

(١) محمود درويش، مديح الظل العالي، مصدر سابق، ص١١.

فاظهر مثل عنقاء الرماد من الدمار

في المقطع السابق نجد خروجًا غير لائق من الناحية اللفظية، وهذا الأمر لا يقبله الذوق، ولكن الشاعر ربما يفسر ما قاله بطريقة يراها، ولكن القارئ ربما يرى غير ما يراه الشاعر، ويقول أيضًا:

ألف سهم شد خاصرتي ليدفعني أماما

لا شيء يكسرنا

ومن أدمى جبين الله، يابن الله، سماه، وأنزله كتابًا أو غمام

نحتل مئذنة ونعلن في القبائل أن يثرب أجّرت قرآنها ليهود خيبر

الله أكبر

هذه آياتنا، فاقرأ

باسم الفدائي الذي خلقا.. من حزمه أفقا

ونجد تشكيلاً بين الاتجاه الوطني والحزبي عن الشاعر، ففي أبياته أبعاد قومية وإنسانية تتشكل حتى تصل إلى بؤرة الهدف، يقول:

سقط القناع

عرب أطاعوا روحهم

عرب وباعوا روحهم

عرب.. وضاعوا

سقط القناع

والله غمس باسمك البحري أسبوع الولادة واستراح إلى الأبد

كن أنت كن حتى يكون

لا... لا أحد

يا خالقي في الساعات من عدم تجل

لعل لي ربًا لا أعبده

لولا هذه الدولة اللقيطة لم تكن بيروت ثكلى!

بيروت.. كلا[1]

تدمير المدن والقرى في الجنوب، وسقوط بيروت بعد رحيل المقاومة عنها، جعل الشاعر يخرج عن طوره في هذه القصيدة التي تصب جام غضبها على الأمة العربية شعوبًا وحكامًا، يقول:

يا أهل لبنان الوداعا

شكرًا لكل شجيرة حملت دمي

لتضيء للفقراء عيد الخبز

أو لتضيء للمحتل وجهي كي يرى وجهي

ويرتدي الخداعا

ويتابع درويش أبياته قائلاً أثناء خروج المقاومة من بيروت إلى مستقبل غامض مبهم، محفوف بالمخاطر:

لست آدم كي أقول خرجت من بيروت منتصرًا على الدنيا

ومنهزمًا أمام الله

أنت المسألة

الأرض إعلان جدران هذا الكون.. حبة سمسم، فتلاك[2]

محمود درويش ومعين بسيسو في قصيدة مشتركة «من وسط الحصار – رسالة إلى جندي إسرائيلي»[3] يظهر عند الشاعرين في هذه القصيدة البُعد الوطني، والإنساني بالإضافة إلى مقاطع تدلل على انتمائهما الحزبي

حصارنا طويل

البحر من ورائنا

---

(١) محمود درويش، مديح الظل العالي، مصدر سابق، ص٣٩.

(٢) محمود درويش، مديح الظل العالي، ص ١١.

(٣) نقلاً عن: د. إبراهيم الوحش: مأساة بيروت، ص ٦٤٩.

وأنت من دمائنا

حصارنا طويل

أجسادنا خنادق

ودمنا حرائق

ومن فم البنادق

ترجّل الخالق

وألف الجبل

حصارنا طويل

الاسم في الخاتم

والله في آدم

سيولد العالم

من جرحنا القنديل

حصارنا طويل.

وسميح القاسم الذي ينتمي إلى المعسكر الشرقي الذي ينتمي إليه محمود درويش، يقول في «القصيدة المفخخة»[1]، ولاحظ دلالة القسم:

أقسم بالماء والنار والخبز

لن يفلت المجرمون السكارى بدمعي

وأقسم لن يذبل الورد.. لن تهمل الأضرحه

وأقسم بالنصل والمذبحه

ولنقرأ - مثلاً - قصيدته «سربية الصحراء»، ولنفاجأ بقوله:[2]

على سنة الله، واللات، والأنبياء

---

(١) سميح القاسم، شخص غير مرغوب فيه، مصدر سابق، ص١٧.

(٢) سميح القاسم، في سربية الصحراء، دار الجليل للنشر - عمان، ط١، ١٩٨٥م، ص ٧ - ١٩ - ٣١.

تدب العقارب

تتفجر الصرخات الرهيبة

«زلزلت الأرض زلزالها»

«ساعة الصفر»

تكتشف الروح أهوالها.

خاصرتي أثخنتها البروق

فمن؟ جرس الله والخلق

تشرخه الصوات المملة

بين هشيم الغروب

وبين سديم الشروق

صحراء!

يا أم طفلي، وأمي

أصلي، وأكفر باسمك

وأملأ جسمي بجسمك

أجاهر روحك.. أجاهر آياتك المهملة

تبعت الرسول، ومن أرسله

ويزداد هذا الاتجاه - التجرؤ اللفظي غير اللائق - ظهورًا عند سميح القاسم..

اشتقت والله

واشتقت واللات

لا تخذليني

جنوني تباركه

حكمتي.. فلا تنقضي حكمتي بالجنون

ولا تقتليني!

«بلال» من الدم والنور

قام يؤذن في قمة الموت

من أشعل النار في سدرة المنتهى

«فزلزلت الأرض زلزالها؟»

هذا رسول جديد

يحطم أصنامك العاتيه

وهذا «بلال» جديد

يؤذن من قمة الهاويه..[1]

أما عصام ترشحاني في قصيدة «سلامًا لأمي» فيبرز الاتجاه القومي، ويخرج على الدين أحيانًا...

سيخلق هذا الجليلي

من لحمه،

قبضة الله

ودبابة الدم

بخلق هذا الجليل

أزهاره القاذفة..[2]

ويقول أيضًا في قصيدة «مغنّي الوطن»[3]

إنها القبرّه

أو مغنّي الوطن

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٠٢ - ١٠٧ - ١٠٩.

(٢) عصام ترشحاني، حرب السنبلة - دمشق، ١٩٨٤م، ص ٨.

(٣) عصام ترشحاني، يوميات الوردة المحاصرة، مصدر سابق، ص ٢٦.

يحمل الله تابوته..

وردة.. فوق جرح القصائد والذاكره.

كما يمثل هذا الاتجاه الشاعر ماجد الشيخ في قوله من قصيدة «لماذا الرحيل»:

إلا دمه ويداها

والقيد

جاءته الحرب

جاءت بيروت

جاء صراخ الله كان يهيئ قداسًا

وتراتيل تليق بيوم عابر[1]

ولست أدري ماذا أراد الشاعر بصراخ الله، ولكنها نحسبها ضلالة حزبية وحزلقة لغوية لا مبرر لها، ومنه أيضًا قول محمد أحمد القابسي، في قصيدته «اعتذار إلى أبي ذر الغفاري»:

آه «أبا ذر»

لو كنتُ أحمل غير الحروف، والغربة

لو كنتُ شباكًا في غير الأزمنة الصعبه

لو كنتُ أُخرجُ الحي من الميت

لو كنتُ أنبوب نفط في صحراء سيناء

أو أسطولاً ثامنًا في البحر الميت

لما اكتفيت بالملح أشربه

لما اكتفيت بالجرح أحرثه

لما كتبت أشعار الغلبه

ولما حملتُ الله في قلبي «أمما متحده»

---

(١) ماجد الشيخ، أجراس المتاريس، مصدر سابق.

لمَّا سُرِق الله من أراضينا!!![1]

يبدو الشاعر في سطره الأخير جريئًا على الله سبحانه وتعالى، ولست أدري لها ضرورة فنية، إنما أراها إقحامًا للذات العلية، غير مبرر!!

وبوضوح تام تجد هذا الاتجاه، منسجمًا مع أحمد مطر الذي يكثر من استخدام آيات القرآن الكريم في شعره بصورة غير سليمة فيها اعتداء على كتاب الله – أحيانًا –، ففي قصيدة له بعنوان «فبأي آلاء الشعوب تكذبان»[2] يقول:

غفت الحرائق

أسبلت أجفانها سحب الدخان

الكل فان

لم يبق إلا وجه «ربك» ذي الجلالة واللجان

وله الجوار الثائرات بكل خان

ولك القيان

وله الإذاعة

فبأي آلاء الولادة تكذبان

لاحظ مجاراة السطور الشعرية لآيات من سورة الرحمن، وتجد ذلك أيضًا في قصيدته «كلمات فوق الخرائب» وغيرها.

والاتجاه الطائفي يظهر بوضوح تام في قصيدة «السمفونية الجنوبية الخامسة» للشاعر نزار قباني، حيث تتدرج أبيات الشاعر كلها تحت تمجيد الشيعة في جنوب لبنان، واستخدم أسماء متداولة عند الشيعة مثل فاطمة، المهدي، كربلاء، الحسين، الولي، الإمام، السواد... إلخ، ولم يذكر الشاعر غيرهم ممن يقاتلون اليهود، ونحن لا ننكر على الأخوة الشيعة تمسكهم بالجهاد والنضال، لكن ننكر إغفال دور الطوائف الأخرى في النضال، سواء كانت هذه الطوائف مسلمة/ سنية، أو حتى مسيحية، فالهم العربي هم واحد مشترك والمصيبة عامة.

---

(١) محمد أحمد القابسي، البحر في كأس، مصدر سابق، ص٨٩.

(٢) أحمد مطر، لافتات، الكويت، مصدر سابق، ص ١٥١.

سميتك الجنوب

يا أيها «الولي»، و«المهدي»، و«الإمام»

يا من يصلي الفجر في حقل من الألغام

لا تنتظر من عرب اليوم سوى الكلام

من بحر صيدا يبدأ السؤال

من بحرها يخرج «آل البيت» كل ليلة

كأنهم أشجار برتقال[1]

وأما الشاعر مظفر النواب، فهو مغدق في الإسفاف، والتثوير الجنسي وهو حزبي لا ديني، يعاقر الخمرة صباح مساء.. ويتلذذ بها وبأجساد النساء، يقول في قصيدة له بعنوان «وما هم.. ولكنه العشق»[2]:

بنا قد سكر الدهر

وقطرناه في كأس الليالي

عرقا

ثمل الله بنا(!!)

ولست أدري كيف يثمل الله تعالى بنا؟! وما ضرورة هذه الجملة وما فائدتها في بنية القصيدة؟!

وله قصيدة «قصيدة عن بيروت» ملأى بهذه البذاءات الرديئة، نعفُّ عن ذكرها، ومن تلك أيضًا قوله في قصيدة «تل الزعتر»:

جمد الأطفال

وقد ذهب البؤس بكل ملامحهم

وقف الله مع الأطفال الوسخين

---

(١) نزار قباني، مجلة كل العرب، لندن ص ٣.

(٢) مظفر النواب: الأعمال الشعرية الكاملة - لندن، مصدر سابق، ص ٥٠٤.

فعاصمة الفقراء لقد سقطت[1]

وفي نفس القصيدة يقول:

تراب العالم أعلن عن وحشته

لم يكف الحقد

سمعنا الصلية ثانية

نال الله من الأرض

وأمعاء الأطفال على كفيه الضارعتين

بكى في الليل بكاء خشناً، وتوسل بالناس

يعودون إلى تل الزعتر

ثم يقول:

يارب كفى خجلا

....

ولنا أن نقول: إذا كان الشاعر حرًا في اختيار أفكاره وصوره ومعانيه وألفاظه، فهذه الأشياء نبت أحاسيسه ومشاعره وانفعاله، فإن ذلك لا يخرجه عن الضابط الأخلاقي والديني، خاصة أن خروج الألفاظ غير اللائق ليس له مبرر فني، ولا أثر له بالقصيدة فنيًا. وعلى الشاعر أن ينأى عن إقحام الذات العلية في قصيده، خاصة أنه يدخلها في دائرة البشرية، وما يحيطها من اقتراف الآثام!!

ومن خلال ما سبق نجد أن الشعراء - جميعًا - تغنوا ببطولات المقاومة في لبنان، وقد ورد شعرهم معالجًا لكثير من القضايا المهمة، وقد اشتمل على أبعاد إسلامية، وإنسانية، واجتماعية، وحزبية، كل يحاول التعبير عن مشاعره وأحاسيسه تجاه مأساة العرب.

* * *

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٦٨.

الفصل الثاني

استلهام التراث في شعر المأساة، وبعض الظواهر الفنية فيه

التراث بكافة أنماطه، يُعد أكثر المصادر قيمة وصعوبة ومكانة في آن واحد، فهو يشكل لدى الكاتب استلهامه وتوظيفه، ولدى الناقد رصده وتحليله، ويُعد بُعدًا جماليًا وآخر فكريًا لا تقل قيمة عن وجوده في الواقع الحياتي، وتزداد قيمة التراث في العمل الفني إيجابية كلما كان للكاتب نظرة ثاقبة متميزة تجاه التراث، ولديه القدرة على السيطرة عليه كأداة فنية موظَّفة، ذلك أن التشكيل بالتراث يتطلب وعيًا به، وفهمًا أعمق لما يحتويه من لحظات تتوهج بالتجربة، ومن معان يلتقي عندها إحساس الفنان في فجرها بمعطيات عصره، لتعود هذه المعاني إلى الواقع، عودة جديدة لا تنفصل عن الموروث الذي تشكلت به، ولا تكرره بمستوى يعيد نفسه، والملاحظ أن الشاعر المعاصر مهموم بتراثه، وعلى علاقة وطيدة بهذا التراث، وهي علاقة استيعاب وتفهم وإدراك واع للمعنى الإنساني والتاريخي للتراث، وليست بحال من الأحوال علاقة تأثر صرف[1].

فالشاعر الحقّ إذن هو القادر على إعادة العالم الميت بالنسبة لنا إلى الحياة أو يعيدنا نحن – الأموات – إلى الحياة، فهو يمنحنا رؤية جديدة وإحساسًا جديدًا بهذا العالم المعاصر بما فيه من أحداث جسام، وهو ما أشار إليه إليوت بقوله: «إن الشعر يجعل الناس يرون العالم»[2].

فالتاريخ بأحداثه وحضاراته خير قالب نصوغ فيه تجاربنا الإبداعية، ويشكل في الوقت نفسه معينًا خصبًا لكثير من الرموز الدالة الموحية.

فلو وعى المسلمون درس الأندلس، ما تكررت ثانية فلسطين، ولو وعوا درس الأقصى ما تكررت مأساة بيروت ومن بعدها بغداد، والبقية تأتي إلا أن نستيقظ من سباتنا، ونعي التاريخ جيدًا، ونجعله في جنباتنا أينما توجهنا.

وإذا كان الشاعر المعاصر معايشًا لبيئته، معاصرًا لأحداثها، فإنه لا محالة أن يتأثر

---

(١) انظر: عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، المكتبة الأكاديمية – القاهرة، ١٩٩٤م، ط٥، ص١٧٤.

(٢) نقلاً عن محمود الربيعي، في نقد الشعر، ط. دار غريب – القاهرة، ١٩٦٨م، ط١، ص١٦٤.

بتراثها يستمد منه زينته المضيء، ويحيك منه ثوبه الذي طالما تزين به. ولذا يمكننا دراسة استلهام التراث في شعر مأساة لبنان خلال عدة محاور، أهمها:

١ – الموروث الديني، والأدبي.

٢ – استلهام التاريخ السياسي الحديث.

٣ – الأسطورة.

أولاً - الموروث الديني :

لا شك في أن الموروث الديني أحد الركائز الرئيسة في بنية النص الشعري المعاصر، فهو يمثل إضاءة للنص، ومنه تخرج دلالات وإيحاءات تثري الناحية الإبداعية بفنيتها، إضافة إلى الإسهامات الدلالية التي توضح مشاعر المبدع وأحاسيسه.

والمتأمل لشعر مأساة لبنان يجد أن الموروث الديني يطغى على ما عداه من استلهامات تراثية في بناء القصيدة، وربما كان ذلك لتعدد أشكاله، أو ربما كانت المأساة تتخذ أشكالاً دينية، وربما أوحت المأساة بإسقاطات دينية.... إلخ.

ويمكننا أن نتناول هذا الموروث في أشكال مختلفة نذكر منها:

(أ) استلهام التراث الديني اليهودي :

لا شك في أن الدمار الذي حل بلبنان يهودي المنشأ والمصدر والآلة، لذا راح الشعراء العرب يفتشون في التراث اليهودي، علّه يهدئ روعهم، فإذا به – التراث – يمدهم بقصص وحكايات توضّح الخسّة والنذالة، وأن عدم الأمان واحترام المواثيق جبلّة في طبعهم – اليهود – منذ القدم، فهذا الشاعر يوسف طافش يقول في قصيدته «قراءة في سفر يوسف الكنعاني»[1]:

يا درب الله أغيثي «يوسف»

إن دروب الدنيا تسكنه

هربًا من أعين إخوته

اليوم تناوشه

(١) يوسف طافش، تراتيل الرماد، دار الجليل للطباعة – دمشق، ط١، ١٩٨٥م، ص٦٩.

والعقرب يصئ.. في بردته

فإلام يظل طويد الليل الحاقد

يشرد في الأسفار

القرية زانية

منذ مئات الأعوام

تضاجع جند الرب

وتخفي صورتها..

في سفر «أشعيا»

القرية طاغية

«ويهوذا» الأسخريوطي[1]

يبارك أبناء عمومته

عبثًا هذا الكنعاني

يفتش عن لغة خذلته

وعن صحراء بلون قصائده

الشاعر في المقطع السابق، وغيره - على امتداد القصيدة - التقط قصة يوسف الصديق مع إخوته، وكيف أنهم خانوا وعودهم مع أبيهم، وكيف أنهم لا رحمة لديهم حتى مع أخيهم، فالقهر يطارد يوسف - ولا ذنب له - تمامًا كما طارد أجدادهم يوسف، فها هم يطاردون يوسف آخر، إنه يوسف (العربي). كما التقط الشاعر شخصية «يهوذا الأسخريوطي»، ذلك اللص السارق الطامع في الملك، رمز الخيانة، والنذالة ليسقطه

(١) يهوذا الأسخريوطي بن سمعان الإسخريوطي (يو ٦: ٧١)، التلميذ الذي خان سيده، ولقِّب بالإسخريوطي تمييزًا له عن «يهوذا» الآخر أحد الإثنى عشر (لو ٦: ١٦، يو ١٤: ٢٢)، والإسخريوطي هو التلميذ الوحيد بين التلاميذ الذي لم يكن جليليا، وأصبح اسمه تعبيرًا للخيانة، خصه المسيح ليكون أمينًا للصندوق ولكنه صار سارقه، انظر: قاموس الكتاب المقدس - بطرس عبد الملك وآخرين، دار الثقافة - القاهرة، ط١٠، ١٩٩٥م، ص ١٠٨٩ وما بعدها.

على حفدته، وإذا كان الشاعر يوسف طافش في القصيدة السابقة استوحى قصة يوسف عليه السلام، والأسخريوطي، فإن ممدوح عدوان يتوقف عند قصة يوسف، وهي قصة مشتركة بين التراثين الإسلامي واليهودي، فيقول في قصيدته «هكذا تكلم التل»:

أمي تعلمني

....

واستغاثات الطفولة

ثم صمت الزعتر العربي

وهو محاصر بالماء – يبتلع الروائح

علمتني ألف مجزرة

بأيدي الأهل والأعداء

أنى يوسف العربي

دلاني الإخاء ببئر غدر

أوصلتني للمنافي والنخاسة والسجون[1]

فاللقطة واحدة، يوسف غدر به إخوته، تمامًا كما غدر بي أهلي وإخوتي بتل الزعتر.

أما الشاعر محمود علي السعيد، فيلتقط من صلب المسيح صورة له ولأهله، فهم الذين يتحملون خطايا أبناء الأمة العربية الصامتة، هم المصلوبون على جدار الأحزان فيقول في قصيدة «أعصاب الأسئلة الصعبة»:

آه يا وطني

وأنا المصلوب على جذع الأحزان

الغارق في الديجور

أصرخ في الريح الغداره

يا قانون العدل المنقوش

---

(١) ممدوح عدوان، أمي تطارد قاتلها، مصدر سابق، ص ٨٢.

على وجه الأشياء

........................(١)

هكذا أصبح الشعراء يستوحون التراث اليهودي ليضيء جنبات النص الشعري ويكشف دلالته تاركًا وراءه هوامش دلالية ولقطات فنية تثري النص، ويمكن قراءة هذا التراث في كثير من أشعار محمود درويش، وسميح القاسم، ومعين بسيسو، وعز الدين المناصرة وغيرهم.

(ب) استلهام التراث الإسلامي:

هناك مجموعة من العوامل الثقافية والفنية وراء شيوع ظاهرة استلهام التراث في الشعر العربي المعاصر، وهذه العوامل من التشابك والترابط بحيث يصعب الفصل الحاسم بينها، ووضع حدود دقيقة لمنطقة تأثير كل منها، وهذه العوامل تتبادل فيما بينها سياسة التأثير والتأثر، من هذه العوامل: **العامل الفني**، ويتمثل في إحساس الشاعر المعاصر بمدى غنى التراث وثرائه بالإمكانات الفنية وبالنماذج التي تستطيع أن تمنح القصيدة المعاصرة طاقات تعبيرية لا حدود لها فيما لو وصلت أسبابها بها، ولقد أدرك الشاعر المعاصر أنه بهذا قد وصل تجربته بمعين لا ينضب من القدرة على الإيحاء والتأثير، وذلك لأن المعطيات التراثية تكتسب لونًا من القداسة في نفوس الأمة ونوعًا من اللصوق بوجدانها، لما لهذا التراث من حضور دائم في وجدان الأمة.. كما أن الشاعر المعاصر أراد أن يضفي على تجربته نوعًا من الموضوعية والدرامية على عاطفته الغنائية، وبذلك تنتقل القصيدة من الذاتية البسيطة إلى أبعاد إنسانية أرحب وأكثر تعقيدًا وتشابكًا، وعلى هذا «فالتراث ليس حركة جامدة ولكنه حياة متجددة، والماضي لا يحيا إلا في الحاضر، وكل قصيدة لا تستطيع أن تمد عمرها إلى المستقبل لا تستحق أن تكون تراثًا، ولكل شاعر أن يتخير تراثه الخاص»[٢].

وإن الميزة الحقيقية للأدب المتحضر أنه تراث ممتد يستفيد لاحقه من سابقه، ويقنع كل فنان بإضافة جزء صغير إلى الخبرة التي سبقته[٣].

(١) محمود علي السعيد، لا سلامًا أيتها الزرقة المسلحة بالبحر، اتحاد الكتاب العرب – دمشق، ١٩٨٢م، ص٣١.

(٢) صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، دار العودة – بيروت، ١٩٦٩م، ص١١٣.

(٣) المصدر نفسه: ٧٩.

وهناك عامل قومي يبعث على استلهام التراث، فحينما تتعرض أمة من الأمم لخطر داهم يهدد كيانها القومي فإنها لا تلبث أن ترتد تلقائيًا بحركة رد فعل إلى جذورها القومية لتؤكد كيانها في مواجهة هذا الخطر، ويمثل التراث واحدًا من تلك الجذور القوية التي ترتكز عليها كل أمة في مواجهة أي ريح تحاول أن تعصف بوجودها القومي.

وإذا كان تراث كل أمة يعدُّ مصدرًا من مصادر إلهام شعرائها، إضافة إلى مصادر تراثية أخرى - فإننا نجد المصدر الإسلامي طاغيًا على القصائد المعاصرة، لاسيما قصائد مأساة لبنان، ويمكننا أن ندرس هذا المصدر وفق ثلاثة محاور:

(١) التاريخ العربي عامة.

(٢) التاريخ الإسلامي خاصة.

(٣) النص القرآني.

(أ) استلهام التاريخ العربي عامة:

عندما يوظف الشاعر إحدى الشخصيات التراثية داخل بنية قصيدته الحديثة محاولاً التوفيق بينها وبين واقعه المعاصر الي يريد التعبير عنه، فإنه في حقيقة الأمر يحاول التوفيق بين نوعين مختلفين من الخطاب «الخطاب التاريخي»، و«الخطاب الشعري».

وينتج عن هذا، اختلاف في الخصائص الفنية لكل من البناءين، فالخطاب التاريخي محايد، ظاهري، في مقابل الخطاب الشعري الذاتي، يتدخل فيه الشاعر، فيعيّن موقفه الشخصي تجاه هذا التاريخ(١).

وكل شاعر ينتخب من الحوادث التاريخية ما يراه مناسبًا ودالاً لقصيدته وفق إحساسه ورؤيته للأحداث.

«فالزباء» ملكة «تدمر» التي أرسل إليها عدوها، «عمرو» جاسوسًا يخبرها بأنه سوف يأتيها مسترضيًا ومحملاً بالهدايا، فلما بدت قافلة «عمرو» في الأفق البعيد كثيرة الجمال، بطيئة الحركة، ارتابت «الزباء» في أمر هذه المصالحة، وتساءلت:

ما للجمال مشيها وئيدا؟ أجندلاً يحملن أم حديدا

---

(١) محمد مفتاح، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ١٩٨٥م، ص٢٦٣.

فبرّر لها الجاسوس تثاقل الجمال بكثرة الهدايا وارتفاع قيمتها، وحين وصلت القافلة تيقّنت «الزباء» من صحة نبوءتها، حيث خرج من داخل الصناديق مجموعة ضخمة من الجنود المسلحين، وعندئذ أجابها «عمرو» قائلاً:

«بل الرجال قبضا قعوداً»، فأبت «الزباء» مهانة الهزيمة، وقتلت نفسها طعناً، وهي تقول: «بيدي لا بيد عمرو»، والمحاور الدلالية المستخلصة من هذه القصة:

(أ) أنها متنبئة.

(ب) أنها رفضت العار والمهانة، وفضّلت عليهما الموت، إذ قتلت نفسها.

هذا وقد استدعى الشاعر محمد القيسي شخصية «الزباء» في قصيدته الموسومة بـ«وصول الزباء»، فيقول:

أيتها «الزباء»

من أين أتيت إلى

من أي جنوب يطلع وجهك بكلام الوحي

رمحا

وسراجا وهاجا

ودماء

أيتها «الزباء»

في شارعنا العربي تجولت طويلا

كنت تفرين إلى سفح

لا تصلك أضواء المدن المزدانة برماد الأشياء

وأناديك فلا تسمع بيروت

وأناديك فلا أجد هنا بيروت

من كان يموت

من كان يموت

أيتها الشجرة والشباك

من أين أتتك الأشواك

وأتيت إلى..

أيتها الزيباء..!!(1)

فكما حذّرت الزباء قومها وأنكروا عليها ذلك، تمامًا يتفق مع موقف الشعراء المحذرين لقومهم من تفرقهم، وتمامًا كما أنكروا عليها ولم تجد آذانًا صاغية لندائها، هو الموقف نفسه، فلم يسمع الحكام العرب لنداءات الوحدة العربية والتحذيرات المستمرة، ترى هل تصل النتيجة للأمة العربية كما وصلت إليها «الزباء»/ وهي الموت والفناء!!

ومن استلهام التراث العربي أيضًا قول سميح القاسم، مستلهمًا قصة الحب، بين قيس وليلى، ذلك الفتى العربي الذي استبد به الهوى، فراح يهيم على وجهه في الصحارى متحديًا الأعراف والتقاليد في سبيل محبوبته، فترى القاسم يتخذ منها مصدرًا خصبًا لقصيدته، فالفتى العربي هو نفسه (قيس)، ولكن (ليلى) هي الوطن المسلوب، الذي ينبغي أن يُضحي من أجله، ويبقى محفورًا في قلوبنا، فيقول:

تلك ليلاك

على أرصفة العار

بغي تتطوح

وعلى أذرع البحارة الأغراب

تنشال وتطرح

تلك ليلاك

دم في غرف التحقيق يرشح

وصراخ حيواني

بوحل الذل ينضح

(1) محمد القيسي، كم يلزم من موت لنكون معًا، اتحاد الكتاب العرب - دمشق، ١٩٨٤م، ص٤٧.

تلك ليلاك

فهل تتكرها يابن الملوح؟[1]

ويمكتنا أن نرصد ذلك الملمح (التراث العربي) في الكثير من القصائد نذكر على سبيل المثال، قصائد محيي الدين عبد الوهاب «تل الزعتر»، وفاروق جويدة في كثير من قصائده، وحسن فتح الباب في قصيدته «قانا»، وكذلك في أشعار أحمد مطر، ومظفر النواب، ونزار القباني.... وغيرهما.

(٢) استلهام التاريخ الإسلامي:

يمثل التاريخ الإسلامي مصدرًا مهمًا من مصادر الصورة لدى شعرائنا، وذلك لثراء أحداثه، سواء كان على المستوى النضالي وما يتصف به من فروسية وشجاعة أو حتى على المستوى المأساوي، وما أحاط المسلمين من ظلم - أحيانًا - على أيدي بعض الولاة أو بعض الغزاة، من ذلك - مثلاً - قول هارون هاشم رشيد في قصيدته «عرض تليفزيوني لأطفال فلسطين»، وبعد أن عرض الشاعر مأساة الفلسطينيين في وطنهم الأم وفي لبنان، وربط بين مذابح «دير ياسين»، و«صبرا»، و«شاتيلا»، نراه يقول:

من رأى الأطفال

في الشمس

عرايا في الدروب

من رآها «كربلاء»

مرة أخرى

«بصيدا»، و«الجنوب»

من رأى جيش «هولاكو»

بالعصابات يؤوب

من رأى الأطفال

(١) سميح القاسم، جريدة البيان، عدد (٧٨٢)، ٩ يوليو ١٩٨٣م - دبي، نقلاً عن الرأي الأردنية ٢٤/ ٦/ ١٩٨٢م.

يغتالون

في وقت الحروب[1]

الشاعر يستلهم حدثين من أحداث تاريخنا الإسلامي هما «كربلاء»، و«غزو هولاكو» للعالم الإسلامي، فالأول يمثل العداء العربي/ العربي، يمثل القضاء على مواطن النور والنجاة المتمثلة في الإمام «الحسين»، أو يمثل اغتيال البراءة والتمثيل بها، وهو تمامًا ما حدث لأطفال صبرا، وشاتيلا، فالموقفين يتشابهان إلى حدٍّ كبير، فالسيف العربي في مواجهة سيف عربي آخر!

أما الحدث الآخر «غزو هولاكو»، فهو يمثل الضعف العربي الذي لا يحرك ساكنًا، ولا يوقظ وسنانًا، وهو أيضًا ما يحدث على أيامنا، وعلى هذا أيضًا يتشابه الموقفان من حيث الضعف والخنوع العربي الذليل، في مواجهة جبروت غاصب!

ويمكننا أيضًا ملاحظة استلهام التاريخ الإسلامي، وذلك من قول الشاعر أحمد بويس، في قوله:

إني لأقرأ فيك يا بيروت

تاريخًا بعيدا

أبكيك يا بيروت

هل يجدي البكاء

ما أنت أول مذبحة

تاريخنا قتل.. وتلكم «كربلاء»

ثم يتابع الشاعر قصيدته، وحواره مع بيروت، فيقول:

«عائشة»...

أنيخي بعيرك

ما عاد يجدي المسير

فكل الدروب سراب

(١) مجلة الخليج الثقافي، ملحق العدد (١٢١٨) – الشارقة، ٩/ ٨/ ١٩٨٢م.

وكل البلاد.. اغتراب

وكل الدماء.. شواب(١)

الشاعر يلتقط حدثين من أحداث تاريخنا الإسلامي، هما: «مذبحة كربلاء»، و«موقعة الجمل»، وفي الموقفين نرى التناحر العربي/ العربي، نرى القاتل والقتيل وكلاهما ينطق بالضاد وترجع أصوله إلى شجرة عربية كنا نظنها باسقة!!

وانظر أيضًا هذا الاستلهام التاريخي لدى الشاعر نفسه في قصيدته «لا عشت من نقطكم»، وكذلك انظر قصيدة «إلى بيروت الأنثى» لنزار قباني، وقصيدة «متى يفيق النائمون»، «يا زمان الحزن في بيروت»، و«بعض العشق يكون الموت» لفاروق جويدة، وكذلك قصيدة «لا جرح إلا الوطن»، و«بيروت» للشاعر هشام محمود... وغيرها.

(٣) استلهام النص القرآني :

لقد تعددت آراء البلاغيين القدامى والمحدثين في وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ربما كان أكثرها وجاهة من الناحية الأدبية هي تلك التي وقفت على خصائص الأسلوب القرآني الفريد في علاقاته اللغوية وطريقة نظمه(٢)، وأسلوب التصوير الفني فيه.

وإن أول ما يلفت حس المتلقي للغة القرآنية هو جمال جرسها ووقعها في السمع وانسيابها إلى الوجدان من خلال هذا الظل الذي يوحي به اللفظ، فيرسم معناه في المخيلة، حتى ولو لم يكن المتلقي على علم بمعنى المفردة القرآنية مسبقًا، إن جسم وشكل هذه المفردة يقربه من جو الدلالة المرادة. يقول ابن الأثير: «فاعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج».

انظر – مثلاً – إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ (التوبة: ٣٨)، فإذا تأملت لفظة ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ وجدت حروفها قد صيغت

---

(١) أحمد بويس، مواسم الزيف، مصدر سابق، ص ١٦.

(٢) انظر: ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، القسم الأول، ص ٢٥٢، وانظر كذلك: نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، في كتابه «دلائل الإعجاز».

بتناسق يجسّد معناها، فهذه (الثاء) المشدّدة الثقيلة الممدودة، وهذه القاف المقلقلة، بالإضافة إلى حرف اللام، والميم اللذين يساهمان في رسم صورة للإنسان الملتصق بالأرض، ولا يكاد يريم عنها.....

إن اللفظة القرآنية في أغلب الأحيان مصوِّرة ناطقة بمعناها، موحية به، وهو ما التفت إليه اللغويون القدامى كابن جني، فقالوا بالصلة القائمة بين اللفظ ومعناه.

والمعروف أن العرب حين نظروا إلى القرآن، أدهشهم ما فيه من إيقاع جميل، وتنغيم ساحر ينفذ إلى القلوب ويأخذ بالوجدان، ونظرًا إلى ما كانوا يتمتعون به من حسٍّ فطري، وروح بدوية طروبة، راحوا يصفون هذا القرآن على أنه شعر، وإن صاحبه شاعر أو ساحر، وهم يعلمون تمامًا أنه ليس بشاعر، وإنه ما علم الشعر، ولا قاله، ولكن الذي دعاهم إلى ذلك هذه الخصائص الموسيقية والتصويرية التي يشترك فيها الشعر مع القرآن الكريم.

والحقُّ أن هذه الصلة لا تعني أن للقرآن الكريم أوزنًا كأوزان الشعر، أو ما شابه ذلك، بل هو نثر فني معجز في رسم كلماته على هيئة توحي بدلالته، وتنغيم يسهم في إبراز معناه، لهذه الأشياء وجدنا الشعراء - قديمًا وحديثًا - يقتربون من هذا النص الإلهي المعجز، يقتبسون منه ألفاظًا وعبارات، ويستقون منه صورًا ودلالات، علَّهم بذلك يضمنون نجاح عملهم الإبداعي.

وإذا كانت المآسي والمحن - أحيانًا - تعمِّق الإحساس الديني لدى المبدع، فيقترب من عالم الروح والصفاء ويلوذ بالإيمان الإلهي من مكائد البشر - وما أكثرها - فإن ذلك ما جعل بعض الشعراء يضمِّنون أشعارهم بعضًا من الآيات القرآنية الكريمة، فضلاً عن أن تلك الآيات المضمَّنة توحي بالدلالة وتصور المعنى المراد تصويره بدقة متناهية - كما أشرنا - من ذلك - مثلاً - يقول الشاعر جابر الحاج في قصيدته «شهداء صبرا وشاتيلا»:

فرضوا الحصار وجاء أوغاد لهم ... صبوا قذائفهم «كسيل منهمر»
لم يرحموا كهلاً ينوء بضعفه ... أو يتركوا طفلاً رضيعًا من صغر
لم يشهد الثقلان مثل فجورهم ... قتلوا الجميع فما لنفس من أثر
ألفا قتيل مثلت أجسادهم ... «فكأنهم أعجاز نخل منقعر»

ذهبوا إلى الرحمن وفدًا مسلمًا	يشكون أمريكا «لرب مقتدر»
هذا البلاء قد استباح بلادنا	حين افترقنا في شقاق مستمر
آن الأوان لكي نثوب لرشدنا	لنعيد أمجادًا «فهل من مدكر»؟
ونطهر الأرض العزيزة كلها	من بغي سفاح «وكذاب أشر»[1]

لاحظ أن العديد من هذه الأبيات، وغيرها من أبيات القصيدة، تستلهم آيات كثيرة من سورة «القمر»، من ذلك - مثلاً - الآيات رقم (٢٠) ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، أو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (آية: ١٧)، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (آية: ٢٥)..... إلخ هذه الآيات.

ومن استلهام القرآن الكريم - أيضًا - قول محمود درويش:

الله أكبر

هذه آياتنا، فاقرأ

باسم الفدائي الذي خلقا

من حزمه أفقا

باسم الفدائي الذي يرحل

من وقتكم.. لندائه الأول

الأول.. الأول

سندمر الهيكل

باسم الفدائي الذي يبدأ

اقرأ*

بيروت - صورتنا

بيروت - صورتنا[2]

(١) جابر الحاج، محنة الشقيقتين (فلسطين ولبنان) - القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٨٤.

(٢) محمود درويش، مديح الظل العالي، مصدر سابق، ص ٢٧.

المتأمل في السطور الشعرية السابقة يجد أن محمود درويش استمدها واقتبسها من الآيات الكريمة في سورة العلق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ١، ٢)، ويمكننا قراءة السطور على هذا النحو:

اقرأ باسم ربك   اقرأ باسم الفدائي

وإذا كان الفدائي، وهو المستشهد في سبيل الله، إذًا هو منفذ للأمر الإلهي، وعلى هذا، فالقراءة ليست للفدائي تحديدًا إنما للأوامر الإلهية التي نفذها الشهيد/ الفدائي، وهو في تنفيذها يتسق مع الآية دلاليًا ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾.

ومن استلهام النص القرآني أيضًا قول أحمد مطر:

وعبد الذات

لم يُرجع لنا من أرضنا شبرا

ولم يضمن لقتلانا بها قبرا

ولم يُلق العدى في البحر

بل ألقى دمانا، وامتطى البحرا

«فسبحان الذي أسرى»

بعبد الذات

من صبرا إلى مصرا

وما أسرى به للضفة الأ

خرى![1]

يلاحظ تناص بعض السطور مع الآية الكريمة من سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا...﴾ (الإسراء: ١).

وللشاعر – أيضًا – قصيدة «كلمات فوق الخرائب» يقول فيها:

قفوا حول بيروت

---

(١) أحمد مطر، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص٢٥٢.

صلوا على روحها واندبوها

....

ورصوا الصكوك

على النار كي تطفئوها

ولكن خيط الدخان سيصرخ فيكم: «دعوها»

ويكتب فوق الخرائب

«إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها»[1]

لاحظ أن السطر الأخير هو جزء من آية كريمة بسورة النمل.

فالشاعر يسخر من حكامنا العرب وما يفعلوه تجاه قضايا الأمة العربية، فلم يجد إلا تلك الآية التي تصوِّر بدقة هؤلاء الحكام!!

وإذا كان النص القرآني واضح جلي في النماذج السابقة، فإن شعراءنا أحيانًا يضمنون معنى الآية وليس نصها، من ذلك - مثلاً - قول عبد البديع عراق في قصيدته «شهيد من صبرا يتحدث.. لست القتيل»، يقول فيها:

اسألوا كل الجرائد

والمنابر

والدفوف

ستقول:

إنني لست القتيل

فاسمعوها:

إن قتلي مستحيل

أنا حيٌّ

إنني ضد الفناء

---

(١) المصدر نفسه: ص ٥٩١.

....

فاسمعوها: وابعدوا الأوهام عنكم

إنني لست القتيل

إنما المقتول أنتم[1]

السطور الشعرية السابقة مضمَّنة من الآية الكريمة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

ويمكننا ملاحظة استلهام القرآن الكريم في كثير من القصائد لحسن الأمراني، وعبد الولي الشميري، يوسف العظم، وفاروق جويدة، ونزار قباني... وغيرهم.

استلهام الموروث الأدبي :

لا شك في أن العملية الإبداعية متصلة بالقديم، فالنص الحديث هو شبكة متداخلة من نصوص قديمة أضفى شاعرنا المعاصر عليها انفعالاته وأحاسيسه، فجاء النص الحديث مضفَّرًا بمصادر أدبية وتراثية قديمة، فضلاً عما استحدث من أحداث وانفعالات، ويمكننا دراسة نماذج شعرية توضح استلهام الشاعر المعاصر للموروث الأدبي من خلال:

(أ) التضمين بأبيات شعرية قديمة[2].

(ب) المعارضات الشعرية.

(ج) استلهام المثل العربي القديم.

(أ) التضمين بأبيات شعرية قديمة:

الشاعر دائمًا في مرحلة جذب لتراثه الشعري، يستقي منه صوره وألفاظه وموسيقاه، وللشاعر - أيضًا - أن يأخذ من هذا التراث الشعري ما شاء شريطة أن يوظِّفه توظيفًا فنيًا، فيصبح الجزء المأخوذ لُحمة من نصه، تذوب الفوارق بين النصين، أما إذا أقحم الشاعر نصًا لشاعر آخر دون توظيف، فيعد ذلك مسخًا للنص الأول

---

(١) عبد البديع عراق، إبداع الحجر، مصدر سابق، ص ٥١.

(٢) أعني بقديمة: أنها سابقة على الشاعر، وإن كانت معاصرة له.

وإهدارًا لفنيته.. ومأساة لبنان جعلت الشعراء يبحثون في تراثنا الشعري - وهم في ذلك يتشبثون بتراثهم، فهو الملاذ الآمن من كل المآسي والمحن - وهذه الومضات الشعرية تجعل للقصيدة حضورًا دائمًا لدى المتلقي، ومن أمثلة هذه التضمينات، قول الورداني ناصف على لسان عروس الجنوب سناء محيدلي، وهي مخاطبة أمها:

لا تخشى الموت الذي قد ضمني ... فالموت للأحرار عمر ثان[1]

فالشطر الثاني من البيت يذكرنا بقول شوقي:

فالذكر للإنسان عمر ثان

وكذلك قول رشاد يوسف:

يا يوم مولد أحمد علمتنا ... إن الحياة عقيدة وجهاد

فالشطر الثاني من البيت يذكرنا بقول شوقي أيضًا:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدًا ... إن الحياة عقيدة وجهاد

ومن ذلك أيضًا قول أحمد دحبور:

فيا شجر الدامور مالك مورقًا ... كأنك لم تسمع بموت فدائي[2]

يذكرنا بقول ليلى بنت طريف التغلبية ترثي أخاها الوليد، وقد ختم البحتري حماسته بقصيدتها، فتقول:

فيا شجر الخابور مالك مورقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

ومن أصداء هذا الاقتباس قول هشام محمود:

هل تزم الفصول مفاتنها

حين يشتعل الغيم؟

أم تتودد لي وردة

---

(١) الورداني ناصف: همسات الورد، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٢) أحمد دحبور: اختلاط الليل والنهار، دار العودة - بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٤٠.

والدامور: بلدة لبنانية، جنوب بيروت، وقعت بها معارك طاحنة.

أشعلتها المواجيد؟

(عيد بأية حال) تعود[1]

السطر الأخير يذكرنا بقول المتنبي:

عـيـد بأية حـال عـدت يا عـيـد   بما مـضى أم بأمـر فيك تجـديد[2]

ومن ذلك أيضًا قول مانع سعيد العتيبة:

يا أمـتي ظلم القـريب أمـر من   ظلم العـدو، وليس فـيـه عـزاء[3]

وهو من قول طرفة بن العبد:

وظلم ذوي القـربى أشد مـضاضة   على المرء من وقع الحسـام المهند[4]

ومن ذلك - أيضًا - قول محمد شديد مصورًا حالة الذل العربي، فيقول:

خاطبت مولاه.. إمامه

أسد تصول عليَّ، لكن في لقاء عدوك الباغي نعامه[5]

السطر الثاني من قول عمران بن حطان موجهًا كلامه للحجاج:

أسـد علي وفي الحـروب نعـامـة   ربداء تجـفل من صـفـيـر الصـافـر

هـلا برزت إلى غـزالة في الوغى؟   بل كـان قلبك في جناحي طائر[6]

ومن ذلك أيضًا قول وحيد الدهشان:

ولا الذين إذا مـا الشـر ناوشـهم   طاروا إليـه زرافـات ووجـدانا

---

(١) هشام محمود: قصيدة مخطوطة لدي.

(٢) التبيان شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للعكبري: ٢/ ٣٩.

(٣) مانع سعيد العتيبة، محطات على طريق العمر، مصدر سابق، ص ٩٩.

(٤) طرفة بن العبد: دراسة أدبية لشعره وشرح ديوانه، د. علي إبراهيم أبو زيد، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص ١٢٠.

(٥) البيت منقول عن كتاب «مأساة بيروت»، د. إبراهيم الوحش، ص ٣٣٨.

(٦) ديوان الخوارج، جمعه وحقَّقه د. نايف معروف، دار المسيرة - بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص ١١٤.

ملنا إلى السلم نستجديه من فئة لا يعرفون لغير الغدر عنوانا[1]

فالشطر الثاني من البيت الأول مأخوذ بنصه من قول قريط بن أنيف في قومه:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووجدانا[2]

ومن ذلك قول عيسى الباروني:

ولجأت في وادي الذئا ب إلى مغارات النمر

كالمستجير من الهجير أمضه ظمأ وحر[3]

هو مستلهم من قول الشاعر القديم:

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

وكذلك قول عبد الله السالم بن المعلى في قصيدة «يا نجد، يا نجد».

لولا شميم عرار منك ما عبقت ربوع شنقيط من صوب ومن حدب[4]

قد استلهم فيه قول مجنون ليلى:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار[5]

(ب) المعارضات الشعرية:

المعارضة الشعرية هي أن يقول شاعر سابق قصيدة في موضوع ما من أي بحر وقافية فيأتي شاعر لاحق فيعجب بها في منهجها وصياغتها، فيقول قصيدة من بحر الأول وقافيته، وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير أو كثير.

---

(١) وحيد حامد الدهشان: القدس في القلب، شروق للتجارة والتوزيع - المنصورة، ط١، ٢٠٠١م، ص١٨.

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: د. عبد المنعم أحمد صالح، سلسلة الذخائر عدد (٤) الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، ١٩٩٦م، ١/٢٩.

(٣) عيسى الباروني: خلجات إنسان، مصدر سابق، ص ١٨٧.

(٤) جريدة القاهرة (ملحق الجريدة) ٢/ ٤/ ٢٠٠٨م.

(٥) ديوان مجنون ليلى، جمع وترتيب أبي بكر الوالبي، تحقيق جلال الدين الحلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، ١٩٣٩م، ص ٤٧.

والمعارضات تمثل ارتباطًا بالتراث الشعري، والشاعر العظيم هو الذي يظل خاضعًا للتراث دون أن يقع ضحية الاستعباد لجانب منه، إذ يتحول الواقع التراثي إلى جزء من كيان الشاعر، له أن يفيد منه أو أن يزاوج بين تجارب أسلافه ومعاصريه، لتصبح الثقافة لديه عامل إخصاب تزيد من عمق التجربة.

ومن هنا تبرز قضية «المعارضة الشعرية» باعتبارها نموذجًا لدعم فكرة الأصول الحتمية لحركة الأدب، ومحاولة إحياء ذاكرة الأمة من خلال تراثها في عصورها المختلفة مخافة أن يضيع في غياهب النسيان، مع ملاحظة أن «المعارضة» يظهر فيها الاتساق والإعجاب لا الخصومة والعداء، وهو ما يجرنا إلى أوجه التشابه بين التجربتين (التراثية، والمعاصرة) من نواح عدة، كالناحية الشعورية، والنفسية، والدلالية... إلخ، إضافة إلى أوجه الخلاف بين التجربتين، فلكل منهما حقله وبيئته.

ولهذا سعى الشاعر العربي المعاصر جاهدًا لبعث التراث العربي بما فيه من قوة وحضارة وتماسك، ولذا راح يعارض بعض القصائد القديمة، ظنًا منه أنه يحيي هذه القصائد فلعلها توقظ الموتى من أبناء شعبنا العربي، فضلاً عن حكامنا الأكثر موتًا.

من هذه المعارضات قول الشاعر سعد دعبيس:

لا تبك يومًا لأسرانا وقتلانا	بل فابكِ نفسك، واحفر قبرك الآنا
وارقب دماءك تجري لست تبصرها	ولست تدرك أن قد صرت جثمانا
وانظر بقاياك.. للجلاد ضارعةً	ترجوه.. أن يقبل الأشلاء قربانا!![1]

والقصيدة تقع في ثمانية وثلاثين بيتًا، عارض فيها سعد دعبيس الشاعر الجاهلي قريط بن أنيف، وهو يلوم قومه، متحسرًا على حالهم، على الرغم من عددهم الكبير، يقول قريط:

لو كنت من مازن.. لم تستبح إبلي	بنو اللقيطة.. من ذهل بن شيبانا
إذًا لقام بنصري معشر خشن	عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا[2]

الموقف الدلالي واحد في القصيدتين، شاعر يلوم قومه في تقاعسهم عن نجدة

(١) سعد دعبيس، عندما يخضوضر الأطفال قدسًا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ص٨١.

(٢) انظر القصيدة في ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق: د. عبد المنعم صالح، مصدر سابق.

إخوانهم، على الرغم من الزيادة العددية لهؤلاء القوم!!

ومن تلك المعارضات واستلهام التراث الشعري قول عبد المحسن مسلم معارضًا معلقة عمرو بن كلثوم، والقصيدة بعنوان «تصحيح في معلقة عمرو بن كلثوم».

الموقفان غير متشابهين، موقف عمرو بن كلثوم موقف المفتخر بقومه، بعزتهم، وشجاعتهم، أما موقف شاعرنا المعاصر موقف الخزي والعار، والاستكانة والضعف، وقد أدرك شاعرنا ذلك فكانت قصيدته تحت اسم «تصحيح»، بناء على هذا التصحيح أصبح الموقفان متشابهين، وقد استطاع شاعرنا أن «يجر» عمرو بن كلثوم وقبيلته إلى أوضاعنا الحالية، فتراهم وقد دخلوا معنا كهف الاستسلام والخنوع، يقول عبد المحسن مسلم:

أبيت اللعن عـــذرًا إن هذي	قصيدتي التي كانت جنينا
قصيدتي التي ستظل تبكي	دمًا حرًا أمام السامعينا
وكم بالثـــأر هددنا وقلنا	سنفتك بالطغاة المعتدينا[1]

أما معلقة عمرو بن كلثوم، وقد استهلها بالخمر، ثم دلف منها إلى الفخر، فيقول:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا	ولا تبقي خمـــور الأندرينا

. ويقول فيها .

ونشـرب إن وردنا الماء صفوًا	ويشرب غيرنا كدرًا وطينا
إذا بلغ الفطام لنا رضـيع	تخرُّ له الجبابر ساجدينا[2]

ومن المعارضات أيضًا قول الورداني ناصف، وهو يتحدث عن «سناء محيدلي» ورسالتها إلى أمها ووصاياها إليها، يقول الورداني في قصيدته «رسالة من السماء»:

أمـاه تلك رسالتي ببياني	تأتي إليك ومـا بها عنواني
أرسلتها يا أم بعد تغيبي	عن الصدر العطوف الحاني
فلقد عهدتك تفزعين لغيبتي	وتهرولين إذا نأى إخواني
أمـاه إني قد تركتك والأسى	والحزن في جنبي يعتصراني

---

(١) جريدة الخليج، الخليج الثقافي، ملحق العدد (٢٤٢٣)، ١٩٨٥م، ص٨.

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، وهي إحدى معلقات الشعر الجاهلي المشهورة.

ثم يقول على لسان الشهيدة:

أمــاه أرجــو الآن أن تتــأكــدي	أن الخنوع يقــود للطغــيــان
وتأكــدي يا أم إذ لم ننتــفض	سنكون حتـمًـا واحـة الغـربان[1]

وقصيدة الورداني معارضة لقصيدة هاشم الرفاعي الشهيرة «رسالة في ليلة التنفيذ»، فكلا القصيدتين تمثل رسالة من جيل رأى الأهوال والشدائد في أمة مظلمة، فكانت رسالة «هاشم» إلى والده، صوَّر له فيها ليلة تنفيذ الإعدام عليه، لا لشيء إلا لأنه صدح بالحق، ورسالة «سناء» إلى أمها بعدما يئست من حال الأمة، فقررت الرحيل عنها، والقصيدتان تنتميان للعاطفة الصادقة والشعور الملتهب، فضلاً عن نبرات الأسى والحزن، على ما آل إليه حالنا الآن:

يقول هاشم الرفاعي في مطلع قصيدته:

أبتــاه مــاذا قــد يخط بناني	والحــبل والجــلاد منتظران
هذا الكتــاب إليك من زنزانة	مـقـرورة صـخـرية الجـدران
لم تبق إلا ليلة أحــيــا بهــا	وأحسُّ أن ظلامــهـا أكـفـاني[2]

وعندما نشر الشاعر صالح جودت قصيدته الرائعة في ذكرى الشاعر اللبناني الكبير «الأخطل الصغير» نرى الشاعر حسن السوسي يعارض هذه القصيدة بقوله عن بيروت:

واسيت جـرح الأرز في صـداحـه	بأرق من ليل البــقــاع وراحــه
طابت على يدك الجـراح فبـوركت	لمسات كفك في عمـيق جـراحـه[3]

هكذا حاول الشعراء إحياء القصيدة العربية القديمة علَّ صراخها يثقب آذان الحكام فيسمعوا صراخ الثكالى وأنات اليتامى!!

---

(١) الورداني ناصف، همسات الورد، ص ٢٤.

(٢) هاشم الرفاعي، ديوان هاشم الرفاعي، تحقيق ودراسة: عبد الرحيم جامع الرفاعي، مكتبة الإيمان – المنصورة، ١٩٩٦م، ص١٦٦.

(٣) حسن السوسي: ليال الصيف، دار الكتاب الليبي، ط١، ١٩٧٠م، ص ٩٣.

(ج) استلهام المثل العربي:

المثل العربي يمثل تجارب وخبرات، والمثل جملة قصيرة ذات إيقاع مميز تبلور فكرة أو موقف إزاء الحياة والناس، لذلك استعان بعض الشعراء بهذه الأمثال العربية لتأكيد فكرة أو موقف من المواقف، أو ليدلل على رأي رآه، لهذه الأشياء كان المثل العربي مصدرًا مهمًا من مصادر الشعراء صورة وفكرًا ولفظًا.

وإذا كان المثل العربي القديم يقول «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»[1]، ويضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس مكاسب الأموال، أي لا يكون الإنسان ظئرًا، وإن آذاه الجوع والحرمان، وللمثل رواية أخرى «تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها»، أي بأجر ثدييها، وقد استلهم هذا المثل الشاعر شاكر لعيبي، فنراه يقول:

لم تخف بيروت

لم تخف

أكلت ثديها الحرة بيروت

تضيء القنابل فوق الشجر

...............[2]

أراد الشاعر أن يصور حال بيروت الصامدة، فلا الحصار يثنيها ولا العدوان يرديها، إنما اقتاتت أي شيء في سبيل الحياة، حتى لو أدى ذلك إلى أكل أعضائها، عضوًا عضوًا، ولكن لا تستسلم لظالم باغ أو معتد آثم.

ومن ذلك أيضًا قول محيي الدين عبد الوهاب:

أتخشى المنية يابن الزبير

وهل في الحياة مكان أجل

حنانك يا أم.. إني أخشى

---

(١) مجمع الأمثال: ١/ ٢١٥.

(٢) شاكر لعيبي، استغاثات، دار الجليل، رابطة الكتاب والصحافيين والفنانين العراقيين، ط١، ١٩٨٤م، ص٤٤.

إن مثلوا بي.. هل احتمل

وهل يؤلم الشاة إن سلخوها

وقد ذبحوها.. وحم الأجل[1]

الشاعر يستلهم مقولة لأسماء بنت أبي بكر وهي تخاطب ابنها عبد الله بن الزبير، الذي خاف أن يمثل الحجاج بن يوسف بجثته، فإذا بأسماء «والدته» تدفعه للمواجهة وعدم التردد وإزاحة الخوف، فتقول: وهل يؤلم الشاة سلخها بعد ذبحها، والجملة تمثل إسقاطًا على المناضلين بعدم الخوف أو التردد، وليكن الإقدام حتى النصر أو الشهادة.

ثانيًا - استلهام التاريخ السياسي الحديث:

«المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا»، وهما أيضًا كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.... من هذا المنطلق كان وعي الشعراء بمصيبة الأمة العربية والإسلامية والتي ما زلنا نحياها، فما كادت تحدث نكبة أو مأساة في بلد عربي أو إسلامي إلا ويتذكر الشعراء مأساة المسلمين الكبرى «فلسطين» - الجرح الذي ما زال ينزف، واللهب المتأجج في صدورنا..

وعندما بدأت المأساة اللبنانية تذكر شعراؤنا المأساة الأم، وما فعله الإسرائيليون بأبنائنا، فالعدو، واحد والأماكن شتى، وآلة الموت واحدة، ولكن الشهداء متعددون.

ولهذا نجد كثيرًا من شعرائنا حاولوا الربط بين المأساتين الفلسطينية واللبنانية، وراحوا يذكروننا بمذابح اليهود في كفر قاسم، وبحر البقر، وأن ما فعلوه بمذابح صبرا أو شاتيلا، أو حتى قانا ما هي إلا صور معادة ومكررة من مذابح أخرى سالفة، وربما تكون قادمة، ولكن من يعي الدرس من العرب؟

ربما كان ربط المأساتين معًا تعني أن المذابح السابقة (كفر قاسم ودير ياسين...)، والمذابح الحالية (صبرا وشاتيلا، وقانا) ستكرر قريبًا في قطر عربي آخر، ومن ثم فهي رسالة إلى كل عربي.. من ذلك مثلاً قول عبد البديع عراق مخاطبًا الفدائي:

حاصرت أصحاب الكراسي والعروش

---

(١) محيي الدين عبد الوهاب: تل الزعتر.. أغنية للحياة في الموت، مصدر سابق، ص ٩١.

ومظاهر التنعيم أو عظم الكروش

ما موقع التيجان والشجعان من رد الخطر؟

هل يذكرون «القدس» أو «يافا» وأذان المساجد

ونداء من لبَّى وكبَّر؟

هل غاب «صبرا» أو «شتيلا» والدما في «كفر قاسم»

ومواكب الشهداء في «لبنان»، في «الجولان»، في «سيناء»، في «بحر البقر»؟

أيقظت كل النائمين

أزعجت كل الحالمين[1]

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر جابر الحاج، وهو يربط بين قضية لبنان، وقضية فلسطين:

شهداء «صبرا» إنها إحدى الكبر	والأمر جل على المشاعر والعبر
كانت «فلسطين» الجريحة داركم	فأزاحكم عنها حثالات البشر
هامت خطاكم في عذاب بائس	سرتم إلى «لبنان» في يوم عسر
صارت «فلسطين» الذبيحة فكرة	عزفت على أحزانها شتى الفكر[1]

ومن ذلك - أيضًا - استلهام الفظائع الإسرائيلية والتذكير بما فعلوه بأهلنا بفلسطين. يقول هارون هاشم رشيد مخاطبًا العربي الشهيد في أي مجزرة من المجازر أو في أي مذبحة من المذابح، يقول:

قتلت في هذه الأنحاء غيله

عبرت من «دير ياسين»

إلى «صبرا»

وحطمت في «شتيله»

---

(١) عبد البديع عراق، إبداع الحجر، مصدر سابق، ص٢٢.

(٢) جابر الحاج، محنة الشقيقتين، مصدر سابق، ص٨٤.

من رأى

كيف يدوس الغزو

آلاف البراعم

عبرت من فوق

حسَّان، وعدنان، وهاشم

قطعت ساق سعيد

مزَّقت صدر مزاحم[1]

أما الشاعر إبراهيم عيسى، في قصيدته «الموت يجتاح المدينة» فقد صدَّر قصيدته بقوله: «إن الدماء التي جرت في لبنان من إبريل ٧٥ إلى يناير ٨٧. ستبقى ذنوبًا على جبين التاريخ». والشاعر في قصيدته يلوم الأمة كلها على تقاعسها المفرط إزاء أهل لبنان الجريح، ثم يذكرنا بالقدس الشريف، فيقول:

والموت جبار تمرد، والأخوة مستكينه

تستنكر الدم، ثم تمضي عن أمانينا الطعينه

فاحموا الصغار من الردى، فالموت يجتاح المدينه

«لبنان» يا وجه الصباح إذا تلفَّعنا دجانا

ثم يقول:

يابن العروبة في ثرى «لبنان».. قم أدرك ثراكا

وانظر إلى «القدس» الشهيد فجرحه يدعو خطاكا

«وببيت لحم» دعوة ترجو على أمل فكاكا[2]

وعلى هذا الدرب يقول الشاعر حسن فتح الباب في قصيدته «قانا - رسالة جندي إسرائيلي إلى الحاخام الذي أفتى بقتل النساء والأطفال العرب»، يقول الشاعر:

(١) هارون هاشم رشيد، الخليج الثقافي، ملحق العدد (١٢١٨)، أغسطس ١٩٨٢م.

(٢) إبراهيم عيسى، الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص٨٦٨.

بشرى يا مولانا الحاخام

قد صدقنا الرؤيا

وقهرناهم بالفتوى

فثأرنا ليهوذا

من أبناء فلسطين ولبنان

وضحايانا في يوم الغفران

باسم الشيطان

مزقناهم أشلاء أشلاء

لم يبق سوى أحشاء[1]

والربط بين المأساتين واضح في المقطع، فالعدو من المنظور اليهودي هم العرب، أينما كانوا، ولابد من قتلهم وإبادتهم، فلا فرق بين لبنان، وفلسطين، ومصر والسعودية، واليمن.... إلخ فكلهم عرب!!

أما فاروق جويدة فيصف الخلافات العربية - العربية، وما تجنيه على الأمة من فتن ومصائب، وراح تسترجع تاريخنا العربي في الأندلس، ويذكر ضياع قرطبة، فيقول في قصيدة «يا زمان الحزن في بيروت» في إشارة رمزية إلى قول لسان الدين بن الخطيب:

جادك الغيث إذا الغيث همي   يا زمان الوصل بالأندلس

يقول فاروق جويدة:

وقالوا عنك يا «بيروت» ما قالوا

ألا يكفيك يا «بيروت»

صوت الله برهانا

فهل سيضيع من عينيك

نور الله تسبيحًا.. وإيمانا؟

---

(١) حسن فتح الباب، شجرة ورد خلف الشط الآخر، مصدر سابق، ص ٧٥.

وهل تغدو مساجدنا

أمام الناس بهتانا؟

وهل نبكي على مُلك

توارى في خطايانا؟

بكينا العمر يا بيروت...

عند وداع «قرطبة»

فهل سنعيد ما كانا؟!!!(1)

هكذا ربط الشعراء المعاصرين بين قضايا أمتنا العربية في خيط واحد، فقضية فلسطين هي قضية لبنان، وجراح العراق يصرخ لها المصريون، وأنات السوريين تدمع لها عيون التونسيين.. ولهذا نجد القصيدة الواحدة تتعدد فيها الجراح العربية - وما أكثرها -، فكل جرح يذكرنا بالجرح الآخر، والآخر يسلمنا لجراح سابقة.. وهكذا أضحت حياتنا المعاصرة مجموعة من الجراحات النازفة!!!

ثالثًا - استلهام الأسطورة

الشعر في جوهره تجربة روحية عميقة تتصل بأعمق مكونات الأمة، وتستخدم من اللغة أرهف أدواتها، وأكثرها قدرة على الإشعاع بهذه المكونات، وهذه النظرة إلى الشعر تخرجه من إطار النظرة اللغوية الجامدة التي تراه مهارة في الصياغة، ولعبًا بالألفاظ ومعجمًا للغة ووعاء للعادات والتقاليد، وربما مصدرًا للتأريخ، فكل هذه الأشياء يمسُّها الشعر بظاهره، وتبقى أعماقه حافلة بجوهر التجربة الإنسانية الخصبة التي تسري فيها روح الكلمة الساحرة المشحونة بالمعنى.

ومن ثم فإن العودة إلى استلهام الأسطورة في الشعر هي في حقيقتها عودة حقيقية إلى المنابع البكر للتجربة الإنسانية البعيدة البريئة، والطاهرة من كل دنس غلفته إياها الحضارات المادية المعاصرة، أو هي العودة إلى المادة التراثية التي صيغت في عصور الإنسانية الأولى، وعبر بها الإنسان عن فكره ومشاعره تجاه الوجود والكون، فاختلط فيها الواقع بالخيال، وامتزجت الحواس باللاشعور، واتحد فيها الزمان كما اتحد فيها

(1) فاروق جويدة، شيء سيبقى بيننا، دار غريب للطباعة - القاهرة، ص ٧٤.

المكان[1].

والشاعر حينما يوظف الأساطير في تجربته الإبداعية إنما يغرف من بحر ثرٍ لا ينضب ماؤه، فالشاعر - كما قال كاسيرر - صانع أساطير، وصانع خرافات قبل أن يكون صانع أوزان[2]، ذلك أن الشاعر وصانع الأسطورة في محاولة متجددة لإيجاد صيغة ملائمة للتوافق بينه وبين المجتمع، وبينه وبين قوانين الطبيعة، وبينه وبين المطلق، ومحاولة لإيجاد معادلة لصراع الخير والشر، والوجود والعدم.

ولقد أدرك الشاعر المعاصر أهمية استلهام الأسطورة في إضفاء الدلالة لنصه الشعري، وإيحائه الرامز للغة، ولكن على المتلقي أن يشاركه هذا الاستلهام، فيلتقط الدلالة، ويحاول فك الرموز اللغوية الشائكة، ومن هنا كانت القراءة التأويلية للنصوص.

وإذا كانت مأساة لبنان قد عمَّقت الشعور بالغربة والوحشة في هذا العالم المادي فإن شعراءنا لاذوا بالأسطورة علَّها تنفِّس كرب المكروبين، أو توضح مأساة الإنسان المعاصر في مواجهة الآلة الحديدية التدميرية ومن يقودها ويتشدق بالحضارة والديمقراطية، وهي أيضًا توضح ضعف واستكانة طرف في مواجهة جبروت طرف آخر... إلخ.

ومن بين هؤلاء الشعراء الذين استلهموا الأسطورة الشاعر يوسف طافش، ففي قصيدته «قراءة في سفر يوسف الكنعاني» يبين فيها تلك الغربة التي حملها الفلسطيني مدة عشرين عامًا وما زال يحملها فوق كاهله واصفًا الجرح العميق، فهو تمامًا مثل «سيزيف» المعاقب من قبل «زيوس» بأن جعله يحمل صخرة إلى أعلى هضبة حتى ما إن وصل إليها، فإذا بالصخرة تتدحرج إلى السفح ثانية[3]، فكلاهما (الفلسطيني، وسيزيف) معذب للأبد، فيقول:

حمل القرن العشرين على دمه

---

(١) انظر: د. أنس داود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع - ليبيا، ص ١٢.

(٢) انظر: فن الشعر لأرسطو طاليس، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣م، ص٢٨.

(٣) ماكس شابيرر، وروداا هندريكس، معجم الأساطير، ترجمة حنا عبود، منشورات دار علاء الدين - دمشق، ١٩٩٩م، ص٢٢٩.

وتوسّد نار ذوي القربى

نام على نصلين

فأجهش بالنزف القدسي

صليبًا كان..

هلالاً كان..

نبيًا يمتد كرمح الله بقامته

من سفح الجرح..

إلى ذروة أحلامي

«سيزيف» أتاه الليلة معتذرا

فاستجمع.. ثم استجمع

آهات الوطن المقموعة

حتى احترق الدمع[1]

وقد استلهم سعد دعبيس أسطورة «سيزيف» أيضًا في قصيدته «مقاطع من أغاني اللاجئين»، بينما استلهم أسطورة «أودوسيوس» في قصيدته «دم الحسين يراق في قاع المحيط»[2].

وممن استلهم الأسطورة الشاعر محمد حذيفي، في قصيدته «بيروت أغنية الجراح» وضَّح فيها قتال اللبنانيين أثناء الحصار الذي دام ثمانين يومًا، فاستلهم أسطورة «جيا» هي ربة الأرض البدائية أو هي تجسيد للأرض الأم، وقد عبدت باعتبارها الأم المنعمة على الجميع[3]، وقيل: إن «جيا» ابن الأرض كان نحيل الجسم، قصير القامة، سر قوته أن أقدامه تستمد هذه القوة من الأرض التي يقف عليها، كشف أحد الطغاة سره، فرفعه عن الأرض وحنقه عاليًا، ووجه الشبه بينه، وبين الفلسطيني المقاوم واللبناني

---

(١) يوسف طافش، تراتيل الرماد، مصدر سابق، ص٦٩.

(٢) سعد دعبيس: عند يخضوضر الأطفال قدسًا، مصدر سابق، ص ٧٣، ٨١.

(٣) ماكس شابيرر، معجم الأساطير، ص١٠٢.

المحاصر هو استمداد القوة من الأرض، فكلاهما يدافع عن حقٍّ وعرض، فيقول حذيفي:

بيروت يا أرجوحة

للريح

يا وجع السنين

وشهقة الوطن المصادر

والمباح

بيروت أغنية الجراح

بيروت سحر البسمة الأولى

على ثغر الشفق

بيروت نفح الأرز

ووشوشة الحبق

إذ ترتديني معطفًا بيروت

ينهمر الصباح

أحكي لها عن صانع الأمجاد

«جيا» عن أحابيل الطغاه

الأرض مذ رويتها بالدم

يا بيروت

أعطتك الحياة[1]

وكذلك استلهم الشاعر عصام العريضي الأساطير في قصيدته «ابتسام حرب» تلك الفتاة التي اختارت الشهادة كي تنعم بالحياة، تلك التي سبقت قوافل الشهداء إلى الجنة، الشاعر يستلهم أسطورة طائر «الفينيق» ذلك الطائر الذي يُخلَق من رماده ثانية كلما احترق، وكأن الشاعر أراد أن يقول: إن الأرض ولاَّدة، فإذا ما استشهدت واحدة

---

(١) محمد حذيفي، ليل الشاعر، مصدر سابق، ص٦٠.

خُلقت مرة أخرى باسم آخر، وعلى الرغم من أن الشاعر لم يصرح باسم الطائر، لكنه رمز إليه رمزًا يفهم من نصه، فيقول:

أنا لست أعجب

من وفائك للمبادئ والقسم

إن الدماء هي التي قالت لأمتها:

نعم

ها قد رجعت من الرماد

تحدثين كأن رجعت

من السفر

أذهلت فينا العقل

هل بشر يحدِّث

أم قدر؟!!(١)

ولا يقتصر استلهام الأسطورة على الأساطير الإغريقية أو الرومانية فقط، بل هناك الأساطير الشرقية، مثال ذلك استعمال الشاعر حسن فتح الباب لأسطورة عروس النيل، تلك الفتاة البضة الجميلة التي تتزين لإلقائها في النيل قربانًا ليهب النماء والخير لمصر، فهي فداء لشعب كامل، ضحت بحياتها ليعيش الآخرون، وهو أيضًا ما صنعته «سناء محيدلي»، أو «عروس الجنوب» حينما ألقت بنفسها وسط جحافل اليهود لتقتل الكثير وتلقى الشهادة، إنها التضحية من أجل الآخرين، يقول حسن فتح الباب:

ومن يرش الماء

من يحمل العبير للحبيب

أين ترى تمتزج الورود بالحنين

يمتزج التراب بالورود

مزارك القبر الذي ليس يُزار

(١) عصام العريضي، ثلوج، مصدر سابق، ص ٩٣.

ليل نهار

لا ليل لا نهار

مزارك النيل الذي ليس يفيض

حتى يرى عروسه.. قرباننا

تغوص في أحشائنا

تنقذنا من غرق

عذراء لا تُباع للبغيّ

لا تُزفّ للصنم

في تلك الأطر الأسطورية واستلهاماتها المختلفة، وتوظيفاتها المتعددة، يمكننا قراءة قصيدة الشاعر عبد الله شرف المسماة بـ«الحصار»، والتي يقول فيها:

تلك الشعوبيات

ينشرها دراويش السياسة

والدعارة

تلك التي لبست ثياب أبي لهب

تلك التي رفعت لواء أبي لهب

تلك التي عبدت إلهًا من خشب

فهناك عند المنحنى

«عشتار» يعبث بالنهود

و«إثاف» يركب «نائلة»

وعلى المدى

كل اليهود[1]

---

(١) عبد الله شرف، سلسلة أدباء القرن العشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٨)، ٢٠٠٨م، ط١، ص٧٩.

ويمكننا دراسة الأسطورة من خلال أشعار نزار قباني، أمل دنقل، حلمي سالم، وليد منير، محمد آدم، محمد سليم الدسوقي، هشام محمود، وحيد الدهشان، محمد الفايز، وغيرهم.

* * *

عند دراسة الشعر العربي الذي استلهم مأساة لبنان، ظهرت لدينا بعض الظواهر الفنية كان أهمها «استعمال الأسماء» داخل بنية القصيدة، إذ قلما تجد قصيدة تستوحي المأساة ولم تجد فيها اسمًا لعلم أو مدينة، حتى غدت الأسماء في تلك القصائد سمة مميزة لها، وأعتقد أن هذه الأسماء تلعب دورًا رئيسًا في التوجه الدلالي للقصيدة، كما تمثل محورًا من محاور التلاق بين المبدع والمتلقي، الأمر الذي يسهل على القارئ تلقي النص والتفاعل معه عبر البوابات المعرفية والرؤى التاريخية لهذه الأسماء المتناثرة عبر القصيدة، ويعدُّ الشاعر معين بسيسو أكثر الشعراء استدعاء لأسماء الأشخاص قديمهم وحديثهم من الشعراء وغيرهم، ولأسماء الأماكن والمعارك والحروب وقادتها وأبطالها، وقد أحصيت عنده أكثر من مائتين من هذه الأسماء، حتى لا تكاد قصيدة لا تخلو من أحدها أو بعضها.

ويمكننا دراسة هذه الأسماء على النحو التالي:

١ - أسماء الأعلام/ أشخاص.

٢ - أسماء الأماكن.

أولاً: أسماء الأعلام:

ويمكننا دراستها على النحو التالي:

(أ) أسماء ذات صلة مباشرة بالمأساة.

(ب) أسماء تاريخية.

(ج) أسماء أعجمية ذات صلة غير مباشرة بالمأساة.

(أ) أسماء ذات صلة مباشرة بالمأساة:

كان الشعر قديمًا - وما زال - سجلاً أمينًا للأحداث، تصوِّر الشعراء الأحداث التاريخية والاجتماعية بعدما تضفي عليها انفعالاتها وأحاسيسها، وعلى الرغم من هذه

الانفعالات فإنه يبقى في القصيدة بذرة الحدث التاريخي، ولهذا قال القدماء: «الشعر ديوان العرب، يسجلون فيه مآثرهم ومفاخرهم وأيامهم وأحسابهم...»، والمتأمل في القصيدة العربية القديمة يجدها تعج بالعديد من الأماكن الجغرافية، والمعارك الحربية، وأسماء أشخاص لعبوا في الأحداث دورًا كبيرًا، فخلدهم الشعر مدحًا أو ذمًا، هجاء أو رثاء... إلخ.

وعلى هذا الدرب سارت القصيدة العربية الحديثة، فنرى القصيدة تتناول أشخاصًا بالمدح أو الذم أو اللوم والعتاب، ولهذا نرى المأساة اللبنانية قد خلَّدت لنا أسماء كثيرة ما زالت حية بيننا تتحرك داخل القصيدة، على الرغم من مفارقتها للحياة منذ زمن بعيد، من هذه الأسماء «ابتسام حرب/ سناء محيدلي[1]/ ميساء[2]/ إيفا[3]/ جواد أبو الشعر[4]/ كاتيا[5]/ .... وعلى الجانب الآخر هناك أسماء ريجان[6]/ بيجن[7] / شارون[8]...».

فالشاعر عصام العريضي يسجل مآثر الفتاتين اللتين أبتا الخضوع، فراحتا يشترين البقاء الأبدي في جنات عدن، فيقول:

إني أصدق يا «ابتسام» النصر

يا حربًا على سلم الجناة الراكعين

فغدًا إلينا ترجعين

---

(١) ابتسام حرب، سناء محيدلي: فدائيتان طلبن الشهادة حتى ينعمن بالخلود.

(٢) ميساء: طفلة لبنانية خرجت تبحث عن لعبتها فسحقتها الآلة العسكرية الإسرائيلية.

(٣) إيفا ستاهل: ممرضة سويدية، زوج أحد المناضلين الفلسطينيين، استشهد زوجها أثناء الحصار، وأجهض حملها وبُترت ذراعها، وكُسرت ساقها، وأصرت على أن تبقى صامدة مع أهل تل الزعتر.

(٤) جواد أبو الشعر : رائد، قائد ميليشيا الثورة الفلسطينية في بيروت أثناء الحصار، بعد استشهاده بيومين في مخيم تل الزعتر وُلِد طفل فلسطيني تحت القصف فسمي المولود باسم (جواد).

(٥) كاتيا : مراسلة قناة الجزيرة الفضائية أثناء الحرب على لبنان.

(٦) رونالد ريجان: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الداعم الرسمي لإسرائيل.

(٧) مناحم بيجن: رئيس وزراء إسرائيل في السبعينيات من القرن الماضي.

(٨) شارون: قائد إحدى العمليات العسكرية الإسرائيلية في لبنان، والمشرف العسكري على مذابح صبرا وشاتيلا، وعمل رئيسًا للوزارة الإسرائيلية.

اسمًا جديدًا تحملين

رقمًا جديدًا تكتبين

وتسطرين:

«ما نحن قومًا ميتين

للطين نرجع مثله

من بعد حين

إنّا إذا غابت «سناء»

عادت إلينا في «ابتسام»

بسنا «ابتسام» في التمام

فكأن طينتنا من القوم الذين

يتقمَّصون من السناء

إلى السناء

ويسدِّدون الدَّين

كل الدَّين

نقدًا .. بالدماء[1]

وعن «إيفا» يقول عبد البديع عراق قصيدته الموسومة بـ«إيفا سيف فلسطيني» فيقول مخاطبًا الحاكم العربي، مصوِّرًا شجاعتها ونضالها، فيقول:

يا هذا الحاكم فلتسمع

يا ذاك الحاكم فلتسمع

ما عاد يهزُّ ثرانا خوف

أو يخدعنا وجه الزيف

---

(١) عصام العريضي: ثلوج، مصدر سابق، ص٩١.

أو يستشري فينا الضعف

«تل الزعتر» هزم الخوف

وعظام الأطفال السيف

«إيفا» صارت ذاك السيف..[1]

ومن ذلك قول محمد سليم الدسوقي في قصيدته «"كاتيا" معنا بيروت» يقول فيها:

«كاتيا» ماذا في الأقصوصة

ماذا في غسق الأنواء؟

والأسطورة في أيدي الأطفال تضاء

تعصب عن «كاتيا» هذي الخوذة

عينيك حرور الشمس

القيظ، الغيظ

منازلة البطحاء

لكن لا تستطيع الخوذة تلك مناوءة

الأعداء[2]

ويمكننا قراءة كثير من تلك الأسماء في شعر حسن السوسي، وسعيد المزين، وعز الدين المناصرة، سميح القاسم، ومحمود درويش،... وغيرهم.

(ب) الأسماء التاريخية :

استعمل شعراؤنا الأسماء التاريخية المشهورة لدينا، علّهم بذلك يذكروننا بماضينا العريق أو علّهم يعقدون مقارنة بين الآن حيث العرب الضعاف وحاكمهم المستبد، وبين أمس بعربه الأقوياء وحاكمهم الرشيد، أو علهم يربطون بين مواقف متشابهة لحال أمتنا العربية، ولهذا ظهرت أسماء تاريخية مشهورة نذكر منهم «خالد بن الوليد/ الزبير بن

---

(١) عبد البديع عراق، إبداع الحجر، مصدر سابق، ص٧٧.

(٢) محمد سليم الدسوقي، يا خيل الله اركبي، مخطوط.

العوام/ الحسين بن علي/ عائشة (أم المؤمنين)/ صلاح الدين الأيوبي/ المعتصم بالله...»
من ذلك قول نزار القباني، معرِّضًا ببلقيس، فيقول:

قتلوك يا «بلقيس»..

أية أمة عربية تلك التي تغتال أصوات البلابل؟

أين «السموأل»، و«المهلهل».. والغطاريف الأوائل؟

فقبائل أكلت قبائل..

وعناكب سحقت عناكب

قسمًا بعينيك اللتين إليهما تأوي ملايين الكواكب

سأقول، يا قمري، عن العرب العجائب

فهل البطولة كذبة عربية

أم مثلنا التاريخ كاذب؟[1]

ومن ذلك أيضًا قول فاروق جويدة في قصيدة «رسالة إلى صلاح الدين» يقول فيها:

في أي صدر

سوف يسكن قلب ابني

بعدما عزلوا «صلاح الدين»

من عين الصغار.. وتوّجوا «ديان»

يا للمهانة عندما تغدو سيوف المجد

أو سمة بلا فرسان

يا للمهانة عندما يغدو «صلاح الدين»

خلف القدس مطرودا

بلا أهل.. بلا سكن

بلا وطن.. بلا سلطان

---

(١) نزار القباني، مجلة المستقبل، عدد (٢٥٩).

في كل شيء أنت يا وطني مهان[1]

ومن ذلك أيضًا قول أحمد اللغماني في قصيدته «لا أفهم» وهو ينادي على الأمة العربية ويذكرهم بأمجاد صلاح الدين، وأيام الفتوحات الإسلامية الكبرى، فيقول:

لا أفهم يا أحفاد «صلاح الدين»، ويا نسل الأبطال

لا أفهم يا لبنان لماذا يقتلنا بعد العار؟

ما زلنا نفخر بين الناس بأنا الصفوة والأخيار

ما زلنا مثل المسطولين نفاخر بالمجد المنهار[2]

وكذلك قول سعيد المزين في قصيدته «أغنية حزينة - في ليلة مقتل وامعتصماه» يقول:

وا ذلاه

في أزمان سقوط الأقصى

الكرة الدولية أعظم من حطين

أغلى من خيل «صلاح الدين»

أغلى من كل الأوطان..

أغلى من رأس الإنسان..

آهٍ يا قدسي الشامخ بين أكف القرصان

آهٍ يا لبناني الدامي.. آهٍ يا لبنان

آهٍ و«سناء» الثورة تصرخ:

واجرحاه..

واذلاه..

سقطت «وامعتصماه»[3]

---

(١) فاروق جويدة، ألف وجه للقمر، دار غريب للطباعة - القاهرة، ص٤٩.

(٢) أحمد اللغماني، محاضرات الموسم الثقافي لعام ١٤٠٠/ ١٩٨٠م، مصدر سابق.

(٣) سعيد المزين، العرس القاني، لجنة القدس - القاهرة، ١٩٨٦م، ص٦١.

ويمكننا قراءة الكثير من هذه الأسماء في شعر معين بسيسو، هارون هاشم رشيد، حسن السوسي، عبد المولى البغدادي، .... وغيرهم.

(ج) أسماء أعجمية ذات صلة غير مباشرة بالمأساة:

إذا كانت القصائد المتعلقة بالمأساة اللبنانية عجّت بالكثير من الأسماء التي لعبت دورًا رئيسًا بالأحدهث، سواء على المستوى العربي أو على المستوى الإسرائيلي أو حتى المستوى الدولي، فإن هناك أسماء وردت في قصائد الشعراء ذات صلة بعيدة أو غير مباشرة بالمأساة، مع ملاحظة أن هذه الأسماء كانت في مجملها أعجمية غير عربية، ولذلك نقرأ مثلاً كلمات مثل «أر. بي. جي/ كاتيوشا/ إيل «اسم الله بالسريانية»/ الأليزيه/ مايفير/ كاترينا/ الصولجان/ الرشاش/ ....».

من ذلك قول محمد سليم الدسوقي في قصيدته «كاترينا»، يقول:

«كاتيوشا»

جئتك الليلة من خلف الكمين

من ضراعات السنين

نهرك الولهان جئت

شجوك الريان جئت

ساهريني

سامريني

من يمين غير ذياك اليمين[1]

ومن ذلك قول نزار قباني، يصف حال العرب «النفطيين»، وهم يمرحون في فرنسا، لا يأبهون بحال الحصار ولا يهتمون بحال القتلى، ولذا نراه يقول:

آه.. كم كنا قبيحين، وكنا جبناء

عندما بعناك، يا بيروت، في سوق الإماء

وحجزنا الشقق الفخمة في حي «الأليزيه» وفي

(١) محمد سليم الدسوقي، يا خيل الله اركبي، مخطوط.

«مايفير» «لندن»

وغسلنا الحزن بالخمرة، والجنس، وقاعات القمار

وتذكرنا - على مائدة «الروليت» أخبار الديار

وافتقدنا زمن الدفلي بلبنان

وعصر «الجُلّنار»

وبكينا مثلما تبكي النساء[1]

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر محمد الظاهر في قصيدة «أطفال الآر. بي جي» يقول:

يا أطفال الآر بي جي

يا جيلاً

سيهز العالم

موعدنا في النصر القادم

كنتم

طعم الدبابات

وصمدتم، تحت الغارات[2]

ويمكننا قراءة الكثير من هذه الأسماء في شعر حسن السوسي، عبد الحميد الهرامة، هارون هاشم رشيد، محمد الفايز، معين بسيسو،.... وغيرهم.

ثانيًا - أسماء الأماكن:

من سمات الشعر العربي احتفاظه بعنصر المكان، باعتباره واحدًا من دلائل صدق التجربة الشعرية، ومن يقرأ المعلقات - مثلاً - يلحظ سيطرة المكأن على كثير من الصور الشعرية بها، فهناك - مثلاً - الدخول - حومل - برقة ثهمد - جومانة الدراج - المتثلم - الرقمتان - منى - الأندرين - برقة شمّاء - الخلصاء -.... إلخ.

---

(١) نزار قباني، إلى بيروت الأنثى مع حبي، منشورات نزار قباني - بيروت، ١٩٩٠م، ط٤، ص٦٨.

(٢) محمد الظاهر، قصائد لأطفال الآر بي جي، مصدر سابق، ص ١ - ٢٠.

إذا كان الشعر الجاهلي سجلاً أمينًا لكافة الأحداث، حتى إنه احتفظ لنا بأسماء بعض الأماكن، وشعرنا المعاصر هو ابن شرعي لأشعار الجاهليين، ومن ثم فقد احتفظ ببعض خصائص شعر القدامى، ومن تلك الخصائص ذكر الأماكن.

فالمتأمل في شعر المأساة اللبنانية يجد أن شعراءنا ذكروا أماكن الأحداث - وما أكثرها - فقلما تخلو قصيدة تناولت تلك المأساة إلا ونجد فيها أسماء لكثير من الأماكن والمواضع، مع ملاحظة أن هذه الأماكن على الرغم من أن معظمها بلبنان باعتبارها قلب الحدث وعصب الجرح، فإن هناك من الأماكن والمواضع بفلسطين أو الأندلس وكأن شعراءنا حاولوا الربط بين تلك المآسي، فكلها مآسي عربية/ إسلامية، وإذا اشتكت إحدى مدننا تداعت لها سائر المدن بالحمى والسهر، فهما - المدن العربية - كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضا.

وقد احتفظت القصيدة العربية المعاصرة بالعديد من أسماء المواقع والأماكن التي لعبت دورًا كبيرًا في الأحداث المعاصرة منها - مثلاً - «بيروت - الشقيف - تل الزعتر - لبنان - صبرا - شاتيلا - قانا - صيدا - صور - الراشيدية - برج البراجنة - القدس - حيفا - عكا - اللد - الرملة - فلسطين - غزة - يافا - مرج بني عامر - دير ياسين - كفر قاسم - بحر البقر - قرطبة - الأندلس..... إلخ».

يلاحظ أن كثرة أسماء المدن وتنوعها دلالة على كثرة المآسي والمحن التي تعرض لها وطننا العربي الكبير من شرقه لغربه، ومن شماله لجنوبه.. ولكن هيهات هيهات!!!

من ذلك - مثلاً - قول هارون هاشم رشيد:

من رأى الأطفال

في عمر الزهور

من رآهم عند «صيدا»

وعلى أبواب «صور»

من رآهم في «الراشيدية»

تحت الشمس..

من غير قبور؟!!![1]

ومن ذلك أيضًا - قول معين بسيسو في قصيدته «الأرض»، حيث يقول:

هذي أصابع كفي

أقلام مدرسة في «رفح»

وألوان طفل يرسم «عكا» على شط «غزه»

ويرسم في كفه «الكرملا»

ويرسم في كفي «القسطلا»

ويعلن إضرابه الأولا

تفاجئني الأرض

هذي أصابع كفي

فرشاة طفل «بعمان»

يشطب وجه الملك

ويرسم وجه «فلسطيننا» المقبله

تفاجئني الأرض

هذي أصابع كفي

أقلام مدرسة في الجنوب

وأقلام مدرسة في الجبل

و«لبنان» يكتب

«لبنان» يرسم

«لبنان» في يده السنبلة

«لبنان» في يده القنبله[2]

---

(١) هارون هاشم رشيد: مجلة الخليج الثقافي، ملحق العدد (١٢١٨)، الشارقة ٨/ ٨/ ١٩٨٢م.

(٢) معين بسيسو، بين السنبلة والقنبلة، كتاب لوتس - تونس، ١٩٨٦م، ص٢١٩.

ومن ذلك أيضًا قول عبد الله شرف في قصيدته «الحصار»، وقد وجهها للشاعر نزار قباني، يقول فيها:

فلمن تقول

و«القدس» ترقد تحت أقدام المغول

تجتر زيتون «الجليل»

وتحصد الجثث السنابل

هل دمَّرت بلقيس للعرب المفاعل؟

فلمن تقول؟

تركوا «أريحا»

كي تضاجعها الذئاب

وتبادلوا طعن الخناجر

بين رنات الكؤوس

وترنحوا - تيها - بداحس

والبسوس[1]

ومن ذلك أيضًا قول فاروق جويدة في قصيدته «**يا زمان الحزن في بيروت**» يقول:

بكينا العمر يا «بيروت»

عند وداع «قرطبة»

فهل سنعيد ما كانا؟

يهون العمر يا «بيروت» من يدنا

ودين الله ما هانا[2]

وكذلك قول إبراهيم عيسى:

---

(١) عبد الله شرف، أدباء القرن العشرين، مصدر سابق، ص٧٤.

(٢) فاروق جويدة، شيء سيبقى بيتنا، مصدر سابق. ص ١٤.

يا بن العـــروبة في ثرى «لبنان».. قم أدرك ثراكـــا

وانظر إلى «القدس» الشهيد فجرحه يدعو خطاكا

عُـــمَـــرٌ هناك رأيتـــه يرعى الأخـــوة في رباكـــا

و«ببـــيت لحم» دعـــوة ترجـــو على أمل فكاكـــا[1]

ومنه أيضًا قول عبد البديع عراق في قصيدته «عار وإدانة» مخاطبًا الفدائي العربي:

حاصرت أصحاب الكراسي والعروش

ومظاهر التنعيم أو عِظَم الكروش

ما موقع التيجان والشجعان من رد الخطر؟!

هل يذكرون «القدس» أو «يافا» وأذان المساجد؟!

ونداء من لبَّى وكبَّر؟!

هل غاب «صبرا» أو «شتيلا» والدما في «كفر قاسم»؟!

ومواكب الشهداء في «لبنان» في «الجولان» في «سيناء» في «بحر البقر»؟![2]

* * *

والمتأمل في اللغة الشعرية التي تناولت المأساة، يجد أنها - أي اللغة - نبعت من الواقع المحسوس الذي يألفه الناس. ويعرفه البسطاء، ولذا نجد في معظم القصائد كلمات سهلة، مثل «مطر/ رياح/ شمس/ شجر/ موت/ انتصار/ شهداء/ فداء/ دماء/ لحن/ ....»، مما يدل على أن جودة الشعر وفنيته العالية لا تتطلب سوى حسن الصياغة والاستخدام، ووضع الكلمة في مكانها الصحيح، وليس الإغراب والتعقيد هما معيار الشعرية، كما يظن بعض الناس.

ومن أهم خصائص الشعر المعاصر اعتماده على عنصر «التكرار»، ومن ذلك أيضًا الشعر الذي تناول المأساة.

النص الشعري يتكون من وحدات نغمية تتكرر بانتظام داخل البيت الشعري أو

---

(١) إبراهيم عيسى. الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص٨٦٨.

(٢) عبد البديع عراق: إبداع الحجر، مصدر سابق: ص ٢٢.

السطر الشعري، فالتكرار إذن هو البنية الأساسية للبيت وللقصيدة، وهذه الوحدات النغمية المكررة تفرض أحيانًا أنماطًا من التوازيات الموزعة داخل النص الشعري «فبنية الشعر تتميز بتواز مستمر»[1]، وهذا التوازي يكون مصدره عودة نفس الصورة الصوتية وتكرارها أو حتى عودة الوحدة العروضية المنتظمة، والتكرار الصوتي يعمل على زيادة الإيقاع أكثر من الإنتاج الدلالي للنص، إذ إن الإنتاج الدلالي موجود مع أول وحدة صوتية للنص[2].

وتتفاوت درجة الإيقاع والشعور بالصوت المكرر تبعًا للمسافة بين الوحدات المتكررة، وكذلك حسب مساحة الوحدات وطبيعتها، فالكلمة تختلف عن الجملة...

والتكرار يؤكد - أحيانًا - قيمة الدال اللغوي ودوره في بناء النص الشعري، وفتح آفاق جديدة نحو إطلاق إمكاناته النغمية والصوتية والدلالية، فالشاعر - في غير بنية التكرار - يلجأ إلى اللغة التي تنتج الدلالة فقط، في حين أنه في حالة التكرار يؤكد على تلك الدلالة الموجودة في النص، ويحاول إظهار الإيقاع لجذب المتلقي، وكذلك نجد المكرر في النص ليس أي جزء من أجزائه، إنما هو الجزء الأهم في نفسية الشاعر الذي يريد من المتلقي الانتباه إليه[3].

والتكرار من شأنه أن يخلق قدرًا كبيرًا من الانسجام والتآلف بين العناصر المكوِّنة للنص الشعري؛ لأنه جزء لا ينفصل عنه، ولا يمكن حذفه؛ لأنه يُقصد لذاته، لذلك أصبح التكرار واحدًا من أهم ملامح التشكيل الأسلوبي للشعر المعاصر[4]. .

ويتنوع المكرر تبعًا لأهميته في نفس الشاعر، فيبدأ التكرار من الحرف الواحد، وينتهي بالمقطع الكبير، مرورًا بتكرار أداة، أو تكرار كلمة أو تكرار تركيب... إلخ، من ذلك - مثلاً - قول محمود درويش:

وليس سواكم أرض ندافع عن تعرجها وحنطتها

---

(١) رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الوالي، ومبارك حنون، دار توبقال - المغرب، ص٤٧.

(٢) محمد سالمان، الإيقاع في شعر الحداثة، دار العلم والإيمان - دسوق، ٢٠٠٨م، ص١٢٠.

(٣) المصدر نفسه: ن. ص.

(٤) انظر: مصطفى السعدني، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي، ص٣٠ وما بعدها، علي البطل، الصورة في الشعر العربي، ص٢١٨.

سندفع عنكم النسيان، نحميكم

بأسلحة حككناها لكم من عظم أيديكم

نسيجكم بجمجمة لكم

وبركبة زلقت

فليس سواكم أرض نسمِّر فوقها أقدامنا

عودوا لنحميكم..

«ولو أنا على حجر ذبحنا»

لن نغادر ساحة الصمت التي سوَّت أياديكم

سنفديها، ونفديكم(١)

المتأمل في المقطع يلاحظ تكرار أكثر من حرف أهمها: الميم = ٢٠ مرة، والسين = ١٢ مرة، ربما أراد الشاعر من هذا غلبة الصوت المجهور على الصوت المهموس، إيماءً منه أن تلك قضية حية تدوي في السمع، ولن ولم تطو في دهاليز السياسة.

ومن تكرار الأداة قول محمود درويش - أيضًا -.

أحرقنا مراكبنا. وعلقنا كواكبنا على الأسوار

لم نبحث عن الأجداد في شجر الخرائط

لم نسافر خارج الخبز النقي، وثوبنا الطيني

لم نرسل إلى صدف البحيرات القديمة صورة الآباء

لم نولد لنسأل: كيف تم الانتقال الفذ مما ليس عضويًا إلى العضوي؟

لم نولد لنسأل.. قد ولدنا كيفما اتفق

انتشرنا كالنمال على الحصيرة(٢)

لاحظ تكرار أداة الجزم (لم) نحو خمس مرات في هذا المقطع، تكرار متوالٍ غير

---

(١) محمود درويش، حصار لمدائح البحر، مصدر سابق، ص١١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٢.

منقطع، الشاعر يصف حال خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، فيؤكد على عروبتهم وشجاعتهم وإبائهم، فجاءت جمله: مضارعة مسبوقة بـ«ن» الجمع (نسافر/ نرسل/ نولد/..)، مجزومة، دلالة على عدم تحقق الفعل من قِبل الجمع، إنما هو من قبيل التوحُّد، وعدم الانفراد من جانب بعضهم، ويلاحظ النبرة الإنشادية خلال المقطع التي يزيد النبر فيها مع توالي السطور الشعرية، مما يعطي الانطباع الأكيد لدى المتلقي بعدم الاستسلام والاستمرارية في المقاومة.

وربما يأخذ التكرار شكلاً آخر، وهو تكرار كلمة بعينها، وليس تكرار حرف أو تكرار أداة كالمثالين السابقين، من ذلك - مثلاً - قول معين بسيسو:

هذي أصابع كفيَّ

أقلام مدرسة في الجنوب

وأقلام مدرسة في الجبل..

ولبنان يكتب،

لبنان يرسم،

لبنان في يده السنبله

لبنان في يده القنبله

ولبنان يطحن قمحًا جديدًا..

ولبنان يعجن خبزًا جديدًا..

ولبنان يطعم أرضًا جديدة..

بيني، وبين أريحا قصيده[1]

لاحظ حركة التكرار في المقطع تأخذ أكثر من شكل، ولكن الأكثر هيمنة عليه، تكرار الكلمة، ويتمثل في تكرار كلمة «لبنان» نحو (٧) مرات، ربما أراد أن يجعل من الكلمة/ لبنان محورًا رئيسيًا تدور حوله القصيدة، أو ربما أراد أن يلفت نظر المتلقي إليها، وربما أراد وصف الحالة الداخلية للبنان، فهي (سنبلة/ وقنبلة)، وربما أراد القول أن تلك

(١) معين بسيسو، بين السنبلة والقنبلة، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

المعارك لم تأخذ من لبنان شيئًا، فهي كما هي (تطحن، وتعجن، وتطعم)، و(تكتب، وترسم)، وربما .... إلخ.

وربما يأخذ تكرار الكلمة شكلاً آخر يمكننا تسميته التكرار الاشتقاقي، من ذلك – مثلاً – قول علي فودة:

أنت الجرح، وأنت السكين

وأنا القاتل، والمقتول

من قاتلنا أيتها الوردة؟

قاتلنا كان المجهول!!

يلاحظ تكرار كلمة (القتل) نحو أربع مرات، لكن باشتقاقات مختلفة، فكأن الأصل واحد، إيماءً منه للقاتل العربي، والمقتول أيضًا هو القاتل نفسه (العربي)، فالعربي إذن هو القاتل، والقتيل (الفاعل والمفعول)، ومن ثم تكررت الكلمة باشتقاقات مختلفة تبعًا لحالة العربي حينما يكون قاتلاً، وحينما يكون مقتولاً!!!

وربما يكون المكرر في النص الشعري جملة كاملة، وربما تكون الجملة بنصِّها وربما تتغير قليلاً، من ذلك – مثلاً – قول نزار قباني:

فاعذريني.. إن تأخرت عن الوعد قليلا..

فلقد كان وصولي مستحيلا..

وبريدي مستحيلا..

إن آلاف الحواجز

وقفت ما بين عينيك.. وبيني..

أطلقوا النار على الحلم فأردوه قتيلا..

أطلقوا النار على الحب فأردوه قتيلا..

أطلقوا النار على البحر، على الشمس، على الزرع،

على كتب الأطفال، قصوا شعر بيروت الطويلا..[1]

يلاحظ تكرار جملة «أطلقوا النار على (....) فأردوه قتيلاً»، ويلاحظ أن المتغير (الحلم/ الحب)، وهما من الأشياء المعنوية، وكأن الأعداء لم يكتفوا بموت المناضلين إنما تعدوا إلى اغتيال المعنويات.. وإيماء إلى الوحشية، فقد تعمدت هذه القوى الغاشمة في إطلاق النار على (البحر/ الشمس)، وهما أساس الحياة على الأرض. ربما أراد الشاعر أن يوجه نظرنا إلى أن كل ما في الوجود هو محل اغتيال من إسرائيل (حلم/ حب/ بحر/ شمس/ زرع/ كتب الأطفال...).

وفي قصيدة أخرى بالديوان نفسه يقول:

ووقفنا ضد كل القاتلين

وبقينا مع لبنان سهولا.. وجبالا..

وبقينا مع لبنان جنوبًا.. وشمالا..

وبقينا مع لبنان صليبا.. وهلالا[2]

لاحظ نزار حالة التوحد التي كان عليها قليل من العرب، فكانوا مع (لبنان) التاريخ لا مجال لطائفية، لا مجال لعنصر المكان أمام الحرب، فالكل سواء بسواء، ولذا ينبغي أن نكون مع السهل والجبل، مع الجنوبيين ومع الشماليين، مع المسلمين والنصارى، فالكل في مواجهة الآلة العسكرية مهدد ومحاصر.

وقد يأخذ التكرار شكلاً آخر، وهو تكرار مقطع كامل داخل القصيدة، والحقُّ أو هذا النوع أقل الأنواع السابقة وجودًا في النص الشعري.

وتكرار المقطع يجعلنا أمام نص دائري، بدايته تشبه نهايته، كأنها حلقة ندور فيها فلا نعرف الخروج من جدرانها، ويمثل ذلك قول عز الدين المناصرة في قصيدته «بالأخضر كفناه» يقول:

بالأخضر كفناه

بالأحمر كفناه

---

(١) نزار قباني، إلى بيروت الأنثى مع حبي، مصدر سابق، ص ٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٦.

بالأبيض كفناه

بالأسود كفناه

نزف المطر على شجر الأرز لذكراه

وعلى الأكتاف حملناه(١)

كرر الشاعر الأربعة الأسطر الأولى نحو أربع مرات في القصيدة، في صدرها مرة، وفي نهايتها مرة أخرى، والثالثة والرابعة في ثنايا القصيدة.

وتخيُّر الشاعر للألوان (الأخضر/ الأحمر/ الأبيض/ الأسود) له دلالة، هي نفسها الألوان التي يتزين بها العلم الفلسطيني، وكأن آخر ما يمس جلد شهدائنا هو العلم الفلسطيني، وهو أيضًا ثيابهم الأبدي، وبه يلاقون الله (عز وجل) يوم الحساب، وهو أيضًا - العلم - يواري سوأة الناس وعوراتهم في وقت عزَّ فيه من يواري السوءات!!

وتكرار المقطع السابق في بداية القصيدة وفي نهايتها له دلالة أن علم البلاد حيّ في قلوبنا منذ الميلاد، وحتى الوفاة، وهو آخر ما نخرج به من دنيانا الرديئة.

وهناك أنماط أخرى للتكرار نذكر منها تكرار التركيب، أي تكرار تركيب نحوي معين، مثال ذلك قول عز الدين المناصرة:

كان خليليا من «صيدون»

حلبيا من «حبرون»

بصريا من «عمَّان»

وصعيديا من «بغداد»

كان جليليا من «حوران»

كان رباطيا من «وهران»

مطر في العينين وتحت القلب دفناه

عشب في الرمل، وفوق القلب رخام

---

(١) عز الدين المناصرة، الأعمال الشعرية، مصدر سابق، ص ٢٧٣.

بالأخضر كفناه

بالأحمر كفناه

والبدوية تنتظر حبيبًا سيزور الشام[1]

يلاحظ في المقطع السابق تكرار التركيب اللغوي للجملة على النحو التالي:

في الأسطر الستة الأولى: (كان) + خبرها منصوب (وهو في حقيقته منسوب لبلد عربي «الخليل/ حلب/ البصرة/ الصعيد/ الجليل/ الرباط») + حرف الجر (من) + اسم لمدينة عربية «صيدون/ حبرون/ عمَّان/ بغداد/ حوران/ وهران».. وعلى هذا فالتركيب على النحو التالي:

كان + خبرها + من + اسم مدينة

لكن يلاحظ تداخل المدن «خليليا من صيدون».... إلخ، إيماء من الشاعر إلى أن الفدائي العربي هو ابن مخلص لكل الوطن العربي، فهو ينسب لكل المدن، وإن كانت هويته تنسب لمدينة بعينها، فهو صعيدي من بغداد أو رباطي من وهران.... إلخ.

ثم يأتي التركيب الآخر في السطرين السابع والثامن، وهما على النحو التالي:

خبر لمبتدأ محذوف «نكرة» (مطر/ عشب) + جار ومجرور (في العينين/ في الرمل) مع تثبيت حرف الجر (في) + أداة عطف «و» + ظرف مكان + مضاف إليه «القلب».

والمتأمل في هذا اللون من التكرار يلحظ أن الشاعر يقصد به الإيقاع في المقام الأول، إذ تبقى الناحية الدلالية في هامش النص لا في متنه، ومما تجدر الإشارة إليه أن الإيقاع هو أحد الأركان الرئيسة في القصيدة الشعرية، وهو هدف سام يسعى الشاعر لتحقيقه، ويسعى المتلقي لالتقاطه، وهو ما يجعل الفن الشعري واحد من أهم الفنون التي يسعى الناس إليها ويطربون لسماعها، ويتأثرون بصورها وإيقاعها فضلاً عن أحاسيسها وانفعالاتها.

$ $ $

المتأمل في شعر المأساة من الناحية الإيقاعية يلاحظ أن معظم هذه القصائد على الأوزان العروضية المعروفة، فالذين استخدموا الصوت الكلاسيكي أو الشعر العمودي أكثروا من استخدام أوزان بحور: الطويل، والبسيط، والكامل، والوافر، والخفيف، والذين

---

(١) المصدر نفسه: ص ٢٧٤.

استخدموا الشعر التفعيلي أكثروا من ركوب الأوزان الصافية، كالمتدارك، والمتقارب، والكامل، والرمل، والرجز. ولم نعثر عند أي منهم على نماذج شعرية جاءت على الأوزان المهجورة كالمضارع، والمقتضب أو حتى السريع، والمديد.

والملاحظ أن أصحاب شعر التفعيلة استفادوا كثيرًا من تسكين أواخر الأسطر في قصائدهم، وكأن السكون أنقذ الكثيرين منهم من كسر الأوزان، وأتاح لهم المجال واسعًا للتعبير عن آرائهم ونظم معانيهم، وتشكيل صورهم الشعرية. ويكفي أن نذكر - مثلاً - أن الشاعر معين بسيسو كتب قصيدة «ارفعوا الأيدي عن أيدي القناة» في حوالي مائتين وخمسين سطرًا شعريًا سكَّن أواخرها كلها. ولا نستطيع أن نجازف ونقول: إن تسكين أواخر الأسطر يوحي بالرزانة، وربما بالحزن والشجن كما في تسكين قوافي الشعر العمودي.

هذا وقد وجد اضطراب الأوزان في بعض الأحيان، وكذلك الانتقال من بحر إلى آخر في القصيدة الواحدة نفسها، ولا ندري هل كان متعمدًا ومقصودًا؟ أم أنهم لم يفطنوا إليه، وركزوا فقط على ما يريدون قوله من المعاني الشريفة والصور البديعة؟

من هذا الاضطراب - مثلاً - قول ناجي علوش:

رأيت وجهك المضيء بالإصرار

يستنبت الأشجار والأزهار في القفار

ويطلع الزنابق

رأيته يفيض بالخضرة في الحدائق

ويمنح البراعم الصغار

فالوزن الغالب على هذه الأسطر هو: «مستفعلن» من الرجز، لكننا نجد آخر السطر الأول، وقد صارت «مفاعيلن»، وآخر السطر الرابع صارت «فعولْ».. وهكذا.

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر محمد شديد:

حـــينمـــا هـب على أوطانه	يصـرع الهـول ويصطاد المخـاطر
يعـصف الجـرح بجـرح فـوقـه	وهو غـاد لا يهاب لظى السـواعر

فالوزن في البيت الثاني هو: فاعلاتن/ فعلاتن/ فاعلا.

أما الشطر الثاني فهو: فاعلاتن/ فاعلن/ متفاعلاتن «متفاعلن مرفّل»!!

وهذا غير جائز في الشعر العمودي.

ولكن ينبغي ملاحظة أن هذه الهنات ليست كثيرة، ولا مطردة في شعر المأساة لتكون ظاهرة تدرس، بل هي من قبيل الشاذ الذي يؤكد القاعدة الصحيحة.

* * *

الخاتمة

احتلت مأساة «لبنان»، وحروبها الأهلية، والاجتياحات الإسرائيلية المتكررة عليها، وكذلك المذابح الدامية لسكان المخيمات في لبنان، كمذبحة «صبرا»، و«شاتيلا»، و«قانا»، وكذلك حرب الجنوب اللبناني مع إسرائيل في صيف ٢٠٠٦م.. كل هذه الأحداث وغيرها احتلت في نفس العربي مكانة مهمة، الأمر الذي جعل الشعراء يجأرون بالشكوى مرة للحكام العرب، ومرة منهم، ومرة للمجتمع الدولي، وأخرى منه.

ويمكن القول بأن الشعر العربي - ما زال - ديوان العرب، فيه تُسَجل الأحداث والوقائع، ومنه نقرأ بعضًا من التاريخ غير المكتوب أو التاريخ المسكوت عنه.. وما زال الشعر يمثل صوت الأمة، وصرختها العالية في وجه الصمت والاستسلام.

ومن خلال قراءتنا للشعر الذي استلهم «مأساة لبنان» يمكننا أن نؤكد على عدد من الأشياء نذكر منها:

* مثلت «مأساة لبنان» همًّا إنسانيًا وبُعدًا قوميًا، الأمر الذي وضح من خلال تناول - الشعر العربي - من مختلف الأقطار العربية لهذه المأساة، فقد رصد الشعراء المأساة بقصائدهم، وسجَّلوا أحداثها ووقائعها وشخوصها وأماكنها، فكان «الشعر» سجلاً أمينًا لها.

* عملت مأساة لبنان على توحد الاتجاهات، فقد ذابت الاتجاهات المختلفة (القومي - الإسلامي - السياسي - الشيوعي...)، وأصبح الهدف واحدًا هو مقاومة الآلة الإسرائيلية، ورصد الأحداث وتصويرها، وإن كان لكل وجهة نظر مغايرة، ولكن تبقى القصيدة وهدفها واحد في كل الاتجاهات.

* خلَّد شعر المأساة أبطالاً، ضحوا بأنفسهم من أجل القضية العربية، فنجد أسماء

كثيرة، منهم: نزيه القبر صلى - ابتسام حرب، سناء محيدلي - إيفا - سعد صايل... وعلى الجانب الآخر خلّدت أسماء لمجرمي الحروب وسفاكي الدماء أمثال: شارون وبيجن... وغيرهم.

* كما خلّد الشعر أسماء المدن والقرى اللبنانية التي وقفت مناضلة في وجه الآلة العسكرية الإسرائيلية دون خوف، من ذلك - مثلاً - صبرا - شاتيلا - قانا - تل الزعتر، الشقيف - صيدا - صور - نهر البارد.

* ربط الشعراء بين مأساة لبنان، وبين نكبة فلسطين، فالنكبتان فادحتان لأمتنا العربية والإسلامية، وهما يمثلان لب القضايا في منطقة الشرق الأوسط، ولا حل لهما إلا بالتوحد في مواجهة خطر الصهيونية العالمية.

* أعطت المأساة زخمًا كبيرًا للقصيدة، فكانت القصيدة العمودية، وكانت قصيدة التفعيلة، تتباريان في تصوير المأساة، الأمر الذي جعل لدينا دواوين كاملة تحمل اسم بيروت أو لبنان، مثل ديوان «سيرة بيروت» لحلمي سالم، و«لبنان ودم الجنوب» لأحمد قدورة، و«محنة الشقيقتين - فلسطين ولبنان» لجابر الحاج، و«إلى بيروت الأنثى مع حبي» نزار قباني، و«إلى بيروت مع تحياتي» بلند الحيدري، و«لبنان والنواحي الأخرى» لمحمد الفايز... وغيرها من الدواوين.

على الرغم من الزخم الشعري بمختلف اتجاهاته وأشكاله، فإن الموجات المتأخرة من مشروع الحداثة العربية لم تلتفت إلى هذه المأساة ولم تعبر عنها، وأن ما يُسمى - خطأ - بقصيدة النثر لم تلق بالاً لهذه المأساة، ولم تصور وقائعها وأحداثها، الأمر الذي يدل على أن تيارات الحداثة العربية، تيارات موجهة الأهداف والأفكار، فلم تلتفت إلى قضايا الأمة العربية وأخص مشكلاتها، كما أنها تتجاهل مشاعر المواطن العربي وأحاسيسه، فلم تدافع عن قضاياه، الأمر الذي أدى إلى القطيعة بينهم وبين متذوقي الأدب عامة والشعر خاصة.

* * *

المصادر والمراجع

أولاً - القرآن الكريم

الكتاب المقدس.

ثانيًا - المصادر «الدواوين الشعرية»:

١ - إبراهيم الخطيب: غن لي غدى، دار الجاحظ، عمان، ط١، ١٩٨٤م.

٢ - إبراهيم عيسى: الأعمال الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠١م.

٣ - إبراهيم نصر الله: المطر في الداخل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

● الخيول على مشارف المدينة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١.

٤ - أبو سرور حميد بن عبد الله: على أيكة الملتقى، القاهرة، ١٩٧٨م.

● باقات الأدب، القاهرة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٥ - أبو فراس النطافي: رحيق العذاب، الأردن، ١٩٨٢م.

٦ - أحمد بوبس: بيروت، موسم النزيف، دار الجليل للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.

٧ - أحمد دحبور: اختلاط الليل والنهار، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م.

٨ - أحمد الريماوي: هلت من صبرا عشتار، مطبعة الكرمل، مخيم اليرموك، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.

٩ - أحمد سالم باعطب: الروض الملتهب، النادي الأدبي، الرياض، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٠ - أحمد قدوره: لبنان ودم الجنوب، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ط١،

١٩٨٥م.

١١ - أحمد المصلح: تجليات فاطمة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

١٢ - أحمد مطر: لافتات، مطابع دار القبس، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.

● الأعمال الكاملة، الدار المصرية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م.

١٣ - أدونيس (علي أحمد سعيد): كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت.

١٤ - باسم النادي: دخان البيوت، دار الصمود العربي للطباعة والنشر، نيقوسيا، قبرص، ١٩٨٥م.

١٥ - جابر الحاج: محنة الشقيقتين (فلسطين/ لبنان)، القاهرة، ١٩٨٤م.

١٦ - حسن توفيق: الأعمال الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

١٧ - حسن السوسي: الجسور، الدار الجماهيرية للنشر، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٨م.

● ليالي الصيف، دار الكتاب الليبي، ط١، ١٩٧٠م.

١٨ - حسن طلب: قصائد البنفسج والزبرجد، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، ٢٠٠٢م.

١٩ - حسن فتح الباب: العصافير تنفض أغلالها، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠١م.

● شجرة ورد خلف الشط الآخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٢٠ - حسن علي محمد عثمان: عبير الوفاء، سلسلة آفاق أدبية (٢٤)، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٢١ - داود معلا: الطريق إلى القدس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٤م.

٢٢ - راتب حمود نصر الله: الأرز يحرق ثوبه، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

٢٣ - راشد الزبير: نشرة الأخبار، الدار الجماهيرية، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٩٨م.

● همس الشفاة، الدار الجماهيرية، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٩٩م.

٢٤ - سعد دعبيس: عندما يخضوضر الأطفال قدسًا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٦م.

٢٥ - سعيد المزين: العرس القاني، لجنة القدس، القاهرة، ١٩٨٦م.

● سفر السيف، لجنة القدس، القاهرة، ١٩٨٥م.

٢٦ - سميح القاسم: الأعمال الكاملة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م.

● شخص غير مرغوب فيه، دار الجليل للنشر، ط١، ١٩٨٦م.

● في سربية الصحراء، دار الجليل للنشر، ط١، ١٩٨٥م.

٢٧ - سهير فودة: الكلام في السياسة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧م.

٢٨ - شاكر لعيبي: استغاثات، دار الجليل، رابطة الكتاب والصحافيين والفنانين العراقيين، ط١، ١٩٨٤م.

٢٩ - شوقي العمري: القمر كان يبكي، دار القدس، بيروت.

٣٠ - صابر عبد الدايم: العاشق والنهر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م.

٣١ - صالح هواري: بطيئًا يمرُّ الدخان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.

٣٢ - صخر حبش: الحب في زمن الحرب، الإعلام الموحد الفلسطيني (فلسطين الثورة)، بيروت، ١٩٧٨م.

٣٣ - عارف الخاجه: بيروت وجمرة العقبة، مطابع دار الطليعة، الكويت.

٣٤ - عبد البديع عراق: إبداع الحجر، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.

٣٥ - عبد الرحمن صالح العشماوي: إلى أمتى، مطابع النهضة، الرياض، ط٢، ١٤٠٠هـ.

٣٦ - عبد العزيز المقالح: أوراق الجسد العائد من الموت، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٣٧ - عبد العليم عيسى: للحياة أغنى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٣٨ - عبد الله البردوني: الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

٣٩ - عبد الله شرف: سلسلة أدباء القرن العشرين (٨) الأعمال الشعرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.

٤٠ - عبد الله عبد الرزاق: تأملات، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٩٨٣م.

٤١ - عبد المولى البغدادي: على جناح نورس، طرابلس، ط١، ١٩٩٩م.

٤٢ - عبد الناصر صالح: المجد ينحني أمامكم، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، ١٩٨٩م.

٤٣ - عبد الولي الشميري: ديوان أوتار، مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب والفنون، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٣م.

٤٤ - عثمان بن سيار: خمسة أبيات، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٧م.

٤٥ - عدنان البرازي: عشق العيون العربية، القاهرة، ٢٠٠٩م.

- يا شمسنا عودي، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٤٦ - عز الدين المناصرة: الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.

٤٧ - عصام ترشحاني: حرب السنبلة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٤م.

- يوميات الوردة المحاصرة، منشورات اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، ١٩٨٣م.

٤٨ - عصام العريضي: ثلوج، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٤٩ - عيسى الناروتي: خلجات إنسان، الدار الجماهيرية، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٨٠م.

٥٠ - فاروق جويدة: أعاتب فيك عمري، دار غريب، القاهرة.

- ألف وجه للقمر، دار غريب، القاهرة.
- لو أننا لم نفترق، دار غريب، القاهرة.
- شيء سيبقى بيننا، دار غريب، القاهرة.
- الأعمال الشعرية الكاملة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

٥١ - فاروق شوشه: الأعمال الشعرية الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٥٢ - كامل أمين: النور الأخضر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٨٠م.

٥٣ - لطفي عبد اللطيف: قليل من التعري، الدار الجماهيرية للنشر، طرابلس، ليبيا، ١٩٩٩م.

٥٤ – ماجد الشيخ: أجراس المتاريس، شركة كاظمة للترجمة والنشر والتوزيع، الكويت.
٥٥ – مانع سعيد العتيبه: محطات على طريق العمر، مطابع الفجر التجارية، أبو ظبي، ١٩٨٦م.
٥٦ – محمد أحمد القابسي: البحر في كاس، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ط١، ١٩٧٧م.
٥٧ – محمد بشير السوكني: تتفس في الهواء الطلق، الدار الجماهيرية للنشر، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٨٦م.
٥٨ – محمد حذيفي: ليل المشاعر، دار مجلة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.
٥٩ – محمد بن سعيد الدبل: معاناة شاعر، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ.
٦٠ – محمد شريف الشيباني: أعراس الضحايا، مؤسسة الموسوعة الخليجية، الأمارات المتحدة.
٦١ – محمد الظاهر: قصائد لأطفال الآر. بي. جي، دار الكرمل للنشر، ط١، ١٩٨٤م.
٦٢ – محمد عبده غانم: الموجة السادسة، دار آزال للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
٦٣ – محمد علي مقدادي: أوجاع في منتجع الهم، مطبعة الحرية، أربد، ١٩٨٤م.
٦٤ – محمد عمر بعيو: أول الغيث قصيدة، شركة المختار، ليبيا، ط١، ٢٠٠١م.
٦٥ – محمد الغلوي: نشيد فلسطين، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
٦٦ – محمد الفايز: تسقط الحرب، المركز العربي للإعلام، الكويت، ط١، ١٩٨٩م.
٦٧ – محمد الفيتوري: الأعمال الشعرية الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
٦٨ – محمد القيسي: كم يلزم من موت لنكون معًا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٤م.
٦٩ – محمد يونس: لم يبق غير النار، ملتقى الوعد الأدبي، اللجنة العربية لمساندة

المقاومة الإسلامية في لبنان، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٧٠ - محمود درويش: حصار لمدائح البحر، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
● مديح الظل العالي، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
● الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٧م.
٧١ - محمود خليل: سبع سنابل، القاهرة، ط١ (د. ت).
٧٢ - محمود علي السعيد: سلامًا أيتها الزرقة المسلحة بالبحر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢م.
٧٣ - محيي الدين عبد الوهاب: تل الزعتر: أغنية للحياة في الموت، الدار التونسية للنشر، ط١، ١٩٧٨م.
٧٤ - مريد البرغوثي: طال الشتات، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٧٥ - مصطفى بهجت بدوي: ضراعة في قلب عربي، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩١م.
٧٦ - مصطفى الصيفي: قنابل للسفر الطويل، المطبعة الاقتصادي، عمان، ط١، ١٩٧٨م.
٧٧ - مظفر النواب: الأعمال الشعرية الكاملة، دار قنبر، لندن، ١٩٩٦م.
٧٨ - معين بسيسو: الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.
٧٩ - ممدوح عدوان: أمي تطارد قاتلها، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
٨٠ - المنجي سرحان: وعائد إليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.
٨١ - ناصر جبران: ماذا لو تركوا الخيل تمضي، منشورات المجلس اللبناني الجنوبي، واللجنة الدائمة لمناصرة المقاومة الوطنية اللبنانية، الإمارات العربية المتحدة.
٨٢ - نزار قباني: إلى بيروت الأنثى مع حبي، منشورات نزار قباني، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.
٨٣ - هارون هاشم رشيد: النقش في الظلام، دار الكرمل للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٣م.
٨٤ - هدى ميقاتي: هكذا يغني طائر الأرز (مختارات شعرية) اختيار وتقديم: إسماعيل عقاب، سلسلة آفاق عربية الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٨٥ - هشام الدمرجي: مرافئ الحزن، شركة فنون للطبع، تونس (د. ت).

٨٦ – وحيد حامد الدهشان: في انتظار الفجر، سلسلة آفاق أدبية (٢٣) القاهرة، ٢٠٠٨م.

- القدس في القلب، شروق للتجارة والنشر، المنصورة، ٢٠٠١م.
- نحن الشهادة عشقنا، كتاب الوعد (٣)، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٨٧ – الورداني ناصف: همسات الورد، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

٨٨ – وليد منير: قمر على الجنوب، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، ١٩٩٦م.

٨٩ – يوسف طافش: تراتيل الرماد، دار الجليل للطباعة، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.

ثالثًا - دواوين وقصائد مخطوطة:

١ – حسن فتح الباب: (قصيدة: عروس الجنوب).

٢ – رشاد محمد يوسف: (ديوان: وإسلاماه).

٣ – عاطف الجندي (قصيدة: حزب الله).

٤ – محبوبة هارون (قصيدة: وفي الظلماء يفتقد الضياء).

٥ – محمد سليم الدسوقي (ديوان: يا خيل الله اركبي).

٦ – هشام محمود (قصيدة: لا جرح إلا الوطن).

رابعًا - المراجع الأدبية:

١ – إبراهيم أبو زيد: طرفة بن العبد، ديوانه وشرحه، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٢ – إبراهيم محمد الوحش: مأساة بيروت في الشعر العربي المعاصر، دراسة تحليلية – نقدية، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٢م.

٣ – أحمد علم الدين الجندي: اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٤ – أنس داود: الأسطورة في الشعر العربي الحديث، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع، ليبيا.

٥ – أبو تمام: ديوان الحماسة، تحقيق: عبد المنعم أحمد صالح، سلسلة الذخائر (٤)،

الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٦م.
٦ - صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر، دار العودة، بيروت، ١٩٦٩م.
٧ - ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة (د. ت).
٨ - فتح الرحمن حسن التني: مختارات من الشعر السوداني المعاصر، المطبعة العصرية، دبي، ١٩٩٠م.
٩ - عبد الرحمن ياغي: أبعاد العملية الأدبية، رابطة الكتاب الأردنيين، عمان، ١٩٧٩م.
١٠ - عبد الله سالم مليطان: متى بيروت تبتسم، دار مداد، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٧م.
١١ - عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط٥، ١٩٩٤م.
١٢ - علي البطل: الصورة الفنية في الشعر العربي حتى أواخر القرن ٢هـ، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١م.
١٣ - عمر فاروق الطباع: ديوان النابغة الذبياني، دار القلم، بيروت.
١٤ - محمد سالمان: الإيقاع في شعر الحداثة في مصر، دار العلم والإيمان، دسوق، ٢٠٠٨م.
١٥ - محمد مفتاح: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥م.
١٦ - محمود الربيعي: في نقد الشعر، دار غريب للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م.
١٧ - مصطفى السعدني: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٧م.
١٨ - مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، مكتبة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٥٨م.
١٩ - معين بسيسو: بين السنبلة والقنبلة، كتاب لوتس، تونس، ١٩٨٦م.
٢٠ - الميداني (أبو الفضل الميداني، أحمد بن محمد): مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.

٢١ - نايف معروف: ديوان الخوارج جمع وتحقيق، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

خامسًا - مجموعات أدبية ومحاضرات:

١ - سليمان العيسى: ثمانون عامًا من الحلم والأمل، دمشق، صنعاء، ط١، ٢٠٠٠م.

٢ - محاضرات الموسم الثقافي لعام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، الإمارات العربية المتحدة، وزارة الإعلام، أبو ظبي.

٣ - المقاومة في الأدب (مجموعة كتاب) منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٥م.

٤ - مدار الأفكار، صالون غازي الدين عوض الله، الكتاب الخامس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

سادسًا - المعاجم والقواميس:

١ - بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٥م.

٢ - فردريك معتوق: معجم الحروب، جروس برس، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٣ - ماكس شابيرر وآخرون: معجم الأساطير، ترجمة: حنا عبود، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٩م.

٤ - هنري. سي. عبود: معجم الحضارات السامية، جروس برس، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٥ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

سابعًا - المراجع التاريخية والسياسية:

١ - أنيس صايغ: لبنان الطائفي، بيروت، ط١، ١٩٥٥م.

٢ - جورج حبش: الجراح تشهد، مذكرات طبيب في الحصار، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.

٣ - جورج سكاف: حقائق لبنانية، بيروت، ط١، ١٩٦٠م.

٤ - جورج حنا: العقيدة اللبنانية، بيروت، ط١، ١٩٥٧م.

٥ - حمدي الطاهري: سياسة الحكم في لبنان، القاهرة، ط١، ١٩٧٦م.
٦ - سعدون حسين: أنصار ٣٣، مؤسسة الرؤى للطباعة والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
٧ - طارق الكركيت: التازيون الجدد، يوميات العدوان الإسرائيلي على لبنان (١١/ ٤ - ٢٦/ ٤/ ١٩٩٦م)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
٨ - عبده عويدات: النظم الدستورية، بيروت، ط١ (د. ت).
٩ - عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٠م.
١٠ - غازي السعدي: الحرب الفلسطينية - الإسرائيلية في لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
١١ - فطين أحمد فريد: حروب لبنان، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م.
١٢ - كمال جنبلاط: في مجرى السياسة اللبنانية، بيروت، ط١، ١٩٥٩م.
١٣ - كمال يوسف الحاج: فلسفة الميثاق الوطني، بيروت، ط١، ١٩٦١م.
١٤ - محفوظ عبد العال: الدروز في إسرائيل، القاهرة ط١، ١٩٩٣م.
١٥ - مرفت أسعد عطا الله: العلاقات بين مصر ولبنان في عهد محمد علي، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
١٦ - معن بشور: بيروت من زمن الحصار إلى الانتفاضة، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
١٧ - نزيه أبو نضال: في مواجهة عقلية التسوية، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
١٨ - هاني مندس: العمل والعمال في المخيم الفلسطيني، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، ١٩٧٤م.
● طريق تل الزعتر، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت (د. ت).
١٩ - يوسف السودة: بين الوطنية والطائفية، بيروت (د. ت).

ثامنًا - المراجع المترجمة:

١ - أرسطو طاليس: فن الشعر، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية،

القاهرة، ١٩٥٣م.
٢ - أرشيبالد مكليش: الشعر والتجربة، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة آفاق الترجمة، عدد ١١، القاهرة، ١٩٩٦م.
٣ - بيير روندو: الطوائف في الدولة اللبنانية، تقديم: إلياس عبود، مؤسسة دار الكتاب الحديث، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
٤ - توني كليفتون، وكاترين ليروي: من تل الزعتر إلى صبرا وشاتيلا، ترجمة: رشيد أبو غيدا، الدار العربية للتوزيع والنشر، عمان، الأردن (د. ت).
٥ - روزي ماري صايغ: الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، ترجمة: خالد عايد، تقديم: إبراهيم أبو لغد، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
٦ - رومان ياكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الوالي، ومبارك حنون، دار توبقال، المغرب، ط١، ١٩٨٨م.
٧ - زئيف شيف، وأهود يعاري، ويعقوب يتمدمان: لبنان آخر وأطول حروب إسرائيل، ترجمة: علي حداد، شركة المطبوعات الشرقية، دار المروج، ط١، ١٩٨٥م.

تاسعًا - التقارير السياسية:

١ - أبحاث في التنظيم الإداري، الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية، بيروت، ١٩٥٩م.
٢ - الاجتياح الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢م، دراسة سياسية وعسكرية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
٣ - التقرير السياسي، مركز الخليج للدراسات العربية، السنة (٣) عدد (٢).
٤ - تقرير صادر عن الجمعية اللبنانية لحقوق الإنسان، بيروت، ٢٠٠٦م.
٥ - جرائم إسرائيل بحق الأسرى والمعتقلين، منشورات وزارة الإعلام اللبنانية، ٢٠٠١م.
٦ - الجنوب اللبناني ١٩٤٨ - ١٩٨٦م، حقائق وأرقام، وزارة الإعلام اللبنانية، بيروت.
٧ - حرب الأيام السبعة على لبنان (عملية تصفية الحسابات ٢٥ - ٣١/ ٧/ ١٩٩٣م) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٨ - فلسطين تاريخها وقضيتها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا، قبرص، ط١، ١٩٨٣م.

٩ - النازيون الجدد ولبنان، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع، مركز الدراسات العربية والدولية، أبو ظبي، ط١، ١٩٨٢م.

عاشرًا - الدوريات:

● إبداع - الأزمنة العربية - أسرتي - الإصلاح - الأهرام.
● البلد - البيان العربي.
● الجزيرة - الجماهيرية.
● الحياة - الحياة اللندنية.
● الخليج - الخواطر.
● الرباط الأدبي.
● السفير.
● شئون أدبية - شئون فلسطينية - الشراع.
● صوت فلسطين.
● الفصول الأربعة - فكر - فلسطين الثورة - فلسطين المحتلة.
● القاهرة.
● الكفاح العربي - كل العرب.
● المجلة - المستقبل - منبر الشرق.
● النهار.
● هارتس (الإسرائيلية) - الهلال.

الفهرست

* * *